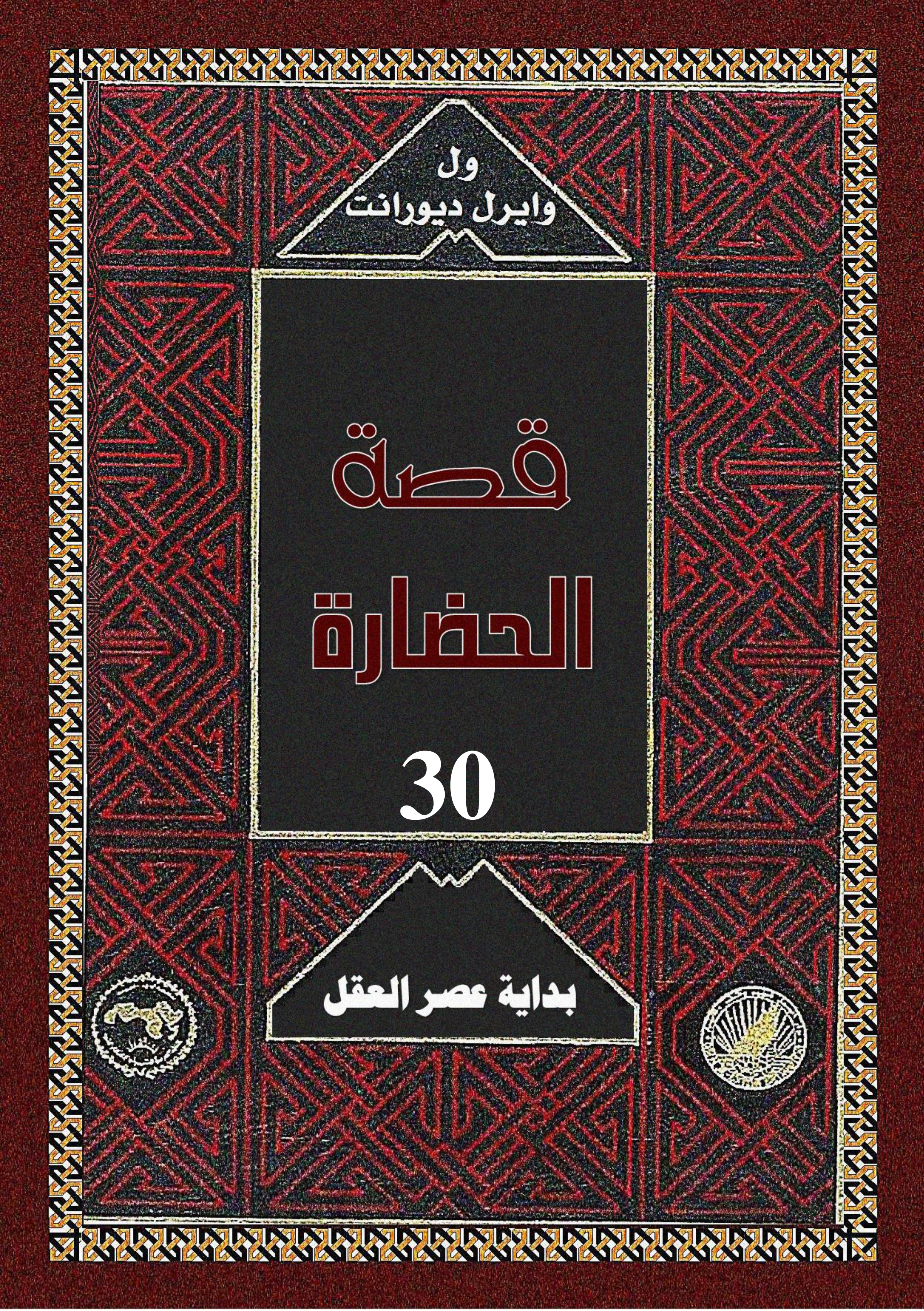
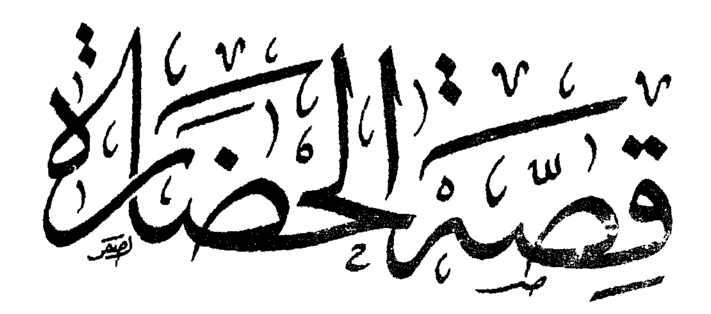

ول
وايرل ديورانت
قصة
الحضارة
30
بداية عصر العقل



ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

ترجمة
محمد علي أبو درة

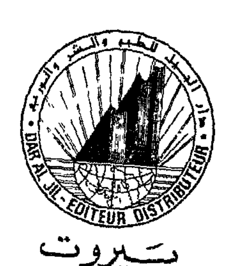
مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد السابع





تونس



بيروت

فهرس الجزء الثالث من المجلد السابع

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس الصور

الفصل السابع عشر

ثورة الأراضى الوطيئة

١٥٥٥ — ١٦٤٨

١ — مسرح الأحداث

فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٥٥٥ نقل الأمبراطور شارل الخامس مقاليد الحكم فى الأراضى الوطيئة إلى ابنه فيليب ، وفى السادس والعشرين ، وأمام الجمعية التشريعية فى بروكسل ، تلقى فيليب أيمان الولاء ، وأقسم بدوره أن يحافظ على حقوق المقاطعات السبع عشرة وإمتيازاتها ، وفق ماتقضى به التقاليد والمعاهدة والقانون ولقد هيأت هذه العهود والمواثيق المتبادلة المسرح لاحدى المسرحيات الكبرى فى تاريخ الحرية .

وكان المشهد معقدا . كانت الأراضى الوطيئة آنذاك تضم بلجيكا الحالية ومملكة هولنده القائمة الآن . ولم تكن الهولندية — وهى أصلا إحدى اللهجات الألمانية السائدة فى وهاد شمال ألمانيا والأراضى الوطيئة — هى اللغة التى تتحدث بها المقاطعات السبع الشمالية (وهى هولنده ، زيلنده ، أوترخت ، فريزلند ، جرونننجن ، أو فريجسل . جلدرلند ، فحسب ، بل كانت كذلك لغة أربع مقاطعات أخرى (هى فلاندرز ، برابانت ، مكلين ، لمبرج) فى شمالى « بلجيكا » ، على حين كانت « الوالون » — وهى إحدى اللهجات الفرنسية — هى اللغة التى يتحدث بها الأهالى فى ست مقاطعات جنوبية (هى أرتوا ، وألون ، فلاندرز ، كمبراى ، تورنى ، اينو ، نامور) . وكانت هذه المقاطعات كلها ، بالإضافة إلى دوقية لكسمبرج المجاورة ، تحت حكم آل هبسبرج »

وكانت الكاثوليكية[1] هى ديانة الأغلبية الساحقة من الأهالى فى ١٥٥٥

ولكن — كاثوليكيتهم — كانت من النوع العطوف الموسوم بالروح الإنسانية الذى نادى به أرزم قبل ذلك بنصف قرن من الزمان ،والذى كانت تدين به رومه فى عصر النهضة بصفة عامة ، وليست من ذلك النوع الكئيب المتشدد من الكاثوليكية الذى ساد فى أسبانيا لعدة قرون كانت تحارب فيها المسلمين « الكفار » . وبعد ١٥٢٠ تسربت اللوثرية ومذهب القائلين بتجديد عماد البالغين ورفض عماد الأطفال من ألمانيا ، تسربت بعد ذلك بشكل أكبر الكلفنية من ألمانيا وسويسرا وفرنسا . وحاول شارل الخامس أن يقضى على غارات هذه المذاهب الغربية التى اقتحمت عليه كاثوليكيته ، بأدخال محاكم التفتيش البابوية أو الأسقفية،وبنشر أعلانات تتوعد بأشد العقوبة أى إنحراف خطير عن الكاثوليكية الصحيحة . ولكن قل أن نفذت هذه العقوبات بعد أن أضعف صلح باسو ١٥٥٢ من قوته . وفى روتردام ١٥٥٨ تمكن حشد من الأهالى من إنقاذ عدد من أنصار تجديد العماد من الأعدام حرقا . فجزع فيليب لتفاقم الهرطقة وجدد نشر الأعلان عن العقوبات .. وساد الخوف من أنه يعتزم إدخال محاكم التفتيش الأسبانية بكل مافيها من قسوة ونكال .

كان مذهب كلفن يلتئم كل الالتئام مع عنصر الروح التجارية « المركنتلية » فى النظام الاقتصادى وكان ثغرا أنتورب وأمستردام هما المركز الرئيسى لتجارة شمال أوربا ، وكانا ينبضان بالحياة بفضل التصدير والإستيراد والمضاربة وسائر ألوان المعاملات المالية ، حتى أن التأمين وحده عاد بأوفر الثراء على ٦٠٠ من وكلائه [٢] . وجرت فى أنهار الراين وماسى وأيسل — وشلدت ووال وليس إلى جانب مئات من القنوات — جرت فى هذه كلها مجموعة متنوعة كبيرة من سفن النقل ، وأذكت التجارة روح البراعة من المهن والصناعات فى بروكسل وغنت وايبرس وتورنى وفالنسين ونامور ومكلين وليدن وأوترخت وهارلم . ونظر رجال الأعمال الذين تحكموا فى هذه المدن بعين الأجلال والأكبار إلى الكاثوليكية على أنها ركيزة دعمتها التقاليد للاستقرار السياسى والاجتماعى والروحى ، ولكنهم لم يسيغوا سلطانها الكهنوتى بأبهته وفخامته . كما أحبوا

الدور الذى تهيئه الكلفنية لجمهور العلمانيين المتعلمين ، فى إدارة المجامع والسياسة الكلفنية . وكرهوا بصفة أخص الضرائب التى فرضتها الحكومة الأسبانية على اقتصاد الأراضى الوطيئة .

ووقع على الفلاحين أفدح الغرم وأصابوا أقل الغنم من الثورة . ذلك أن معظم الأراضى كان ملكا لذوى النفوذ والمكانة الذين كانوا أقرب شبها بأمراء الاقطاع فى ألمانيا وفرنسا ، وهؤلاء هم الذين نظموا الكفاح من أجل الإستقلال . فكان فيليب دي مونمورانسي ، كونت هورن ، يمتلك أراضى شاسعة فى المقاطعات الجنوبية . كما كان لكونت اجمونت لامورال ، ضياع واسعة فى فلاندرز ولكسمبرج ، فكان مركزه يخول له أن يطلب يد دوقة بافاريه، وحارب فى عدة حملات ببسالة فائقة حتى أصبح أثيرا لدى شارل وفيليب ، وهو الذي قاد جيش فيليب إلى النصر فى سانت كوينتن (١٥٥٧) . وأظهر فى قصره الفخم من ضروب الإسراف والكرم الباذخ ماورطه فى الدين . ونظر مثل هؤلاء الرجال، ونبلاء كثيرون آخرون أقل منهم شأنا ، نظروا فى شره ونهم إلى ثروة الكنيسة ، وسمعوا والحسد يملأ قلوبهم بالبارونات الألمان الذين أثروا بالاستيلاء على أملاكها[٣] . وإتجه تفكيرهم إلى أن الملك يحسن صنعا لو أنه اقتطع من — أملاك الكنيسة أجزاء معقولة يخصصها لقيادات عسكرية « وبذلك يخلق ، أسلحة فرسان رائعة . . . فى مكان هذه الجماعة الخاملة من الأبيقوريين المنغمسين فى ملذات الطعام والشراب والذين لاشغل لهم إلا التسبيح »[٤] .

أما أكثر كبار الملاك قدرة وكفاية وثراء فكان وليم ناسو ، أمير أورانج وكان للأسرة أملاك شاسعة فى المقاطعة الألمانية « هس ناسو » ، وفى الأراضى الواقعة حول ويزبادن ، وكذلك فى الأراضى الوطيئه ، على حين اشتق لقب الأسرة من امارة أورانج الصغيرة فى جنوب فرنسا . ولما كان وليم قد رأى النور فى دللنبرج الألمانية (١٥٣٣) فإنه نشأ على مذهب لوثر حتى بلغ الحادية عشر من عمره ، وحينئذ أنتقل إلى بروكسل وتحول إلى الكاثوليكية حتى يكون له الحق فى أملاك ابن عمه رينيه . وقد أعجب به شارل الخامس ، وزوجة من آن

دوقة أجمونت (وارثة كونت بورن) وأختاره ليكون بين كبار من شهدوا تنازله التاريخى عن العرش (١٥٥٥) وأوفده فيليب — وكان وليم آنذاك شابا غض الأهاب لم يجاوز الثانية والعشرين ، ولكنه كان يتقن الفلمنكية والألمانية و الأسبانية والفرنسية والإيطالية — بين مبعوثيه للمفاوضة فى عقد صلح كاتو — كمبرسيس ، وهناك تميز وليم بسداد الرأى وقوة الحجة وشدة الحرص فى الكلام حتى لقبه الفرنسيون « بالصامت » . وعينه فيليب عضوا فى مجلس الدولة ، وفارسا من فرسان الجزة الذهبية ، و نائبا للملك فى هولنده وزيلند وأوترخت . ولكن وليم اختط انفسه نهجا لم يغتفره له فيليب قط .

ولقد نعم الأمير الشاب اليافع بمزايا فى شخصه كما نعم بوفرة المال ، وكان فارع الطول رياضيا نحيل القوام ، سحر بفصاحته وكياسته كل الناس إلا أعداءه . وكان الاخفاق حليفه قائداً عسكريا ، أما فى مجال التدبير أو التخطيط السياسى فإن إصراره المقرون بالمرونة وشجاعته الموسومة بالثبات خلقت منه برغم نقائصه، شخصا آخر يقف فى وجه أعتى القوى السياسية والدينية فى أوربا . وساس الرجال أفضل مما قاد الجيوش ، وثبت على الأيام أن هذه موهبة أعظم . واتهمه أعداؤه بتغيير عقيدته الدينية وفق ما تقتضيه مآربه الشخصية أو السياسية(٥) . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن كل الزعماء فى هذا القرن إستخدموا الدين — أداة للسياسة (*) .

وعاب عليه الكثيرون تعدد زيجاته . فإنه عند وفاة زوجته الأولى أجرى مفاوضات للزواج من « آن » أخرى ثرية ، هى ابنة موريس أمير سكسونيا البروتستانتى ، وعقد قرانه عليها وفق الطقوس اللوثرية فى ١٥٦١ ، ولكنه لم يعلن تحوله إلى البروتستانتية إلا عام ١٥٧٣ . وأصابت آن بعض لوثة من الجنون فى ١٥٦٧ ، فاحتجزت فى معزل مع بعض الأصدقاء ليرعوها .

(*) أن الأمراء الذين أقاموا العقيدة الدينية أو تولوا حمايتها أو غيروها ، قل أن كان لديهم فى قرارة أنفسهم شيء منها ، مولتير(٦) .

وكانت لا تزال على قيد الحياة حين حصـــل وليم من خمسة من القساوسة البروتستانت على إذن بالزواج من شارلوت البوربونية ، من الأسرة المالكة الفرنسية (١٥٧٥) ، وكانت قد هربت من دير للراهبات واعتنقت مذهب الاصلاح ، وتوفيت شارلوت ١٥٨٣ . ولبس وليم الحداد عليها لمدة عام ، تزوج بعده للمرة الرابعة من لويز دى كولينى ابنة أمير البحر الذى كان قد قضى نحبه فى مذبحة سانت برثلميو . وعلى الرغم من هذه الزيجات — وربما كان بسببها — كان وليم غنيا بما لديه من أراضى ، خاوى الوفاض من المال . وفى ١٥٦٠ بلغت ديونه نحو مليون فلورين[٧] . وغلبت عليه ذات يوم نزعة إلى الاقتصاد فطرد ثمانية وعشرين من طباخيه[٨] .

وتخبط فيليب بشكل هدام فى التعامل مع النبلاء فى الأراضى الوطيئة . أن أباه الذى نشأ وترعرع فى بروكسل ، عرف هؤلاء الرجال وتكلم لغتهم وساسهم فى حزم . على حين أن فيليب ترىى فى أسبانيا فلم يتكلم الفرنسية ولا الهولندية، وعز عليه أن ينحنى لهؤلاء الأقطاب فى لباقة وسماحة ، ويحترم عاداتهم وديونهم . بل أنه عبس واستاء من أسرافهم وتبذيرهم وأدمانهم على الشراب ، وتبذلهم مع النساء ، وتهافتهم عليهن . وفوق هذا كله لم يتهمهم فيليب دعاواهم فى الحد من سلطانه . على أنهم بدورهم كرهوا منه كبرياءه الكئيب وولعه بمحاكم التفتيش وتعيينه الأسبان فى المناصب التى تدر ربحا فى الأراضى الوطيئة ، وتزويد مدنهم بحاميات أسبانية . وعندما طالب بدفع الأموال هؤلاء النبلاء ورجال الأعمال ، وهم الذين يشكلون الجمعية التشريعية ،استمعوا — عن طريق المترجمين — فى فتور إلى دعواه ودفاعه بأن والده وبأن الحروب الأخيرة قد خلفت فى الخزينة عجزا كبيرا ، وتولاهم الجزع لمطالبته بمليون وثلثمائة ألف فلورين ، وبضريبة أخرى قدرها ١ ٪ على العقارات ، و ٢ ٪ على الأموال المنقولة، ورفضوا التصديق على هذه الضرائب ، ولكنهم أقروا فقط مبالغ قدروا أنها تكفى لتغطية النفقات الجارية . وبعد ثلاث

سنوات من ذلك دعاهم إلى الاجتماع ثانية وطلب منهم ثلاثة ملايين جيلدر ، فوافقوا ، على شرط انسحاب القوات الأسبانية من الأراضى الوطيئة . فأقر هذا الشرط ، ولكنه محاما فى هذا التنازل من ترضية بالحصول على إذن من البابا بإنشاء أحدى عشرة أسقفية جديدة فى الأراضى الوطيئة ، على أن يعين فى هذه الأسقفيات رجالا يرتضون تنفيذ القوانين التى سنها والده ضد الهرطقة وعندما أبحر فيليب إلى أسبانيا فى ٢٦ أغسطس ١٥٥٩ — إلى غير رجعة إلى الأراضى الوطيئة — كانت قد تشكلت خطـــوط الصراع الاقتصادى الدينى الكبير .

٢ ـ مارجريت بارما

١٥٥٩ — ١٥٦٧

كان فيليب قد عين مرجريت دوقة بارما نائبة له . وهى ابنة شرعية لشارل الخامس من أم فلمنكية . وكانت قد نشأت وترعرعت فى الأراضى الوطيئة ، وعلى الرغم من طول مقامها فى إيطاليا ، فإنها استطاعت أن تلم بالفلمنكية . إن لم يكن بالهولندية كذلك . ولم تكن ضيقة الأفق ولا متعصبة ، ولكنها كانت كاثوليكية ورعة ، حرصت على أن تغسل فى الأسبوع المقدس من كل عام أقدام اثنتى عشرة من العذارى وتمنحهن مهور الزواج . وكانت مرجريت امرأة قديرة عطوفة ، ولكن عصفت بها بشكل مزعج رياح الثورة .

لقد حد المستشارون الذين عينهم فيليب من سلطان مرجريت . وكان أجمونت وأورنج من بين أعضاء مجلس الدوله لديها . ومذ رأى هذان العضوان أنهما ينهزمان دائماً أمام رأى الأعضاء الثلاثة الآخرين فى المجلس فإنهما امتنعا عن الحضور . وفى هذا الثالوث الناشىء برزت وسيطرت شخصية أنطوان برينو أسقف آراس . المعروف فى التاريخ باسم الكاردينال دى جرانفل . وكان رجلا كريم الخلق وفقا لفلسفته وتفكيره ، وكان ينزع ـ

كما تنزع مرجريت — إلى الوسائل السلمية فى معالجة الهرطقة ، ولكنه كان مخلصاً للكثلكة والملكية إلى حد تعذر معه أن يسيغ الانشقاق أو الخلاف الدينى . وقد غلت أيدى الكاردينال ومرجريت بإصرار فيليب على عدم اتخاذ أى إجراء هام إلا بموافقة الملك ، وكان وصول هذه الموافقة الملكية من مدريد إلى بروكسل يتطلب عدة أسابيع . وضحى الكاردينال بشعبيته فى سبيل طاعة الملك . وعارض تعدد الأسقفيات سرا، ولكنه خضع لإلحاح فيليب على أن أربع أسقفيات لا تكفى لسبع عشرة مقاطعة. ولحظت الأقلية البروتستانتية فى استياء وغضب أن الأساقفة الجدد ينشرون محاكم التفتيش البابوية ويتشددون فى إجراءاتها . وفى مارس ١٥٦٣ كتب أورانج وأجمونت وهورن — وهم أنفسهم كاثوليك — كتبوا إلى فيليب يتهمون جرانفل بانتهاك حرمة الحقوق الإقليمية التى تعهد الملك بالإبقاء عليها واحترامها ، ورأوا أن الكاردينال مسئول عن الأساقفة الجدد ، وحضوا على عزله من منصبه . ولم تستسغ مرجريت نفسها استيلاء الكاردينال على السلطة ، وتاقت إلى شىء من التراضى مع النبلاء الساخطين الذين كانوا ذوى أهمية لديها للمحافظة على النظام الاجتماعى ، وأخيرا فى سبتمبر ١٥٦٣ أوصت هى كذلك بنقل جرانفل إلى مكان آخر . وبعد مقاومة طويلة خضع الملك ، ودعا القسيس العظيم إلى التمتع بأجازة ينقطع فيهـــا عن عمله . وغادر جرانفل بروكسل فى مارس ١٥٦٤ ، ولكنه ظل واحدا من أعظم المستشارين الموثوق بهم لدى الملك . وعاد النبلاء إلى مجلس الدولة الخاص بمرجريت ، وباع بعض موظفيهم المناصب وأحكام القضاء وأوامر العفو ، ويبدو أن نائبة الملك ، مرجريت ، شاركت فى الغنائم(٩) .

وانتشرت محاكم التفتيش ، وكان فيليب يراقبها وهو فى أسبانيا ، ويشجع على استمرارها ، ويبعث إلى مرجريت بأسماء الهراطقة المشتبه فيهم . وما كاد يمر يوم دون إعدام . وفى ١٥٦١ أحرق جلين دى مولر فى أودينارد ، وأحرق توماس كولبرج فى تورنى ، وقطع أحد أنصار تجديد العماد أربا حتى

الموت بسبع ضربات من سيف عتيق صدىء ، فى حضور زوجته التى قضت نحبها فزعا من هول المنظر[١] وأثارت هذه الأعمال الوحشية حفيظة برتران ليلاس فهاجم كاتدرائية تورنى ، أثناء قداس عيد الميلاد واندفع إلى المذبح وانتزع القربان المقـــدس من يد القسيس ووطئه بقدميه ، وصاح فى جمهور المصلين « أيها الضالون ، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم ؟ » وعذب الرجل فأحرقت يده اليمنى وقدمه حتى لم يبق منهما إلا العظام ، وقطع لسانه ، وعلق فوق نار وشوى على محصل حتى لفظ أنفاسه ، وفى ليل أحرق روبرت أوجيبه وزوجته وأبناؤه لأنهم قالوا بأن عبادة القربان المقدس ليست إلا تجديفا وثنيا[١] .

أما توركيمادا [٢] الأراضى الوطيئة أول قاض للتحقيق وعضو فى محكمة التفتيش فى أسبانيا « يضرب به المثل فى القسوة والتعصب الذميم » . فهو بيتر تيتلمان الذى بلغت أعماله من التعسف والوحشية حداً اتهمه معـــه مجلس مدينة بريجز — وكله من الكاثوليك — لدى مرجريت ، بأنه متوحش انتزع الناس من بوتهم وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية ، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريده هو ، وحكم عليهم بالإعدام ، كما أن القضاة فى الفلاندز وجهوا إلى الملك فيليب كتابا مثيراً يرجون فيه وضع حد لهذه الأعمال الشائنة . وطلبت مرجريت فى شىء من الجبن إلى هذا المحقق أن يتدرع « بالحزم والاعتدال » ، ولكن الإعدام لم يتوقف . وأيد فيليب تيتلمان ، وأمر مرجريت أن تنفذ دون رحمة ولا إبطاء القرارات التى أصدرها أخيراً مجمع ترنت (١٥٦٤) . واحتج مجلس الدولة بأن عدداً من هذه القرارات انتهك حرمة الامتيازات المعترف بها للمقاطعات ، وأوقف نشرها .

---

(١) ليس لنا من مصدر لمثل هـذه الأحداث إلا المراجع البروتستانتية المقتبسة فى كتاب موتلى (قيام الجمهورية الهولندية) ١ — ص ٢٨٣ — ٢٩٠ .

(٢) Torquemada ١٤٢٠ — ١٤٩٨ راهب دومنيكانى .

وكان وليم أورانج تواقا إلى الأبقاء على الأراضى الوطيئة متحدة فى سبيل المحافظة على حرياتها السياسية التقليدية ، فاقترح انتهاج سياسة التسامح سابقة كثيراً لعصره وأوانه . فأعلن فى مجلس الدولة « أن الملك يخطىء إذا ظن أن الأراضى الوطيئة سوف تحتمل وتساند هذه المراسيم الدموية بلا حدود . ومهما كنت شديد التمسك بعقيدتى الكاثوليكية ، فانى لا أقر محاولة الأمراء أن يتحكموا فى ضمائر رعاياهم ، ورغبتهم فى أن يسلبوهم حرية العقيدة[١١] » وانضم الكاثوليك إلى البروتستانت دمغ هذه المراسيم بالظلم والطغيان[١٢] وأرسل أجمونت إلى مدريد ليلتمس التخفيف من شدة هذه المراسيم ، وعززت مرجريت هذا المطلب سراً . ووجه أساقفه ايبرس ونامور وغنت وسانت أومر ملتمسا إلى فيليب (يونية ١٥٦٥) يرجون فيه أن يخفف الملك المراسيم « وأن يوجه النصح إلى الشعب فى شىء من الرفق والحب الأبوى ، لا بالقساوة الشرعية[١٣] » ، ورد فيليب على كل هذه الاحتجاجات بأنه يؤثر أن يضحى بمائة ألف من الأرواح على أن يغير سياسته[١٤] . وفى أكتوبر ١٥٦٥ أرسل توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش :

أريد فيما يتعلق بمحكمة التفتيش أن تطبق اجراءاتها وأحكامها .... كما كان الحال من قبل ، وكما تقتضيه كل القوانين وضعية كانت أو الهية . أن هذا يقع من نفس أحسن موقع . أريد منكم أن تنفذوا أوامرى . أعدموا كل المسجونين ، ولا تتركوا لهم بعد اليوم فرصة الافلات نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة ، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فانى استبدل بهم رجالا أكثر جرأة وحماسة[١٥] .

وأذعنت مرجريت لفيليب وأصدرت أوامرها بتطبيق المراسيم تطبيقاً كاملا (١٤ نوفمبر ١٥٦٥) . وانسحب أورانج واجمونت ثانية من مجلسها . ورفض أورانج وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم : وانهالت نشرات البروتستانت واعلاناتهم التى يستنكرون فيها الاضطهاد . واشتم التجار

الأجانب رائحة الثورة فى الجو . فبدأوا ينزحون من الأراضى الوطيئة ، وأغلقت المخازن وكسدت التجارة ، وخيم شبح الموت على أنتورب وفر كثير من البروتستانت فى الأراضى الوطيئة إلى انجلترا وألمانيا . وفى انجلترا ساعدوا على النهوض بصناعات النسيج التى نافست « المقاطعات المتحدة » فى القرن السابع عشر ، وقادت الانقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر .

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذهب البروتستانتى خفية . وفى ديسمبر ١٥٦٥ اجتمع بعض هؤلاء — لويس كونت ناسو (وهو الشقيق الأصغر الشهم اوليم) ، وفيليب فان مارنكس أمير سانت ألديجوند ، وأخوه جان فان مارنكس أمير تولوز ، وهندريك كونت برد رود ، وغيرهم اجتمعوا فى قصر كولمبرخ فى بروكسل ،وحرروا «وثيقة» يستنكرون فيها إدخال محاكم التفتيش إلى الأراضى الوطيئة ، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد . وفى أبريل ١٥٦٦ سار ٤٠٠ من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت وقدموا لها «ملتمسا» بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم فى الأراضى الوطيئة، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك . وأجابت مرجريت بأنها سترسل ظلامتهم إلى الملك ، ولكن ليس من سلطتها أن توقف المراسيم ، وأنها ستبذل كل ما فى مقدورها للتخفيف من مفعولها . ولما رأى أحد أعضاء مجلسها شدة فزعها من عدد مقدمى الظلامة وقوة عزيمتهم طمأنها بقوله « عجبا ياسيدتى » هل تخشين ياصاحبة العظمة المتسولين ؟ وتقبل المتحالفون هذا اللقب تحديا . وارتدى كثير منهم البدلة الرمادية الخشنة، وحملوا الحقيبة والطاس اللذين تميز بهما المتسولين آنذاك . وأصبحت عبارة « فليحى المتسولين » صيحة الحرب فى الثورة . ولمدة عام كان هؤلاء النبلاء الصغار هم الذين قادوا الثورة وأذكوا نارها .

وأبلغت مرجريت نبأ « الملتمس » إلى فيليب ، كما أبلغته ما يلقاه من تأييد شعبي كبير . وجدت مساعيها لحمله على الاعتدال ، فكان جوابه يحمل فى

الظاهر معنى الترضية (٦ مايو ١٥٦٦) ، وعبر عن أمله فى إمكان قمع الهرطقة دون أراقة مزيد من الدماء ، ووعد بزيارة الأراضى الوطيئة فى موعد قريب وأرسل إليه مجلس الدولة فلورنت مونمورنس . والبارون مونتينى ، ومركيز برحون ، لتعزيز رجاء مرجريت . فأستقبلهم فيليب استقبالا حسنا . وفى ٣١ يوليه كتب إليها بموافقته على إلغاء محاكم التفتيش الأسقفية فى الأراضى الوطيئة ، وبأنه يصدر عفواً عاما عمن توصى هى بالعفو عنهم .

وانتهز الكلفنيون واللوثريون وأنصار تجديد العماد فى الأراضى الوطيئة فرصة هذا الهدوء فى العاصفة ليجهروا بعبادتهم ، وعاد اللاجئون البروتستانت أفواجا من إنجلترا وألمانيا وسويسرا ، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات — الرهبان السابقون ، علماء اللاهوت ، صانعو القبعات ، ممشطو شعر الخيل ، دباغو الجلود — يخطبون فى الجموع الغفيرة من النساء والرجال ، وكثير منهم مسلحون ، وكلهم يرتلون المزامير ويهتفون « فليحى المتسولون » . وبالقرب من ثورنى ، ألقى أمبروزويل الذى كان قد درس مع كلفن — ألقى موعظة فى ستة آلاف شخص (٢٨ يونيه ١٥٦٦) ، وبعد ذلك بيومين وفى نفس المكان . خطب قسيس آخر فى عشرة آلاف ، وبعد أسبوع واحد استمع لموعظته عشرون ألفا [١٦] . وبدأ أن نصف سكان الفلاندرز أصبحوا بروتستانت . وكادت الكنائس والمدن أن تخلو من الناس فى أيام الآحاد لأنهم هرعوا إلى جمعيات البروتستانت . وإذا سمع الناس فى مقاطعة هولندة بأن بيتر جبرييل الخطيب المفوه سوف يلقى موعظة فى أوفرين بالقرب من هارلم ، هرع آلاف البروتستانت إليه ، وهزوا أجواز الفضاء فى الحقول بمزاميرهم . وبلغت جموع البروتستانت بالقرب من أنتورب خمسة عشر ألفاً ، وقال بعضهم ثلاثين ألفاً ، وكان كل الرجال مسلحين تقريبا . وأمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات لأنها خطر على البلد ، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ولا يعتمد عليها ؛ ولم يكن تحت تصرف مرجريت نفسها قوات منذ رحيل الحاميات الأسبانية ح . وبلغ الاضطراب فى أنتورب حداً

ساءت معه الحياة الاقتصادية بشكل خطير . وطلبت مرجريت إلى وليم أورانج أن يشخص إلى المدينة لإجراء تسوية سلمية بين الكاثوليك والبروتستانت هناك . فعمل على تهدئة الأمور بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحى وإلا يحمل المجتمعون سلاحا .

وفى الشهر نفسه (يوليه ١٥٦٦) اجتمع بقيادة كونت لويس ناسوا ألفان من «المتسولين» فى سانت تروند ، فى أسقفية لييج ، وسط هذا الصخب البهيج ، وضعوا الخطط للمضى قدما فى قضيتهم . وقرروا الاتصال بالبروتستانت الألمان ليشكلوا بينهم جيشا يهب لنجدة البروتستانت فى الأراضى الوطيئة إذا هوجموا . وفى ٢٦ يوليه قدم لويس وأثنى عشر آخرون ، وهم فى زى المتسولين ، إلى مرجريت ، طلبا بعقد الجمعية العمومية ، وأن تحكم هى نفسها فى نفس الوقت ، بتوجيه من أورانج وأجمونت وهورن ، ولما كان ردها ملتويا غير واضح فأنهم لمحوا إلى أنهم قد يضطرون إلى التماس مساعدة أجنبية ، ومن ثم شرع لويس ، بالتواطؤ مع أخيه الأحرص منه . وليم ، فى تجهيز أربعة آلاف من الخيالة وأربعين سرية من المشاة فى ألمانيا (١٧) .

وفى ٩ أغسطس وقع فيليب وثيقة رسمية يعلن فيها أن العرض الذى قدمه للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته ، وأنه لا يلزمه بشىء ، وفى ١٣ أغسطس أكد للبابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا (١٨) . وفى ١٤ أغسطس اقتحمت جمهرة من البروتستانت بتحريض من الوعاظ الذين استنكروا الصور الدينية ، كنائس سانت أومر الواحدة بعد الأخرى فحطموا الصور والمذابح ودمروا كل الزخارف . وفى نفس الأسبوع قامت جموع شبيهه بمثل هذه الأعمال فى ايبز وكورتراى وأودينارد وفالنسيان . وفى يومى السادس عشر والسابع عشر دخلت الجماهير الكاتدرائية الكبرى فى أنتورب وحطموا المذبح والزجاج الملون والصلبان وغيرها من الصور ، ودمروا الآلات الموسيقية والزخارف وكؤس القربان والأوعية المقدسة ، وفتحوا

الأضرحة وجردوا الجثث من حليها ، وشربوا النبيذ المقدس ، وأحرقوا كتب القداس الثمينة ، ووطئوا بأقدامهم التحف الفنية . وأرسلوا فى طلب السلالم والحبال ، فتسلقوا وجذبوا التماثيل من أماكنها وهشموها بالمطارق الثقيلة . واخترق الجمع أنتورب وهم يهتفون منتصرين ، وحطموا الصور والزخارف فى ثلاثين كنيسة وديرا ، وأحرقوا مكتبات الرهبان ، وأخرجوا الرهبان والراهبات من الأديار[١٩] ولما ترامت أنباء هذه « الضراوة الكلفنية » إلى تورنى انطلقت نشوة تحطيم الصور المقدسة من عقالها هناك ، وأعمل السلب والنهب فى كل الكنائس . وفى الفلاندرز وحدها جردت ٤٠٠ كنيسة من الصور . وفى كولمبرغ أشرف الكونت المبتهج المرح على أعمال التخريب وأطعم ببغاواته على القرابين المقدسة [٢٠] . وفى جهات أخرى قام بعض الكهنة السابقين بتحميص رقائق الخبز على شوكات [٢١] . ومن الفلاندرز أمتد الهياج إلى المقاطعات الشمالية ، إلى امستردام وليدن ودلفت وأوترخت ، ثم إلى جرونتجن وفريزلند . واستنكر معظم زعماء البروتستانت أعمال التخريب هذه . ولكن بعضهم ممن رأوا أن الأفراد لم يلحق بهم إلا أيسر الأذى والضرر . ذهبوا إلى أن تحطيم التماثيل والصور أقل أجراما من إحراق الأحياء « الهراطقة » .

وخارت قوى مرجريت بارما أمام العاصفة . فكتبت إلى فيليب تقول « أن أى شىء وكل شىء محتمل فى هذا البلد فيما عدا العقيدة الكاثوليكية »[٢٢] . وبات فيليب يتحين الفرصة للانتقام . ولكن مرجريت التى تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين أحست بأنها مرغمة على بعض التنازلات . فوقعت فى ٢٣ أغسطس ، مع ممثلى المتسولين ، إتفاقا تباح بمقتضاه العبادة الكلفنية فى الأماكن التى كانت تمارس فيها بالفعل ، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية ، وإلا يحمل البروتستانت سلاحا خارج بيوتهم . ووافق ممثلو المتحالفين على حل « عصبتهم » إذا أوفت الحكومة بهذا الاتفاق . وتوقف الاضطهاد وساد السلام لبعض الوقت .

ولكن أيا من وليم أورانج وملك أسبانيا لم يقنع بهدوء الحال . فإن وليم كان يرى فى البروتستانتية الثائرة أداة لتحقيق استقلال الأراضى الوطيئة ، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال كاثوليكيا اسما فإنه تخلى عن كل مناصبه الحكومية ، ونظم وسائله الخاصة للتجسس ، وقصد (٢٢ أبريل ١٥٦٧) إلى ألمانيا يلتمس المدد من الرجال والمال . وبعد ذلك بخمسة أيام غادر دوق ألفا أسبانيا ، مفوضا من الملك فيليب . فى جمع مايلزم من القوات لاستخدامها فى الانتقام من المشاغبين الكلفنيين ، والقضاء بلا هوادة على أية حال هرطقة وثورة وحرية فى الأراضى الوطيئة .

٣ — دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة

١٥٦٧ — ١٥٧٣

هو فرناندو ألفارز دى توليدو ، دوق ألبا أو ألفا ، وكان آنذاك فى التاسعة والخمسين من العمر ، وكأنه صورة أبدعتها ريشة الرسام الجريكو : طويل القامة ، نحيل القوام ، ذو عينين سوداوين ، وبشرة صفراء ، ولحية بيضاء فضية ، وكان قد ورث ، وهو فى سن العشرين ، لقبه السلامى الذائع الصيت ، وضياعه الشاسعة ، وبدأ العمل العسكرى فى سن مبكرة ، وامتاز بالشجاعة والذكاء والقسوة . وألحقه فيليب بأخص مجالسه واستمع مغتبطا إلى مشورته وكان حكمه فى هذه الساعة العصيبة هو مايقضى به جندى درج على النظام الأسبانى والورع الأسبانى : اسحق الثوار العصاة دون شفقة ولا رحمة . فإن أى تنازل يقوى المعارضة . وأطلق فيليب يديه ومنحه كل السلطة ودعا له بالتوفيق .

شق ألفا طريقه إلى إيطاليا ، وهناك جمع أساسا من الحاميات الأسبانية فى نابلى وميلان صفوة الجند ليشكل جيشا قوامه عشرة آلاف رجل ، ألبسهم أفخر الثياب وزودهم بأحدث العدة والعتاد ، وأثلج صدورهم بألفين من بنات

الهوى أحسن اختيارهن وأعدادهن وقاد الجيش عبر جبال الألب ، وعبر برجندي واللورين ولكسمبرج.وفي ٢٢ أغسطس١٥٦٧ دخل بروكسل وتلقاه اجمونت في كل الخضوع والخشوع . وقدم له جوادين نادرين هدية . ولقيته مرجريت يعروها الأسى والأسف.وهي تشعر بأن أخاها حل محلها وفرض سلطانه عليها في نفس الوقت الذي كانت قد أعادت فيه نظاماً إنسانياً .وأحتجت مرجريت عندما أقام ألفا حاميات أسبانية في كل المدن . وأجاب في فتور « إني على استعداد لاحتمال كل الخزي والوزر » .

واستأذنت مرجريت الملك فيليب في الاستقالة من منصبها ، فأجابها إلى طلبها مع منحها معاشاسخياً يضمن لها الهناءة.وفي ديسمبررحلت عن بروكسل إلى موطنها في بارما،وقدحزنمن أجلها الكاثوليك الذين أجلوهاواحترموها، والبروتستانت الذين تنبأوا بأنه سيتضح وشيكا أن أشد قساوتها كانت ليناً وإعتدالا إلى جانب وحشية ألفا المنتظرة .

وأقام نائب الملك الحاكم العام الجديد في قلعة أنتورب ، وأعد نفسه لتطهير الأراضي الوطيئة من الهرطقة ، ودعا اجمونت وهورن إلى العشاء وأكرم وفادتهما. ثم ألقى القبض عليهماوأرسلهما في حراسة مشددة إلى أحدالحصون في غنت (٧ سبتمبر) وعين « مجلس القلاقل » الذي أطلق عليه البروتستانت الجزعون من جديد اسم « مجلس الدم » وكان سبعة من أعضائه التسعة من الأراضي الوطيئةواثنان من الأسبان،وكان لهذين العضوين فقط حق التصويت. واحتفظ ألفا لنفسه بالقرار الحاسم في أي موضوع يعنيه بخاصة . وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه في معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية أو الحكومة الأسبانية ، وإعتقالهم ومحاكمتهم سراً ، ومعاقبة من يحكم عليهم دون ترفق أو إبطاء. وانبث الوكلاء للتجسس،وشجع المخبرين على الغدر بأقاربهم وأعدائهم وأصدقائهم وحظرت الهجرة ، وأعدم ربانية السفن الذين يساعدون ربانية عليها شنقاً (٢٣) . وحكم على كل مدينة عجزت عن قمع الثورة أو معاقبة

العصاة بأنها مذنبة، وأودع موظفوها السجن أو فرضت عليهم الغرامة. وأعتقل آلاف الأفراد. وذات صباح واحد قبض على نحو ١٥٠٠ فى مضاجعهم ونقلوا إلى السجون. وكانت المحاكمات قصيرة عاجلة، وكان الحكم بالإعدام يصدر أحياناً بالجملة، على ثلاثين أو أربعين أو خمسين دفعة واحدة (٢٤). وفى شهر واحد - (يناير ١٥٦٨) أعدام ٨٤ شخصاً من سكان فالنسيان. وسرعان ما كان من العسير أن تجد فى الفلاندرز أسرة غير حزينة على فرد منها قتل أو أعتقل بأمر من «مجلس القلاقل». وندر أن كان فى الأراضى الوطيئة من يجسر على الاحتجاج، فإن أيسر النقد كان يعنى الإعتقال.

وأحس ألفا بأن نجاحه قد تلطخ وتضاءل بعجزه عن إيقاع وليم أورانج فى حبائله. وأصدر مجلس المتاعب قرار بإتهام الأمير وأخيه لويس، وزوج أخته كونت فإن دن برج، والبارون مونتيني وغيرهم من الزعماء، بتشجيع الهرطقة والثورة. وكان مونتيني لايزال فى أسبانيا، فأودعه فيليب السجن. وكان ابن وليم، وهو فيليب وليم كونت بورن طالبا فى جامعة لوفان، فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا، وهناك نشىء تنشئة كاثوليكية متحمسة، وتبرأ من مبادىء أبيه. وصدر أعلان بأن وليم خارج على القانون، أحل لأى إنسان قتله دون التعرض لعقاب قانون.

وعمل وليم أورانج على تنظيم جيش، ووجه أخاه لويس إلى أن يحذو حذوه. والتمس العون من الأمراء اللوثريين فكم يتحمسوا للإستجابة له، ومن الملكة اليزابث التى أمسكت عن مساعدته فى حذر. وجاءته الأموال من أنتورب وأمستردام وليدن وهارلم وفلشنج، وأرسل إليه كل من الكونت فان دن برج وكولمبرخ وهو جسترانن ثلاثين ألف فلورين. وباع هو مجوهراته وأوانيه الفضية ومطرزاته وأثاثه الفاخر، وجمع نحو خمسين ألف فلورين، وتوافر الجنود، لأن المرتزقه الذين تفرقوا نتيجة بعض الهدوء فى الحرب الدينية فى فرنسا، عادوا إلى ألمانيا مفلسين. وكان لزاماً ان ينتهج وليم سياسة التسامح. فكان

عليه أن يكسب اللوثريين والكلفنيين تحت لوائه ، كما كان عليه أن يؤكد للكاثوليك فى الأراضى الوطيئة أن عبادتهم لن تمس بسوء بتحرير البلاد من ربقة أسبانيا .

ووضع أورانج خطة العمل لثلاثة جيوش فى وقت واحد ، قوة من الهيجونوت من فرنسا تهاجم أرتوا من الجنوب الغربى ، ويقود هوجستراتن جيشه ضد ماسترخت فى الجنوب ، ويقتحم لويس ناسو فريزلند من ألمانيا فى الشمال الشرقى . وصدت هجمات الهيجونوت وهوجستراتن ، ولكن لويس انتصر على الجنود الأسبان فى هيلجرلى (٢٣ مايو ١٥٦٨) . وأمر دوق ألفا باعدام أجمونت وهورن (٥ يونية) ليطلق ثلاثة آلاف من الجنود كانوا يتولون حراستهما وحماية مدينة غنت ، ليستفيد منهم . وتقدم بهذه الإمدادات إلى فريزلند ، ودحر جيش لويس الذى أصابه الوهن فى جمنجن (٢١ يولية) وأودى بحياة ٧٠٠٠ رجل وهرب لويس سبحا فى مصب نهر امز . وفى أكتوبر قاد وليم جيشا قوامه ٢٥ ألف رجل إلى برابانت ، وقد عقد العزم على ملاقاة ألفا فى معركة حاسمة . ولكن ألفا بجيشه الأقل عددا والأحسن نظاما أحبط خططه ، وتجنب اللقاء فى معركة ، وعمد إلى تعويق عدوه بهجمات فى مؤخرته ورفض القتال جنود وليم الذين لم تدفع رواتبهم . فقادهم إلى مكان آمن فى فرنسا وسرحهم . ثم تنكر فى زى فلاح وشق طريقه من فرنسا إلى ألمانيا حيث تنقل من مدينة إلى مدينة ، فراراً من القتل . وبهذه الحملات المشئومة الممتلئة بالكوارث بدأت « حرب الثمانين عاما » التى خاضتها الأراضى الوطيئة فى ثبات ومثابرة لم يسبق لهما مثيل ، حتى قدر لها النصر فى النهاية فى ١٦٤٨ .

كان ألفا آنذاك سيد الموقف المزهو فى الميدان ، ولكنه كان خاوى الوفاض إلى حد بعيد . وكان الملك فيليب قد دبر مع أصحاب المصارف فى جنوة أن يمدوه بحراً بأربعمائة وخمسين ألف دوكات . ولكن القرصان الإنجليز أجبروا السفن على الاتجاه إلى ميناء بليموث ، وهناك وضعت اليزابث يدها على المال ،

مع أرق الإعتذارات ، حيث لم تكن تكره مساعدة ولم مقابل هذا الثمن .
عندئذ دعا ألفا الجمعية العمومية المكونة من النبلاء وممثلى المدن للاجتماع فى بروكسل ، واقترح عليهم (٢٠مارس ١٥٦٩)فرض ضريبة فورية قدرها ١./ٌ على الممتلكات وضريبةدائمة قدرها ٥./ٌعلى أية عملية نقل للعقارات، وضريبة دائمة قدرها ١٠./ٌ على المبيعات فاحتجت الجمعية بأنه لما كانت مواد كثيرة قد غيرت الملكية عدة مرات فى العام الواحد فإنضريبة المبيعات هذه تقارب أن تكون مصادرة ، وأحالت المقترحات إلى جمعيات المقاطعات ، وهناك كانت المعارضة شديدة إلى حد اضطر معه ألفا إلى إرجاء ضريبة الـ ١٠./ٌ إلى ١٥٧٢، والاكتفاء بضريبة الواحد فى المائة، وبمنحة قدرها مليونى فلورين سنويا لمدة عامين. ولكن حتى ضريبة الواحد فىالمائة كانت جبايتها شاقة باهظة التكاليف ورفضت أوترخت دفعها . فأطبقت فرقة من الجند على المنازل والممتلكات، واستمرت المقاومة ، ورمى ألفا كل الأقليم بالخيانة وألغى كل إعفاءاته وامتيازاته ، وصادر كل ممتلكات سكانه لصالح الملك .

وأن هذه الضرائب والإجراءات التى اتخذت لفرضها هى التى هزمت ألفا الذى لم يهزم حتىذلك اليوم. وبات كل السكان تقريبا، كاثوليك وبروتستانت، يقاومونه ،فىاستياء يتفاقم أمره ، كلما عوقت وعرقلت ضرائبه نشاط الأعمال التى بنت عليها الأراضى الوطيئة ازدهارها ورخاءها . ولما كان ألفا أبرع فى الحرب منه فى شئون المال فإنه انتقم لإستيلاء اليزابث على الأموال التى كانت فى طريقها إليه من جنوة ، بالإستيلاء على الممتلكات الإنجليزية فى الأراضى الوطيئة ، وحظر التجارة مع انجلترا . وردت اليزابث علىهذا بمصادرةبضائع الأراضى الوطيئة فىانجلترا ، وتحويل التجارة الإنجليزية إلىهمبرج. وسرعان ماأحست الأراضى الوطيئة بوطأة الكساد الاقتصادى . فأغلقت المتاجر أبوابها ، وازداد التعطل ، وفكر رجال الأعمال الأقوياء الذين احتملوا فى صبر وتجلد شنق البروتستانت ونهب الكنائس ، فكروا مليا وسرا فىالثورة

وأخيرا مولوها . وحتى رجال الدين الكاثوليك الذين خشوا إنهيار الاقتصاد الوطنى ، أنقلبوا على ألفا ، وحذروا الملك فيليب من أن الدوق يعمل على تخريب البلاد [٢٥] ، بل أن البابا — بيوس الخامس الذى كان قد اغتبط أيما اغتباط بانتصارات ألفا ، نراه الآن يشاطر الكاردنيال دى جرانفل أسفه لقساوة ألفا [٢٦]. ويوصى بالعفو العام عن العصاة والهراطقة النادمين التائبين — ووافق فيليب على هذا الاجراء وأبلغ به ألفا (فبراير ١٥٦٩) ، ولكن الدوق طلب التمهل ، ولم يعلن العفو إلا فى ١٦ يولية ١٥٧٠ .. وفى تلك السنة خلع البابا على ألفا القبعة والسيف المقدسين ، وأنعم « بالوردة الذهبية » على زوجته [٢٧] ؛ كما أعدم فيليب مونتينى الذى كان سجينا — (١٦ أكتوبر ١٥٧٠) .

وفى نفس الوقت ظهرت على المسرح قوة جديدة . وذلك أنه فى مارس ١٥٦٨ قامت عصابة من اليائسين المستميتين عرفوا باسم « المتسولين المتطرفين » ، وجهوا همهم إلى نهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان أو آذانهم ؛ وكأنهم عقدوا العزم على مباراة « مجلس الدم » فى وحشيته وفظائعه [٢٨] . وفيما بين عامى ١٥٦٩ — ١٥٧٢ ظهرت جماعة أخرى أطلقوا على أنفسهم اسم « متسولى البحر » ، وضعوا أيديهم على ١٨ سفينة ، وتلقوا عمولة من وليم أورانج ، وأغاروا على شواطئ الأراضى الوطيئة ، ونهبوا الكنائس والأديار ، وسيطروا على المراكب الأسبانية ، وزودوها ثانية بالمؤن من الثغور الإنجليزية الصديقة — بل حتى من لاروشيل النائية — التى كانت فى يد الهيجونوت آنذاك . وأغار « متسولو البحر على أية مدينة ساحلية لا توجد بها حامية أسبانية ، واستولوا على المواقع الحصينة ، وبفضل قدرتهم على فتح السدود بات من أخطر الأمور على القوات الأسبانية أن تقترب منهم أو تصل إليهم . فلم يعد فى مقدور ألفا أن يتلقى أية امدادات أو مؤن من البحر وهكذا صارت المدن الرئيسية فى هولنده وزيلند وجلدرلاند وفريزلند آمنة محمية ،

ومن ثم قدمت ولاءها لوليم أورانج ، وقررت تزويده بالإمدادات من أجل الحرب (يولية ١٥٧٢) ونقل وليم مقر قيادته إلى دلفت وأعلن أنه « الأصلح الكلفنى » وهو لقب أصدق على رأسه منه على عقيدته ، وفى تلك الآونة كتب فيليب فان مارنكس أغنية « وليم ناسو » التى أصبحت ، ولا تزال ، الترنيمة الوطنية فى الأراضى الوطيئة .

ومنذ لقى وليم أورانج التشجيع على هذا النحو جهز جيشا آخر وغزا برابانت . وفى نفس الوقت قام لويس ناسو ، بمعونة كولينى ، باعداد قوة فى فرنسا ، ودخل هيبوت ، واستولى على فالنسيان ومونز (٢٣ مايو ١٥٧٢) . وتقدم ألفا ليسترد مونز ، وهو يأمل بذلك أن يثنى فرنسا عن مساعدة لويس . وتقدم وليم جنوبا لنجدة أخيه ، وأحرز بعض انتصارات يسيرة ، ولكن سرعان ما استنفد مالديه من مال ، فتقاضى جنوده أجورهم بنهب الكنائس ، وتسلوا بقتل القساوسة [٢٩] . فثارت ثائرة الكاثوليك ، حتى أنه عندما اقترب جيش وليم من بروكسل وجد الأبواب موصدة والأهالى يحملون السلاح لمقاومته واستأنف الجيش سيره ، ولكن على مسافة فرسخ من مونز فوجىء الجند ، وهم نيام ، بستمائة جندى أسبانى ، قتلوا من جنود وليم ثمانمائة قبل أن يتمكنوا من تهيئة أنفسهم للدفاع . واستطاع وليم الهرب بشق النفس مع بقايا قواته ، إلى مكلين فى برابانت . وفى نفس الوقت قضى قتل كولينى ومذبحة سانت برتلميو على كل أمل فى العون من فرنسا . وفى ١٧ سبتمبر سقطت مونز فى يد ألفا الذى هيأ للويس وفلول جيشه أن يرحلوا دون أن يمسهم أذى . ولكن قائد جيش ألفا ، فيليب دى نوفارم ، شنق من تلقاء نفسه مئات من الأهالى ، وصادر ممتلكاتهم وباعها بثمن عال [٣٠] .

أن فشل استراتيجية وليم وافراط قواته التى يصعب قيادها ووحشية « المتسولين » وفظائعهم ، كل أولئك خيب آماله فى توحيد الكاثوليك والكلفنيين واللوثريين ليقاوموا جميعا طغيان ألفا . فان « المتسولين » ، وكانوا

كلهم تقريبا كلفنيين متحمسين أبدوا ضد الكاثوليك من ضروب الوحشية والضراوة ماأبدته محاكم التفتيش ومجلس الدم نحو الثوار والهراطقة . وفى كثير من الحالات لم يتركوا للأسرى الكاثوليك إلا الخيار بين الكلفنية أو الموت ، وكانوا يقتلون دون تردد ، وفى بعض الأحيان بعد تعذيب لا يصدق ، كل من تمسك بأهداب العقيدة القديمة [٣١] . وأعدم كل من طرفى النزاع كثيرا من أسرى الحرب . وكتب مؤرخ بروتستانتى يقول :

فى أكثر من مناسبة رؤى الرجال يشنقون ... أخوتهم هم أنفسهم الذين وقعوا أسرى فى صفوف الأعداء ... ووجد سكان الجزر لذة وحشية فى ضروب القسوة هذه ، ولم يعد الأسبانى فى نظرهم فردا من بنى الإنسان . وذات مرة انتزع أحد الجراحين قلب سجين أسبانى ، وثبته بالمسامير فى مقدم السفينة ودعا الأهالى ليغرسوا أسنانهم فيه ، وفعل كثير منهم هذا فى ارتياح وحشى [٣٢]

أن هؤلاء « المتسولين » القساة القلوب هم الذين هزموا دون ألفا . وأخلد الدوق إلى شىء من الراحة بعد الحملات التى قام بها ، وورث أبنه دوق فدريجو ألفارث دى توليدو مهمة استعادة ومعاقبة المدن التى كانت قد أعلنت تأييدها لوليم أو استسلمت له . فبدأ ألفارث بمدينة مكلين التى أبدت أقل مقاومة ، حيث خرج القساوسة والأهالى فى موكب نادمين ، يرجون الصفح والابقاء على المدينة ، ولكن ألفا كان قد أمر بانتقام تكون فيه موعظة وعبرة . فظل جنود فدريجو لمدة أيام ثلاثة ينهبون البيوت والأديار والكنائس ، ويسرقون الحلى والأردية الثمينة من التماثيل المقدسة . ويطأون الفطائر المقدسة تحت الأقدام ، ويذبحون الرجال ويستبيحون النساء ، كاثوليك أو بروتستانت على حد سواء وفى طريق تقدمه إلى جلدرلند ، تغلب جيشه على الدفاعات الهزيلة فى زوتفن ، وقتل كل رجال المدينة تقريبا . وعلق بعضهم من الأقدام ، وأغرق خمسمائة منهم بربطهم زوجا زوجا ، ظهرا لظهر . والالقاء بهم فى نهر ايسل . واستسلمت بلدة ناردن الصغيرة بعد مقاومة قصيرة ، وحيت الأسبان الغزاة بموائد زخرت

بألوان الطعام ، فأكل الجنود وشربوا ثم اعملوا القتل فى كل الأهالى فى المدينة وتقدموا إلى هارلم ، وهى مركز كالفنى أبدى حماسا خاصا للثورة. وقد دافعت حامية قوامها أربعة آلاف رجل عن المدينة دفاعا مجيدا ، إلى حد أن دوق فدريجو اقترح الانسحاب منها ، ولكن ألفا هدد بأن يتبرأ منه إذا لم يستمر فى الحصار ، فتصاعدت أعمال العنف ، وعلق كل من الطرفين أسراه على أعواد المشانق فى مواجهة عدوه . وأثار المدافعون حنق المحاصرين بأن مثلوا على الأسوار الطقوس الكاثوليكية بطريقة تدعو إلى السخرية والضحك [٣٣] . وأرسل وليم ثلاثة آلاف جندى لمواجهة جيش دوق فدريجو ، ولكنهم أبيدوا وأخفقت كل محاولة لتخليص هارلم بعد ذلك . وفى ١١ يولية ١٥٧٣ ، بعد حصار دام سبعة أشهر اقتات فيها الناس على الأعشاب والجلود ، استسلمت المدينة . ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٦٠٠ رجل أعدم معظمهم . كما أعدم ٤٠٠ من المواطنين المتزعمين ، أما بقية الأهالى فقد أبقى على حياتهم بعد موافقتهم على دفع غرامة قدرها مائتان وخمسون ألف جلدر .

وكان هذا آخر انتصارات حكومة دوق ألفا وأبهظها تكلفة . وهلك أكثر من اثنى عشر ألفاً من أفراد الجيش الذى تولى الحصار متأثرين بالجراح أو بالمرض . واستنزفت الحرب كل ماحصل من ضرائب بغيضة . واكتشف فيليب الذى كان يعد النقود أكثر مما يحسب حساب الأنفس والأرواح ، أن ألفا لم يكن غير محبوب لدى الناس فحسب ، بل أنه كان كذلك ينفق أموالا طائلة، وأن أساليب قائده كانت تعمل على توحيد الأراضى الوطيئة ضد أسبانيا وأحس دوق ألفا بأن الرياح غير مواتية له ، وأن التيار قد انقلب ضده . فطلب تنحيته وتباهى بأنه قتل ١٨ ألف ثائر [٣٤] . ولكن الهراطقة كانوا فى مثل القوة التى كانوا عليها عندما جاء هو إلى الميدان ، بل أكثر من ذلك أنهم سيطروا على الثغور وعلى البحر ، وأن الملك فقد مقاطعتى هولنده وزيلنده تماما . وقدر أسقف نامور أن ألفا فى سبع سنين ، ألحق من الأذى بالكاثوليكية كثر مما ألحقه بها لوثر والكلفنية فى جيل بأسره [٣٥] . وقبلت

استقالة ألفا وغادر الأراضى الوطيئة (١٨ ديسمبر ١٥٧٣) وأستقبله الملك فيليب استقبالا حسنا . وقاد، وهو فى سن الثانية والسبعين الجيوش الأسبانية لغزو البرتغال (١٥٨٠) . ولدى عودته من هذه الحملة انتابته حمى متقطعة ، ولم يحفظ عليه حياته إلا ارضاعه اللبن من ثدى امرأة . وفاضت روحه فى ١٢ ديسمبر ١٥٨٢ ، بعد أن عاش عاما على اللبن . ونصف قرن على الدم .

٤ ـ ركويسانس ودون جوان

١٥٧٣ — ١٥٧٨

وأرسل فيليب دون لويس دى ركويسانس ليحل محل ألفا ، وهو الذى كان منذ عهد قريب نائب الملك فى ميلان . ودهش الحاكم الجديد لعدد الثوار والروح التى سادتهم ، فكتب إلى الملك : « لم أكن أدرك قبل وصولى كيف استطاعوا الاحتفاظ بمثل هذه الأساطيل الضخمة ، على حين أن جلالتكم لم تستطع الإنفاق على أسطول واحد فقط . ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن الرجال الذين يقاتلون من أجل حياتهم وديارهم وأملاكهم وعقيدتهم الزائفة ، وجملة القول عن قضيتهم ـ يقنعون بالطعام دون أجور[٣٧] . ورجا فيليب فى أن يرخص له فى أصدار عفو عام عن الجميع باستثناء الهراطقة العنيدين ، مع السماح لهم بالهجرة ، وإلغاء ضريبة العشرة فى المائة على البيوع . ولم ير ولم أورانج فى هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت ، ووسيلة جـــديدة لاستئصال البروتستانتية من الأراضى الوطيئة ، ولم يكن يقبل السلام إلا على أساس الحرية الكاملة للعبادة ، واستعادة امتيازات المقاطعات ، وانسحاب الأسبان من الوظائف المدنية والعسكرية . واستمرت الحرب . وفى معركة (١٣ أبريل ١٥٧٧) قضى نحبه كل من أخوى وليم : لويس فى سن السادسة والثلاثين ، وهنرى فى سن الرابعة والعشرين .

وثمة حادثان شدا من أزر الثورة فى هذه الآونة : أفلاس فيليب (١٥٧٥)

وموت ركويسانس فى أثناء حصار زيركزى (٥ مارس ١٥٧٦) . عين الملك أخاه غير الشقيق ، دون جوان النمسوى ، فى هذا المنصب البغيض . ولكنه لم يصل إلى لكسمبرج إلا فى نوفبر . وفى هذه الأثناء وقع ممثلو هولنده وزيلنده ، فى دلفت (٢٥ أبريل) « قانون التهدئة » الذى خول وليم السلطة العليا فى البر والبحر ، وحق التعيين فى الوظائف السياسية . وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبى . وأهاب وليم ، من مركز السلطان الجديد ، بسائر المقاطعات أن تشارك فى طرد الأسبان من الأراضى الوطنية . ووعد بحرية الفكر والعقيدة للكاثوليك وللبروتستانت على حد سواء .

وربما لقى نداؤه بعض الاستجابة فى المقاطعات الجنوبية لولا أن الجنود الأسبان وقد خدعهم السلب والنهب فى زيركزى ، تمردوا (يولية) وبدأوا ، دون تمييز ، حملة من السلب والنهب والعنف أرهبت فلاندرز وبرابانت . ووجه إليهم مجلس الدولة فى بروكسل تأنيبا قاسيا ولكنهم تحدوه ، فأعلن المجلس أنهم خارجون على القانون ، ولكن لم يكن لديه قوة يقاومهم بها . فعرض وليم أن يرسل قوات عسكرية لحماية هذه البلاد ، وجدد تعهده بالحرية الدينية . وتردد المجلس ، فأطاح به أهالى بروكسل ، وشكلوا مجلسا آخر تحت رياسة فيليب دى كروى الذى بدأ المفاوضات مع الأمير . وفى ٢٦ سبتمبر رحبت غنت بفرقة عسكرية أرسلها وليم لحماية المدينة من المتمردين الأسبان . واجتمع فى غنت فى ١٩ أكتوبر ، ممثلون عن برابانت وفلاندرز وهينوت ، وكانوا يكرهون تحالف ولاياتهم مع الأمير المحروم من حماية القانون ، ولكن فى ٢٠ أكتوبر اجتاح المتمردون ماسترخت ، وفى ٢٨ منه ، وقع المجتمعون للبحث والتشاور رغبة فى حماية قوات وليم لهم ، « قانون التهدئة » الذى صدر فى غنت ، والذى اعترف بوليم حاكما على هولنده وزيلنده ، وأوقفوا كل اضطهاد للهرطقة ، واتفقوا على التعاون فى طرد الجنود الأسبان من مقاطعاتهم . ورفضت الجمعية العمومية للمقاطعات الجنوبية التى انعقدت فى بروكسل ، التوقيع على « قانون التهدئة » ، حيث اعتبرته اعلانا للحرب ضد الملك .

ودعم المتمردون مرة أخرى من حجج وليم ، ذلك أنهم فى ٤ نوفمبر ١٥٧٦ استولوا على انتورب ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، على أسوأ شكل عرفه تاريخ الأراضى الوطيئة . وقاوم المواطنون ولكنهم غلبوا على أمرهم، وقتل منهم سبعة آلاف ، وأحرق ألف مبنى كان بعضها من روائع العمارة . وذبح الرجال والنساء والأطفال فى طوفان من الدماء بأيدى الجنود وهم يرددون الصيحات : « سان جيمس ، أسبانيا ، الدم . الموت . النار . السلب ، النهب» وطوال تلك الليلة عاث الجنود فى المدينة الغنية ، وسلبوا كل بيت فيها تقريبا ، ورغبـــة فى انتزاع الاعتراف بالذخائر المخبأة ، أصيلة أو زائفة ، عذبوا الآباء على مرأى من أطفالهم، وذبحوا الصبية وهم فى أحضان أمهاتهم ، وضربوا الزوجات بالسياط حتى الموت أمام أعين أزواجهن . واستمر هذا « العنف الأسبانى » يومين ، حتى أتخم الجنود بالذهب والحلى والملابس الثمينة ، وبدأ الواحد منهم يقامر الآخر بغنائمه فى الشوارع المكتظة بجثث الموتى . وفى ٢٨ نوفمبر صدقت الجمعية العمومية على « قانون التهدئة » الذى وضع فى غنت».

وكان هذا نصرا مبينا أحرزه الأمير فى الوقت المناسب . وعندما أرسل دون جوان من لكسمبرج يقول أنه على وشك أن يدخل بروكسل ، أجابت الجمعية العمومية بأنها لن تستقبله بوصفه حاكما إلا إذا وافق على « قانون التهدئة » وأعاد امتيازات المقاطعات، وطرد كل القوات الأسبانية من الأراضى الوطيئة . وقضى دون جوان، الباسل فى ميدان المعركة ، القليل الخبرة بالسياسة والذى أعوزه الرجال والمال ، شتاءه متلكئا فى لكسمبرج ، ثم وقع فى ١٢ فبراير ١٥٧٧ « المرسوم الدائم » الذى أدى به إلى التهـــدئة وحريات المقاطعات . وفى أول مارس دخل دون جوان بروسكل فى احتفال رسمى ، واغتبطت المدينة إذ رأت مثل هذا الحاكم الوسيم الأعزل الضعيف . ورحلت القوات الأسبانية . وساد السلام لفترة وجيزة ربوع البلاد المخربة .

وكانت أحلام جوان أكبر من إمكاناته المالية . وبعد مآثره وبطولاته فى ليبنتو وتونس أوهنت العظمة اليائسة العاجزة فورة الدم الهادر بأوهام

البطولة . وعلى مقربة منه كانت ماري ستيوارت الجميلة سجينة لدى اليزابث العملاقة الرهيبة . فلم لا يحشد جوان جيشا وأسطولا ، ويعبر البحر ، ويطيح بعرش ملكة ويتزوج الأخرى ، ويصبح ملكا على انجلترا واسكتلنده ، ويعيد هذه الأقاليم الغافلة إلى أحضان الكنيسة الأم ، أن فيليب الذى خشى الهوة بين الأموال والأحلام ، اعتبر أخاه ساذجا مخدوعا . وقدم جوان البرهان على ذلك ، فإنه غادر بروكسل فجأة (١١ يونية) ، على رأس فرقة من الوالون (سكان جنوب بلجيكا) الكاثوليك ، وأنكر « قانون التهدئة » . وبعد مفاوضات عقيمة مع جوان ، دعت الجمعية العمومية وليم إلى العاصمة، ولدى وصوله (٢٣ سبتمبر) رحب به جمهور كبير من المواطنين الكاثوليك على أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقود الأراضى الوطيئة إلى الحرية . وفى ٨ اكتوبر أبلغت الجمعية العمومية دون جوان أنها لم تعد تعترف به حاكما ولكن يمكن أن تقبل فى مكانه أميرا من الأسرة المالكة . وفى ١٠ ديسمبر ١٥٧٧ انضمت المقاطعات كلها — عدا نامور — إلى « اتحاد بروكسل » . وطلب الأعضاء الكاثوليك فى الجمعية العمومية ، الذين كانوا يخشون كلفنية وليم، إلى ماتياس أرشيدوق النمسا أن يكون حاكما على الأراضى الوطيئة . وقدم الشاب ابن العشرين وتقلد المنصب (١٨ يناير ١٥٧٨) ولكن أنصار وليم أغروا الحاكم الجديد بتعيين وليم نائبا له — ومن الوجهة الفعلية صاحب الأمر والنهى فى الإدارة والسياسة .

وكان يمكن للتسامح المتبادل فى الخلافات الدينية وحده إن يبقى على هذا الاتحاد أو الترابط ، ولكن التعصب مزقه . فإن الكلفنيين فى هولنده والكاثوليك فى أسبانيا اعتقدوا جميعا بأن الكفار وحدهم هم الذين يستطيعون أن يبدوا تسامحا . وقال كثير منهم صراحة بأن وليم أورانج ملحد[٣٨] ، واتهمه الواعظ الكلفنى بيتر داتينوس ، بأنه جعل من السلطة معبوده الوحيد، وأنه يغير عقيدته كما يغير الناس ملابسهم[٣٩] . وكان الكلفينون (وظلوا

حتى ١٥٨٧) يشكلون عشر السكان فقط فى مقاطعة هولندة ، ولكنهم كانوا نشيطين طموحين ومسلحين . وكانت لهم السيطرة على الجمعيات السياسة ، فأحلوا حكاما وقضاة بروتستانت محل الكاثوليك ، وفى ١٥٧٣ حظر مجلس المقاطعة العبادة الكاثوليكية فى هولندة[٤٠] ، على أساس أن أى فرد كاثوليكى يحتمل أن يكون خادما لأسبانيا . ولم تأت ١٥٧٨ . إلا وقد عمت الكلفنية زيلندة تقريبا ، وكانت من الوجهة السياسية — لا العددية — متسلطة فى فريزلند واكتسحت موجات تحطيم الصور المقدسة هولنده وزيلنده ١٥٧٣ ، ومقاطعات أخرى ، حتى الفلاندرز وبرابانت ، بعد ١٥٧٦ . وأنكروا أى ربط بين الدين والفن باعتباره عملا وثنيا دنسا . وجردت الكنائس من الصور والتماثيل والصلبان والزخارف ، وصهرت الأوانى الذهبية والفضية ، ولم يبق إلا الجدران العارية ، وعذب « المتسولون » القساوسة الكاثوليك . وأعدموا نفرا منهم[٤١] .

واستنكر وليم كل هذه التصرفات ، ولكنه تغاضى[٤٢] عن استيلاء الأقليات الكلفنية المسلحة على السلطة السياسية فى بروكسل وايبر وبروجز وكل شمال الفلاندرز[٤٣] . وفى غنت سجن الكلفنيون المنتصرون أعضاء المجلس ، ونهبوا الكنائس والأديار وأتلفوا أجزاءها الداخلية ، وصادروا أملاك الكنيسة ، وحرموا إقامة الطقوس الكاثوليكية ، وأحرقوا الرهبان فى فى ساحة السوق[٤٤] ، وأقاموا جمهورية ثورية (١٥٧٧) . وفى امستردام اقتحم الكلفنيون المسلحون دار البلدية (٢٤ مايو ١٥٧٨) ، وطردوا القضاة والموظفين ، وأحلوا محلهم كلفنيين ، وخصصوا الكنائس التى جردوها لمذهب الاصلاح . وفى اليوم التالى قامت ثورة مماثلة بمثل هذا العمل فى هارلم . وفى أنتورب التى كانت آنذاك مقر قيادة وليم أخرج البروتستانت القساوسة والرهبان من المدينة (٢٨ مايو) ، وأنب الأمير أتباعه تأنيبا شديدا على هذا العنف . وخصهم على السماح باستئناف الطقوس الكاثوليكية . ولكن فى ١٥٨١ حرمت كل عبادة كاثوليكية فى أنتورب وأوترخت . واتهم الكلفنيون

القساوسة بأنهم كانوا يخدعون الناس بالمخلفات الزائفة والكرامات التى يفتعلونها — عرض قطع من « الصليب الحقيقى ، وعظام قديمة للتعبد على أنها رفات القـــديسين، وإخفاء الزيت فى رؤوس التماثيل حتى ترشح فى الوقت المناسب(٢٥) .

على أن وليم تولاه الحزن والأسى حين رأى سنوات كفاحه من أجل الوحدة تختتم بالفرقة والفوضى والبغضاء . إن الديموقراطية الكلفنية التى كانت قد استولت على جمـــلة مدن تتردى الآن فى وهدة من الفوضى ، بدأ معها الملاك البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يتساءلون هل كان المذهب الجديد وكل ما يتصل به من دعايات أشد وبالا عليهم من الديانة القديمة . وسرى شعور الاستياء وواجه وليم هذه الرغبه المتزايدة فى إعادة النظام بالتفاوض مع فرنسوا دوق أنجو ليتولى منصب الحا كم العام بدلا من ماتياس العاجز التافه . ولكن اتضح أن أنجو خائن حقير . وزاد الطين بلة فى محنة وليم ، أن جيشا أسبانيا جديدا قوامه عشرون ألفا من الجنود المدربين أحسن تدريب ، كان يتجه شمالا بقيادة أقدر قواد العصر . ذلك أنه فى ديسمبر ١٥٧٧ قدم الساندرو فارنيزى دوق بارما بجيشه إلى دون جوان فى لكسمبرج . وفى ٣١ يناير ١٥٧٨ هزموا القوات التى كان يعوزها النظام ، التابعة للجمعية العمومية ، فى جمبلو . وفتحت لوفان واثنتى عشرة مدينة صغيرة أخرى ، أبوابها أمام الفاتح الجديد ، وفرت الجمعية العمومية للأراضى الوطيئة من بروكسل إلى أنتورب . إلا أن دون جوان الذى استشعر مجداً جديداً ، انتابته حمى خبيثة ، وقضى نحبه فى نامور ، فى أول أكتوبر ١٥٧٨ ، وهو فى سن الثالثة والثلاثين . وعين فيليب دوق بارما حاكما عاما مكانه ، وبدأ فصل جديد .

٥ ـ بارما وأورانج

١٥٧٨ — ١٥٨٤

السا ندرو فارنيزى، الذى يبلغ الثالثة والثلاثين، هو ابن نائبة الملك السابقة مرجريت بارما . ترىى فى أسبانيا وأقسم يمين الولاء لفيليب ، وحارب فى ليبنتو وقضى الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى الإبقاء على الأراضى الوطيئة الجنوبية فى حوزة الملك فيليب . وفى ١٥٨٦ ورث دوقية بارما ولقبها ، ولكنه لم يجلس على عرش الدوقية قط . وكان له عينان حادتان ، ووجه أسمر ، وشعر أسود قصير ، وأنف كأنف النسر ، ولحية كثة ، كل أولئك كشف عن شيء يسير من مقدرته وشجاعته وبراعته . وجمع بين كل الفن العسكرى الذى امتاز به دوق ألفا ، مع إثارة من قسوته ، وقدر أكبر بكثير من المهارة فى المفاوضة والحديث . وبات القتال من أجل الأراضى الوطيئة ، آنذاك ، صراعاً بين دبلوماسية بارما وأسلحته تسانده أموال الكاثوليك وآمالهم . بين صمود أمير أورانج البطولى ، يموله التجار الهولنديون ويشدون أزره . ويعرقل جهوده ، فى وقت معا ، تعصب أصدقائه .

وفى ٥ يناير ١٥٧٩ شكل جماعة من النبلاء الكاثوليك ، من هينوت ودوا وأرتوا وليل ، بإيحاء من أسقف آراس ، شكلوا عصبة آراس لحماية عقيدتهم وممتلكاتهم وفى ٢٩ يناير شكلت مقاطعات هولنده وزيلندة وجرونتجن وأوترخت وجلدرلند ، « اتحاد أوترخت » للدفاع عن عقيدتهم وحرياتهم . وسرعان ما انضم إليها فريزلند ، وأوفريسل . ومن هذه « المقاطعات المتحدة » السبع تتكون اليوم الأراضى الوطيئة الهولندية ، وأصبحت المقاطعات الباقية هى « الأراضى الوطيئة الأسبانية » ، وصارت فى القرن التاسع عشر بلجيكا وحدد تقسيم المقاطعات السبع عشرة إلى أمتين على هذا النحو . سيطرة الكاثوليكية فى الجنوب والبروتستانتية فى الشمال ، من ناحية . إلى جانب الفصل الجغرافى بينهما ، لوجود الخلجان والأنهار الكبيرة التى هيأ اتساعها

وسدودها التى يسهل التحكم فيها ، ثغورا يمكن الدفاع عنها ، وتأوى إليها الأساطيل والأسلحة الأسبانية .

وفى ١٩ مايو وقعت عصبة آراسى مع بارما اتفاقا ، التزمت فيه بألا تقبل غير الكاثوليكية مذهباً ، وارتضت بمقتضاه السيادة الأسبانية شريطة استعادة امتيازات المقاطعات والوحدات الإدارية الصغيرة (الكوميونات) وسرعان ما أعاد الدوق ، بالإغراء أو الرشوة أو القوة ، كل المقاطعات الجنوبية تقريبا إلى حظيرة أسبانيا ، وتخلى الزعماء الكلفنيون فى بروكسل وغنت وإيبر عن فتوحاتهم وولوا الأدبار إلى الشمال البروتستانتى . وفى ١٢ مارس ١٥٧٩ قاد بارما جيشا كبيرا ضد ماسترخت الواقعة فى موقع حصين على النهر المسمى باسمها . وأتى الفريقان كلاهما بالأعاجيب من أعمال البطولة وضروب الوحشية وحفر المهاجمون أميالا من الممرات تحت الأرض ليبثوا الألغام ويقتحموا المدينة ، كما حفر المدافعون — النساء والرجال جنبا إلى جنب — ممرات ليقابلوهم ، ودارت رحى القتال حتى الموت فى باطن الأرض . وصب الماء المغلى فى الأنفاق ، وأشعلت الحرائق لتملأها بالدخان . واحترق مئات المحاصرين المهاجمين أو اختنقوا حتى الموت . وانفجر أحد الألغام قبل أوانه فأودى بحياة خمسمائة من رجال بارما . وعندما حاول جنوده تسلق السور قابلتهم الجمرات المحترقة ، وقذفت حول أعناقهم أطواق النار الملتهبة . وبعد أربعة أشهر من الجهد المضنى والضراوة والعنف ، أحدث المحاصرون ثغرة فى السور ، نفذوا منها خفية فى الليل ، وفاجأوا المدافعين المنهوكين وهم نيام وذبحوا منهم ستة آلاف من الرجال والأطفال والنساء ولم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثين ألفاً ، على قيد الحياة آنذاك سوى أربعمائة . وعمرها بارما من بعدهم بالموالين الكاثوليك .

تلك كانت كارثة عظمى حلت بالبروتستانت . ووجه اللوم فيها بحق إلى حد ما ، إلى وليم الذى حاول عبثا إنقاذ المدينة ، لعجزه وإبطائه . واتهمه

الآن نفس المتطرفين الذين أحبطوا سياسة التوحيد التى انتهجها ، بتعصبهم وعنفهم — اتهموه بخيانة قضيتهم فى مفاوضاته مع دوق أنجو الكاثوليكى ، وأشاروا إلى أنه لم يؤد الشعائر الدينية طوال العام الماضى ، وانتهز الملك فيليب هذه الفرصة ليصب اللعنة على أورانج (١٥ مارس ١٥٨١) . وبعد أن أسهب فيليب فى بيان عقوق الأمير وخيانته وزيجاته وجرائمه ، استرسل يقول :

ومن ثم . . . بسبب الأعمال السيئة الشريرة التى رتبها وأنه يعكر صفو السلام العام ، وأنه شخص بغيض ، فإننا نحرمه من حماية القانون ، ونحظر على كل رعايانا أن يتعاملوا معه أو يتصلوا به فى السر أو العلن ، أو أن يزودوه بالطعام أو الشراب أو الوقود أو غيرها من الحاجيات الضرورية . أننا نعلن على الملأ أنه عدو للجنس البشرى . ونبيح ممتلكاته لمن يضع يده عليها . ورغبة فى الإسراع فى تخليص شعبنا من طغيانه وظلمه ، فإننا نعد ، وعد ملك خادم للرب ، أى فرد من رعايانا ، وأتى من النخوة والشهامة ما يستطيع معه أن يجد الوسيلة لتنفيذ هذا المرسوم ، وتخليصنا من هذا الإنسان البغيض ، سواء بتسليمه لنا حياً أو ميتاً ، أو بإزهاق روحه على الفور ، نعد بأن نمنحه هو أو ورثته من الأرض أو المال ، وفق مشيئته ، ما قيمته خمسة وعشرون ألف كراون ذهباً . وسوف نصدر العفو عن أية جريمة ارتكبها أياً كان نوعها ، ونرفعه إلى مرتبة النبلاء إذا لم يكن نبيلا[٤٦] .

وكان جواب مجلس المقاطعات على هذا « الجرم » ، تعيين وليم حاكما عاما على هولنده وزيلنده (٢٤ يولية ١٥٨١) وبعد ذلك بيومين وقع ممثلو هولنده وزيلندرز وجلدرلند وأوترخت وفلاندرز وبرابانت ، فى لاهاى « قرار الاستنكار » الذى طرحوا فيه بشكل مهيب ولاءهم لملك أسبانيا . وفى وثيقة مشهورة فى التاريخ الهولندى ، شهرة وثيقة « إعلان الحقوق » التى أصدرها برلمان انجلترا ١٦٨٩ فى التاريخ الانجليزى ، أعلنوا أن الحاكم الذى يعامل رعاياه معاملة العبيد ويقضى على حرياتهم ، يجب ألا يعتبر بعد اليوم مليكهم الشرعى ويحق قانونا

عزله (٤٧) . وكان رد وليم على هذا الحرمان فى صيغة دفاع حرره له قسيسه ، أرسل إلى الجمعية العمومية وإلى كل بلاط فى أوربا ، ورحب بالحرمان على أنه وسام شرف له . واتهم فيليب بسفاح ذوى القربى والزنى وقتل زوجته وابنه . وأبدى استعداده للتخلى عن كل مناصبه ومغادرة الأراضى الوطنية بل حتى للتضحية بحياته ، إذا كان هذا فى مصلحة بلده ، ومهر الوثيقة بشماره « سوف أتثبت » .

ولم يلبث فيليب طويلا حتى جنى ثمار « الحرمان » الذى أصدره (١٨ مارس ١٥٨٢) . فان جين جوريجى أغرته الجائزة الموعودة ، فتسلح بمسدس واستعان بالله ، ونذر للعذراء بعض الغنيمة . واتخذ سبيله إلى وليم أورانج فى أنتورب . وأطلق الرصاص على رأسه ، فدخلت الرصاصة تحت الأذن اليمنى ونفذت إلى الفم ، ثم إلى الخد الأيسر . ولقى القاتل على الفور حتفه بيد أتباع وليم ، ولكن بدا أن المهمة قد نفذت . ولعدة أسابيع بدا أن الأمير على شفا الموت . ودعا فارنيزى المقاطعات الثائرة ، وقد مات زعيمها العنيد ، إلى المصالحة مع مليكهم الرحيم . ولكن وليم تماثل للشفاء فى بطء بفضل سهر زوجته شارلوت على العناية به . وهى التى قضت نحبها فى ٥ يونية بسبب الإرهاق والحمى . وفى يولية وضع متآمران مغموران خطة لدس السم لأمير أورانج ودوق أنجو كليهما . واكتشفت المؤامرة واعتقل المجرمان وانتحر أحدهما فى السجن ، وأرسل الثانى إلى باريس وحوكم وأدين ، ومزق أربا بربطه فى أربعة خيول ، تتجاذبه فى كل أتجاه .

وفى أثناء عام ١٥٨٢ جمع انجو حوله بعض قوات فرنسية فى أنتورب . ولم يكن الدوق ليقنع بلقبه ، وداعبه الحلم بأن ينصب نفسه ملكا . وهب أتباعه فجأة فى ١٧ يناير ١٥٨٣ ، وهم يهتفون « فيلحى القداس » وحاولوا أن يسيطروا على المدينة . فقاومهم الأهالى . وهلك فى هذه « الثورة الفرنسية » قرابة ألفى شخص . وأخفقت هذه الثورة وهرب أنجو . وعانى وليم من

فقدان قدر آخر من شعبيته لأنه ظل طويلا يؤيد أنجو ويسانده . ووقعت في مارس محاولة أخرى للقضاء عليه . فلم يطمئن للاقامة فى أنتورب ونقل مركز قيادته إلى دلفت . عندئذ عقدت مقاطعتا جرونِنجن وجلدرلند الصلح مع بارما، ولم يبق مع وليم إلا اثنتين من المقاطعات « المتحدة » : وهما هولنده وزيلنده . ولكنهما اثبتتا ولاءهما بأن جعلتا منصب « الحاكم العام » وراثيا فى أسرته (ديسمبر ١٥٨٣) ، وبهذا وضعت أسس بيت أورانج الذى كان يمكن أن يغزو وأن يرث نصف انجلترا فى ١٦٨٨ .

وأصر القتلة ولم تفتر عزيمتهم . وفى أبريل ١٥٨٤ حاول هانز هانزون من فلشنج أن يودى بحياة الأمير ، ولكنه أخفق وأعدم . واستبد الحماس الدينى ببلتازار جيرار من برجندى ، كما اشتد به التفكير فى الخمسة والعشرين ألف كراون، وقصد إلى دوق بارما يعرض عليه قتل أمير أورانج ، ولكن الدوق قدر أن شابا فى العشرين من عمره غير صالح للاضطلاع بهذه المهمة ، وأبى عليه المبلغ المتواضع الذى طلبه سلفا ، ولكنه وعده بالجائزة كاملة إذا حالفه التوفيق . وقصد جيرار إلى دلفت ، وتنكر فى زى كالفنى مسكين تقى ، وتلقى من وليم اثنى عشر كراون صدقة . وصوب إلى جده ثلاث رصاصات (١٠ يولية ١٥٨٤) فصرخ وليم « يا الهى ، رحمتك بى وبالشعب المسكين » . وفاضت روحه فى بضع دقائق . وقبض على جيرار وحوكم أمام قضاة المدينة ، وأبدى فرحه واغتباطه بنجاحه فيما قصد إليه ، ثم لقى أشد العذاب وقتل شر قتلة . وورى وليم التراب فى دلفت ، بأسمى مظاهر التكريم بوصفه « أبا البلاد » . ولما كان قد ضحى بكل ما يملك فى سبيل الثورة فإنه لم يخلف لابنائه الاثنى عشر شيئا تقريبا . وهذا شاهد صامت على ما درج عليه من نبل وشرف .

---

* أكد رانك فى كتابه « تاريخ البابوات » (١ — ص ٤٧٢) أن أحد الجزويت شجع جيرارد على فعلته . كما أكده موتلى فى كتابه «قيام الجمهورية الهولندية» ولكن أنكره باستور فى كتابة : «تاريخ البابوات» (الفصل العشرون ص١٩—٢٠).

ودفعت الجائزة كاملة لأبوى جيرار ، وابتهج كاثوليك الأراضى الوطيئة ، قائلين أن الجريمة انتقام إلهى لانتهاك حرمة الكنائس وقتل القساوسة . وأرسلوا رأس القاتل إلى كولون باعتباره من المخلفات الثمينة ، ولمدة نصف قرن بذلوا أقصى الجهد لاعلانه قديسا . (٤٩)

٦ — النصر

١٥٨٤ — ١٦٤٨

وهنت بموت وليم روح من بقى من أتباعه فى الفلاندرز وبرابانت . واستولى بارما على بروجز وغنت وبروكسل ومكلين وأنتورب ، ولم ينته ١٥٨٥ حتى وقعت الأراضى الوطيئة جنوب نهر ماس — فيما عدا أوستند وسليز — فى يد الأسبان ، على أن « المتسولين » ظلوا يسيطرون على الثغور والبحر .

وكم أهابت المقاطعات الشمالية بالملكة اليزابث لنجدتهم . واستجابت الآن للنداء . فقد أدركت أن ثورة الأراضى الوطنية منعت أسبانيا من اعلان الحرب على انجلترا ، وما كان فى مقدورها أن توقف هـذه الفرصة التى هيأتها العناية الإلهية — منع أسبانيا عن اعلان الحرب — هـذا بالإضافة إلى أن الهولنديين سيطروا على سوق الصدف الإنجليزى . وفى ديسمبر ١٥٨٥ أرسلت إلى هولنده قوة كبيرة بقيادة ليسترو سير فيليب سدنى . وأخذ ليستر لنفسه ، باعتباره حاكما عاما للمقاطعات الثائرة ، كل سلطة الملك تقريبا . ومذ رأى أن المقاطعات الجنوبية تستورد كل الحاجيات الضرورية للحياة من المقاطعات الشمالية فإنه حرم كل اتجار مع الممتلكات الأسبانية ، ولكن التجار الهولنديين كانوا يعيشون على هذه التجارة ، وصدروا بضائعهم إلى أسبانيا أثناء حربهم معها . ومن ثم رفضوا الخضوع لما نهى عنه ليستر ، الذى حلت به الهزيمة فى زوتفن (٢٢ سبتمبر ١٥٨٦) فغادر هولنده مشمئزا ، شاعرا بالخزى والعار . وسادت الفوضى فى الشمال لمدة عام كامل . وأنقذت

الجمهورية الصغيرة بفضل اشتراك فيليب لدوق بارما في خطته لغزو انجلترا ، وبفضل هجمات بارما المضللة ضد هنرى نافار فى فرنسا ، وتحكم الهولنديين فى البحار ، وثروة التجار الهولنديين وصمودهم ، وعبقرية جان فان أو لدنبار السياسية ، ثم بفضل ما أوتى موريس ناسو ، ابن وليم الصامت ، من عبقرية عسكرية .

وفور وفاة وليم الصامت اختير ابنه موريس حاكما عاما على هولنده وزيلنده وفى ١٥٨٨ ، وهو فى الحادية والعشرين ، عين قائدا عاما وأميرا للبحر فى المقاطعات المتحدة . وفى ١٥٩٠ أسلمته أوترخت وأفريحسل وجلدرلاند مقاليد الحكم فيها . وأفاد موريس من محاضرات سيمون ستيفن فى الرياضيات فى ليدن . فطبق العلم الحديث على القذائف والهندسة والحصار . ودرب الجيش الهولندى على أساليب جديدة للالتحام والنظام . وفى سلسلة من الحملات التى اشتهرت بسرعة الحركة والاستراتيجية المفاجئة (١٥٩٠ — ١٥٩٤) استرد موريس زوتفن ودفنتر وتيميجن وجروتنجن . أما بارما الذى ضيع مهاراته وأمواله فى هجمات فيليب العقيمة على انجلترا وعلى هنرى الرابع ، فإنه قضى نحبه فى « سبا » بسبب الاعياء والجراح (٢٠ فبراير ١٩٥٢) .

وعين فيليب خلفا له الأرشيدوق ارنست النمسوى الذى لم يلبث أن أدركته المنية ، ثم الكاردينال الأرشيدوق البرت الذى تخلى عن منصبه الدينى ، وتزوج ايزابل كلارا أوجينيا ، ابنة الملك . وقبل وفاة فيليب (١٥٩٨) بفترة وجيزة ، منح البرت وايزابل حق السيادة على الأراضى الوطنية ، شريطة أن يعود هذا الحق إلى أسبانيا إذا ماتا دون عقب . وأثبت الاثنان أنهما حاكمان قديران رحيمان . عجزا عن اخضاع المقاطعات الشمالية ، ولكنهما أقاما فى الجنوب حكما متحضرا ازدهرت فى ظله الفنون الكنسية فى انسجام جميل مع صور روبنز العارية .

وظهر على مسرح الحوادث فى ١٦٠٣ شخصية جديدة . وكان البرت قد استمر يحاصر أوستند عامين كاملين دون أن يصيب أى نجاح ، وجاء أحد

رجال المصارف الايطاليين ، هو امبروزيودى سبينولا ، ووضع كل ثروته في خدمة أسبانيا ، وجمع جيشا قوامه ثمانيه آلاف رجل ، وجهزه بالسلاح وبالعتاد ، وحاصر أوستند واستولى عليها . ولكن ثراءه العريض لم يعدل ثروة التجار الهولنديين ، الذين ثابروا على بناء وتجهيز الأساطيل التى أقضت مضاجع البحريه الأسبانية ، وهددت بقطع شريان الذهب الذى يتدفق بين أمريكا وأسبانيا . وإذا أرهق الحصار والقتل البرت وايزابل فانهما استحثا المفاوضات مع الهولنديين ، وأقرهما عليها الملك فيليب الثالث الذى أرهقه العسر والاملاق . وبرغم اعتراضات موريس حض أولدنبار نفلدت الهولنديين على المصالحة . وفى ١٦٠٩ عقدت هدنة هيأت للأراضى الوطيئة الراحة من عناء الحرب لمدة اثنى عشر عاما .

بيد أن الوئام فى الداخل شيء يختلف كل الاختلاف عن السلام الخارجى . لقد حنق موريس على أولدنبار نفلدت هيمنته على مقاليد الأمور فى الجمهورية . ومن الوجهة العملية كان لأكبر الموظفين راتبا فى هولنده السلطان والسيطرة على هذه المقاطعة وحدها ، ولكن مذ كانت ثروة هولنده والضرائب التى تدفعها للجمعية العمومية تعدل ما تملكه وما تدفعه سائر المقاطعات المتحدة مجتمعة ، فان أولدنبار نفلدت مارس فى الاتحاد سلطة تتكافأ مع تلك الثروة ، كما تتكافأ مع رجاحة عقله وشخصيته وخلقه . أضف إلى ذلك أن الملاك الذين حكموا المقاطعات والتجار والأغنياء الذين حكموا الكوميونات أحسوا بانعطاف نحو أولدنبار نفلدت الذى نبذ الديموقراطية مثلهم ، وقال « انه لمن الأفضل أن يحكمنى سيد مطلق من أن يحكمنى الرعاع »[٥٠] وولى موريس وجهه شطر الشعب ليحصل على تأييده ، ووجد أنه يمكنه أن يكسب الشعب إلى جانبه إذا جعل من القساوسة الكلفنيين أصدقاء له .

وكانت القضية الدينية التى أهاجت الجمهورية الآن قضية مثلثة الجوانب : فهناك المعارضة المتزايدة بين الكنيسة والدولة ، وهناك الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهناك أخيرا حرب النظريات بين البروتستانت

أنفسهم . وسعت المجامع الكنسية الكلفنية إلى أن تحدد النهج السياسى ، وتتخذ من الحكومة أداة لتقوية مذهبهم . وارتابت الجمعية العمومية فى المجامع الكلفنية على أنها نماذج سيئة وبذور خطيرة لمؤامرة الديموقراطية . وقد جلب أولدنبار نفلدت على نفسه عداوات كثيرة حين أمر رجال الدين بأن يتركوا الحكومة للسلطات المدنية . وقد يكون غريبا أن نقول أن الغالبية الساحقة من السكان فى ١٦٠٩ كانوا من الكاثوليك حتى فى المقاطعات الشمالية[٥١] . كانت القوانين تحرم العبادة الكاثوليكية ، ولكنها لم تكن تنفذ ، وكان هناك ٢٣٢ قسيسا يتلون الشعائر الكاثوليكية[٥٢] ، وأمر مجلس المقاطعة فى أوترخت القساوسة أن يتزوجوا النساء اللائى يستخدمونهن فى إدارة شئون منازلهم ، ولكن الامتثال لهذا الامر لم يكن تاما ، ولم يلق اقبالا .

وحدث الصراع داخل المجموعات البروتستانتية بين الكلفنيين و « المتحررين » ، وهم أقلية . وأطلق هذا الاسم على هؤلاء ، لا لأنهم أباحيون فى حياتهم . بل لأنهم حبذوا الحرية الدينية حتى للكاثوليك ، كما أيدوا تفسيرا إنسانيا متحررا للاهوت البروتستانتى . هؤلاء هم ورثة تقاليد ارزم (الذين كان ينتسب إليهم وليم أورانج) . وكان المتزمتون معتنقوا الكلفنية القديمة ، الذين تمسكوا بمذهب الجبرية الصارمة ، وأحسوا بأن عقيدتهم يجب أن تكون إجبارية فى كل المقاطعات المتحدة[٥٣]ـ نقول كان هؤلاء المتزمتون يرمون المتحررين بانهم « بابويون » فى الخفاء . ودافع ديرك كورنهرت الذى كان سكرتيرا لدى وليم أورانج. عن حرية العبادة فى كتاباته التى أرست أسس اللغة الأدبية فى هولندة . وانبرى واعظ من امستردام ، هو ج كوبس أرمنيوس . لفنيد آراء كورنهرت ، ولكنه تحول إليها واعتنقها بينما كان يدرس ليرد عليها . وحينما عين أستاذا للاهوت فى ليدن ، صدم المتزمتين بارتيابه فى الجبرية ، وإثباته أن الإنسان تنقذه أعماله الصالحة بقدر ماينقذه إيمانه ، وهذا يخالف ماقال به لوثر وكلفن . وسلم بأن الوثنى المتمسك

بأهداب الفضيلة قد ينجو من الجحيم . وذهب إلى أن كل الناس فى النهاية سيخلصون ودمغه أستاذ زميل له فى الجامعة ، فرانسيسكس جوماروس ، بأنه مهرطق ماكر .

ومات أرمنيوس ١٦٠٩ ، وكان قد كسب إلى جانبه آنذاك أتباعا من ذوى النفوذ ، من بينهم أولدنبار نفلدت وهوجو جروتيوس أكبر موظفى روتردام وفى ١٦١٠ صاغ هؤلاء « المتحررون » احتجاجا على نظريات الجبرية والاصطفاء والرفض أو الإخراج من زمرة الأبرار ، واقترحوا عقد مجلس وطنى يضم رجال الدين وغيرهم من العلمانيين لإعادة تحديد عقيدة الاصلاح وتعريفها . وصاغ المتزمتون «احتجاجا مضادا » أكدوا فيه من جديد المذهب الكاثوليكى :

« إن الرب ، بعد خطيئة آدم ، حفظ نفرا معينا من البشر من الدمار ، وقدر لهم الخلاص فى المسيح ... وفى هذا الاصطفاء لم يعتبر الرب الإيمان أو الارتداد ، ولكنه يعمل كيف يشاء . وأرسل الرب ابنه يسوع لتخليص هؤلاء المصطفين وحدهم[٥٤] » .

وأصر أتباع جوماروس على أن هذه القضايا لا يعالجها إلا رجال الدين وحدهم ، وبذلك نجحوا فى دمغ المحتجين بأنهم من أنصار البابا أو من أتباع بلاجيوس (الذين ينكرون نظرية الخطيئة الأصلية ويرون أن الإنسان مخير) أو من الموحدين (الذين لا يدينون بالتثليث) ، إلى حد أن أغلبية كبيرة من السكان البروتستانت انحازت إلى جانب المتزمتين ، وكان موريس ناسو يغفل شأن هذه المنازعات اللاهوتية احتقارا لها ، ولكنه تحرك الآن ليصادق مؤقتا جماعة المذهب القديم ، لأنهم يهيئون له ركيزة شعبية لمحاولة استعادة الزعامة الوطنية .

وأعقبت ذلك معركة بالخطب والعظات والنشرات قاربت أن تكون حربا . وعكرت الاضطرابات العنيفة صفو الهدنة . وهوجمت بيوت المتحررين

فى لاهاى ، وأخرج الوعاظ الكلفنيون المتشددون من روتردام . وجهزت هولندة جيشا للدفاع عن ديانتها ، وسرعان ماتبعتها مقاطعات أخرى ، وبدأن الحرب الأهلية توشك أن تقضى على الجمهورية فى مهدها ، وفى ٤ أغسطس ١٦١٧ اتخذ أولدنبارن نفلدت فى مجلس هولنده قراراً خطيرا — رآه موريس خطيرا حقا — يعلن فيه سيادة الدولة على الأمور الدينية ، ويوجه مدن المقاطعة إلى تسليح نفسها حماية لها من عنف أنصار الكلفنية ، وقصد إلى أوترخت حيث أقنع مجلسها بإعداد القوات لتأييد هولنده . وفى ٢٥ يولية ١٦١٨ دخل موريس ناسو بوصفه القائد الشرعى للجيش ، أوترخت على رأس قوة مسلحة . وأرغم الفرق المجندة حديثاً على أن يتفرقوا . وفى ٢٩ أغسطس أصدرت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة أمرا بالقبض على أولدنبارن نفلدت وجروتيوس وغيرهما من زعماء المحتجين . وفى ١٣ نوفمبر اجتمع مجمع كنيسة الإصلاح فى دور درخت (دورت) ، واستمع لآراء اللاهوتيين المحتجين وحكم بأنهم مهرطقون ، وأمر بطرد قساوسة المحتجين من وظائف الكنيسة والتعليم . وصبت اللعنة على أنصار أرمنيوس — مثلهم فى ذلك مثل الكاثوليك — وحرم عليهم عقد الاجتماعات أو إقامة الصلوات العامة . وفر كثيرون منهم إلى انجلترا حيث أحسنت الكنيسة الرسمية استقبالهم ودعموا هم مركز الأنجليكانيين المتحررين .

وحوكم أولدنبارن نفلدت أمام محكمة خاصة لم تهيء له أى سند قانونى . واتهم بأنه بطريقة مدموعة بالخيانة أشاع الفرقة فى الاتحاد وعرضه للخطر ، وبأنه سعى إلى تكوين دولة داخل الدولة . وفى خارج المحكمة انهال سيل من النشرات تذيع على الملأ أخطاء حياته الخاصة . ودافع هو عن نفسه دفاعا قويا بليغا إلى حد أن أبناءه أقاموا أمام سجنه عمود مايو المزدان بالأشرطة والزهور واحتفلوا بالإفراج المرتقب عنه ، وكلهم ثقة فى ذلك . وفى ١٢ مايو ١٦١٩ أقرت المحكمة إدانته ونفذ فيه حكم الإعدام فى اليوم التالى . وحكم على

جروتيوس بالسجن مدى الحياة ، ولكنه بفضل براعة زوجته هرب من السجن وعاش ليؤلف كتاباً يستحق الذكر .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى أحرزه التعصب ، نمت الحرية فى المقاطعات . وبلغ الكاثوليك من الكثرة حداً يتعذر معه وقف نموهم . ولم يكن من المستطاع تنفيذ القرارات النظرية التى صدرت عن مجلس دورت . وفى عام ١٦١٩ نفسه أسس المنونايتين (يعارضون حلف اليمين وعماد الأطفال والخدمة العسكرية وقبول الوظائف العامة) ، فى حرية تامة ، طائفة الطلبة الجامعيين ، وهى تشبه الكويكررز ، فى ريجنسبرج وقد وجد عندهم سبينوزا ملجأ آمنا . وفى ١٦٢٩ امتدح ديكارت حرية الفكر التى نعم بها فى امستردام ، وفى نهاية القرن السابع عشر أصبحت هولنده ملاذ المهرطقين الذين لجأوا إليها من بلاد كثيرة .

وفى ٩ أغسطس ١٦٢١ استؤنفت الحرب مع أسبانيا . ذلك أن الأرشيدوق ألبرت مات دون أن يخلف عقبا . فعادت المقاطعات الجنوبية إلى أسبانيا . وأغار سبينولا على المدن الهولندية الواقعة على الحدود . فسار إليه موريس ناسو ، ولكن سنوات النضال كانت قد أنهكت قواه ، فمات فجأة (١٦٢٥) وهو فى سن السابعة والخمسين . واستولى سبينولا على بريدا ، وبذلك فتح الطريق إلى امستردام ، وهيأ للمصور فيلاسكويز موضوع لوحة .

ونهض الهولنديون من كبوتهم واستردوا قوتهم فى إصرار وعناد . وأدهش فردريك هنرى الذى خلف أخاه فى منصب الحاكم العام ، الأعداء والأصدقاء على السواء ، بما كان يخفى حتى الآن من مواهب رجل دولة وقائد وبفضل دبلوماسية فرانسيس آرسنز استطاع أن يحصل من ريشيليو على منحة سنوية قدرها مليون ليرة ، وجمع جيشا جديدا ، وبعد حصار طويل استولى على هرتوجنبوخ وماسترخت وبريدا . ولحسن الحظ كان سبينولا قد استدعى إلى لومبارديا .

وفى نفس الوقت استخدام التجار الهولنديون أموالهم فى بناء السفن ، لأن كل انتصار فى البحر كان يعنى توسيع مجال التجارة . وفى عام ١٦٢٨ أسر أسطول هولندى صغير تحت أمرة بيبت هين أسطولا أسبانيا كان يحمل الذهب من المكسيك وهاجم أسطول هولندى آخر قوة أسبانية مكونة من ١٣ سفينة فى نهر سلاك ، فدمرها وأسر ٥٠٠٠ رجل (١٦٣١) . ولكن أروع هذه الانتصارات البحرية هى المعركة التى خاضها قائمقام أمير البحر مارتن هاربوتزون ترومب فى القنال الإنجليزى (بين دوفر وديل) وكان الأسبان قد عقدوا العزم على استعادة السيطرة على ثغور الأراضى الوطيئة من الهولنديين . فأعدوا أسطولا ضخما جديداً من ٧٧ سفينة عليها ٢٤ ألف رجل فلما أبصر به ترومب فى القنال ، أرسل فى طلب المدد ، وفى ٢١ أكتوبر ١٦٣٩ أبحر ومعه ٧٥ سفينة حتى صار على مقربة من مواقع العدو ، فأغرق أو أعطب أو أسر كل الأسطول الأسبانى فيما عدا سبع سفن . وقتل ١٥ ألفا من الملاحين الأسبان فى المعركة أو أغرقوا . وتحتل معركة القنال الإنجليزى فى تاريخ هولنده نفس المكانة التى تحتلها هزيمة الأرمادا (١٥٨٨) فى تاريخ انجلترا . فقد وضعت حداً لكل دعاوى أسبانيا فى السيادة على البحار ، وقطعت شريان الحياة بين أسبانيا ومستعمراتها ، وأسهمت مع انتصار فرنسا على أسبانيا فى معركة روكروا (١٦٤٣) واختتمت الحقبة التى هيمنت فيها أسبانيا على أوربا .

مذ انهمكت أسبانيا انهماكا تاماً فى حرب الثلاثين عاما فإنها قررت أن تنزل للهولنديين عن كل شىء ، حتى تتفرغ للحرب مع فرنسا . وفى مونستر فى ٣٠ يناير ١٦٤٨ وقع المندوبون الأسبان معاهدة وستفاليا التى أنهت ثمانين عاماً من الحرب فى الأراضى الوطيئة . وأعلن أن المقاطعات المتحدة غير متقيدة بأى رباط مع أسبانيا . وتم الاعتراف بفتوحاتها . ولا تصل تجارة الراين إلى بحر الشمال إلا عن طريق الثغور الهولندية وحدها . وخول التجار الهولنديون حرية التجارة فى جزر الهند الشرقية والغربية . وهكذا انتهى أطول وأشجع وأقسى صراع من أجل الحرية فى التاريخ بأسره .

الفصل الثامن عشر

من روبنز إلى رمبرانت

١٥٥٥ — ١٦٦٠

١ — الفلمنكيون :

أنه لما يثير الدهشة أنه فى قطعةصغيرة من أوربا ، مثل الأرراضى الوطيئة نشأت ثقافتان متضادتان مثل الفلمنكية والهولندية ، وعقيدتان متنافرتان مثل الكاثوليكية والكلفنية ، وفنانان مختلفان كل الإختلاف فى المزاج والأسلوب مثل روبنز ورمبرانت ، وفانديك وهالس .

ولانستطيع أن نفسر التباين بإختلاف اللغة لأن نصف الفلاندز* ، مثل كل المقاطعات المتحدة ، تحدثوا اللغة الهولندية . وربما نبع بعض التباين من اقتراب هولنده من ألمانيا البروتستانتية واقتراب الفلاندرز من فرنسا الكاثوليكية . وربما ينجم جزء من الإختلاف من إرتباط أسبانيا الكاثوليكية الملكية الارستقراطية إرتباطا وثيقا ببروكسل وأنتورب . وورث أقليم الفلاندرز ديانةالعصور الوسطى وفنها وأساليبها ، على حين كانت هولندة أفقر ، حتى هذا الوقت ، من أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ويمكن أن تكون الشمس المشرقة فى المقاطعات الجنوبية قد نزعت بأهلها إلى حياة شهوانية غير متمسكة بقواعد الأخلاق ، على حين أن الغيوم والمصاعب فى الشمال شجعت أهله على أعتناق عقيدة صارمةرواقية رزينة . أو على الأرجح ،

(*) تستخدم هنا ، تيسيرا ، لفظتا الفلاندرز والفلمنكين Flandrs , Flemish للدلالة على الأراضى الوطيئة الأسبانية ، ولفظتا هولندة والهولنديين Hoeenp Outeh للدلالة على المقاطعات الشماليه أو المتحدة .

أن الجيوش الأسبانية انتصرت فى الجنوب ، وأندحرت فى الشمال نتيجة الأنهار المعترضة والثروة الهولندية ؟

لابد أن أنتورب كانت جميلة عندما اكتمل صرح كاتدرائيتها بأبراجها وواجهاتها وفنها الزخرفى ، على حين على مقربة منها ضجت البورصة بكل حيوية التجارة وحيلها ، ورقصت المياه بكل سفن العالم . ولكن الحرب أندلعت بعد ذلك ، فإن ضراوة دوق ألفا ومحاكم التفتيش أخرجت الصناع المهرة والتجار البروتستانت إلى هولندة وألمانيا وإنجلترا ، وصرامة الكاثلكية أتلفت الكنائس ، وعنف الأسبان نهب البيوت وأحرق القصور ، كما أن ضراورة فرنسا أفرغت عجزها فى الدماء ، والحصار الذى ضربه فانز لمدة أربعة عشر شهرا أمات الكاثوليك والبروتستانت جوعا على حد سواء . وأخيرا انضم الكاثوليك إلى البروتستانت فى الخروج من المدينة ، وانتقلت تجارة أنتورب إلى إمستردام وروتردام وهارلم وهمبرج ولندن وروان .

ولكن وحشية الإنسان متقطعة ، وسهولة التكيف عنده باقية . وقد يكون لنا بعض السلوى فى أن نتتبع كيف أن بعض الأمم والمدن استطاعت بسرعة أن تنهض من دمار الحرب وويلاتها . وتلك كانت حال الفلاندرز بعد ١٥٧٩ . بقيت صناعة النسيج ، وظل الطلب كبيرا على المخرمات الفلمنكية ، وظلت الأمطار تحيى الأرض وأضفى كدح الناس البهاء والفخامة على الحاشية . واستمتعت أنتورب وبروكسل ، تحت حكم الأدواق الذين أحبوا حياة الترف ولكن مع روح إنسانية ، ببعث ونشور جديرين بالذكر . وعادت الفلاندرز إلى كاتدرائياتها وأعيادها الدينية ومهرجاناتها الوثنية . وربما بالغ روبنز فى هذا فى « مهرجان اللوفر العاصف » ولكن استمع أيها القارىء إلى تقرير الكاردينال أنفانت فرديناند ، من أنتورب إلى فيليب الرابع ١٦٣٩ :

« أقاموا بالأمس إحتفالهم الكبير ... أنتقل موكب طويل إلى الريف مع عربات كثيرة تحف بها مظاهر النصر . وبعد العرض هرع الناس إلى الطعام والشراب ، حتى شمل الجميع آخر الأمر ، وبدون هذا لا يعتبرون أنه احتفال

أو عيد[1] ، بل أن الكاردينال نفسه عندما قدم من أسبانيا إلى بروكسل (١٦٣٥) استقبلوه بالمهرجانات التى دامت لعدة أيام ، وسط زخارف فخمة صممها روبنز نفسه . ووصف زائر إيطالى مدن الفلاندرز قبل الثورة بأنها « سلسلة لا تنقطع من الاجتماعات البهيجة والأعراس وحلبات الرقص ، مع أنغام الموسيقى والأغانى المرحة فى الشوارع[2] » ، ولم تستسلم كل هذه الروح للحرب . فإن الألعاب التى صورها بروجل كانت لا تزال تقام فى الشوارع ، واستمعت الكنائس مرة أخرى للقداسات المتعددة النغمات والأصوات التى كانت قد جعلت المنشدين الفلمنكيين ، يوما ، مرغوبا فيهم فى كل بلاد . ودخلت الفلاندرز أبهى عصورها .

٢ — الفن الفلمنكى :

تضافرت الحاشية والكنيسة ، والنبلاء وأبناء الشعب فى البذل من أجل إحياء الفن الفلمنكى ، ورعى البرت وايزابل وشجعا كثيرا من الفنانين ، إلى جانب روبنز . وكانت أنتورب لفترة من الزمن مركز الفن فى أوربا ، واستعاد قماش بروكسل المزركش (النسيج المطرز بالكانفاه) امتيازه وتفوقه ، مستعينا برسوم روبنز البطولية . وكان صانعو الزجاج البنادقة قد جلبوا فنهم إلى الأراضى الوطنية فى ١٥٤١ ، وأنتج الصناع المهرة المحليون منه الآن قطعا هشة آية فى الإعجاز ، كان بعضها محل إعزاز وإعجاب إلى حد أنها غالبت قرونا من الفتنة والشغب فغلبتها ، وأبدع صناع المعادن أعاجيب من نسج أفكارهم وأيديهم ، مثل الآنية المعدنية الفاخرة التى تحفظ فيها الذخائر الدينية ، التى يمكن أن توجد فى الكنائس الكاثوليكية فى بلجيكا ، وألحت الارستقراطية التجارية فى طلب القطع الفنية : وجلسوا أمام المصورون ، وشيدوا قصورا فخمة ، ودورا للبلدية ، لمثل تلك التى شادها كرنيلى دى فرندت تمجيدا لأنتورب (١٥٦١ - ١٥٦٥) قبل العاصفة . ولما جرد المتعصب الذميم الكنائس من

آيات الفن ، بات هؤلاء التجار الأرستقراطيون يشدون من أزر المراسم ويرعونها فى لهفة وحماس ، يلحون فى طلب التماثيل واللوحات ليصوروا العقيدة للشعب .

ولم يزدهر فن النحت هنا ، لأن فرنسوا دوكيسنوى ، ابن بروكسل ، أنجز معظم أعماله فى رومه حيث نحت تمثالا ضخما لسانت أندروز بداخل كنيسة القديس بطرس، وإن نفراً قليلا من السائحين الذين يحرصون على رؤية « أقدم مواطنى بروكسل » ، نافورة مانكن بس Manneken Pis (١٦١٩) - تمثال برونزى لصبى يزيد فى مياه المدينة من موارده الخاصة - يعلمون أن هذا هو أبقى روائع دوكيسنوى على الزمن .

أما المصورون الفلمنكيون فإنهم يجلون عن الحصر ، وواضح أن كل بيت فى الأراضى الوطيئة كان عليه أن يقتنى لوحة أصلية ، وأكب ألف فنان فى مائة مرسم على تصوير الأشخاص والمناظر الطبيعية والحيوانات والمؤن والأساطير والعائلات المقدسة وصلب المسيح ، أما إسهامهم المتميز فى تاريخ الفن فهو صور جماعية للهيئات البلدية ، وصور تمثل الحياة المنزلية أو القروية وتأثر هؤلاء الفنانون فى أول الأمر بالطرز الإيطالية ، فقد أبحرت السفن الإيطالية كل يوم إلى أنتورب ، وافتتح التجار الإيطاليون متاجر لهم فيها . وجاء الفنانون الإيطاليون ليهزأوا ويسخروا فأقاموا ليرسموا ، وقصد كثير من الرسامين الفلمنكيين إلى إيطاليا للدراسة ، واستقر المقام ببعضهم هناك ، ومن هؤلاء جوستوس سوسترمانز أحد أبناء أنتورب ، الذى أصبح مصورا للأشخاص، مقر باوذا حظوة لدى أدواق تسكانيا العظام، وأن بمضا من أجمل اللوحات فى قصر بتى هى بريشة هذا الفلمنكى المفعم بالحيوية ، وعاد فرانس فلوريس من دراسته مع ميكلانجلو فى رومه ، وأطلق على نفسه بصراحة أنه « رومانى » ، واستساغ التشريح وأخضع اللون للخط ، وظل مرسمه فى أنتورب لمدة جيل (١٥٤٧ - ١٥٧٠) كعبة للتصوير الفلمنكى وذروته ، وقد يكون

جديرا أن نزور كاين انرى فى متحفها لوحته الرائعة الضخمة « زوجة صياد الباز » وعاش فرانس فى بحبوحة من العيش . وشاد لنفسه قصرا ، وأسرف فى العطاء وفى الشراب ، وبات فقيرا ، وكان كورنلس دى فوز أقدر أفراد أسرة كبيرة من المصورين ، وعندما كان يتزاحم ذوى المكانة أمام روبنز ليصورهم كان يرسل بعضهم إلى فوز ، مؤكدا لهم أنهم سيظفرون منه بمثل ما يرجون من روبنز نفسه ، ولا يزال فى مقدورنا أن نشاهد لوحة تمثل كورنلس وزوجته وابنتين جميلتين لهما ، معلقة فى متحف بروكسل .

وذبلت الفتنة الإيطالية حوالى نهاية القرن السادس عشر ، واستأنف الفنانون الفلمنكيون موضوعاتهم وأساليبهم المحلية . وعاد دافيد تنيير الأكبر إلى أنتورب . برغم أنه درس فى رومه ليرسم «المطبخ الهولندى» و«مهرجان القرية[٣]» ، ثم علم ابنه حتى تفوق عليه ، وشكل سليل العجوز درول بيزانته بيتر بروجل أسرة من المصورين توفرت على تصوير المناظر الطبيعية المحلية والمشاهد الريفية ، ومنها ولداه بيتر بروجل «الجحيم» ، وجان بروجل «المخمل» ، وحفيداه جان الثانى وأمبروز ، وحفيد حفيده أبراهام ، وحفيده الأكبر جان بابتست بروجل ، وقد امتد بالأسرة العمر قرابة قرنين من الزمان (١٥٢٥ — ١٧١٩) ، ولنوضح سجل أعمالهم هنا نقول بأنهم ورثوا عن سلفهم العظيم النزعة إلى المشاهد الريفية والمهرجانات القرويه ، ورسم بعضهم خلفيات مناظر طبيعية لروبنز المثقل بالعمل .

وأخرج فنانو الأراضى الوطيئة الفن من الكنيسة والدير إلى البيوت والحقول والغابات ورسم دانيل سيجرز الأزهار والفاكهة فى تفصيل محبب إلى النفس ، وخص العذراء بأكاليله المصورة ، وانضم إلى الجزويت ، وبعث فرانس ستيدرز الحياة والتعبير فى جوانب العديد من المتاحف بمناظر الصيد المثيرة ، والمفزعة أحيانا ، وبالكثير من أطباق لحم الطرائد والفاكهة ،

ولا يزال ، كما وصفه روبنز ، أعظم مصورى الحيوان ، لم ينافسه أحد فى روعة تظليل فراء الحيوان أو ريش الطير .

وعاد أدريان بروور Brouwr إلى فلاحى بروجل ، فأبدعت فرشاته تصويرهم وهم يأكلون ، ويشربون ، ويغنون ، ويرقصون ، ويلعبون الورق ، والنرد ، ويقاتلون أو يعربدون فى احتفال صاخب ، أو يغطون فى النوم . ومر أدريان نفسه بأطوار كثيرة فى حياته التى لم تتعد اثنين وثلاثين عاما ، فإنه درس مع هالس لفترة وجيزة ، وفى سن الواحدة والعشرين أصبح أستاذا مسجلا فى نقابة الرسامين فى أنتورب ، وكان ينفق أكثر مما يحتمل دخله ، وسرعان ما غرق فى للديون ، وأودعه الاسبان السجن لأسباب غير معروفة الآن ، ولكنه كان يحيا فيه مترفه ، ثم استرد حريته وسدد ديونه بفضل صور صغيرة . زاخرة بالحياة ممتازة فنيا من ناحية الرسم الحسى وحركة الضوء الرقيقة ، إلى حد أن روبنز ابتاع منها سبعة عشرة رسما ، ورمبرانت ثمانية ، ولا يبدو فلاحوه سعداء قط إلا إذا ثملوا بالنبع القوى أو الخمور الرخيصة ، على أن بروور آثر فلاحا يغنى مع كأسه على أمير منافق يرفل فى الحرير ، وفى سن الثانية والثلاثين عثر عليه وقد فارق الحياة خارج باب إحدى الحانات .

وكان جاكوب جوردانز أكثر وقارا واتزانا ، نقش فى إحدى لوحاته « تحذيرا للظمأ » : « إن أشبه شىء بالمجنون هو المخمور » . واختار أن يرسم رجالا يستطعون احتساء الخمر دون هذيان أو خبل ، ونساء يرفلن فى حفيف الحرير فى إجلال وعظمة . ولد جاكوب فى ١٥٩٣ وعمر حتى الخامسة والثمانين مع كمال الوعى والإدراك . ورسم لنا شخصه فى لوحة « الفنان وأسرته »[٤] ، رجل منتصب القامة . واثقاً بنفسه ، رشيقاً ، ثرياً ، يمسك بمزهر ، وزوجته مطمئنة فى الطوق المكشكش الخانق حول رقبتها ، وابنة لطيفة بدأت لتوها ريعان شبابها كما تبدأ تتفتح أزهار الغلاندرز ، وبنتاً صغيرة سعيدة بالبيت الهادىء والمذهب المريح انظر إلى الصليب المتدلى على صدرها . وتحول جوردانز إلى البروتستانتية ، ولكن فى سن الثانية والستين . ورسم عدة لوحات دينية ،

ولكنه آثر مشاهد الحياة اليومية والأساطير ، وفيها يستطيع أن يبرز الرؤوس الضخمة والصور المتألقة التي كان قد رآها في أروقة البيوت في أنتورب ، مثل لوحة « الملك يحتسى الخمر[٥] ، أو أفضل منها ارحة ، قصة الخصب[٦] ، وهنا ، وسط الفاكهة (التي رسمها سنيدرز صديق جاكوب) والفراشات تروعنا فتاة عارية فاتنة ، تشاهد من مسقط خلفي فقط ، ولكنها في كل نضارة الشباب ورشاقته ، ترى أين عثر جوردانز على نموذج لهيفاء مثل هذه في الفلاندرز على عهد روبنز ؟

٣ — روبنز

١٥٧٧ — ١٦٤٠

ولد أعظم المصورين الفلمنكيين في ١٥٧٧ ، من سلسلة طويلة من رجال أعمال موفقين ، وثابع هو السلسلة . ودرس أبوه ، جان روبنز ، القانون في بادوا ، وتزوج من ماريا بيبلنكس . وانتخب عضوا في المجلس التشريعي في أنتورب وهو في سن الحادية والثلاثين واتهم بالبروتستانتية فاستبعد بالذات من العفو العام الذي صدر ١٥٧٤ ، وهرب مع زوجته وأطفاله الأربعة إلى كولين ، وهناك اختارته مستشارا قانونيا ، آن السكسونية (زوجة وليم أورانج التي افترقت عنه) ، وارتكب معها الفحشاء ، فأودعه الأمير السجن في ولنبرج ولكن ماريا غفرت لزوجها زلته وبعثت إليه برسائل رقيقة مؤثرة *) ،

(*) مثال ذلك : زوجي العزيز الحبيب ، إن خطابا منك . . . أثلج صدري ، لأني علمت منه أنك واض عن صفحي عنك ، ولم يدر بخلدي قط أنك اعتقدت أن هناك أية عقبة تحول دون ذلك من جانبي ، والحق أني لم أعتد إلى شيء من هذا . وكيف يطاوعني قلبي أن أغضب عليك في هـذه المحنة ، في الوقت الذي أضحي فيه بحياتي لأنقذك ؟ . . . وكيف تنجح أية كراهية مريرة ، بمثل هذه السرعة في القضاء على حبنا العميق ، حتى تجعل من المستحيل أن أغفر لك هذه الخطيئة اليسيرة التي ارتكبتها ضدى ، على حين أنه يجدر بي أن أدعو الله أن يغفر لي الخطايا الجسام الكثيرة التي اقترفتها ضده في كل حين[٧] .

وقدمت الالتماسات وكافحت من أجل الإفراج عنه . حتى تم لها ذلك بعد عامين من المحاولة ، شريطة أن يبقى جان تحت المراقبة فى سجن فى وستاليا ولحقت به هناك فى ١٥٧٣ ، ومن المحتمل أن بيتربول رأى النور هناك ، وعمد الطفل وفق الطقوس اللوثرية ، ولكن . وهو لايزال فى المهد ، تحولت الأسرة إلى الكثلكة . وفى ١٥٧٨ انتقل جان مع أسرته إلى كولون حيث اشتغل بالقانون وأثرى وازدهر ، وعند موته (١٥٨٧) قصدت ماريا مع أطفالها إلى أنتورب للإقامة فيها .

وتلقى روبنز تعليمه الرسمى حتى سن الخامسة عشر فحسب ، ولكنه زاد عليه بالدأب على القراءة وبالخبرة والتجربه . وظل لمدة عامين وصيفا فى خدمة كونتس لا لنج فى أودينار ، والمفروض أنه تعلم هناك الفرنسية والسلوك الرفيع الذى تميز به عن معظم فنانى عصره . ولما لحظت أمه ميله إلى الرسم ، ألحقته للتدريب على يد طوبيا فرهاخت ، ثم آدم فإن نورت ، وأخيراً أوتوفاينوس ، وكان رجلا واسع الثقافة لطيف الحديث ، وبعد قضاء ثمان سنوات فى كنف هذا المعلم الممتاز ، قصد روبنز ، وهو الآن فى سن الثالثة والعشرين ، إلى إيطاليا ليدرس الروائع التى هزت شهرتها النفوس المتعلقة بالتصوير . وفى فينيسيا عرض أعماله الخاصة على رجل فى حاشية فنسنزوجونزاجا دوق مانتوا . وسرعان ما التحق روبنز بقصر الدوق فى مانتوا ، رساما للبلاط وهناك أبدع لوحتين قاربتا الكمال الفنى : « جوستوس لبسيوس وتلاميذه »[٨] وكان بين التلاميذ فيها بطرس وأخوه فيليب ، ثم لوحة تمثله هو نفسه[٩] ، أى روبنز ، وهو نصف أصلع فى الخامسة والعشرين . ولكنه ملتح جرىء يقظ . وقام برحلات قصيرة إلى روما ليفسخ للدوق بعض الصور ، وإلى فلورنسه حيث شهد (ورسم فيما بعد بشكل مثالى) زواج ماريا مديتشى من هنرى الرابع الغائب . وفى ١٦٠٣ أوفده الدوق فى مهمة دبلوماسية إلى أسبانيا يحمل هدايا إلى دوق ليرما ، وتقبل الوزير الرسوم التى كان روبنز قد قام بنسخها على أنها لوحات أصلية ، وعاد الفنان إلى مانتوا دبلوماسيا ناجحا .

وفى رحلة ثانية إلى رومه استقر به المقام فيها مع أخيه الذى كان أمين مكتبة كاردينال ، وأبدع بيتر آنذاك عدة لوحات للقديسين ، منها لوحة « القديس جريجورى يصلى للعذراء[١٠] » . وقد اعتبرها أولى روائعه . وفى ١٦٠٨ سمع بمرض أمه ، فاستحث السير شمالا إلى أنتورب ، وتأثر أشد التأثر حين وجد أنها قد فارقت الحياة . وكان حبها الموسوم بالحكمة والصبر قد ساعد على خلق مزاجه المرح الذى سعدت به حياته . وفى نفس الوقت كان قد تعلم الكثير فى إيطاليا . فإن لون البنادقة المغرى البديع ، والشهوانية الحسية فى لوحات جيوليو رومانو الجصية فى مانتوا . والجمال الأخاذ الهادىء فى رسوم النساء التى أبدعتها يد كوريجيو فى بارما ، والفن الوثنى فى رومه الوثنية المسيحية معا وارتضاء المسيحية للاستمتاع بالخمر والنساء والغناء — كل أولئك امتزج بدمه وفنه . حتى أنه عندما عينه الأرشيدوق ألبرت مصور البلاط ، فى أنتورب ١٦٠٩ ، اختفت كل بقايا الفن القوطى فى التصوير الفلمنكى ، واكتمل انصهار الفن الفلمنكى والفن الإيطالى معا .

وكان ضربا من الحكمة على غير قصد منه أنه كان متغيبا عن الأراضى الوطنية طوال ثمانية أعوام الحرب ، وأنه تلقى قرار تعيينه فى أول أعوام الهدنة ، فى السنوات الإثنتى عشرة التالية على وجه التحديد استعادت أنتورب وبروكسل حياتهما الثقافية . ولم يكن روبنز بالعنصر اليسير فى هذا البعث . ويحصى مؤرخ سيرته ١٢٠٤ من اللوحات الزيتية و ٣٨٠ من الرسوم له[١١] ، ولا يستبعد أن كثيراً غير هذه وتلك لم يسجله التاريخ . وليس لهذا الخصب مثيل فى تاريخ الفن . ويكاد الأمريكون كذلك بالنسبة لتنوع الموضوعات وسرعة التنفيذ . وكتب روبنز يقول : « إن موهبتى من طراز معين ، ولم تروعنى معه أية مهمة مهما عظم حجمها أو تشعبت موضوعاتها[١٢] » — لقد أنجز فى خمسة وعشرين يوما اللوحات الثلاث التى تمثل « النزول عن الصليب » لكاتدرائية أنتورب ، وفى ثلاثة عشر يوماً لوحة « عبادة الملوك » الضخمة الموجودة الآن فى متحف اللوفر . وبالإضافة إلى راتبه السنوى فى البلاط

وقدره ٥٠٠ فلورين كان يتقاضى أجراً عن كل إنتاج فردى . أنه قبض مبلغا ضخماً ، ٣٨٠٠ فلورين (٤٧,٥٠٠ دولا ؟) عن التحفتين السابق ذكرهما ، أي بمعدل أجر يومى قدره ١٠٠ فلورين (١٢٥٠ دولارا ؟) . وذهب جزء من هذا المبلغ بطبيعة الحال إلى المساعدين العديدين الذين كان كثير منهم مسجلا فى نقابة الفنيين بوصفهم أساتذة . ورسم جان بروجل « المخمل » الأزهار فى لوحات روبنز ورسم جان ولدنز المناظر الطبيعية والحواشى الثانوية ، ورسم بول دى فوز المعادن والفاكهة ، أما فرانس سنيدرز فقد صور بطريقة نابضة بالحياة الرأس المستدق بشكل دقيق للكلب فى لوحة « ديانا عائدة من الصيد»[١٤] ولسنا ندرى نصيب سنيدرز ونصيب روبنز فى مناظر الصيد الهائلة فى قاعات درسدن وميونيخ ومتحف المتربوليتان فى نيويورك . وفى بعض الحالات رسم روبنز الأشخاص ، وترك لمساعديه الدهان . وكان روبنز يقدم لزبائنه بياناً صادقاً عن درجة إسهامه بنفسه فى اللوحات التى باعهم إياها[١٥] . وبهذه الطريقة وحدها استطاع أن يواجه الطلبات التى انهالت عليه . وأصبح مرسمه مصنعاً يعكس أساليب العمل فى اقتصاد الأراضى الوطيئة ، وأدى الخصب فى الإنتاج والسرعة فى الإنجاز إلى الحط من نوعيته ، ولكنه قارب الكمال إلى حد يصبح معه إله الفن الفلمنكى .

وأحس روبنز بالطمأنينة فتزوج فى ١٦٠٩ . وكانت إيزابلا برانت ابنة محام وعضو المجلس التشريعى فى أنتورب ، ومن ثم كانت شريكة صالحة لابن محام وعضو فى المجلس التشريعى فى المدينة نفسها . وأقام روبنز فى بيت أبيها حتى يتم إعداد داره الفخمة المطلة على قناة وابنز . وفى واحـــدة من أجمل لوحاته[١٦] نرى بيتر وايزبللا تغمرهما سعادة الأيام الأولى من الزواج ، أما هى فتراها مكسوة بأردية فضفاضة مشدودة الخصر بصدار مزدان برسوم الأزهار ، وقد وضعت يدها على يده فى ثقة واستئثار ، وبرز وجهها المفعم بالحيوية من طوق رقبة مكشكش أزرق هائل ، وتوج رأسها بقبعة فارس ، أما هو فتراه مكتمل الرجولة والنجاح ، ذا ساقين قويتين ولحية بيضاء وملامح

وسيمة ، يرتدى قبعة مزدانة بالأشرطة . ولم تعمر إيزابلا بعد الزواج أكثر سبعة عشر عاماً ، ولكنها أنجبت له أبناء سهر على تربيتهم ورسمهم فى حب وإعزاز ، فهناك لوحة الولد الجعد الشعر فى متحف قيصر فردريك ، برلين ، وهو ممتلىء الجسم جميل سعيد ، يلعب بيمامة ، ويمكن أن نراه مرة أخرى فى لوحة « أبناء الفنان »[١٧] ، وقد كسته السنوات السبع التى سلخها من عمره بالرصانة ، وما يتسنى إلا لرجل فاضل بارع أن يرسم مثل هذه اللوحات .

وكان روبنز فى نفس الوقت وثنياً أساساً ، ولو عاد دون تورع أو خجل بجسم الإنسان ذكراً أو أنثى ، فى كل نشوة الفتوة عند الرياضى القوى ، أو فى هدوء المتقوس المنحنى ، وكان معروفا عن الفلاندرز أو رمزاً عليها أنها استمتعت بأساطير الوثنية الدنسة — طقوس وعادات الجسم الطليق — على حين رحبت الكنائس بتأويله للموضوعات الدينية أو تفسيره لها . ولم يستطع أن يفرق بين مريم العذراء وفينوس : ولعله لم يحس بأى تعارض بينهما ، فكلتاهما جلبت له المال . وفى لوحة « عبادة فينوس »[١٨] كان العنصر الوثنى غير مقيد — مجموعة من كاهنات إله الخمر باخوس ، يخفين فى تواضع وخفر معصما أو ركبة ، يعانقهن إلهة معر بدون شهوانيون ، على حين يرقص إثنى عشر غلاماً حول تمثال إلهة الحب . ولو أن هذه الموضوعات الوثنية تعكس أثر مقامه فى إيطاليا ، إلا أن صور فينوس يعوزها الخط الكلاسيكى ، فهى لا تستيطيع الحياة فى الشمال ، على الشمس والهواء والخمر كما كان حالها فى الجنوب ، بل أنها يجب أن تأكل وتشرب لتتق المطر والضباب والبرد . والطبيعة البشرية التيوتونية ، مثل الويسكى البريطانى — انجليزى أو اسكتلندى — دفاع مناخى وكان عنوان إحدى لوحات روبنز - وفيها ثلاث نساء عاريات متورمات - « فينوس بلا خبز ولا نبيذ تشعر بالبرد والضعف[١٩] ; وتلطف الفنان فلم يقل « بلا لحم ولا جعة » ، وكذلك لم ير مجافاة للياقة فى لوحته « راع يغازل »[٢٠] وهى تمثل راعيا يحاول أن يغوى فتاة بدينة تزن ثلثمائة رطل ، فليس ثمة حسن أو ردىء ، جميل أو قبيح ، ولكن البيئة هى التى تحدد هذا أو ذلك : وليس

فى لوحة « اغتصاب السابين »[٢١] الأكل ما يستطيع أن يفعله جباران قويان رومانيان ليرفعا على ظهر جواد امرأة تسحر اللب من أمرارهم . وحتى فى لوحة « عواقب الحرب »[٢٢] ليس ثمة ضعف . و « ديانا عائدة من الصيد[٢٣] » لم تكن إلهة أغريقية أنيقة طاهرة ، بل ربة بيت فلمنكية عريضة الكتفين قوية العضلات ذات مكانة اجتماعية ، وفى كل هذه الصورة الضخمة الممتلئة لا ترى نحيلا إلا الكلب . وغابات روبنز ملأى بآلهـــة يعتصرون أثقالا ، كما فى « أكسيون وهيرا[٢٤] » و « أربعة أركان الدنيا[٢٥] » ، وكما يمكن أن نكون قد توقعنا لم يكن « أصل المجرة[٢٦] » - فرضية مستديمة ، بل ربة بيت بدينة تفيض سيلا من اللبن من ثدى ممتلىء . أما « الربات الأخوات الثلاث[٢٧] » فهن نحيلات رشيقات ، نسبياً ، على أية حال . وفى « محاكمة باريس[٢٨] » (ابن ملك تروادة الذى خطف هيلانه - فى الأساطير اليونانية) نرى سيدتين فقط - يشا كل زيهما الأزياء المتأخرة ، وأخرى تعد من أجمل صور النساء فى الفن . وفى هذه الرسوم الوثنية عادة يوجد شىء أبعد كثيراً من الجسد ، فإن روبنز أسبغ عليها من فيض خياله الخصيب الممتلىء بالحيوية والمرح ، فهناك مائة من الملحقات السكانية تملأ المنظر ، مخططة فى حرص ولكن دون دراسة ، تبهر عين الناظر إليها باللون والدفء والحياة . كما أنه ليس ثمة شىء يثير الشهوة فى العرض المنتفخ ، وأنه مجرد حيوية حيوانية ، فليس هناك رسم واحد يثير الشهوة الجنسية . أن روبنز نفسه كان يتحلى بسلوك قويم إلى حد غير قياسى ، بالنسبة لفنان شديد التأثر والحساسية بالضرورة للون والشكل ، وعرف عنه أنه زوج فاضل و « رب أسرة موثوق » ، لم تمسه شائبة من التودد للنساء أو المخادعة[٢٩] .

واعترف رجال الكنيسة فى الفلاندرز ببراءة الناحية الحسية فى رسوم روبنز ، فلم يحسو بالحرج أو بوخز الضمير فى أن يطلبوا منه أن يصور ثانية قصص العذراء والمسيح والقديسين ، وقد أجابهم إلى سؤالهم ، ولكن بطريقته

غير المبتذلة ، ومن خلفائه الذين لا يحصى عديدهم استطاع أن يصور فى خيال أوسع ، أو يرسم فى مهارة أدق ، الفكرة القديمة « عبادة الملوك * » ومن كان يجرؤ على تركيز العمل فى تشكيل البطن السمين للأثيوبى المعمم ذى اللون البرونزي ، وهو ينظر فى ازدراء واضح إلى الوجوه الشاحبة حوله ، ومن كان يحلم أن الوثنى الذى يحدق النظر بعينه وبفرشاته إلى كل ركن وكل زاوية في جسم المرأة ، يمكن أن يحب الجزويت وينضم إلى طائفتهم المريمية ، ويؤدى التمارين التي وضعها أجنات ليولا لتطهير النفس برؤى الجحيم[٣١] .

وفى مارس ١٦٢٠ تعاقد مع الجزويت على أن يضع قبل أن ينصرم العام ، تصميمات لتسعة وثلاثين رسما تغطى سقوف كنيسة الباروك الفخمة التى كانوا قد بدأوا تشييدها فى أنتورب فى ١٦١٤ . وأنجز روبنز الرسوم التى حولها فان ديك وآخرون معه إلى لوحات ، دمرت كلها تقريباً فى ١٧١٨ ، وقام روبنز نفسه بعمل صورتين عظيمتين للمذبح الرئيسى : إحداها « أجنات يبرىء الذين مسهم الشيطان » ، والثانية « معجزات سانت فرانسيس » . وكلتاهما الآن فى متحف تاريخ الفن فى فيينا .

ومع ذلك فإن روبنز كان كاثوليكيا على النحو الذى كانت تعنيه الكثلكة فى عصر النهضة . ومسيحيا بحكم الموطن . وعاشت وثنيته فى ظل تقواه . ولم تكن مريماته (صور السيدة العذراء فى لوحاته) سوى نسوة داعرات غليظات يبدو واضحا أنهن أصلح لإيقاع الرجال فى حبائلهن ، منهن لإنجاب إله . وفى لوحة « العذراء فى إكليل من الزهور[٣٢] » تمثل السيد المسيح صبيا أجعد الرأس ، ومريم فى زى ربة بيت فلمنكية ترتدى قبعة جديدة فى نزهة يوم الأحد فى أحد المتنزهات . وحتى فى لوحة « رفع الصليب » (الموجودة فى كاتدرائية أنتورب) نجد أن اهتمام روبنز بالتشريح يتغلب على الفكرة الدينية فالمسيح رجل رياضى مكتمل القوة والنشاط ، لا إلها يعانى سكرات الموت .

* بلغ ثمن هذه اللوحة الف دولار فى مزاد علنى أقيم فى لندن ١٩٥٩ .

وفى « طعنة الرمح[٣٤] » مرة أخرى نجد التشريح هو كل شىء : فالمسيح واللصان شخوص ضخمة ، والنساء تحت الصليب يتخذن وضعاً خاصاً أمام فنان ، أكثر منهن مغمى عليهن من الحزن ، فإن روبنز لم يستشعر هول الموقف .

وفى خمس مرات على الأقل تحدى روبنز الرسام الفينيسى تيشيان فى « صعود العذراء » ، وفى أشهر هذه المحاولات[٣٥] ، تبدو العذراء ميتة لاحياة فيها ، والأفراد الأحياء هم الجدلية والحواريون الجزعون عند المقبرة الخالية ، وأجمل منها اللوحة الثلاثية[٣٦] التى أهدتها الأرشيدوقة إيزابل إلى جمعية الدفونسو الدينية فى بروكسل : ففى الصورة الوسطى نزلت العذراء من السماء لتقدم لرئيس أساقفة توليدو . رداءا من الجنة مباشرة ، والقديس فى خشوع تام « يلهث من العبادة » ، على حين أنه فى الصورتين الجانبيتين نرى إيزابل وألبرت قد وضعا تاجيهما جانبا « وركعا للصلاة » ، وهنا فى هذه اللوحة الثلاثية . أضفى روبنز لوهلة قصيرة . بعض الحياة على التقوى أو صورها أحسن تصوير . وفى لوحة سانت أمبروزو الامبراطور تيود وسيوسى[٣٧] » ـ أدرك روبنز ونقل إلى الصورة سطوة الكنيسة وسلطانها الخفيين : ففيها ترى رئيس أساقفة ميلان الذى لم يتسلح إلا بعدد من الكهنة وقندلفت (مساعد كاهن) ، ولكنه متسم بالجلال والعظمة ، يطرد من الكاتدرائية الأمبراطور الذى يحف به حرس رهيب ، ولكنه مثقل بالقساوة التى لا تغتفر وقلما أخفق روبنز مع كبار السن من الرجال ، ففيهم ، وبخاصة فى الوجه ، تبرز قصة حياتهم ، كأن الوجه يعرض الشخصية والخلق واضحين أمام الفن المدرك الواعى . انظر إلى رأس الأب فى لوحة « لوط وأسرته يغادرون سودوم[٣٨] » . وهى واحدة من أروع لوحات روبنز فى أمريكا .

وعاد فى حيوية بالغة إلى الموضوعات الدنيوية ، مختلطة بالأساطير ، عندما عرضت عليه مارى دى مديتشى أكثر العقود إغراءا فى حياته . ووقع

فى ١٦ فبراير ١٦٢٢ اتفاقية ، يرسم بمقتضاها ، فى مدى أربعة أعوام ، إحدى وعشرين صورة كبيرة وثلاث صور شخصية ، تخلد ذكرى الأحداث فى حياة مارى وزوجها هنرى الرابع ، ودعته الملكة للحضور ليعيش فى البلاط الفرنسى ولكن هداه تفكيره السليم إلى البقاء فى وطنه . وفى مايو ١٦٢٣ صحب معه إلى باريس اللوحات التسع الأولى ، وأحبت مارى هذه اللوحات . كما أعجب بها ريشليو . وأكملت المجموعة فى ١٦٢٤ ، وقصد روبنز بالبقية إلى باريس حيث رآها موضوعة فى قصر لكسمبرج . وفى ٢٨٠٢ نقلت اللوحات إلى اللوفر ، حيث انفردت تسع عشرة لوحة منها بقاعة خاصة بها . ولن يشكر كل من رآها أو درسها على روبنز العشرين ألف كراون (٢٥٠٠٠٠ دولار) التى تقاضاها فى مقابل عمله ، أو يحسده عليها ، ولا ريب أن مساعديه قاسموه فيها . وهذه اللوحات فى جملتها هى أسمى منجزاته . وإذا تجاوزنا عن بعض هنات السرعة ، وارتضينا القصة التى لا تصدق - كما نفعل فى أوفيد ، وشكسبير وفردى - فإننا سنجد هنا روبنز بكل سماته ، اللهم إلا تقواه العارضة . لقد أحب فخامة طقوس البلاط ، وجلال السلطة الملكية ، ولم يسأم قط النساء الممتلئات الأجسام ، والثياب الفاخرة ، والستائر وأغطية الأثاث البهية ، وكان قد عاش نصف أيامه مع الأرباب والربات فى الأساطير القديمة ، ونراه الآن يضم هؤلاء جميعاً فى قصص فياض ، مع قدرة فائقة على ابتداع الأحداث العارضة ، وغزارة فى اللون وبراعة فائقة فى التأليف والتصميم ، ومما جعل هذه المجموعة ملحمة وأوبرا فى تاريخ الرسم .

ولم يكن يعوز روبنز إلا مرتبتين اثنتين من مراتب الشرف ليبلغ ذروة التمجيد - التعيين فى الوظائف الدبلوماسية ، والحصول على براءة النبالة . وفى ١٦٢٣ أوفدته الأرشيدوقة إيزابل ليفاوض ، على أمل تجديد الهدنة مع هولندة ، وكان لدى روبنز ما يحمله على توطيد السلام ، فإن زوجته كانت طموحة فى أن ترث عن عمها الهولندى مالا[٣٩] . وأخفقت هذه الجهود ، ومع ذلك أقنعت إيزابل الملك فيليب الرابع بأن يخلع على روبنز النباله (١٦٢٤)

وعينه « رئيس الديوان الخاص لصاحبة العظمة » . أي إيزابل نفسها . ولكن الملك اعترض بعد فترة من الوقت على استخدامها لمثل هذا الشخص الوضيع ذي المحتد غير الكريم ، في استقبال البعثات الأجنبية ، وبحث مسائل على قدر كبير من الأهمية[٤٠] ، ومع ذلك أوفدت إيزابل روبنز بعد ذلك بعام (١٦٢٨) إلى مدريد ليساعد على عقد الصلح بين فيليب الرابع وشارل الأول . وأخذ الفنان معه بعض رسومه ، وعدل الملك من رأيه في موضوع الحسب والنسب وجلس إلى روبنز ليرسم له خمس صور شخصية ، وكأن الفنـــان الأسباني فيلاكويز لم يقم بما يكفي الملك في هذا الصدد . وتوثقت أواصر الصداقة بين الفنانين ، وأسلم الفنان الأسباني ، وهو آنذاك في التاسعة والعشرين ، القياد للفلمنكي العبقري الأنيس ، وهو إذ ذاك في سن الواحدة والخمسين . وأخيرا عين فيليب روبنز « الوضيع النسب » مبعوثا له في انجلترا ، وفي لندن نجح روبنز في عقد معاهدة صلح ، على الرغم مما دفع ريشليو من رشوة وبث من جواسيس لعرقلة الصلح . وفي لندن رسم روبنز بعض صور شخصية انجليزية دوق ودوقة بكنجهام[٤١] ، والوجه المهيب لتوماس هوارد أرل أروندل ولحيته ودرعه[٤٢] . وبعد أن مهد الطريق أمام فانديك عاد إلى أنتورب (مارس ١٦٣٠) وقد منحته جامعة كمبردج درجة علمية ، ومنحه شارل لقب فارس .

وفي الوقت نفسه كانت زوجة روبنز الأولى قد توفيت (١٦٢٦) وطبقاً للتقاليد الفلمنكية أقيمت للاحتفال بجنازتها مأدبة باذخة كلفت الدبلوماسي الفنان ٢٠٤ فلورينات (٢٥٠٠ دولار) أنفقها على « الطعام والشراب وأدوات المائدة[٤٣] » ، فالموت في المجتمع الفلمنكي كان ترفا يورث الحرمان والفقر . وأغرق روبنز شعوره بالوحشة والوحدة في الدبلوماسية . وفي ١٦٣٠ ، وكان قد بلغ الثالثة والخمسين ، تزوج من هيلينا فورمنت ذات الستة عشر ربيعا . أنه كان في مسيس الحاجة إلى جو من الجمال يحيط به ، وكان له بالفعل من دفئها ودعتها ما فاض على فنه وأحلامه . ورسمها المرة بعد المرة ، في أي زي ، ودون ثياب : في ثوب الزفاف[٤٤] ، وهي ممسكة بقفاز[٤٥] ، تعلوها ابتسامة السعادة

فى قبعة أنيقة[٤٦] ، وهى تخفى ركبها فقط تحت معطف من الفراء[٤٧] .
أما أروع الصور فهى تلك التى تمثلها تتنزه مع روبنز فى حديقتهما[٤٨] ـ وهذه الأخيرة هى إحدى القمم فى التصوير الفلمنكى ، ثم صورها مع وليدها الأول[٤٩] ، وبعد ذلك مع طفليهما[٥٠] ـ مبشراً بالفنان دنوار (مصور فرنسى ١١٤٩ - ١٩١٩) . وحدث ولا حرج عن اللوحات التى تمثلها فى وضع مثير للشهوة مثل فينوس ، أو متسم بالحشمة مثل « أم الإله ـ العذراء » .

ورسم بيرنز عاهليه المحبوبين البرت وإيزابل ، بغير ما نفاق ولا رياء . وإنا لنراها فى متحف فييناوبتى ، فى أغلب الظن كما كانا ـ يحكمان بلدا قلقا مضطربا ، بكل النيات الطيبة التى تلتئم مع المثل العليا الأسبانية ، لقد عثر الفنان فى الفلاندرز على أنماط ممتازة للرجال والنساء ، فرسمها فى تصويره لجان تشارلز دى كورد وزوجته الجميلة المتجهمة[٥١] . وفى صورة ميكائيل أو فوفيوس[٥٢] أسقف هرتوجنبيوخ ، وترك لنا صورة ضخمة لاسبينولا الجبار[٥٣] . ولكن رسم الصور الشخصية لم يكن موطن التفوق والامتياز فى روبنز ، فهو لم يقدم لنا نظرات نافذة دقيقة أو إيحاءات صادرة من الأعماق ، كما فعل رمبرانت . وأعظم صور الشخصية هى تلك التى رسمها لنفسه فى ١٦٢٤ من أجل من صار فيما بعد شارل الأول[٥٤] : قبعة ضخمة ذات أشرطة ذهبية لا تكشف إلا عن جبهة عريضة لرأس أصلع ، مع عينين محدقتين فى نظرة فضولية . والأنف الطويل الحاد يبدو أنه يتفق مع العبقرية ، والشارب المتصاب الخشن واللحية الحمراء الجميلة ، وهذا يمثل رجلا يدرك كل الإدراك أنه فى ذروة البراعة فى حرفته ومع ذلك فإن شيئاً من حيويته الطبيعية . ومتعته الحسية وقناعته الهادئة ، مما أشرق وتألق فى صورته مع إيزابيلا برانت (زوجته الأولى) قد ذهب على مر السنين . إن الإخفاق وحده هو الذى يرهق الإنسان ويفنيه بأسرع مما يفعل النجاح .

كان روبنز ثريا ، وعاش عيشة باذخة ، وكان بيته الفخم فى أنتورب أحد

مشاهد المدينة . وفى ١٦٣٥ اشترى بمبلغ ٩٣ ألف فلورين ضيعة واسعة وقصراً إقطاعيا فى مقاطعة ستين ، تمتد ١٨ ميلا ، واتخذ لقب لورد ستين ، وقضى الصيف هناك ، ورسم المناظر الطبيعية و جرب يده المتعددة المهارات فى رسم أحداث الحياة اليومية . ووسط ضروب الترف والرفاهية ، مع خادمات ثلاث وسائسين وثلاثة جياد ، استمر يبذل أقصى الجهد فى العمل ، وهو يجد سعادته فى أسرته وفى عمله ، وأحبه زوجاته وأولاده ونصراؤه ومساعدوه لصفاء روحه وسخائه ومشاركته الوجدانية العطوفة(٥٥) .

ويجدر بمن هم أقدر منا أن يحللوا المزايا الفنية فى فنه ، ولكننا نستطيع مطمئنين أن نصفه بأنه نموذج رئيسى لتصوير الباروك : أى اللون الحسى ، والحركة التى لا تحصى ، والخيال الخصيب ، والزخرفة المنمقة المترفة ، على عكس ما عرف فى التصوير القديم من الهدوء وتقييد الفكر والخط . ولكن فى فوضى الجمال هذه ، يقول النقاد بأن هناك براعة فائقة فى التخطيط والتصميم وغذت صور روبنز مدرسة من الحفارين والنقاشين الذين صنعوا الطراز الأول من اللوحات المعروفة فى أوربا المسيحية ، كما فعل ريموندى مع رسوم رافائيل ، ومن يد روبنز أو من مرسمه خرجت الرسوم المشهورة إلى نساجى الأقمشة المزركشة فى باريس وبروكسل ، وصنعوا هدايا ملكية أو زخارف للويس الثالث عشر وشارل الأول والأرشيدوقة إيزابل .

وشهد العقد الأخير من سنى حياته نصراً مبيناً عكره انحطاط قواه الجسمية ولم يضارعه فى شهرته الفنية سوى برنينى ، ولم يحلم أحد بأن ينازعه تفوقه فى الرسم وهرع إليه التلاميذ من كل الأنحاء ، ووفدت عليه بعثات البلاط من ست ممالك ، حتى من الحاكم فردريك هنرى عبر خطوط القتال . وفى ١٦٣٦ طلب إليه فيليب الرابع أن يرسم بعض مشاهد « متامورفوزس » للشاعر الرومانى أوفيد لقصر الصيد فى باردو . وأنجز مرسم روبنز خمسين صورة لهذه المجموعة ، منها واحد وثلاثون مشهداً فى متحف برادو ، وبدا للكاردينال

انفانت فرديناند أن مشهدا منها هو « محاكمة باريس » أروع ما أبدعته يدا روبنز على الإطلاق(٥٦). وقد نوثر عليه « المهرجان(٥٧) » الصاخب الذى كان قد صوره فى ١٦٣٦ - وهو مطاردة مسعورة ، ليس فيها امرأة عجوز أو بدينة إلا اختطفها رجل ما .

أما صورته الشخصية فى سن الستين(٥٨) فهى الوجه الآخر لخواتيم حياته رجل لا يزال مزهوا . يقبض بيده على سيف النبالة ، ولكن التحول يعرو وجهه النحيل ، ويتدلى جلده ، وتحيط التجاعيد بعينيه - وهو رسم أنيق أمين وفى ١٦٣٥ ألزمه داء النقرس الفراش شهراً . وفى ١٦٣٧ شل يده لفترة من الزمن ، وفى ١٦٣٩ عاقه هذا الداء عن التوقيع باسمه . وفى ١٦٤٠ ضلت كلتا يديه . وفى ٣٠ مايو ١٦٤٠ ، وقد بلغ الثالثة والستين ، قضى نحبه متأثرا بالتهاب المفاصل وتصلب الشرايين .

لقد كانت حياة روبنز تدعوا إلى الدهشة . أنه لم يكن النموذج الشامل للمثل الأعلى للنهضة الأوربية ، ولكنه حقق طموحه فى أن يلعب دورا فى الدولة وفى الرسم على حد سواء . ولم يكن فنانا شاملا مثل ليونارد وميكلانجلو ، فلم يخلف لنا نحتا ، ولم يصمم أى مبنى سوى داره . ولكنه فى الرسم بلغ ذروة الامتياز فى كل مجال . فإن الصور الدينية ، والصخب الوثنى والإلهة والإلهات ، والعـــاريات والمكتسيات ، والملوك والملكات ، والأطفال والعجائز ، والمناظر الطبيعية والمعارك - كانت كلها تنساب من فرشاته ، وكأنها معين متعدد الموارد لا ينضب من اللون والشكل . لقد وضع روبنز حداً لخضوع الرسم الفلمنكى للرسم الإيطالى ، ولكن بدون الثورة أو التمرد ، بل عن طريق الاستيعاب والاتحاد .

ولم يكن روبنز فى مثل عمق رمبرانت ، ولكن أوسع أفقا ، لقد نفر من الأعماق الخفية التى كشف عنها رمبرانت ، وآثر عليها الشمس والهواء الطلق ، وتراقص الضوء ، واللون ، ومتعة الحياة وسحرها ، وكافأ حظه السعيد

بالإبتسام للدنيا ، إن فنه تعبير عن الصحة ، مثلما أن فننا اليوم يوحى باعتلال الفرد أو اعتلال الروح العامة . ويمكن ، إذا وهنت نفوسنا أو افترت حويتنا أن نفتح كتاب روبنز فى أى مكان لننتعش ونجدد قوانا .

٤ ـ فانديك

١٥٩٩ — ١٦٤١

لقد كان من عادة روبنز أن يرحب ويشجع الموهبة المبكرة النضج لدى الشباب اليافع الوسيم ، الذى التحق برسمه حوالى ١٦١٧ . وكان أنطونى فانديك قد بدأ تدريبه وهو فى سن الثامنة عند هندريك فاِن بالمن ، معلم سنيدرز . وفى سن السادسة عشرة كان له تلاميذه هو نفسه . وفى سن التاسعة عشرة سجل أستاذا فى نقابة الفنانين ، ولم يكن تلميذاً لروبنز بقدر ما كان مساعدا ذا قيمة كبيرة له . وقدر روبنز أحد أعمال فانديك الأولى بأنه يساوى فى قيمته لوحة « دانيال » التى أنجزها روبنز فى نفس العام . واحتفظ فى مجموعته الخاصة بلوحة فانديك « المسيح يتوج بالأشواك » ، ثم تنازل عنها فى وقت متأخر ، وهو كاره ، لفيليب الرابع . ليضعهـــا فى الأسكوريال[٥٩] . وتأثر فانديك فى شغف بالغ بروبنز ، ولكنه كانت تعوزه حيوية الفنان العجوز فى الحركة واللون ، ومن ثم قصر عن اللحاق به فى كل شىء ، فيما عدا رسم الأشخاص . وفى صورته الشخصية الأولى(١٦١٥)[٦٠] كشف عن الخصائص التى كان يجب أن تميز وتحدد عبقريته ـ رقة ورشاقة وجمال ناعم ، مما لا يكاد يليق برجل . وكان زملاؤه الفنانون سعداء بالجلوس إليه لتكون الصور التى يرسمها لهم ، سياجا إضافيا يحميهم من نسيان الناس لهم . وقد رسم صورا شخصية محبة لسنيدرز[٦١] ودوكونسوى[٦٢] وجان ويلدنز[٦٣] تروجان دى وال[٦٤] ـ وجسباردى كريير[٦٥] ومارتن بيبن[٦٦] ، وكان من صفات فانديك المحمودة الكثيرة أنه أحب منافسيه . وتوحى تلك الصور الشخصية فى مرسم روبنز بروح طيبة من الزمالة لا توجد دائما فى مملكة الفن .

وفى ١٦٢٠ تلقى أرل أروندل من أنتورب رسالة جاء فيها : « أن فانديك يقيم مع روبنز ، وتقدر أعماله بأنها تكاد تضارع أعمال أستاذه[٦٧] » فدعا الفنان الشاب إلى انجلترا ، فذهب فانديك وهناك تقاضى من جيمس الأول معاشا زهيدا قدره مائة جنيه ، ورسم قليلا من الصور الشخصية ، وتمرد على ما طلبه منه الملك من نسخ حقير لصور أصيلة ، وطلب منحه أجازة لمدة ثمانية أشهر يتغيب فيها عن البلاد ، فأجيب إلى طلبه . ولكنه مد الغياب إلى إثنى عشر عاما . وفى أنتورب دبر لزوجته وطفلها سبل العيش ، ثم أسرع إلى إيطاليا (١٦٢١) .

وهناك لأول مرة أسرع الخطى وشمر عن ساعد الجد ، وترك صوراً شخصية رائعة فى كل مكان نزل به تقريبا ، وعكف على تأمل أعمال البنادقة العظام ، لا ليدرس اللون والضخامة لديهم ، كما فعل روبنز من قبل ، ولكن ليكتشف الأسرار الشاعرية فى الرسوم الشخصية عند جيورجيونى وتيشيان وفيرونيز . وقصد كذلك إلى بولونيا وفلورنسة وروما ، بل حتى إلى صقلية . وفى روما أقام مع الكاردينال جيد وبنتيفوجليو ، وكافأه بصورة شخصية[٦٨] وكره الفنانون الفلمنكيون الذين كانوا يتضورون جوعا فى إيطاليا ، من فانديك كياسته ، وإن شئت تملقه وتودده ، فنعتوه بأنه « مصور الفرسان » ، وأتوا بأعمال قبيحة ، إلى حد أنه رحل مسرورا بصحبة ليدى أروندل إلى تورين . وكان الترحيب به كبيرا بصفة خاصة فى جنوة التى تذكرت روبنز ، وكانت قد سمعت بميل فانديك إلى تمجيد النبلاء ، حتى ليجعل من كل جالس أمامه أميرا . وفى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك نموذج لهؤلاء الاستقراطيين الجنوبيين : « المركيزة دورازو » : وجه حساس ويدان رشيقتان ناعمتان (كما هو الحال دائما فى رسوم فانديك) ، كما يحتفظ المتحف الوطنى فى واشنجطن بلوحتى « المركيزة بالبى » و « المركيزة جريما لدى » - وهى مزهوة حبلى . وفى برلين ولندن نماذج أخرى . واستطاعت جنوه أن

تحتفظ فى قصر روضو فيها بلوحة « المركيز والمركيزة » برينولى صالى « وعاد فانديك إلى أنتورب (١٦٢٨) ، وقد امتلأت جيوبه وانتفخت أوداجه وتأنق فى مظهره .

وصرفه مسقط رأسه عن النبلاء إلى القديسين ، وحتى يهىء نفسه لهؤلاء ندم على ما اقترف من فحشاء ، وأوصى بثروته الصغيرة لأختين من الراهبات ، وانضم إلى « الرابطة الجزويتية لغير المتزوجين » ، وتحول إلى الموضوعات الدينية . ولم يستطع أن ينافس روبنز فى هذا المضمار ، ولكنه تجنب مبالغات الأستاذ الغزير الإنتاج وتألقه الشهوانى ، وأضفى على رسومه هو لمسات من الأناقة التى تعلمها فى إيطاليا . وذهب رينولدز إلى أن لوحة فانديك « صلب المسيح » فى كاتدرائية مكلين واحدة من أعظم الصور فى العالم، وعلى أية حال ربما كانت هذه هى طريقة سيرجوشوا فى الوفاء بالدين .

وجرب فانديك يده فى صور الأساطير . وعلى الرغم من أنه لاحق نساء كثيرات فإنه لم يقبل على رسم الصور العارية ولم يبرع فيه . وكان موطن قوته وامتيازه فى الصور الشخصية . وفى هذه السنوات الأربع فى أنتورب أنقذ من زوايا النسيان ، بما رسم من لوحات « البـــارون فيليب لروى والكلب الأمين[٦٩] » و « الجنرال فرانسيسكو دى مونكادا وجواده[٧٠] » و « الكونت رودوكاناكس[٧١] الذى بدا كأنه سوينبرن » و « جان منتفورت » الذى بدا مثل فولستاف (إحدى شخصيات شكسبير) ، وأروع رسوم فانديك فى فيينا هى صورة « روبرت الشاب أمير البلاتين الفاتن » الذى سرعان ما خاض غمار الحروب دفاعا عن شارل الأول فى انجلترا . ومن الرسوم الفاتنة كذلك صورة « ماريا لويزا أوف تاسيس[٧٣] » غارقة فى ثيابها الفضفاضة المصنوعة من الأطلس الأسود والحرير الأبيض . ولايقل روعة عن هذه الرسوم كلها لوحة فانديك لبيتر « الجحيم » بروجل (الأصغر) » وهو رجل عجوز لا يزال يضطرم قلبه بحيوية لم ينضب معينها فى أسرة تثير الدهشة .

وأخذ فانديك بعض هذه الصور إلى إنجلترا حين دعاه شارل الأول إليها ليجرب حظه فيها ثانية . وكان شارل — على عكس أبيه — ذواقه للفن . وظن أن هذا الفلمنكى الوسيم هو الرجل الذى يستطيع أن يصنع له ما كان يصنع فلاسكويز الأسبانى للملك فيليب الرابع . وذهب فانديك وسجل للأجيال القادمة صور الملك والملكة هنزيتا ماريا وأطفالهما ، وهى صور برزت فيها روعة فن فانديك بشكل لا يمحى أثره . وأشهر هذه اللوحات الملكية الخمس ، هى اللوحة الموجودة فى متحف اللوفر - وهى تمثل الملك المزهو العاجز مرتديا زى الفروسية ، واضعاً يده على خصره ، شاهرا سيفه ، وعلى رأسه قبعة أنيقة ، بالإضافة إلى لحية فانديك ، ولكن الجواد المنهوك الذى يقضم شكيمته أثناء فترات الصيد ، قد يشغف به الناظر إلى الصورة قبل أن يشغف براكبه . وتوجد فى درسدن وتورين لوحات تبارى هذه ، وهى تمثل أبناء شارل ، وهم بعد أبرياء ولا يخشى منهم أذى . وكان شارل أكثر إنسانية فى مخبره منه فى مظهره . وبرزت حرارة العاطفة عنده فى تعلقه بفانديك وإعزازه له ، فقد ضمه إلى طبقة الفرسان ، ووهبه دورا فخمة فى لندن وفى الريف ومنحه معاشا سنوياً قدره مائتا جنيه ، ومبلغا إضافيا عن كل رسم ، وعن كل زيارة للبلاط .

وعاش الفنان السعيد حياة تتفق مع دخله ، فأولع بالثياب الأنيقة ، وكانت له عربته التى تجرها أربعة من الخيل ، وجياده الأصيلة وخليلاته ، وملأ بيوته بالموسيقى والفن . وبز توجيهات روبنز فى تفويض غيره فى العمل - فترك رسم الملابس لمساعديه ، وأنجز صورة شخصية فى ساعة واحدة من رسم تخطيطى تم فى جلسة واحدة وكان يسارع إلى اغتنام الفرص قبل فوات الأوان ويروى أن شارل الأول ، حين كان يعانى من تقتير البرلمان عليه ، سأل الفنان المبذر مرة : هل تعرف ماذا يقصد بقولهم أن الإنسان يعوزه المال ، فأجاب فانديك ، نعم يامولاى ، إذا مد المرء مائدة مفتوحة لأصدقائه ، وأغدق من كيس مفتوح على خليلاته ، فسرعان مايصل المرء إلى قاع الكيس ليجده فارغا[٧٤].

وإذا كان فانديك قد غرق فى الديون أحيانا ، فإن ذلك لم يكن لافتقاره إلى النصراء والمحبين ورعاة فنه . فقد انتظر الارستقراطيون الإنجليز دورهم فى الحصول على موافقته : مثل جيمس ستيوارت ، ودوق لينوكس[٧٥] ، الوسيم مثل كلبه ، وروبرت رتشى أرل ودروك[٧٦] ، ولورد دربى وأسرته[٧٧] وتوماس وتتورت أرل سترافورد[٧٨] الذى تحدى القدر . كذلك جاء دور الشعراء من كارو ، وكلجرو ، وسكلنج . وأخيرا جاء دور أولدبار[٧٩] الذى زعم أنه بلغ من العمر مائة وخمسين عاما ، وكان يبدو عليه ذلك . لقد رسم فانديك ٣٠٠ صورة شخصية فى انجلترا ، تميزت كلها تقريبا بالكياسة والوقار اللذين رآهما فى أحد اللوردات ، حتى ولو لم يوجد شىء منهما .

وتبارت خليلته مرجريت ليمون مع الارستقراطية فى توفير الخدمات له مما كلفه غاليا . واقترح الملك أن الزواج أيسر تكلفة ، وعاونه (١٦٣٩) فى طلب يد ليدى مارى روثفن وهى سليلة أسرة مشهورة فى تاريخ اسكتلنده ورسم الفنان لعروسه صورة جميلة[٨٠] ولكنها لا تقارن بالوجه الجميل الذى رسمه لنفسه فى « الصورة الشخصية للفنان »[٨١] التى يعرفها العالم كله ـ شعر غزير متموج ، وعينان حادتان ، وتقاطيع دقيقة ، ولحية مقصوصة ، وسلسلة ذهبية تنبىء بأنه فارس . هل كان فانديك يتملق سير أنطونى (نفسه) إذا كان الأمر كذلك ، فليس ثمة جدوى ، لأن صحته التى أسرف فى استنزافها ، بدأت الآن تتدهور ، وكره فانديك أن يذكر بمجرد رسم الصور الشخصية فحسب ، فطلب إلى شارل أن يسمح له برسم مناظر تاريخية على جدران قاعة الولائم فى قصر هويتهول ، ولكن الملك كان يعانى العوز . فعبر فانديك البحر إلى باريس (١٦٤٠) أملا فى تكليفه بتصوير القاعة الكبرى فى اللوفر ، وكان لويس الثالث عشر قد اختار بالفعل بوسان لهذه المهمة ، ولكنه تخلى عنها بعد فوات الأوان ، فقد مرض فانديك فأسرع إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته وفاضت روحه (١٦٤١) ، بعد أحد عشر يوما من مولد ابنته ، ولم يكن قد بلغ بعد الثانية والأربعين .

لم يؤسس فانديك مدرسة ، ولم يترك بصمات على الفن فى القارة ، ولكن أثره فى انجلترا كان بالغا . فإن الرسامين المحليين مثل وليم دويسون ، وروبرت ووكر ، وصمويل كوبر ، أسرعوا فى تقليد أسلوبه المتملق الذى يدر ربحا . وعندما سادت موجة عارمة من الصور الشخصية بظهور رينولدز وجينزبرو فإن تراث فانديك كان مصدر كل تعليم وتثقيف وإثارة . ولم تكن الصور الشخصية التى رسمها فانديك عميقة . لقد كان متعجلا إلى درجة لم تتح له البحث عن الروح ، وتوقف فى بعض الأحيان عند الوجه أو اللحية . إن الفرسان الذين أحاطوا بالملك شارل الأول اشتهروا بسلوكهم الحميد ، وما كان متوقعا أن يبدو كثير منهم وكأنهم شعراء ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ، من خلال عينى فانديك وفرشاته بعض أخيلة البطولة التى نجدها فى وقفتهم إلى جانب مليكهم . وليس من العدل أن نتوقع من هذا الشاب الهزيل المحظوظ حيوية روبنز العارمة ، أو عمق رمبرانت المؤثر . ولكننا سنبقى على اعتزازنا بهذه الصور الشخصية الجنوسية والفلمنكية والإنجليزية ، على أنها «معالم دقيقة ثمينة» متألقة فى تراثنا .

٥ — الاقتصاد الهولندى

أية قفزة تلك التى تنقلنا من اللوردات الإنجليز الذين يفوح منهم شذا العطر إلى مواطنى هارلم ولاهاى وأمستردام الإجلاف الأقوياء : هناك عالم فريد خلف السدود ، عالم ماء أكثر منه عالم أرض ، عالم سفن ومغامرات تجارية أكثر منه عالم قصور وبلاط وفروسية . ولا يكاد يوجد فى تاريخ الاقتصاد شىء أشد إزعاجا من ظهور الهولنديين باعتبارهم قوة دولية ، أو فى تاريخ الثقافة شىء يبعث على الرضا والارتياح أكثر من تحول هذه الثروة إلى فن .

وفى ١٦٠٠ بلغ عدد سكان المقاطعات المتحدة نحو ثلاثة ملايين نسمة ، كان نصفهم فقط يفلح الأرض ، وفى ١٥٢٣ أقام نصفهم فى المدن ، وصار كثير

من الأرض ملكا لملاك من سكان المدن الذين آمنوا بأن أرباحهم التجارية يمكن أن تزال رائحتها الكريهة باستثمارها فى الأرض . وحتى فى مجال الزراعة أحرز النشاط والبراعة الهولنديتان قصب السبق على أوربا ، وكانت السدود والخزانات الجديدة تستصلح دوما الأرض من البحر ، وأخصبت القنوات المزارع وأنعشت التجارة ، وقامت فلاحة البساتين جنبا إلى جنب ، مع تربية الماشية ، وكلتاهما على نطاق واسع ، لتكمل كل منهما الأخرى . وفى أخريات القرن السادس عشر بلغ المهندسون الهولنديون بطاحونة الهواء ذروة الإتقان مثلما فعل الرسامون الهولنديون بالفن . وكان نصف الصناعة لا يزال يدويا اللهم إلا فى التعدين ومعالجة المعادن ونسج الأقمشة وتكرير السكر وصنع الجعة ، فإن هذه الصناعات كانت تتقدم على نطاق أكبر وأكثر ربحا وأقل إسعاداً للناس ، وأبحر فى كل عام من الثغور الهولندية ١٥٠٠ سفينة ذات صاريين لصيد السردين وكان بناء السفن من الصناعات الكبيرة . وفى أثناء الهدنة مع أسبانيا (١٦٠٩ - ١٦٢١) أرسلت الأراضى الوطيئه ١٦ ألف سفينة حمولة كل منها ٥٧ طنا فى المتوسط ، عليها من الملاحين نحو ١٦٠ ألفا - أكثر من انجلترا وأسبانيا وفرنسا مجتمعة[٨٣] .

وتلهف الربابنة الهولنديون على المنافذ التجارية والمواد الخام فارتادوا البحار المجهولة . وفى ١٥٨٤ وطد التجار الهولنديون أنفسهم فى أركنجل ، وتقدموا برغم الثلوج المتجمدة فى محاولة عقيمة للعثور على طريق شمالى شرقى إلى الصين ، ومن ثم يفوزون بجائزة قدرها ٢٥ ألف فلورين قدمتها الحكومة الهولندية . وإن الأسماء الهولندية فى الخرائط الحديثة لأرخبيل سبتسبرجن (فى النرويج) لتعيد إلى الذاكرة رحلات وليم بارنت الذى فقد حياته فى الشتاء على ثلوج جزر نوفايا زمليا (١٦٩٧) . وفى ١٥٩٣ أبحر الهولنديون المغامرون عبر أنهار غانة (ساحل الذهب) فى أفريقية ، وعقدوا أواصر الصداقة مع المواطنين هناك ، وبدأوا معهم تجارة واسعة نشطة .

وحتى ١٥٩٤ كان التجار الهولنديون يشترون المنتجات الشرقية من أرصفة لشبونة ليعيدوا بيعها فى أوربا الشمالية . ولكن فيليب الثانى غزا البرتغال فى ذاك العام فحرم الاتجار مع الهولنديين ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يقوموا هم أنفسهم برحلاتهم إلى الهند والشرق الأقصى . وكان اليهود اللاجئون من أسبانيا والبرتغال أو ذراريهم على علم تام بمراكز تجارة البرتغال فى الشرق ، فانتفع الهولنديون بعلمهم[٨٣] . وعبر التجار الهولنديون، حتى أثناء الحرب مع أسبانيا مضايق جبل طارق ، وسرعان ما اتجروا مع ايطاليا ، ثم مع العرب ، متجاهلين الفوارق الدينية فى أصرار وثبات . وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، وعقدوا معاهدة مع السلطان ، وباعوا بضاعتهم إلى الأتراك وإلى أعدائهم الفرس ، على حـــد سواء ، ثم ساروا إلى الهند . وفى ١٥٩٥ قاد كورنيلس دى هوتمان حملة حول رأس الرجاء الصالح ومدغشقر إلى جزر الهند الشرقية . وفى ١٦٠٢ قامت خمس وستون سفينة هولندية برحلة العودة إلى الهند . وفى ١٦٠١ أسست شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ستة ملايين وستمائة ألف فلورين — خمسة أمثال رأس مال الشركة الإنجليزية التى أسست قبلها بثلاثة شهور[٨٤] . وفى ١٦١٠ بدأ التجار الهولنديون التجارة مع اليابان ، وفى ١٦١٣ مع سيام ، وفى ١٦١٥ سيطروا على جزر ملقا ، وفى ١٦٢٣ على فرموزا . أنهم فى جيل واحد فتحوا أمبراطورية من الجزر حكموها من عاصمة جاوة : جاكرتا التى سموها باتافيا . وفى هذه الحقبة أدت الشركة لحملة الأسهم ربحا سنويا قدره ٢٢ ٪ وكان الفلفل يستورد من جزر البهار ، ويباع فى أوربا بعشرة أمثال الثمن الذى يدفع للمنتجين المحليين[٨٥] .

وحسب الهولنديون أن الأرض ملك خاص لهم . فارسلوا سفنا للبحث عن طريق شمالى غربى إلى الصين . وفى ١٦٠٩ استأجروا ربانا انجليزيا هو هنرى هدسن ، ليرتاد نهر هدسن . وبعد ذلك باثنى عشر عاما كونوا شركة الهند الغربية الهولندية . وفى ١٦٢٣ أسسوا مستعمرة الإراضى الوطيئة الجديدة

وكانت تضم الولايات الحالية : كنكتيكت ونيويورك ونيوجرسى وبنسلفانيا ودلاوير . وفى ١٦٢٦ اشتروا من الهنود « أمستردام الجديدة » (منهاتان) مقابل بعض الحلى الصغيرة التى قدرت قيمتها بأربعة وعشرون دولارا . وكانوا جادين فى تطهير وتطوير هذه الأراضى ، ولكن كل ممتلكاتهم فى أمريكا الشمالية وقعت غنيمة فى أيدى الإنجليز (١٦٦٤) نتيجة للحرب ، وكذلك وقعت ممتلكاتهم فى أمريكا الجنوبية فى أيدى الأسبان والبرتغال ، ولم يتبق لهم إلا سورينام ، تحت اسم غيانا الهولندية .

وعلى الرغم من هذه الخسائر أسهمت الإمبراطورية الهولندية مع تجارة هولندة فى أوربا فى تهيئة دعامة مالية للسلطان السياسى للتجار الهولنديين ، ودورهم الفخمة ورعايتهم للفنون . وطوال النصف الأول من القرن السابع عشر عقد للمقاطعات المتحدة لواء الزعامة التجارية على كل أوربا ، وكانت ثروة الفرد فيها أكبر من مثيلتها فى سائر بلاد العالم . وقد انزعج رالى من تفوق الهولنديين على الإنجليز من حيث مستوى المعيشة والأعمال والمشروعات[٨٦] وقال أحد سفراء فينيسيا (١٦١٨) أن كل هولندى عاش فى رخاء ، ولكن يحتمل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبقات الدنيا ، التى أدرك رمبرانت فقرها إدراكا تاما . أن أصحاب الملايين كثروا فى هولنده ، وقد جمع بعضهم ثروته من بيع النفايات والبضائع الرديئة إلى الجيش والأسطول الهولنديين اللذين يدافعان عن هولنده[٨٧] ، ومثل هؤلاء كافحوا جاهدين للحيلولة دون إقرار السلام[٨٨] .

وتركزت معظم الثروة الهولندية فى مقاطعة هولنده التى كانت تجارتها فى المياه المجاورة أضعاف تجارة سائر المقاطعات الشمالية . وكان ثمة برجوازية مزدهرة فى عدة مدن فى مقاطعة هولنده ـ روتردام ، لاهاى ، هارلم ، أوترخت ـ ولكن أيا منها لم يجرؤ على مباراة أمستردام . وأن نمو عدد سكانها ليحكى قصتها ، فقد كان ٧٥ ألفا فى ١٥٠٠ ، وقفز إلى ٣٠٠ ألف فى ١٦٢٠ ، وهرع

إليها التجار والصناع المهرة وأصحاب المصارف أفواجا من أنتورب التى دمرتها الحرب . وبعد ١٥٧٦ نقل يهود أنتورب إلى أمستردام أنشطتهم المالية وتجارتهم وصناعة الحلى . ولا يزال صياغ الماس فى هذه المدينة يتزعمون هذه الصناعة فى العالم . وأباح حكام المدينة للتجار قدراً كبيراً من الحرية الدينية لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتشجيع التجارة مع الشعوب ذوات المذاهب المتباينة ، وكان بنك أمستردام الذى أسس ١٦٠٩ ، أقوى مؤسسة ماليه فى أوربا فى ذلك العصر . وكانت العمله الهولندية مطلوبه وموضع ثقه فى كل الأنحاء .

٦ - الحياة والأدب فى هولنده

اتهم الهولنديين منافسوهم بروح تجارية مسرفة وبحمى جمع المال ، وبطباع جافة خشنة ، ترتبط أحيانا بالانهماك فى الحياة الاقتصادية ، ويسلم المؤرخون الهولنديون بهذه المزاعم عن طيب خاطر[٨٩] . ومع ذلك فهل نستطيع أن نقول عن ثقافة بأنها تجارية ، مع أنها أولعت ولعا كبيراً بالنظافة والزنبق (التوليب) والموسيقى والفن ، وشيدت مدرسة فى كل قرية ومحت الأمية ، وخلقت جوا فكريا مكهربا بالجدل والأفكار ، وأباحت حرية الفكر والكلام والصحافة ، حتى أن هولنده سرعان ما أصبحت ملجأ عالميا للعقول الثائرة ؟ المتمردة وقال ديكارت :

« ليس ثمة بلد غير هذا البلد ، فيه الحرية أكمل . والأمن أعظم ، والجريمة أندر ، وبساطة العادات القديمة أروع[٩٠] » . وفى ١٦٦٠ كتب فرنسى آخر :

ليس فى العالم مقاطعه تنعم بمثل هذا القدر من الحريه مثل ماتنعم هولنده وفى اللحظه التى يأتى فيها أى سيد إلى هـذا البلد بأى أرقاء أو عبيد ، فإنهم يصبحون أحراراً ، ويستطيع أى فرد أن يغادر البلد متى شاء ويأخذ معه من الأموال ما يشاء . والطرق آمنة ليل نهار ، حتى لو سار الإنسان بمفرده . ولا يباح للسيد أن يحتفظ بخادم دون إرادته . ولا يضار إنسان بسبب دينه . وكل إنسان حر فى أن يتفوه بما يشاء » حتى عن الحكام[٩١] .

وكان أساس هذه الحرية هو النظام . ويعكس صفاء الذهن فى أناقة المنزل وحسن ترتيبه . وتميز الرجال بالشجاعة والجد والعناد ، كما تميزت النساء بالاجتهاد والبراعة الفائقة فى الأعمال المنزلية . ويتسم الجنسان كلاهما بهدوء الطبع وروح المرح . واعتزل كثير من رجال الأعمال الهولنديين العمل بعد جمع ثروة معقوله ، وانصرفوا إلى السياسة والأدب والجولف * والموسيقى والهناءة المنزلية . وكتب لود وفيكو جوتيشيارديني « إن الهولنديين يفزعون من الزنى ، وأن نساءهم على أكبر قدر من الحرص والحذر ، ومن ثم منحن قسطا كبيرا من الحرية ، فيخرجن وحدهن للقيام بالزيارات بل والرحلات ، دون أن يأتين بما يخدش سمعتهن . . . إنهن مديرات المنازل ، وإنهن يحببن بيوتهن[٩٣] . وكان ثمة نساء كثيرات ذوات ثقافة رفيعة ، مثل ماريا شورمان « منيرفا هولنده » (ربة الحكمة والمهارة الفنية والاختراع عند الرومان) التى قرأت إحدى عشرة لغة ، وتحدثت وكتبت بسبع لغات ، ومارست الرسم والنحت جيدا ، وبرعت فى الرياضيات والفلسفة . ونظمت ماريا تسلشيد شعرا جميلا فى مثل جمال شخصها . وترجمت قصيدة تاسو « تحرير أورشليم » ترجمة نالت ثناء العالم ، ورسمت ونحتت وحفرت ، وعزفت على القيثارة . وغنت فأطربت إلى حد أن ستة من الأعيان من بينهم قسطنطين هوجنز ، وجوست فان دن فوندل ، وجربراند بريديرو ، كانوا يركعون تحت قدميها متوسلين إليها أن تغنى لهم . وتزوجت قبطانا بحريا ، وأصبحت ربة بيت وأما مخلصة وفية . وتركت وراءها ذكريات لا زالت عزيزة لدى الهولنديين ، عن الذكاء والمآثر والنبل[٩٤] .

وكان حب الموسيقى أوسع انتشارا من تقدير الفن . إن جاك بيترزون سويلنك أحد أبناء أمستردام ، وأعظم عازف هولندى على الارغن هو الذى علم هنريج تسيديمان ، الذى علم بدوره جوهان آدم رينكن . وهذا الأخير هو الذى درس على يديه جوهان سبستيان باخ . ومع كل هذا التفوق والامتياز

(*) وربما كانت هذه اللعبة من أصل هولندى ، وانتقلت إلى اسكتلندة فى القرن الخامس عشر[٩١]

دب فى التجارة الهولندية بعض الفساد ، والإدمان على الخمر ، والبغاء ، والإقبال على الميسر بجميع أشكاله[٩٥] إلى حد المضاربة بأسعار الزنبق المستقبلة[٩٦] .

وكانت هارلم مركز زراعة الزنبق . وكانت الأبصال تستورد من إيطاليا وجنوب ألمانيا ، حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، كذلك انتشرت الزهرة فى باريس وصارت بدعة محببة ورمزا للامتياز والسمو . حتى أنه فى ١٦٢٣ رفض أحد الهواة اثنى عشر ألف فرنك (٣٠ ألف دولار) ثمنا لاثنى عشرة بصلة من الزنبق[٩٧] . وفى ١٦٣٦ صار كل السكان تقريبا يضاربون فى أزهار الزنبق وقامت أسواق خاصة يمكن لأى إنسان أن يشترى أو يبيع فيها محصولات الزنبق الحاضره أو المستقبلة وكان للتوليب « انهياره » المالى ١٦٣٧ ، ففى تلك السنة بيعت نحو ١٢٠ زهرة توليب ثمينة فى مزاد علنى لمصلحة أحد ملاجىء الأيتام بمبلغ ٩٠ ألف فلورين .

وإلى هذا الجو البهيج جاء اللاجئون من فلاندرز وفرنسا والبرتغال وأسبانيا والتجار الأجانب من نصف أمريكا المعمورة بتشكيلة مثيرة من الأساليب الغريبة الدخيلة ، وضمت جامعات ليدن وفرانكر وهاردرفيك وأوترخت وجرونتجن مشاهير علماء العالم ، وأنجبت بدورها آخرين . فكان جوستوس لبسيوس وجوزيف سكاليجر ودانيل هنسيوس وجيرار فوسيوس يعملون جميعا فى ليدن فى النصف الأول من القرن من بداية افتتاحها (١٥٧٥ - ١٦٢٥) وما جاءت سنة ١٦٤٠ حتى كانت ليدن أشهر مركز للعلم والدرس فى أوربا . وكانت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين جمهور سكان المقاطعات المتحدة أعلى منها فى أى مكان آخر فى العالم . وكانت الصحافة الهولندية أول صحافة حرة . وكانت صحيفة « الأخبار » الأسبوعية فى ليدن ، وصحيفة « الجازيت » فى أمستردام تقرآن فى سائر أنحاء أوربا الغربية ، لأنهما كانتا تتحدثان فى حرية تامة ، على حين كانت الصحافة فى تلك الأيام فى أية بقعة أخرى خاضعة لسيطرة الحكومة ورقابتها . وكانت الدهشة تتولى أى ملك فرنسى يطلب كبح جماح أى صحفى هولندى أو وقفه عند حده ، إذا علم أن هذا مطلب مستحيل تنفيذه[٩٨]

وكان رجال الأدب فى هولنده كثيرين ، ولكن كان من سوء حظهم

أنهم كتبوا باللاتينية التى كانت فى طريقها إلى الفناء ، أو بالهولندية التى ضيقت نطاق قرائهم . فإن الهولنديين لم يتسن لهم أن يجعلوا من لغتهم،على غرار بحريتهم واسطه مشتركة لنقل الأدب والفكر . واعتقد ديرك كورنهرت وهيدريك سبيجل أن اللغه الوطنيه المفعمه بالحيويه أداة لنقل الفكر والادب ، وكافحا لتنقيتها من الإضافات الغريبه الدخيلة غير المتجانسه وغير الملائمة — وكان كونهرت — وهو فنان ، وكاتب ، ورجل دولة وسياسه ، وفيلسوف - أول وأقوى شخصيه فى التفتح الثقافى الذى توج الثورة السياسيه . وبوصفه أمينا عاما للمدينه صاغ بيان ١٥٦٦ لوليم أورانج ، فأودع السجن فى لاهاى ، ثم هرب إلى كليفز وكسب قوته من مهارته فى الحفر على الخشب والمعادن ، وترجم الاوديسيه وأعمال بوكاشيو وشيشرون والعهد الجديد (الانجيل) . ولما عاد إلى هولندة كافح فى سبيل نشر التسامح الدينى ، ورمز إلى التاريخ الفكرى فى القرن التالى - السابع عشر - حين تخلى عن عقيدته التى رأى أنها قد تشوهت وتلوثت بالصراعات الداميه إلى حد كبير . وأصبح « لا أدريا » معترفا بأن الإنسان لم يستطيع أن يعرف الحقيقة(٩٩) ، وعرض فى كتابه الاساسى « فن الحياة الطيبه » مسيحيه بغير لاهوت ، أى منهجا أخلاقيا مستقلا عن المذاهب الدينيه . ونتيجه لشيء من الاغضاء أتيح له أن يموت ميتة طبيعية (١٥٩٠) .

وتميزت هولنده بأن رجال الاعمال فيها كثيرا ما خلطوا بين الادب وبين شئونهم الماديه ، من ذلك أن رومرفسكر . وهو تاجر ثرى فى أمستردام ، ساعد صغار الكتاب وأكرم وفادتهم ، وجعل من بيته منتدى (صالونا) يبارى منتديات فرنسا ، ونظم هو نفسه شعرا أكسبه لقب «الهولندى الشجاع» أما بيتر هوفت فقد جعل من قصره فى بيدون على الزيدرزى ملاذا لعصر النهضه فى هولنده ، فاستقبل بالترحاب فى « حلقه ميودين » الشعراء ورجال العلم والدبلوماسيين والقواد والأطباء . وفى العشرين سنة الأخيرة من حياته ، كتب هو نفسه « تاريخ الأراضى الوطينة » روى فيه قصة ثورة الأراضى فى نثر قوى رائع ، جعل هولنده تكرمه وتحتفل به وكأنه يمثل المؤرخ الرومانى « تاسيتس » فى هولنده .

ومن بين مائة شاعر فى هولنده سما ثلاثة باللغة العامية إلىذروتها الأدبية.
منهم جاكوب كاتس المتقاعد الكبير لمدة اثنين وعشرين عاما ، الذى بسط
حكمة الأمثال السائرة فى شعر شعبى متبل بالحكايات الطريفة المفعمة بالحيوية،
حتى ظلت كتابات « الأب كاتس » لعدة قرون ، من مقتنيات كل بيت يعرف
أهله القراءة والكتابة فى هولنده ، أما جوست فان دن فوندل فقد تغلب على
كل المحن وكل الأعداء ، حتى تبوأ مكانة عالية فى الأدب الهولندى . وكان
أبوه صانع قبعات نفى من أنتورب بسبب آرائه المؤيدة لمذهب تجديد العماد .
وولد جوست فى كولون . وفى ١٥٩٧ استقر بالأسرة المقام فى أمستردام ،
وافتتح الوالد ، الذى تقلب من مذهب إلى مذهب ، محلا لصناعة الجوارب ،
وورث جوست عمل أبيه ولكنه ترك إدارته لزوجته وابنه ، على حين عمل
هو على تعويض ما فاته من التعليم الرسمى بدراســة اللاتينية والإيطالية
والفرنسية والألمانية ، وكتب رواياته الثمان والعشرين وفق نماذج أغريقية
وفرنسية ، وحرص فيها على اتباع نظام الوحدات بدقة . وسخر من فكرة
الجبرية أو القضاء والقدر ومن الجدل بين الشيع البروتستانتية . وافتتن بجمال
الشعائر الكاثوليكية ، وبماريا تسلكاد التى كانت كاثوليكية وجميلة معا .
وبعد موت زوجها (١٦٣٤) وموت زوجته هو (١٦٣٥) توثقت أواصر
الصداقة بينهما : وفى ١٦٤٠ اعتنق المذهب الكاثوليكى . واستمر ينتقد بشدة
الأحقاد الدينية والمخادعات والحيل الاقتصادية والفساد السياسى ، وكسب
قلوب الهولنديين بالتغنى بشجاعة الأراضى الوطيئة ومجدها . وفى ١٦٥٧
أفلست صناعة الجوارب التى أساء ابنه إدارتها ، وهرب الإبن إلى جزر الهند
الشرقية . وباع الشاعر كل ممتلكاته المتواضعة ليرضى دائنيه ، وظل لعشر
سنين يكسب قوت يومه من العمل بوظيفة كاتب لدى مقرض نقود ، وأخيراً
أجرت عليه حكومته معاشا ، وقضى فى هدوء الثلاثة عشر عاما الأخيرة من
عمره الذى بلغ اثنين وتسعين عاما .

أما أعظم الشخصيات جاذبية فى أدب الأراضى الوطيئة فى هذا العصر ،

فهو قسطنطين هيوجنس ، وهو هولندى جمع بين كل مظاهر وجوانب النهضة فى إيطاليا . وكان أبوه كريستيان جنس سكرتير مجلس الدولة فى لاهاى أما ابنه كريستيان فكان أعظم رجال العلم فى القارة على عهد نيوتن ، وبين الوالد والولد حافظ قسطنطين على ما اشتهرت به الأسرة من قدرات ومواهب ولد قسطنطين فى لاهاى فى ١٥٩٦ . والتحق فيها وفى ليدن وأكسفورد وكمبردج قسطا وافرا من التعليم ، وكتب الشعر باللاتينية والهولندية ، وبرع فى الألعاب الرياضية ، وأصبح موسيقيا وفنانا عظيما . وفى سن الثانية والعشرين التحق ببعثة دبلوماسية إلى انجلترا ، وعزف على العود أمام جيمس الأول ، وأحب جون دون الذى ترجم فيها بعد قصائده إلى الهولندية . وفى سن الثالثة والعشرين أرسل فى بعثة دبلوماسية إلى البندقية ، ولدى عودته كاد يفقد حياته عندما كان يرقى قمة برج الكاتدرائية فى ستراسبورج . وأصبح فى ١٦٢٥ سكرتيرا لطائفة من الحكام على التعاقب . وفى ١٦٣٠ عين فى المجلس المخصوص . وفى نفس الوقت أصدر عدة دواوين من الشعر تميزت بجزالة الأسلوب ورقة الشعور . وآذن موته فى سن التسعين (١٦٨٧) بانتهاء أزهى عصور الأراضى الوطيئة .

٧ — الفنون الهولندية

أحس الهولنديون البروتستانت بأن عمارة كنيسة العصور الوسطى وزخارفها كانت أشكالا تغذى النفوس بما يؤيد الأساطير ويدعمها ، وتثبط الفكر وتعوقه ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يعبدوا الله بالصلوات والعظات . لا بالفن ، ولم يحتفظوا فى طقوسهم إلا بفن الانشاد . ولذلك كانت هندسة بناء الكنائس عندهم تكاد لا تهدف إلا إلى البساطة الصارمة المطلقة . بل إن الكاثوليك أنفسهم لم يشيدوا فى المقاطعات المتحدة كنائس جديرة بالذكر وفى القرن السادس عشر جلب تجار ما وراء البحار ، ربما من سوريا أو من

مصر ، فكرة القباب البصلية الشكل . وانتشر هذا الطراز من هولنده وروسيا إلى ألمانيا ، وأصبح أحد معالم عصر الباروك فى أوربا الوسطى .

إن رجال الأعمال ، لا رجال الدين ، هم الذين سيطروا على هندسة البناء . وعمدوا أول ما عمدوا إلى تشييد مساكن راسخة البناء لأنفسهم — تكاد تكون كلها متشابهة ، لا تبعث على الخوف مثل قصور فلورنسه ، ولا تثير الحقد والحسد ، لأن كل مظاهر البذخ والترف والفن كانت داخل جدران البيت ، وفى حدائق الزهور التى عنوا بها أكبر عناية . أما المنشآت المدنية فقد أباحوا فيها بعض الزخرف والأبهة . ففى دار البلدية التى شادها ليفن دى كى لمدينة أنتورب ، جمع فى انسجام تام بين عناصر من فرنسا ومن ألمانيا ومن عصر النهضة ، ودار نقابة القصابين فى هارلم ، التى شادها ليفن نفسه ، تضارع فى فخامتها وأبهتها أية كاتدرائية قوطيه . وتظهر دار البلدية فى هارلم كيف أن هولنده طوعت الطراز الكلاسيكى (القديم) تماما حتى بات يتمشى مع أهدافها ونزعاتها .

وكان ميكلانجلو هولنده فى العمارة والنحت فى ذاك العصر هو هندريك دى كيزر الذى أصبح وهو فى سن التاسعة والعشرين المهندس المعمارى لمدينة أمستردام (١٤٩٤) ، وهناك صمم الكنيسة الغربية وسوق المال ومبنى شركة الهندسة الشرقية فى طراز يجمع بين طرز إيطاليا وهولنده وعصر النهضة . وفى دلفت بنى دار البلدية والنصب التذكارى لوليم الأول ، وفى ١٦٢٧ فى روتردام ، صب من البرونز تحفته الرائعة . ألا وهى تمثال أرزم الرائع الذى قبع ساكنا لم يمس بأذى لعدة سنوات بين أنقاض الحرب العالمية الثانية . ودمر بعض من أجمل المنشآت الهولندية التى يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة نتيجة الاخفاق فى إدارة شئون الدولة .

وتألقت صناعة الخزف بين الفنون الصغيرة . وفى روتردام ودلفت سما الذوق الرفيع بصناعة القرميد حتى جعل منها فنا . وأقبل الناس على

استخدام خزف دلفت المزخرف فى كل بيت فى الأراضى الوطيئة تقريبا . وحوالى ١٦١٠ ، فور افتتاح التجارة الهولندية مع الشرق ، بدأ خزافو دلفت فى تقليد الخزف الصينى ، وأنتجوا نوعا من السيوليق (خزف مزخرف مطلى بالمينا) الرقيق الأزرق أسموه « البورسلين الهولندى[١٠٠] » ، وسرعان ماعرض تصف أوربا الغربية خزف دلفت على الجدران أو على الأرفف .

أما أعظم الفنون جميعا فى الأراضى الوطيئة فكان الرسم . وليس فى التاريخ المعروف لدينا بلد غير هذه البلاد ـ ولا نستثنى من ذلك إيطاليا النهضة ـ حظى فيه أى فن يمثل هذه الشعبية العارمة . وتضم فهارس الفن فيما بين عامى ١٥٨٠ — ١٧٠٠ خمسة عشر ألف رسم هولندى[١٠١] ، وتأثر الفن الفلمنكى تأثرا شديدا بالفن الإيطالى ، ولكن فى المقاطعات الشمالية أثارت المقاومة الموفقة لسلطان أسبانيا روحا قومية وكبرياء قومية . لم تكونا تحتاجان إلا إلى الثروة المستمدة من التجارة فيما وراء البحار . لتحدثا انفجارا ثقافيا . فتحولوا بالفن إلى معارج جديدة من التطويع لحياتهم ومن الواقعية بعد أن كانت تتقلص عنه تماما الرعاية الكنسية والأرستقراطية ، وأصبح رعاة الفن وحماته الجدد هم التجار وعمــــد المدن والمحامون والمؤسسات والنقابات والكوميونات والمستشفيات ، بل حتى المنشآت الخيرية ، ومن ثم كانت الرسوم الشخصية والرسوم الجماعية ومشاهد الحياة اليومية . وكان لكل مدينة هولندية تقريبا مدرسة الفنانين الخاصة بها ، تحت رعاية محلية : هارلم ، ليدن ، أوترخت ، أمستردام ، دوردرخت ، دلفت ، لاهاى . أما المواطنون البسطاء الذين ربما كانوا فى بلاد أخرى أميين من حيث الفن ، عالة على الكنيسة ، فإنهم هنا زينوا بيوتهم بلوحات اشتروها أحيانا بثمن عال ، من ذلك أن خبازا أثبت سلامة ذوقه ، بدفع ٦٠٠ فلورين (٥٧٫٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لصورة واحدة للفنان فرمير[١٠٢] ، وكادت النزعة الدنيوية أن تكون عامة شاملة ، فلم يعد للقديسين وجود فى الرسوم ، وجاء التجار ، وانتصرت رسوم البيت والحقل على الكنيسة وازدهرت الواقعية ، فنظر البرجوازى بشىء قليل من التقدير

إلى لوحة تمثله هو وزوجته ، ولكن السدود والكثبان الرملية وطواحين الهواء والأكواخ والسفن الشراعية والأرصفة الزاخرة بالبضائع ، كل هذه أحيت صورها على الجدران فى سرور بالغ ، ذكريات أشياء فعلية عامة . ولقيت مناظر السكارى المرحين ورواد الحانات بل حتى المواخير ، ترحيبا فى بيوت ربما كانت تعلق منذ قرن مضى صور الشهداء القديسين وأبطال التاريخ أو آلهة الوثنيين . ولم تكن الصور العارية من سمات هذا العصر ، حيث لم يبتهج لها الناس فى مثل هذا المناخ الرطب مع الأجسام الضخمة . وبدا فى هذه البيئة الجديدة أنه ليس ثمة محل لما تميز به الفن الإيطالى من عبادة الجمال والرقة والتهذيب والوقار ، حيث لم تتطلب هذه البيئة من الفن شيئا أكثر من إخراج الحياة اليومية والمشاهد المألوفة .

وثمة جانب كئيب حزين فى صورة الأمة التى أغرمت بالرسوم إلى حد الجنون . وذلك أن الفنانين الذين رسموا لها عانوا فى أغلب الأحيان من الفقر ولم يحظو إلا بأقل التقدير . على حين أن الأرشيدوق واللوردات والأساقفة فى الفلاندرز أجزلوا العطاء لمن اصطفوا من الفنانين . أما فى هولنده فكانت المنافسة بين الفنانين فردية ، فأنتجوا للسوق العامة ، ووصلوا فى معظم الأحوال إلى العملاء عن طريق وسطاء نشأوا بين المنتجين والمستهلكين المشترين ، وعرفوا كيف يشترون بثمن بخس ويبيعون بسعر عال . وقلما حصل الفنانون الهولنديون أثمانا عالية ، فإن رمبرانت فى ذروة شهرته لم يقبض إلا ١٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « حراسة الليل » ولم يحصل فان جويين إلا على ٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « منظر لاهاى » ، وحصل الباقون على أقل من هذا بكثير ، فإن جان ستين رسم ثلاث صور شخصية مقابل ٢٧ جيلدر ، وباع ايزاك فان أوستاد ثلاث عشرة صورة مقابل مبلغ مماثل . وكان على الفنانين الهولنديين أن يلجأوا إلى مختلف الأعمال ليكسبوا قوت يومهم ، فباع فان جويين الزئبق ، واشتغل هوبيما بجباية الضرائب ، وأدار ستين نزلا ،

وكان الفنانون أنفسهم من الكثرة إلى حد أنهم أغرقوا سوقهم وأتخموها . أن قائمة بأسماء مشاهيرهم لتملأ صفحات ، وأن ثبتا بأعمالهم المكنوزة ليزحم كتابا ، فهلا أزجينا لهم الشكر فى الهامش(*) .

(*) ـ ألبرت كيب : رعاة يعزفون على المزمار (نيويورك)
ـ كارل فبريتوس : صورة شاب (روتردام)
ـ جان فان جويين ، وهو أعظم هذه المجموعة : مناظر طبيعيه غاية فى الروعة ، محفوظة فى كثير من المتاحف ، من بينها قاعة كوركوران فى واشنجطن .
ـ ديرك هالس ـ الأخ الأصغر لفراس : الصحبة المرحة (لندن)
ـ جيرار فان هنثورست : حفلة موسيقية (لننجراد)
ـ توماس دى كيزر ـ ابن هندريك : صور شخصية جميلة فى درسدن ، نابلى ، اللوفر ، نيويورك وسبقت لوحته « درس التشريح للدكتور فريج » ١٦١٩ بزمن طويل ، لوحة رمبرانت « درس التشريح للأستاذ تولب » ١٦٣٢
ـ كارل فان ماندر : كتب فى ١٦٠٤ « كتاب رسامى الأراضى الوطيئـــة » الذى كاد ينافس النموذج الذى احتذاه فاسارى .
ـ ميشيل فان ميرفات : صور شخصية فى كثير من المتاحف
ـ أدريان فان أوستاد : عازفو السكان المجاأر والمدخنون (كلاهما فى نيويورك)
ـ ايزاك فان أوستاد : السوق (مجموعة ولاس)
ـ فرانس بوريس الأكبر : صورة سيد مهذب (مجموعة ولاس)
ـ فرانس بوريس الأصغر : صورة شاب (قاعة بتى)
ـ بيتر بوريس : وليمة مجازية (مجموعة ولاس)
ـ هركيوليز بيجرز : منظر ريني (برلين)

٨ - فرانس هالس
(١٥٨٠ — ١٦٦٦)

عاش أسلافه لمدة قرنين من الزمان فى هارلم . وكان أبوه قاضياً هناك ، ولكن لأسباب غير معروفة ولد فرانس فى أنتورب، ولم يعد إلى هارلم ليقوم فيها إلا بعد بلوغه التاسعة عشرة من العمر . ولم نسمع عنه شيئا قط إلا فى ١٦١١ ،حيث سجلت إحدى كنائس هارلم تعميد هرمان بن فرانس هالس وزوجته آنك . أما ما عرف عنه بعد ذلك ، فكان من سجلات محكمة شرطه (١٦١٦) حيث تروى أن فرانس هالس قبض عليه بتهمة ضرب زوجته ضرباً مبرحا ، فأنب تأنيباً قاسياً ، ثم أفرج عنه بعد تعهده بأن يكون مهذباً وأن يتجنب صحبة السكارى . وماتت آنك بعد ذلك بسبعة شهور . وبعد خمسة أشهر أخرى (١٦١٧) تزوج فرانس من ليزبث رينيرز . وبعد تسعة أيام أنجبت له أول أولاده العشرة[١٠٤] . وقد خلف لنا لوحه رائعة تمثله مع زوجته الثانيه[١٠٥] التى عاشت معه طوال السنوات الأربع والسبعين التى بقيت فى حياته، واحتملت أملاقه وعوزه وسكره وعربدته . وليس ثمة ما يجذب الانتباه فيه إلا أنه كان رساماً عظيما ذا روح مرحة .

وكان قد بلغ السادسة والثلاثين حين حقق نجاحا هائلا فى لوحته « مأدبة نقابة رماة سانت جوربس[١٠٦] » ، وهى إحدى لوحات « دوابن » الخمس التى هيأت لفرانس مكانته العالية ، ويقصد بلفظ « دولين » مقر المتطوعين ، الذين مارسوا الرماية وأقاموا المباريات وعقدوا الندوات الاجتماعية ، وكانوا بمثابة قوات نظامية فى الكوميونات . وكان ضباط مثل هذه النقابات أحياناً يأجرون فناناً ليرسم لهم صورة جماعية ، ولكن يصر كل واحد منهم على أن يتناسب بروزه فى الصورة مع رتبته فى الجماعه ومع إسهامه فى تكلفتها . فهنا هؤلاء الضباط فى أبهى حلة ، يتجمعون حول مأدبة ، ويرفع أحدهم علم فرقته الغنى بالألوان . وحصل هالس على أجره لأن كلا من هذه الرؤوس فرد يمثل شخصية قوية، تختلف عن الأخرى ،كما يمثل سيرة حياته وتحفة رائعة.

ولم نسمع عن مهمة مماثلة أخرى إلا بعد إحدى عشر قسنة من ذلك التاريخ ، ولكن هالس أنتج فى هذه الحقبة رسوما تعد من روائع الفن الهولندى . من ذلك « بائع السردين»[١٠٧] وهى مرة أخرى تاريخ يتمثل فى وجه ، و « الشالوم المرح » « يونكر رامب وصديقته » وكلاهما فى نيويورك ، واللوحة المشهورة « الفارس الضاحك[١٠٨] » ـ تتجسد فيها الثقة بالنفس ، فى ثياب ذات أهداب مع طوق مكشكش حول العنق . وعباءة مزدانة بالأزهار ، وابتسامة تكاد تشبه ابتسامة الجيوكندا فى رقتها . وفى هذه الفترة (١٦٥٤ ؟) رسم فرانس « صورته الشخصية[١٠٩] » وجه قوى مليح ، وعينان حزينتان تنكران زهو الملابس الجميلة والذراعين المطويين . لقد كان الرجل منهوكا تتقاذفه اللهفة على الإتقان والكمال ، والظمأ إلى الخمر .

وفى ١٦٢٧ جاءت مجموعة دولين الثانية : لوحة أخرى « لنقابة ضباط سان جوريس[١١٠] » ولم تكن فى صفاء وإشراق اللوحة الأولى ، فإن هالس تحول عمدا ، ولبعض الوقت ، عن البريق الهادىء للألوان القوية إلى التلاعب الأشق بالأساليب الثانوية ـ الألوان النصفية (لا داكن ولا فاتح) والظلال الرمادية ومخطوط الكثافية الرقيقة . وثمة لوحة دولين أخرى فى هذا العام « نقابة رماة سانت أوريان[١١١] » ، وهى كذلك فى أساليب مخففة . ولابد أن الرماة اغتبطوا لأنهم كلفوا هالس أن يرسم لهم لوحة أخرى[١١٢] . وهنا استرد الفنان ألوانه وأبرز عبقريته ليجعل من كل وجه شيئا ممتعا فريدا . وفى ١٦٣٩ رسم لوحة أخرى « لضباط نقابة سانت جوريس»[١١٣] ولكن فى هذه اللوحة ضاع الفرد فى زحمة المجموع . ولكن لوحات الدولن هذه فى جملتها أروع صور المجموعات فى كل العصور ، هى توضح انطلاق الطبقة الوسطى على مدارج الظهور الموسوم بالفخار والزهو .

وفى الفترة الثانية (١٦٢٦ - ١٦٥٠) رسم هالس صورا تنادى بتخليد ذكراها . منها « السكير المرح[١١٤] » يضع فوق رأسه قبعة كبيرة تكفى لتغطية

رؤوس حشد من السكارى : و« الذى يعدو فوق الرمال »[١١٥]، وهو أشعث أغبر ، فى أسمال بالية ، ولكنه فاتن ، و « المتشردة أو الغجرية » تبتسم وتنتفخ فى اللوفر ، و« المهرج » فى أمستردام « وبلتازار كريمان الوهمى »فى واشنجطن أما تحفة فترة ذروة النضج هذه ، فهى لوحة هالس البالغة الامتياز « القائمون على مستشفى سانت اليزابث[١١٦] » ، وهى تماثل ، أولا تماثل لوحة رمبرانت منذو بو نقابة تجار الأقمشة التى رسمت بعدها بإحدى وعشرين سنة .

أن إسراف هالس فى الشراب بغير حدود . ولو أنه يبدو أنه لم يسىء إلى فنه ، أضر بموقفه حتى فى بلد وفى عصر لجأ فيه الناس إلى الشراب بين الحين والحين ابتعاثا للمرح والفرح . وظل يرسم صورا ربما كانت كفيلة بأن ترفع أى فنان إلى قمة الشهرة : « ساحرة هارلم[١١٧] » ، و « ديكارت[١١٨] » الذى يحرر من الوهم ، فى حاجبين كبيرين وأنف ضخم وعينين تنمان عن الشك ، ثم رسم فى سن الثمانين صورة « شاب فى قبعة مترهلة[١١٩] » . ولكن فى الوقت نفسه تكاثرت الأرزاء على الفنان ، ففى ١٦٣٩ أرسل ابنه بيتر الى مصحة الأمراض العقلية على نفقة البلدية ، وفى ١٦٤١ وضعت ابنته الكبرى المتمردة فى إصلاحية الأحداث بناء على طلب أمها . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كان فرانس معدماً . وفى ١٦٥٤ أقام الخباز المحلى ضده الدعوى يطالبه بسداد مائتى جلدر وحجز على أدوات الرسام . وفى ١٦٦٢ توسل الشيخ الهرم المتهدم للحصول على معونة وأجيب إلى طلبه . وبعد ذلك بعامين قرر له مجلس مدينة هارلم معاشا سنويا ، ووهبه فورا ثلاثه أحمال من الخث ليوقد مدفأته .

ويحتمل أنه رغبة فى منح فرانس مزيدا من الصدقات ، كلف فى هذا العام (١٦٦٤) برسم لوحتين : « مديروا ملجا الفقراء » و« مديرات ملجأ الفقراء » . ويظهر فى لوحة الرجال أثر اليد المضطربة للفنان فى سن الرابعة والثمانين ، فإن معظم التقاطيع والملامح فيها ملطخة بشكل غامض ، على نقيض اللوحة الأخرى التى تمثل النساء ، فإنه مما يثير الدهشة أن المهارة القديمة عادت سيرتها الأولى :

فهنا خمس أنفس ارتسمت على خمسة وجوه ممثلة مذعنة ، خمس نساء عجائز أرهقتهن الأعمال غير العادية ، عابسات متجهمات متزمتات ، كما يقتضى نظامهن البيوريتانى ، وقد نسين مرح الشباب وبهجته . ومع ذلك . يتألق بشكل مافى هذه التقاطيع الكالحة عطف هادىء ومشاركة وجدانية حزينة. وهاتان الصورتان الأخيرتان هما آخر لمسات جرت بها يد الفنان أو ومضات لمعت فى فنه ، وهما الآن ، إلى جانب لوحات مجموعات « الدواين » ، موجودتان فى متحف فرانس هالس الذى شادته مدينة هارلم فى مكان ملجأ الفقراء .

مات هالس فقيرا معدما (١٦٦٦) ولكنهم احتفلوا بدفنه احتفالا مهيبا فى هيكل كنيسة سانت بافون فى المدينة التى اعتمدت شهرتها على الحصار الذى قاومته طويلا ، وعلى أعمال أعظم أبنائها . ولمدة قرنين من الزمان بعد وفاته كاد النسيان يجر عليه ذيوله ، وبيعت لوحاته بأبخس الأثمان ، أو فى المزادات ، أو بلا شىء مطلقا ، وإذا كان مؤرخو الفن قد تذكروه ، فما ذاك إلا لأنهم تنبهوا إلى ضيق مجال فنه - فلم يكن ثمة صور دينية ولا أساطير ولا صور تاريخية ولا مشاهد طبيعية ولا صور عارية - أو إلى العجلة المدموغة بالإهمال والتهاون فى طريقة عمله ، حيث لم يكن ثمة مخططات تمهيدية ، بل لطخات من ألوان متناثرة اعتمدت على التخمين وعلى ذاكرة الرائى ليملأها بالتفاصيل . واليوم يتعالى الهتاف للفنان ، بشكل قد يكون مبالغا فيه ، مما يتوازن مع طول إغفال شأنه كما يعتبر نقد كريم أن هالس ألمع رسام للصور الشخصية رآه العالم[٢٠] » . ومادام الزمن ، وهو أجدر القضاة بالثقة ، يتذبذب فى حكمه ، فلنقنع نحن بالإعجاب .

٩ — رمبرانت هارمنزفان رين

١٦٠٦ — ١٦٦٩

ولد فى ليدن لأب طحان ثرى . هو جريت هامنز الذى أضاف إلى اسمه « فان رين » ربما لأن بيته كان يطل على نهر الراين . ولا بد أن الفنان أحب أباه حبا جما لأنه رسمه إحدى عشرة مرة أو أكثر ، فى قبعة وسلسلة ذهبية[١٢١] وكصراف نقود[١٢٢] وكسلافى نبيل[١٢٣] — وجه قوى حسن التقاطيع يحف به الوقار — ورسمه فى ١٦٢٩ رجلا علته السنون بالكآبة والإرهاق[١٢٤]. كما رسم أمه اثنى عشرة مرة ، أجدرها بالذكر لوحة « المرأة العجوز » فى متحف فيينا قاقة منهوكة ونراها فى متحف أمستردام منكبة على الكتاب المقدس . وإذا كانت الأم — كما يعتقد البعض — « منونية » (تنتسب إلى طائفة بروتستانتية متزمتة) فقد ندرك من هذا ميل رمبرانت إلى التوراة ، وصلته الوثيقة باليهود .

وفى سن الرابعة عشرة التحق بجامعة ليدن ولكنه أنعم النظر فى أشكال أخرى غير الأفكار أو الألفاظ ، وترك الجامعة بعد عام واحد ، وأقنع أباه بالسماح له بدراسة الفن . وخيرا ما فعل ، فإنه فى ١٦٢٣ أرسل إلى أمستردام ليتتلمذ على بيتر لاستمان الذى كان يعتبر آنذاك آبللز (رسام إغريقى) العصر وكان لاستمان قد عاد من روما إلى هولنده بتوكيد كلاسيكى على الرسم الصحيح ويحتمل أن رمبرانت تعلم منه أن يكون مخططا ممتازا . ولكن بعد قضاء عام واحد فى أمستردام عاد الشاب القلق مسرعا إلى ليدن « متلهفا على الرسم بطريقته الخاصة . فرسم أو صور كل ما وقعت عليه عيناه تقريبا ، بما فى ذلك الحماقات الصاخبة والقذارات المخزية[١٥٢] ، وتابع النهوض بفنه عن طريق تجارب عزيزة لديه فى تصوير شخصه فكانت المرآة هى النموذج أمامه وترك لنا صورا شخصية (٦٢ على الأقل) أكثر مما ترك كثير من كبار الرسامين من صور . ومن بين هذه الصور الشخصية الأولى رأس جميل فى لاهاى : وهى لوحة تمثل رمبرانت فى الثالثة والعشرين ، وسيما مليحا بطبيعة الحال (وهذا هو

شأن كل المرايا ـ تظهرنا فى أجمل صورة) يتطاير شعره هنا وهناك دون مبالاة ، فى ترفع الشباب عن التقاليد والأعراف ، تنبىء عيناه عن اليقظة والزهو بما ثبت من قدرته وكفايته .

والحق أنه كان بالفعل قد وطد مركزة . وفى ١٦٢٩ نقده أحد الخبراء ١٠٠ فلورين اجراً لصورة ـ وهذا أجر مناسب لمنافس صغير فى بلد كان فيه عدد الرسامين كبيرا مثل عدد الخبازين ، ولكنهم لا يشبعون بطونهم مثلهم . وكانت موضوعاته ـ بعد شخصه ووالديه ـ مأخوذة من الكتاب المقدس . وفى لوحته « أرميا ـ يرثى لخراب أورشليم[١٢٦] » تجلت الهالة الصوفية التى تميزت بها لوحات رمبرانت الدينية . أما لوحة ، سمعان فى الهيكل[١٢٧] ، فإنها تعبر تعبيرا صادقا عن روح ما جاء على لسان هذا الشيخ فى الإنجيل : « الآن نطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام » (إنجيل لوقا ٥ : ٥٩) . وكاف من أمستردام بأعمال كثيرة إلى حد أنه عاد إليها فى ١٦٣٨١ . وقضى هناك بقية أيام حياته .

وفى خلال سنة من وصوله إليها رسم إحدى روائع الدنيا وهى « درس التشريح للأستاذ نيقولا تولب[١٢٨] » ، وكان ثمة تشريحات كثيرة فى التصوير الهولندى ، ولم تمتهن السوابق ، أو يخدش التواضع حين كلف الجراح الممتاز الذى كان أربع مرات عمدة لمدينة أمستردام ، رمبرانت أن يرسمه ، وهو يقدم عرضا فى التشريح فى قاعة نقابة الجراحين ، معتزما أن يهدى الصورة إلى النقابة تذكارا لأستاذيته ، وربما كان دكتور تولب هو الذى اختار سبعه من «الطلبة» ليكونوا معه فى الصورة ، وواضح أنهم لم يكونوا طلبة ، بل رجالا ناضجين من ذوى المكانة فى الطب أو فى مجال آخر ، وانتهز رمبرانت الفرصة ، كل الفرصة ، ليبرز الوجوه متألقة بالشخصية والذكاء . وتبدو الجثة منتفخة على نحو غير ملائمة ، واتخذ اثنان من المتفرجين وضعا تشهده الأجيال القادمه ، ويمضى دكتور تولب فى عمله فى هدوء رجل متمرس واثق . أما الرجلان اللذان

يحدقان النظر فوق رأس الجثة فكانا يمثلان حب الاستطلاع والانتباه بأجلى معانيهما ، وكان التلاعب بالضوء على اللحم والأطواق إعلانا عن ميزة رمبرانت .

وانهالت الطلبات على رمبرانت ، حتى بلغت أربعين فى عامين . أما وقد امتلأت الآن جيوبه بالمال، واستبد به الظمأ إلى النساء «فقد حان الأوان للزواج (١٦٣٤) . وكانت ساسكيا أولنبرخ ذات وجه جميل وعينين راقصتين وشعر حريرى ناعم ذهبى اللون وقوام أهيف وثراء كاف ، وما أجمل صورة «ساسكيا» فى مدينة كاسل الألمانية ، وكانت الابنة اليتيمة لمحام وقاض ثرى . وربما كان عمها ـ وهو وسيط فى تجارة التحف الفنيه ـ هو الذى أغراها بالجلوس أمام رمبرانت ليرسمها ، وكانت جلستان فقط كافيتين للتقدم لطلب يدها . وقدمت العروس صداقا قدره أربعون ألف جيلدر ، أصبح بذلك مفلس المستقبل واحدا من أغنى الفنانين فى التاريخ . وأصبحت ساسكيا زوجة صالحة على الرغم من ثروتها . وتحملت فى صبر وجلد عبقرية شريك حياتها المستغرقة فى العمل . وجلست إليه ليرسم لها صوراً كثيرة ، ولو أنها أبرزت جسمها الآخذ فى التفتح والامتلاء ، وكان يدثرها فى أزياء غريبة ليرسم لها «فلورا آلهة الأزهار» المشرقة الباسمة الموجودة الآن فى لندن ، و «فلورا» الحزينة ، الأبسط شكلا ، الموجودة الآن فى نيويورك . وفى إحدى اللوحات فى درسدن نراه وقد غمرته السعادة ، وهو يمسك بها وهى جالسة على ركبته ، تفيض منه الابتسامة على اللوحه ، رافعا كأسا عالية ابتهاجا بموفور الصحه والمال .

وفى سنين اليسر هذه (١٦٣٤ — ١٦٤٢) أخرج الفنان التحفة تلو التحفة . واستمر يرسم نفسه . فنراه فى « صورة الفنان » (١٦٣٤) وهى الآن فى اللوفر ـ وسيما مبتهجا ، فى قبعة مزدانه بالجواهر . وسلسلة ذهبية على صدره ، ورسم فى السنة نفسها « الضابط [١٢٩] » ـ وهو فيها جميل مهيب يضع على رأسه قبعة تغزو العالم ، ورسم لنفسه فى ١٦٣٥ صورة فى قبعة رائعة يكاد ريشها يداعب

السماء . وسعيا وراء الشخصية الأجمل ، (١٦٣٤ « السيدة العجوز » التى لا تبالى بنا وهى معلقة فى المتحف الوطنى بلندن فى وجه ملأته السنون بالتجاعيد . وبعد ذلك بعام واحد رسم « المرأه العجوز على الكرسى ذى الذراعين» وهى موجوده فى نيويورك . وعثر فى خرائب أمستردام على رجل فى الثمانينات ، ألبسه عمامة وثيابا ورسم له لوحة « رجل شرقى[١٣٠] » : وكان له ولع بجمع الثياب والجوهرات والسيوف والقبعات والأحذية الغريبة، تستطيع أن تراها جميعا ، فيما عدا السيف فى لوحة « مارتن داي[١٣١] » بالأربطة والأشرطة على قفازه ، والأهداب على ثيابه والتروس فوق حذائه . والآن أيضـــا ، رسم موضوعات دينيه عتيقة فى صورة صادقة جديدة متخذا نماذجه من الرجال العجائز والشابات اللاتى قابلهن فى الشوارع ـ كل منها تلفت النظر فى أسلوب من معالجة التفاصيل ، تأخذ بالألباب فى التلاعب بالضوء ، وتثير المشاعر بتدفق العاطفة فيها الى حد أن أية لوحة منها يمكن الدفع بأنها أبدع ما رسم الفنان ، ومثال ذلك لوحة « تضحية ابراهيم[١٣٢] » ، الملاك روفائيل يهجر طوبيا[١٣٣] » . وجاءت هذه السنوات المباركة بعدد من أشهر الصور الشخصية مثل « السيدة ذات المروحة[١٣٤] » ، و « الرجل ذو القفاز[١٣٥] » ، وكلتاهما تجل عن الوصف ، وتقصر عنها أية ألفاظ .

وآخر الرسـوم فى هذه الحقبة ، وربما أعظم انجازات رمبرانت على الاطلاق ، هى اللوحة الضخمة (١٤ × ١٢ قدما) تعرف فى التـاريخ بإسم « حراسة الليل» ، والأكثر احتمالا أن اسمها « جماعة كابتن كوك الرماة[١٣٦] (١٦٤٣) . ولا ينقص هذه الرقعة الهائلة أية تفاصيل ، وليس فيهـا أى ظل للظلام أو أى مسقط للضوء إلا حسب حسابه ، أو أى تباين فى اللون إلا وهو مدروس . ويقف الكابتن المزهو فى الوسط فى لون أسمر وأبيض وأحمر ، وإلى يساره قائمقام فى أحذية عالية وسترة وقبعة صفراء ذهبية اللون، والسيوف تبرق والرماح تلمع والأعلام ترفرف ، وإلى يمين الكابتن فرقة

الناى والطبول . وتغادر الجماعة مقرها إلى مايبدو واضحا أنه عرض فى أحد المهرجانات . وتعاقد رمبرانت مع كل من الأشخاص الستة عشر الذين سيصورهم ، على أن يدفع كل منهم مائة فلورين . وأحس كثير منهم بأن المساواة فى الأجر لم تقابلها مساواة فى التألق والعظمة فى اللوحة ، وشكا بعضهم من أنه وضعهم فى الظل ولم يسلط عليهم الأضواء ، أو أنه قصر فى تحديد ملامحهم حتى يسهل على أصدقائهم التعرف عليهم. ولم يشتد الطلب بعد ذلك على الصور الجماعية فى مرسمه ، وبدأ نجمه يأفل .

ولا بد أن المال كان وفيراً لديه فى ١٦٣٩ لأنه اشترى فى تلك السنة داراً فسيحة فى شارع جودن — بريد الذى كان يقطنه أثرياء اليهود . وكلفته الدار ثلاثة عشر ألف فلورين . وهو مبلغ ضخم لم ينجح قط فى دفعه كاملا . وربما قصد ألا تتسع لأسرته فحسب ، بل لتلاميذه ولمرسمه ومجموعته المتزايدة من التحف القديمة والأشياء الغريبة والفن . وبعد دفع نصف ثمن الشراء فى السنة الأولى من شغل الدار ، وبقاء النصف الثانى دينا عليه ، ارتفعت فائدته التى لم تدفع إلى حد جره إلى هاوية الافلاس .

وفى الوقت عينه كانت صحة حبيبته ساسكيا آخذة فى التدهور ، وكانت قد أنجبت له ثلاثة أولاد ، مات كل منهم فى سن الطفولة . وهدت ولادتهم العسرة ونهايتهم الأليمة من كيانها . وفى ١٦٤١ أنجبت له إبنا أسماه تيتوس ، وقد بقى على قيد الحياة ، ولكن أمه فارقت الحياة فى ١٦٤٢ . وأوصت بكل ما تملك إلى رمبرانت ، شريطة أن تؤول بقية التركة إلى ولدها إذا تزوج والده ثانية . وبعد سنة من وفاتها رسم لها رمبرانت صورة من الذاكرة العامرة بحبها . وكدرت هذه الخسارة صفو حياته . وبدأ منذ ذلك الوقت أن فكرة الموت تستبد به وتقلقه . وعلى الرغم من أنه كان شديد التعلق بأسرته، فإنه كان دائما يؤثر الوحدة على الرفقة ، أما « الآن فقد » آوى إلى عزلة كئيبة . وكان وهو يرسم يصرف المشاهدين الأغرار عنه قائلا « أن رائحة الطلاء

تضر بالصحة (١٣٧) » . ولم يكن رجل الدنيا المثقف أو المهذب مثل روبنز . وقرأ قليلا : ولم يكد يقرأ شيئا سوى الكتاب المقدس ، وعاش فى مملكة اللون والظل والضوء التى لا تنبس ببنت شفة . وهى متنوعة مثل دنيا الأدب ولكنها غريبة عنها فريدة . وكان من الصعب عليه أن يقوم بالواجبات الاجتماعية إذا قدم عليه من يجلسون أمامه ليرسمهم ، أو أن يتبادل معهم أحاديث قصيرة بقصد تسليتهم والاحتفاظ بسكونهم وهدوئهم. وقل المترددون عليه حين وجدوا أن رمبرانت مثل معظم أسلافه ، لم يكن يرضى أن يرسم لهم رسما تخطيطيا فى جلسة أو جلستين ، ثم يكمل الصورة من هذا الرسم التخطيطى ، بل آثر أن يرسم مباشرة على القماش ، الأمر الذى يتطلب جلسات كثيرة ، هذا فوق أنه كان له طريقة انطباعية فى أن يرسم ما يفكر فيه أو يحس به ، لا مجرد ما يرى ، ولم تكن النتيجة دائما مرضية .

ولم يكن عونا له أن تقع داره فى حى اليهود . وكان قد عقد منذ ذاك الوقت صداقات مع كثير منهم . وكان قد نقش صورة لمنسه بن إسرائيل (١٦٣٦) . والآن فى ١٦٤٧ حفر على الخشب الوجه الداكن للطبيب اليهودى افرايم بونس . ولما كان الفنان محاطا باليهود من كل جانب تقريبا ، وواضح أنه أحبهم ، فإنه وجد موضوعات تتزايد يوما بعد يوم ، بين اليهود الأسبان والبرتغاليين فى أمستردام . وربما تعرف على باروخ سبينوزا الذى عاش فى هذه المدينة من ١٦٣٥ . وذهب بعضهم إلى أن رمبرانت نفسه كان يهوديا . وهذا غير صحيح لأنه عمد ونشأ على المذهب البروتستانتى . وكانت ملامحه تنطق بأنه هولندى ، ولكن لم يعرف عنه أى تحيز ملحوظ بالنسبة للدين أو الجنس . وثمة عمق خاص لتفاهمه الموسوم بالعطف فى رسومه لليهود . لقد افتتن بشيوخهم ولحاهم التى تقطر منها الحكمة وعيونهم التى تشف عن الحزن والأسى . وإنك لتجد نصف العذاب النفسى عند العبرانيين ماثلا فى وجه « اليهودى العجوز » وهى اللوحة التى رسمها رمبرانت ١٦٥٤ والموجودة الآن

فى الارميتاج (لننجراد) ، وفى لوحة « الحبر » (الحاخام) (١٦٥٧) فى لندن وفى هذه اللوحة الأخيرة صورة الحبر الذى واسى رمبرانت بعد وقوعه فى الضائقة المالية وأمده بمعونة مادية .

ونراه فى ١٦٤٩ يرسم « هندريكا ستفلز فى المخدع »(١٣٨) ، وندرك أنه اتخذ خليلة . وكانت وصيفة ساسكيا ، وبقيت مع الفنان الأرمل وعنيت به عناية فائقة ، وسرعان ماسرت عنه بحرارة جسمها . أنه لم يتزوجها لأنه كره أن يتخلى عن تركة ساسكيا لابنه تيتس الذى كان بعد صبيا فى الثامنة من العمر . وعندما رسم هندريكا فى ١٩٥٥(١٣٩) ، كانت جميلة بدرجة مقبولة ذات عينين تلازمهما لهفة مكتئبة ، وربما كانت هى التى جلست أمامه مرتين لتجربة أو دراسة فن رسم العاريات : فى ١٦٥٤ « باشيبا فى الحمام »(١٤٠) و « امرأة تخوض »(١٤١) وكلتاهما آية فى العظمة من حيث الألوان والاتساع . وفى يولية من هذا العام دعيت للمثول أمام شيوخ الكنيسة ، حيث أنبت تأنيبا قاسيا على اقترافها الزنى ، وحرمت من تناول القربان المقدس . وفى أكتوبر وضعت له طفلا اعترف رمبرانت ببنوته ، ودبر أمر تعميده بسلام ، وعرف كيف يحب خليلته حبا عميقا كما أحب زوجته ، وإلا كيف كان يتسنى له أن يملأ وجهها بكل هذه الرقة حين صورها ١٦٥٨ فى رداء أحمر يلتئم مع شعرها(١٤٢) . وكانت زوجة أب فاضلة لتيتس الذى أخذ يترعرع صبيا فاتنا . ويمكن أن تراه فى متحف متربوليتان للفن ، وهو فى الرابعة عشرة ، جميلا كالبنت ، ذا عينين تتمثل فيهما حيرة الشباب ، تربكه الحياة ، يجد شيئا من الطمأنينة والأمان فى حب أبيه ، وتراه مرة أخرى فى مجموعة ولاس ، وقد سلخ عاما آخر من العمر . وقد نتصور كل التصور كيف أنه كان عزاء وسلوى لأبيه رمبرانت الذى انصبت على رأسه الكوارث المالية فى هذه السنة .

وبذل الفنان جهداً جباراً ليقتصد فى الإنفاق ويصل إلى الموازنة بين موارده ونفقاته . وثمة لوحات دينية عظيمة يرجع تاريخها إلى هذه الحقيقة — حقبة

الزنى والديون (١٦٤٩ — ١٦٥٦) منها « يعقوب يبارك حفدته [١٤٣] » ، و « المسيح عند النبع [١٤٤] » ، و « المسيح وامرأة سامرا [١٤٥] » ، و « النزول من الصليب [١٤٦] » . ومهما يكن من أمن فإن الصور الكنسية لم تكن مطلوبة في هولنده البروتستانتية . ومن ثم جرب يده في الأساطير ، ولكنه لم ينجح إلا حين استطاع أن يكسو الأشخاص . ولم تكن لوحة « داناى [١٤٧] » جذابة . أما « أثينا [١٤٨] » و « مارس [١٤٩] » ، فكانتا فريدتين في بابهما . وظل يرسم صورا شخصية تأخذ بمجامع الألباب . فإن صورة « نيقولا برونتج [١٥٠] » قد التقطت في لحظة مشرقة بالحياة والفكر . وصور « جان سكس [١٥١] » تمثل عمدة المدينة الهولندى في ذروة قوته وأسعد أوقاته ، كذلك فإن رمبرانت رسم في هذه الفترة بعض أشخاص غير ذوات أسماء ، بعد دراسة عميقة : « الرجل ذو الخوذة الذهبية [١٥٢] » ، و « الراكب البولندى [١٥٣] » ، و « كوزيليوس فائد المائة [١٥٤] » . وتبدو معظم اللوحات الشخصية الأخرى إلى جانب هذه ، ذات بريق سطحى .

وكان رمبرانت في سن الخمسين حين وقعت الكارثة . أنه قلما اهتم بأن يحسب ماله وماعليه . واشترى دون مبالاة الدار والفن ، بل أسهم شركة الهند الشرقية [١٥٥] . والآن وقد تخلفت معونات نصرائه ورعانه كثيراً عن الوفاء بمتطلباته ، فإنه وجد نفسه وقد أثقلته الديون لدرجة تدعو إلى اليأس . وفى ١٦٥٦ ، ورغبة في حماية تيتس ، نقلت « محكمة الأيتام » في أمستردام ، ملكية البيت الأبيض إلى الابن ، ولو أنه سمح للوالد في الإقامة هناك لبعض الوقت . وفى شهر يولية أعلن افلاس رمبرانت ، وبيع أثاثه ولوحاته ورسومه ومجموعاته في عجلة كلفته كثيراً (١٥٦٧ - ١٦٥٨) . ولكن العائدات كانت أقل كثيراً من أن تفى بالتزاماته . وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٧ طرد من الدار . فتنقل من بيت إلى بيت حتى استقر به المقام في روزنبراخت في « حارة اليهود » . وأنقذ من هذا الحطام نحو سبعة آلاف فلورين من أجل تيتس ، الذى كون مع هندريكا رغبة منهما في حماية رمبرانت ، شركة أمكن بواسطتها بيع أعماله الباقية دون

أن تؤول إلى دائنيه . ويبدو أنهما أوليا الفنان الذى تتقدم به السنون ، عناية كبيرة .

واستمر رمبرانت وسط هذه البلايا والمحن ينتج الروائع : « رجل على ظهر جواد » وقد بيعت حديثا إلى المتحف الوطنى فى لندن مقابل ٤٠٠ ألف دولار ، واللوحة العجيبة « رأس رجل عجوز [١٥٦] » - وكأنه كارل ماركس فى الثمانينات متحرراً من الأوهام ، واللوحة الطبيعية المفعمة بالحيوية بدرجة مدهشه « امرأة تقص أظافرها [١٥٧] » - وربما تطلبت بعض الطقوس الدينية تنظيف الجسم كله ليلة السبت . وربما رسم آنذاك أيضا بعض صور مروعة للفنان نفسه مثل : « رمبرانت وكراسة رسومه التخطيطية » (١٦٥٧) ، وهى موجودة فى درسدن ، ثم اللوحة الأكثر شهرة التى يبدو فيها وجهه العابس المتجهم وجسمه البدين المدثر (١٦٥٨) وهى فى مجموعة فريك فى نيويورك ، وصورته بكامل جسمه (١٦٥٩) وهى فى فيينا ، وصورة الوجه الذى يعروه القلق والهموم (١٦٥٩) فى واشنجطن .

وفى العقد الأخير من عمره (١٦٦٠ - ١٦٦٩) سهر للابقاء على حياته ابنه وخليلته . ولكن كان مسكنه ضيقا ومرسمه سيء الإضاءة ، ولا بد أن يديه فقدتا بعض اتزانهما وثباتهما نتيجة كبر السن والشراب ، فلوحة « القديس متى الإنجيلى [١٥٨] » غير مصقولة فى تركيبها ، ولكن الملاك الذى يهمس فى أذنه لم يكن ســـوى تيتس الذى بلغ الآن العشرين من العمر ، ولا يزال جميلا كالعروس . ثم جاءت فى تلك السنة (١٦٦١) آخر روائع الفنان : « خبراء نقابة تجار الأقمشة [١٥٩] » فإن فاحصى القماش والمرافقين كلفوا الفنان بأن يخلد ذكرهم بصورة جماعية تعلق فى دار رابطتهم . وربما كنا نغتفر بعض التردد فى التركيب ، وبعض الفجاجة فى التفاصيل وبعض التقصير فى إسقاط الضوء ولكن النقد فى حيرة من الأمر ليعثر على غلطة فى الصورة . فإن أمامية الصورة وخلفيتها اللتين تمكن منهما الرسام جعلتا الشخوص الخمسة الرئيسية تقفز إلى

عين الرائى « كل منها شخص واحد منفصل »، ولكنهم جميعا التقطوا فى نفس اللحظة الحية التى التقى فيها تفكيرهم . وفى كثير من الوحات التى رسمت فى سنوات التهدم والتدهور هذه، يجد الخبراء علامات على إنهيار الطاقه وإنحطاط الأسلوب بساطة الألوان ، إهمال التفاصيل ، العجلة فى جريان الفرشاة وعدم الصقل . ولكننا ، حتى فى هذه الأيام نجد صورا أخاذة ، مثل « عود السخى[١٦٠] » ـ وهى تشخيص لاينسى للصفح المحبب إلى النفس ، و« العروس اليهودية[١٦١] » وتلك ثمرة عجيبة مدهشة تأتى من شجرة تذوى وتذبل .

ولكننا لم نذكر شيئا عن مناظر الطبيعة ورسومه وحفره . ولم يبرز أو يتفوق إلا القليل من المناظر الطبيعية ،ولكن الرسوم بلغت القمة بين مثيلاتها وثمة رسمان مشهوران : « مشهد أمستردام » بالقلم والحبر ، الموجود فى فيينا ، و « المرأة العجوز جالسة » فى برلين . ويعد إنتاجه فى الحفر مضارعا لأحسن ما أنتج فى اونج هذا الفن الشاق المجهد . وعرف أحد أعماله فى هذا الفن « المسيح يشفى المرضى » ، بأسم « القطعة ذات المائة جيلدر » لأنها اشتريت بثمن لم يسبق له مثيل (١٢٠٠ دولار ؟) . على أن نسخة منها على أيه حال قدرت فى ١٨٦٧ بمبلغ ٣٥ ألف فرنك (٢٠ ألف دولار ؟) .

أن ٣٠٠ من أعمال الحفر ، ٢٠٠ من الرسوم و ٦٥٠ من اللوحات منجزات رمبرانت لاتزال باقية ، تكاد تكون مشهورة مثل شهرة روايات شكسبير ، وتكاد تكون متنوعة أصيلة عميقة مثلها . وكلها تقريبا من صنع يديه . فعلى الرغم من أنه كان له مساعدون ، فإن أحدا منهم لم يشاركه سره فى الكشف عما خفى وما لايرى[١٦٢] . وكانت بعض أعماله رديئة وبعضها منفرا ، مثل « الثور المسلوخ » فى اللوفر . وكان أحيانا يستنفد كل جهده فى الأسلوب الفنى وفى أحيان أخرى يتجاوزه من أجل الرؤيا ، أى رؤيا الفنان نفسه . . وكان ، مثل الطبيعة ، يتخذ موقفا محايدا بين الجمال والقبح ، لأن الصدق عنده كان قمة

الجمال، وإن الصورة التي تمثل القبح حقا وصدقا هي صورة جميلة . وأبى أن يضفى أشكالا مثالية على الشخوص في لوحاته الدينية ، وأرتاب في أن يكون العبرانيون الوارد ذكرهم في التوراه على مستوى جمال اليهود في أمستردام ، فصورهم على هذا النسق، ومن ثم أنبعثوا من عالم الأساطير أو التاريخ إلى الحياة. وازداد شيئا فشيئا مع تقدمه في السن ، حبه للبسطاء من الناس حوله ، لاحب من جردهم السعي وراء الكسب من الروح الإنسانية . وعلى حين أن بعض الفنانين ، مثل روبنز ، التمسوا موضوعاتهم بين أرباب الجمال أو السعداء أو الأقوياء وأصحاب السلطان ، فإن رمبرانت كان يسخو بفنه الحنون على المنبوذين والمرضى والتوساء ، حتى المشوهين ذوى العاهات ، وعلى الرغم من أنه لم يسخر من الدين أو يهزأ به ، فقد بدا أنه على غير وعى منه ، يجسد موقف السيد المسيح وويتمان تجاه أولئك الذين أحتقروا ، أو أبوا أن يشتركوا ، في صراع كل إنسان مع سائر بني الإنسان .

ولنلق نظرة أخيرة عليه في صوره الشخصية في شيخوخته . وليس هنا زهو أو خيلاء ، بل على النقيض ، أنها قصة حياة الفنان بمرشاته هو ، في أيام الخيبة والهزيمة . أنه عندما صور نفسه ١٦٦٠ ،(١٠٣) كان لايزال يواجه الحياة بمزيج من الشجاعة والاستسلام ، فإن الوجه القصير السمين غير الحليق كان ساخرا ولم يكن حزينا ، وكان لايزال يتحرك قدما . ولكن في صورة أخرى(١٧٤) في نفس العام ، كانت ثمة نظرة قلقة حائرة تعتم الوجه ويكسوه بالتجاعيد حول الأنف الضارب للحمرة وفي ١٦٦١ رأى نفسه(١٧٥) في نفس الحيرة والإرتباك . ولكنه لم يبال بالتجاعيد بطريقة فلسفية . وصور نفسه في عامه الأخير(١٦٦)، وكأنما وجد الطمأنينة وهدوء البال في إرتضاء قيود الحياة وحدودها ومرحها الساخر . وماتت هندريكا ١٦٦٢ ، ولكن ظل تيس يمتعه بمنظر الشباب ، وفي ١٦٦٨ ابتهج الشيخ العجوز بزواج ابنه . ولما لحق الابن بالخليلة في هذا العام نفسه ، فقد الفنان قدرته على التشبث بالحياة . وجاء في سجل

الوفيات فى الكنيسة الغربية فى ٨ أكتوبر ١٦٦٩ رمبرانت فان رين ـ الرسام... يترك طفلين ..

وكاد معاصروه ألا يلحظوا وفاته . ولم يحلم أحد منهم قط بوضعه فى مرتبة روبنز ، أو حتى فانديك . وكتب عنـــه معاصره — جويشم (يواقيم) فون ساندرات أن ما كان يعوزه أساساهو المعرفة بإيطاليا وغيرها من الأماكن التى تهيء الفرص لدراسة القديم ودراسة نظرية الفن . (ويبدو لنا الآن أن هذا هو سر عظمته) . ولو أنه عالج أموره بمزيد من الحزم والتعقل ، وأبدى مزيدا من اللباقة فى المجتمع ، فلربما أصبح أكثر ثراء ، ولقد عانى فنه من ميله إلى صحبة السوقة(١٦٧) . واتفق رسكين مع مؤرخ الفن الألمانى حيث قال : « أن الفظاظة والتبلد والتجرد من التقوى تعبر دائما عن نفسها فى الألوان السمراء والرمادية ، كما هو الحال مع رمبرانت .... أن هدف أحسن الرسامين أن يصوروا ماتقع عليه أعينهم فى وضح النهار أو فى ضوء الشمس ، ولكن رمبرانت كان يسعى إلى رسم أقذر الأشياء التى يراها وأبشعها — فى ضوء شمعة »(١٦٨) . ولكن يوجين دى لاكروا الذى عكس التطورات الديمقراطية فى فرنسا قال « ربما يأتى يوم نجد فيه رمبرانت رساما أعظم من رافاييل . وأنى لأكتب الآن — دون تحيز — هذا التجديف الذى لابد سوف يسبب إنتصاب شعر الأكاديميين غضبا ودهشة(١٦٩) . وينزع النقاد اليوم إلى رفع رمبرانت فوق مرتبة رافاييل وفلاكويز ومساواته فقط بالفنان الجريكو(١٧٠) وإنا لندرك أن « الصدق » هو وظيفة الزمن وتابعه .

أية سلسلة وأية هوة من روبنز إلى رمبرانت ـ بين الضوء البهيج والظل الكئيب ، بين الهاوية والحاشية ، بين نبيل أنتورب السعيد بانغماسه فى اللهو والفجور فى وطنه فى القصور مع الملوك ، ومفلس إمستردام الذى عرف أحط الأعماق ، ولازم الحزن والأسى . إنك إذ ترى هذين الرجلين على أنهما عنصرى

طباق فى تناغم قوى ، إنما تحس بطريقة أخرى بعظمة أمه صغيرة صارعت إمبراطورية عملاقة، كما تحس بتعقيد المدنية التى استطاعت أن تنتج ،فى ناحية، ثقافة كاثوليكية تزين إبتهاج مذهبها الذى لا يرقى إليه الشك ، بالأساطير وأضرحتها العزيزة عليها بالفن ، وفى الناحية الأخرى ثقافة بروتستانتية استطاعت أن تغذى وتربى أعظم فنان وأعظم فيلسوف فى ذاك العصر .

الفصل التاسع عشر

ظهور دول الشمال

١٥٥٩ - ١٦٤٨

١ — الدنمرك دولة عظمى :

فلنلق نظرة على الخريطة . فإن الخرائط مثل الوجوه ، هى شارات التاريخ وتوقيعاته .

عندما ارتقى فردريك الثانى العرش ١٥٥٩ كانت الدنمرك من أقوى الدول وأكثرها امتدادا فى أوربا ، ولم تكن تعلمت بعد أنه من الحذق والحكمة أن تكون صغيرة . وفى الصراع الطويل الأمد بينها وبين السويد من أجل السيطرة على التجارة بين بحر الشمال والبلطيق ، كانت الدنمرك هى المنتصرة فى بداية الأمر ، حتى امتد حكمها عبر الاسكاجراك إلى النرويج ، وعبر الكاتيجات إلى ما هو الآن جنوب السويد . واستولت على المدن الاستراتيجية كوبنهاجن وهلسينور فى الجانب الغربى ، ودالمو وهلسنبورج فى الجانب الشرقى من الأوريسوند أو السوند — أى المياه العاصفة التى لا يزيد اتساعها فى مكان واحد فقط على ثلاثة أميال ونصف الميل . والتى تفصل الآن الدنمرك عن السويد . واستولت فى أقصى الشرق ، فى معظم هذه الفترة . على جزر بورنهلم وجوتلند وأوسل ، وبذلك تحكمت فى بحر البلطيق . وكانت تضم فى الجنوب دوقتى شلزويج وهولستين ، كما حكمت فى أقصى الشمال الغربى أيسلنده وجرينلند وكانت الضرائب والرسوم التى فرضتها الدنمرك على التجارة المارة عبر المضايق بين البحار هى المصدر الأساسى لموارد المملكة والسبب الرئيسى فى حروبها .

وكانت السلطة السياسية فى أيدى ثمانمائة من النبلاء ملكوا نصف الأرض

وجعلوا من الفلاحين أرقاء ، وانتخبوا الملك ، وحكموا البلاد عن طريق الريشستاغ أو الديت الوطنى (الجمعية التشريعية) والريجستاد أو مجلس الدولة . وأفادوا من حركة الإصلاح الدينى بامتصاص معظم الممتلكات التى كانت تابعة للكنيسة من قبل . وفى مقابل إعفائهم من الضرائب ، كان متوقعا منهم ولكنهم رفضوا فى أغلب الأحيان ، أن يسلحوا فلاحيهم ويقودوهم إلى الحرب ، إذا استنفزهم الملك . ولم يحظ رجال الدين البروتستانت المحرومين من الثورة إلا بمكانة اجتماعية هزيلة ونفوذ سياسى ضئيل ، ومهما يكن من أمر فإنهم سيطروا على التعليم وأشرفوا على الأدب ، ومن ثم لم ينتج إلا لاهوتا وتراتيل . ونعم جمهور السكان . وقد بلغ عددهم نحو مليون ، بالاسراف فى الطعام والشراب ، حتى لقد نصح حلاق جراح عملاءه قائلا : « إنه لمن الأفضل للناس أن يشربوا الخمر إلى حد الثمل مرة فى كل شهر ، وعندى لهذا أسباب قوية ، فإنه يقويهم ويساعدهم على النوم العميق ، ويسهل التبول والتنفس ويجلب السعادة والرفاهية عامة[1] .

وظهر فى هذه الحقبة شخصيتان دنمركيتان من حقهما على التاريخ أن يذكرهما : تيكوبراهى أعظم الفلكيين فى هذا الجيل ، وكريستيان الرابع الذى لم يكن ملكا على الدنمرك لمدة ستين عاما (١٥٨٨ - ١٦٤٨) فحسب، بل كان يمكن كذلك أن يتزعم الناس بصرف النظر عن الأصل الملكى . وإنا لنمر مرورا عابرا بوالده فردريك الثانى لنذكر أن المهندس المعمارى الفلمنكى أنطونيوس فان أوبرجر صمم له (١٥٧٤ — ١٥٧٥) حصن قصر كرونبورج فى هلسينور - « السينور هملت » .

وعندما مات فردريك ١٥٨٧ كان كريستيان صبيا فى الحادية عشرة ، فتولى الحكم لمدة ثمان سنوات أربعة أوصياء من النبلاء ، ثم قبض كريستيان على زمام الأمور ، وطيلة نصف القرن التالى . نعم بحياة مترفة فى بذخ وحيوية ونشاط متعدد الجوانب ، مما أدهش كل أوربا ، وبز الملك توجيهات الحلاق

الجراح سالف الذكر ، لأنه كان بانتظام فى حاجة إلى من يعاونه فى العودة إلى قصره بعد أمسية صاخبة مخمورة . وبلغ دنسه وتهتكه حدا لم يتفوق عليه فيه إلا لقليل من رعاياه . وخلق عدد أولاده غير الشرعيين مشكلة فى علم المحاسبة . وغض شعبه النظر عن هذه الأخطاء العادية ، وأحبوه لأنه كان يرقص فى أعراسهم واشترك فى أعمالهم وخاطر بحياته كثيرا لخدمتهم ، وأضاف إلى هذا كله معرفته باللاتينية والعلوم ، وتذوقا مثقفا للفن ، وعقيدة دينية ميسرة لم تثر أى جدل حول الجدير وغير الجدير بالتصديق والثقة ، أو أى وخز للضمير حول المزاح والهزل . وساعد فى أوقات فرغه على أن يجعل من كوبنهاجن (مرفأ التجار) أحدى العواصم الأكثر جاذبية وفتنة فى أوربا . وضاعف برنامجه للبناء من محيط المدينة[٢] وفى عهده شيد قصر روزنبورج ، وسرعان ماقامت بعده سوق الأوراق المالية (البورصة) بواجهتها الممتدة امتدادا كبيرا ، وارتفع برجها اللولبى عاليا . وأصلح كريستيان حكومة النرويج وطور صناعتها وأعاد بناء عاصمتها التى حملت اسمه لمدة ثلاثة قرون : « كريستيانا » (سميت أوسلو ١٩٢٥) . وفى الدنمرك أصلح الإدارة ونهض بالصناعات ونظم الشركات التجارية وأسس الكليات والمدن ، ورفع من مستوى الفلاحين فى الضياع الملكية .

وأضاع الطمع بالملك ، ذلك أنه كان يراوده حلم توحيد اسكنديناوه بأسرها تحت حكم رجل واحد ، أى تحت حكمه هو . ولكن النبلاء اعترضوا بأنه من المتعذر غزو السويد ، ولم يمنحوه تأييدهم وعونهم وشن بالجنود المرتزقة أساسا حرب الكلمار على السويد (١٦١١ — ١٦١٣) . وما أن قامت حرب الثلاثين عاما حتى وجد نفسه على كره منه ، متحالفا مع السويد ، دفاعا عن قضية البروتستانت . وبرغم هذا الخطر المحدق به استأنف الحرب مع السويد (١٦٤٣) ولو أنه كان فى السابعة والستين من العمر . وقاد قواته الهزيلة فى حماسة رومانتيكية . وفى معركة كولبرج البحرية (١٦٤٤) قاتل طوال يوم كامل على الرغم من أصابته بعشرين جرحا ، وفقد أحدى عينيه ،

وأحرز نصرا مؤقتا . وثبت فى آخر الأمر أن السويد أقوى ، وحررها صلح برومسبرو ١٦٤٥ من دفع الرسوم على تجارتها فى مياه السوند ، وتخلى لها عن جوتلند وأوزل وثلاث مقاطعات فى شبه جزيرة اسكنديناوه . وعندما مات كريستيان الرابع ، بعد خمسين عاما من أعمال بناءة وحروب هدامة كانت مملكته أصغر مما كانت عليه حين اعتلى العرش . ودالت دولة الدنمرك وسطوتها .

٢ — السويد : ١٥٦٠ — ١٦٥٤

١ — المذاهب المتصارعة : ١٥٦٠ — ١٦١١ :

فيما بين جوستاف فاسا مؤسس السويد الحديثة وجوستاف أدولف منقذ البروتستانتية ومخلصها ، تلبد تاريخ السويد بسحب الصراع بين الشيع الدينية من أجل السلطة السياسية . وكان المليك (الفاسا) الأول قد حرر السويد من نير الدنمرك . ووحد البلاد تحت حكم ملكية وراثية قوية . على حين أن أوليجاركيات النبلاء ساعدت على ضعف الدنمرك وبولندة وعلى الاقطاع فيهما . وكان الفلاحون فى السويد أحرارا ، وكانوا يمثلون فى مجلس الديت (الركسداج) مع النبلاء ورجال الدين وممثلى المـــدن . وكانت لفظه بوند Bonde التى كانت تعنى فى الدنمرك الرقيق ، تعنى فى السويد لقبا كريما للرجل الحر الذى يفلح أرضه الخاصة به . ولكن المناخ كان يحد من موارد الأرض بشكل قاس ، كما كان يحد منها قلة عدد السكان . وسيطرة الدنمرك على ثلاث مقاطعات فى شبه الجزيرة الاسكنديناوية وعلى مياه السوند . وامتلأت قلوب النبلاء غيظا بسبب خضوعهم من جديد للملك ، وكانت الكنيسة قد جردت من أملاكها فى السويد ، فدأبوا على تدبير المؤمرات للاستحواذ على الشعب واسترداد أملاك الكنيسة والاستيلاء على العرش .

ولم يكن أريك الرابع عشر - ابن جوستاف فاسا - (١٥٦٠ — ١٥٦٨)

مؤهلا لمواجهة هذه المشاكل . لقد كان يتحلى بالشجاعة والمقدرة ولكن طمعه العنيف أفسد عليه دبلوماسيته ، وأدى به إلى القتل والجنون . وأثار حفيظة النبلاء بقتل خمسة من زعمائهم ، قتل هو أحدهم بيده . وواصل ضد الدنمرك « حرب السنين السبع الشمالية (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ومهد يغزو ليفونيا لحروب مقبلة . ونفر منه أخاه جون باعتراض سبيله فى زيجة كان يمكن أن تجعل منه وريثا لعرش بولندة ، فلما تزوج جون ، رغم أنف أخيه، من الأميرة كاترين جاجللون ، احتجزه أريك فى قلعة جريشولم . وجاءت كاترين لتشاطر جون ويلات السجن ، وأغرته باعتناق المذهب الكاثوليكى . وفى ١٥٦٨ أرغم أريك أخوته على التخلى عن العرش . وبعد ستة أعوام قضاها فى السجن أعدم بأمر من الديت والملك الجديد .

وعقد جون الثالث (١٥٦٨ — ١٥٩٢) صلحا مع الدنمرك ومع النبلاء ، وأذكى نار الخلاف الدينى من جديد . فإن زوجته كانت تغريه فى الليل ، أكثر منها بالنهار ، باعتناق الكاثوليكية . وبإذن منه دخل الجزويت إلى السويد متنكرين ، وأخذ أقدرهم ، وهو أنطونيو بوسيفون ، على عاتقه تحويل الملك إليها ، وكان وخز الضمير قاسيا كلما تذكر جون موافقته على قتل أخيه ، وأن عذاب النار هو العقاب الذى لا مفر منه لخطيئة مثل هذه. ولكن بوسيفون أغراه بأنه لا منجاة من هذا الجحيم الذى ينتظره إلا بالاعتراف وطلب الغفران فى الكنيسة التى يعتقد الناس جميعا بأن السيد المسيح هو الذى أقامها . وأذعن جون وتناول القربان المقدس وفق الطقوس الكاثوليكية ، ووعد بأن يجعل الكاثوليكية دين الدولة شريطة أن يرخص البابا لرجال الدين السويديين فى الزواج ، وأن يقام القداس باللغة الوطنية ، وأن يقدم القربان المقدس بالنبيذ والخبز على السواء . وقصد بوسيفون إلى رومه ولكن البابا رفض الشروط . فعاد الجزويتى صفر اليدين . وأصدر جون أوامره إلى الجزويت بتناول القربان بكلا نوعية وبتلاوة القداس باللغة السويدية فرفضوا ورحلوا . وماتت كاترين الكاثوليكية فى ١٥٨٤ . وبعد ذلك بعام واحد

تزوج جون من سيدة بروتستانتية ردته ثانية إلى المذهب اللوثرى ، فى الليل أكثر منها بالنهار .

وفى أغسطس انتخب إبنه الكاثوليكى لعرش بولندة تحت إسم سجسمند الثالث . ووفقا لقانون كالمر اتفق الوالد والولد على أنه بعد وفاة جون يصبح سجسمند ملكا على بولندة والسويد معا . ولكن سجسمند آلى على نفسه أن يحترم استقلال السويد السياسى والمذهب البروتستانتى . وعند وفاة جون (١٥٩٢) انعقد مجلس الديت تحت رياسة أخيه الدوق شارل فى مدينة أبسالا (٢٥ فبراير ١٥٩٣) وكان يضم ٣٠٠ من رجال الدين و ٣٠٠ من العلمانيين — النبلاء وممثلو المدن وعمال المناجم والفلاحين ، واتخذ مذهب أوجزبرج اللوثرى ١٥٤٠ مذهبا رسميا للكنيسة والدولة فى السويد . وأعلن هذا المجتمع التاريخى (مجمع أبسالا) أن الأمة لن تتقبل غير اللوثرية ولن تتسامح مع غيرها ، وألا يعين فى المناصب الكنسية أو السياسية إلا اللوثريون الأقحاح وألا يتوج سجسمند فى السويد إلا بعد قبوله لهذه المبادىء . وفى الوقت نفسه اعترفوا بالدوق شارل نائبا للملك عند غيابه عن العرش .

ولكن سجسمند الذى تلقى تعليمه على أيدى الجزويت ، كان يحلم بضم السويد وروسيا إلى حظيرة الكثلكة . ولما وطأت قدماه أرض ستوكهلم (سبتمبر ١٥٩٣) وجد كل الزعماء السويديين تقريبا مجمعين على طلب أوثق ضمان لإمتثاله لإعلان أبسالا . وظل خمسة أشهر يبحث عن حل وسط ، ولكن الزعماء بقوا على عنادهم ، وجمع الدوق شارل جيشا . وأخيرا أعطى سجسمند التعهد المطلوب ، وتوجه أسقف لوثرى فى أبسالا (فبراير ١٥٩٤) . ولكن سرعان ما أصدر سجسمند بيانا احتج فيه بأنه أكره على هذا التعهد تحت الضغط والتهديد ، وعين ستة من كبار الموظفين لحماية الكاثوليك الباقين فى السويد ، وفى أغسطس عاد أدراجه إلى بولنده .

وأعد الدوق شارل وأنجرمانوس رئيس أساقفة أبسالا العدة لتنفيذ

قرارات المجمع . ودعا مجلس الديت فى سودر كوبنج (١٥٩٥) إلى القضاء على كل عبادة كاثوليكية ، ونفى كل الطوائف المعارضة المذهب البروتستانتى ، وأمر بأن يضرب بالعصا كل من يتخلف عن حضور الصلوات اللوثرية ، ووقع هو العقوبة بنفسه عند زيارته للكنائس(٣) . وأغلق كل ما بقى من الأديار ، وأزيلت كل الأضرحة الكاثوليكية .

وتوسل إلى سجسمند مستشاروه أن يغزو السويد بجيش كبير . ورأى هو أن خمسة آلاف جندى تفى بالغرض . وحط رحاله بهم فى السويد (١٥٩٨) واشتبك معه شارل فى ستجبرج فهزم . وفى اشتباك آخر فى ستانجبرو انتصر الدوق . ووافق سجسمند من جديد على إعلان أبسالا وعاد إلى بولنده . وفى يولية ١٥٩٩ خلعه الديت السويدى ، وأصبح الدوق شارل الذى ما زال نائبا الملك ، الحاكم الفعلى للدولة . وأقر مجلس الديت (١٦٠٤) قانون الوراثة الذى نص على ألا يتولى العرش إلا كل ذكر أو أنثى من أسرة فاسا يرتضى العقيدة اللوثرية المقررة وأن كل مخالف لها لا يحق له الإقامة أو التملك فى السويد . « فكل أمير ينحرف عن مبادىء أوجزبرج لابد بطبيعة الحال أن يفقد تاجه(٤)» ، ومن ثم كان الطريق معبدا لاعتلاء جوستاف أدولف ابن شارل عرش السويد ، ولتخلى حفيدته كريستينا . وفى ١٦٠٧ توج شارل التاسع ملكا .

وأصلح شارل الحكومة المختلة ، ونهض بالتعليم والتجارة والصناعة ، وأسس مدن كارلستاد فيلبستاد وماريستاد وجوتبورج ، وهيأت هذه الأخيرة للسويد منفذا طيبا إلى بحر الشمال ، متغلبة بذلك على سيطرة الدنمرك على المضايق . وأعلن كريستيان الرابع الحرب (أبريل ١٦١١) وغزا السويد . وتحدى شارل ، وهو فى الحادية والستين من العمر ، كريستيان لمبارزة فردية . فرفض هذا الأخير . ومات شارل فى أكتوبر ١٦١١ ، والقتال على أشده ، ولكن قبل موته وضع يده على رأس ابنه وقال « أنت لها » . وقد كان لها فعلا(٥) .

٢ — جوستاف أدولف ١٦١١ — ١٦٣٠ :

وكان أعظم شخصية رومانتيكية فى تاريخ السويد ، وهو فى سن السادسة عشرة آنذاك . وكانت أمه ألمانية ، ابنة الدوق أدولفوس هولتين جوتورب . ولقنه أبوه وأمه تعليما صارما فى اللغتين السويدية والألمانية وفى المذهب البروتستانتى . وما أن بلغ الثانية عشرة حتى كان قد درس اللاتينية والإيطالية والهولندية . والتقط بعد ذلك شيئا من الإنجليزية والأسبانية ، بل حتى البولندية والروسية ، وأضيف إلى هذا كله جرعة قوية من الأدب القديم انسجم مع تدريبه فى الألعاب الرياضية والشئون العامة وفنون الحرب وبدأ فى سن التاسعة يشهد جلسات الديت ، واستقبل السفراء فى الثالثة عشرة وفى الخامسة عشرة حكم إحدى المقاطعات ، وفى السادسة عشرة اشترك فى القتال . وكان طويل القامة وسيما دمثا كريما رحيما ذكيا ، باسلا . وماذا يتطلب التاريخ أكثر من هذا فى الرجل ؟ وكانت له فى السويد شعبية عارمة إلى حد أن أبناء النبلاء الذين أعدمهم شارل التاسع بتهمة الخيانة ، سارعوا طائعين مختارين إلى خدمته .

ولم تبرز فى جوستاف أدولف نزعة آل فاسا إلى المزاج الفردى والعنف ولكنها برزت فى حبه للحروب . لقد ورث عن أبيه حرب الكامر ضد الدنمرك ، فشن الحرب عليها فى حماسة بالغة ولكنه أحس بأن هذه الحرب تسلك سبيلا بعيدا عن الرشاد والسداد ، فدفع للدنمرك فى ١٦١٣ مليون طالير (عملة ألمانية قديمة ـ ١٠ مليون دولار) مقابل السلام بينهما ومقابل حرية السفن السويدية عبر المضايق ومياه السوند . وفى هذه المرحلة من نشاطه كان مهتما بإبعاد روسيا عن البلطيق ، فكتب إلى أمه يقول : « إذا أدركت روسيا قوتها فى أية لحظة ، فإنها لا تستطيع اجتياح فنلندة (وكانت آنذاك جزءا من السويد) من الجانبين فحسب ، بل تستطيع كذلك حشد أسطول فى البلطيق ، يعرض أرض الأجداد للخطر(٦) فأرسل أعظم قواده دهاء — جاكوب

دى لاجاردى — ليغزو انجريا ، وفى ١٦١٥ حاصر بنفسه بسكوف . وكانت المقاومة الروسية مرهقة ولكن بالتهديد بالتحالف مع بولنده ، استطاع جوستاف أن يقنع القيصر ميكائيل رومانوف بعقد صلح (١٦١٧) يعترف بسيطرة السويد على ليفونيا واستونيا وشمال غربى انجريا ، بما فى ذلك لننجراد الحالية . وسدت بذلك منافذ البلطيق أمام روسيا . وكان جوستاف يفخر بأن روسيا لا تستطيع تسيير سفينة واحدة فى البحر دون إذن من السويد .

ثم ولى وجهه شطر بولنده حيث كان مليكها سجسمند الثالث لا يزال يطالب بعرش السويد . وكانت الكاثوليكية آنذاك منتصرة فى بولندة ، ومتلهفه على فرصة تسنح للسيطرة على السويد ، وفوق ذلك كانت بولندة بما لها من ثغور قوية فى دانزج وممل وليبو وريغا ، منافسا أقوى من روسيا ، فى السيطرة على البلطيق والتحكم فيه . وفى ١٦٢١ قاد جوستاف ١٥٨ سفينة و ١٩ ألف جندى لحصار ريغا التى كان يمر بها ثلث صادرات بولنده ، وكانت غالبيه سكانها من البروتستانت ، وقد لا يستاءون من غزو سيد أجنبى لها . فلما استسلمت دون مقاومة ، عاملها جوستاف فى رفق ولين ليضمن وقوفها إلى جانبه ، وفى أثناء الهدنة التى استمرت ثلاث سنوات مع بولنده ، استطاع هو أن يقوى روح جيشه وضبطه ونظامه ، وجعل - مثل معاصره كروموبل - من التقى والورع أداة للخلق العسكرى . ودرس فن موريس ناسو العسكرى ، وتعلم كيف يمكن كسب المعارك بسرعة الحركة وبالاستراتيجية البعيدة النظر . واستقدم من هولندة خبراء فنيين ليعلموا رجاله تكتيك الحصار واستخدام المدفعية . وفى ١٦٢٥ عبر البلطيق مرة ثانية واستولى على دوربات ، وثبت سيطرة السويد على ليفونيا ، وأوصد البلطيق تماما فى وجه لتوانيا . وبعد سنة أخرى أخضعت جيوشه بروسيا الشرقية والغربية ، وكانتا خاضعتين للتاج البولندى . ولم تصمد سوى دانزج . وصارت الأقاليم المفتوحة مقاطعات سويدية ، وطرد منها الجزويت . وجعلت اللوثرية المذهب الرسمى . وكانت

أوربا البروتستانتية ترنو إلى جوستاف ، على أنه منقذها المنتظر فى الحرب الكبرى التى كانت تجتاح ألمانيا آنذاك .

وفى أوقات السلم واجه جوستاف مشكلات الإدارة الداخلية بذكاء وحنكة أقل منهما فى الحرب . وكان أيام غيابه فى المعارك يعهد بحكومة البلاد إلى النبلاء وكان يبيح لهم ، ضمانا لولائهم ، احتكار المناصب وشراء أراضى التاج الشاسعة لقاء ثمن زهيد . ولكنه وجد فسحة من الوقت لتثبيت دعائم الموارد المالية وإعادة تنظيم المحاكم والخدمات البريدية والمستشفيات وتحسين أحوال الفقراء . وأسس المدارس المجانية وجامعة دوربات ، وأغدق بسخاء على جامعة أبسالا ، ونهض بالتعدين وعلم المعادن . ولم يكن نجاحا يسيرا ، من بين ما حققه من نجاح فى مجالات مختلفة ، أن السويد توافرت فيها الموارد والخبرات والمهارة لصناعة الأسلحة . وشجع التجارة الأجنبية عن طريق منح الاحتكارات ، ومنح شركة البحار الجنوبية السويدية امتيازا . وروع وزيره أوكسنستيرنا ، الذى عرف بهدوئه فى مواجهة الأزمات ، بطاقة مليكه ونشاطه فقال : « إن الملك يشرف على المناجم والتجارة ، والصناعات والجمارك ويوجهها كما يدير موجه الدفة سفينته[٧] » وتوسل إلى جوستاف أن يخفف من نشاطه ، فأجابه الملك بقوله : « لو كنا جميعا فى مثل برودتك لتجمدنا » فرد عليه الوزير بقوله « ولو كنا جميعا فى مثل حرارة جلالتكم لاحترقنا[٨] » .

وكان الآن لزاما أن تندس الحمى المدمرة التى تضطرم بين جنبى الفارس السويدى إلى « حرب الثلاثين » ، فقد قال : « إن كل حروب أوربا يعلق بعضها ببعض[٩] » وكان قد لحظ بقلق بالغ انتصارات ولنشتين وتقدم جيوش آل هيسبرج فى شمال ألمانيا وانهيار مقاومة الدنمرك ، وتحالف بولنده مع النمسا ، وهما كاثوليكيتان ، ومن ثم فسرعان ما قد تسعى قوات آل هيسبرج إلى السيطرة على البلطيق . وبذلك قد تصبح تجارة السويد وعقيدتها وحياتها تحت رحمة الإمبراطورية والبابوية . وفى ٢٠ مايو ١٦٢٩ أرسل جوستاف إلى مجلس الديت السويدى تحذيرا من خطة ولنشتين فى أن يجعل من البلطيق

بحيرة يتحكم فيها آل هبسبرج . وأوصى بالهجوم على أنه خيروسيلة للدفاع، وأهاب بالأمة أن تهب لمساندته وتمويل دخوله فى معركة فاصلة (هرمجدون = سهل مجدو — العهد الجديد رؤيا يوحنا ١٦ : ١٦ — معركة فاصلة بين الخير والشر) تحدد مصير المذاهب اللاهوتية . وكانت السويد مثقلة فعلا بأعباء حملاته ، ولكن مجلس الديت والشعب إستجابا لندائه وبمعونة ريشليو أقنع بولنده بعقد هدنة مدتها ست سنوات (سبتمبر ١٦٢٩) . وقضى تسعة شهور فى جمع السفن والمؤن والجنود والحلفاء . وفى ٣٠ مايو ١٦٣٠ خطب فى الديت خطبة وداع مؤثرة بليغة ، وكأنما كان قلبه يحدثه بأنه لن يرى السويد ثانية . وفيما بين ٢٦ — ٢٨ يونية ألقت سفنه مراسيها على جزيرة على مسافة من شواطئ بوميرانيا ، وأنطلق جوستاف إلى ساحة المجد والموت معا .

٣ — الملكة كريستينا ١٦٣٢ — ١٦٥٤ :

عين جوستاف ، عندما كانت ابنته وريثة عرشه طفلة فى الرابعة — واحدا من أقدر رجال الدولة والسياسة فى هذا العصر الزاخر بالعباقرة . هو الكونت أكسل أوكسنسترنا، وصيا . وقد وصفته كريستينا فيما بعد بقولها: « لقد درس وتعلم كثيرا فى شبابه ، ودأب على الدرس فى زحمة العمل . وكانت قدرته ومعرفته بشئون العالم وأحواله عظيمتين جدا . وعرف مواطن القوة والضعف فى كل دولة فى أوربا . وكان طموحا ، ولكنه كان كذلك مخلصا غير قابل للافساد أو الرشوة ، ومن ناحية أخرى بطيء متوان بارد المزاج لا يبالى ، إلى حد كبير »[١٠] . وعرف عن الكونت أنه « صموت » ، وأما عدم إفصاحه عن شيء ، حتى وهو يتحدث، فهذا هو نصف فى الدبلوماسية. وعلى مدى عامين حكم الكونت السديد حكما صالحا حين كان الملك جوستاف يخرج للحرب فى أماكن بعيدة. ثم ، بوصفه وصيا على كريستينا، وجه جيوش السويد فى ألمانيا ، كما أدار دفة الأمور فى الداخل ، ولم تنعم أية دولة فى أوربا طيلة هذه الأعوام الاثنى عشر بحكومة أفضل من حكومة السويد . وفى ١٦٤٣ صاغ ما يعرف « بشكل الحكومة » ، حدد فيه تشكيل كل فرع فى الإدارة وصلاحياته وواجباته . وهذا هو أقدم نموذج معروف لدستور مسطور .

وفى ١٦٤٤ أحست كريستينا ، وهى الآن فى ربيعها الثامن عشر ، أنها قادرة على حكم هذه الأمة الشديدة الحساسية النابضة بالحياة ، والتى بلغ عدد سكانها المليون ونصف المليون من الأنفس . والحق أنها تحلت بكل قدرات ومواهب رجل ذكى مبكر النضج . وقالت هى عن نفسها : « خرجت إلى الحياة وكل سلاحى شعرى ، وكان صوتى قويا خشنا ، مما جعل النساء يفكرن أنى صبى ، وعبرن عن فرحهن بهتافات ضللت الملك فى أول الأمر(١١) » . وقابل جوستاف نبأ اكتشاف أنها أنثى فى رجولة مهذبة ، وأحبها حبا عميقا حتى بدا أنه راض عن أن تكون هى وريثة سلطانه وعرشه . على حين أن أمها ماريا اليونورا أوف راندنبرج لم تغفر لها قط كونها أنثى . وربما أسهم استياء الأم فى أن كريستينا صارت أكثر شبها بالرجل قدر ما كان يسمح لها جسمها وتكوينها بذلك ، فأهملت شخصها عن عمد ، واحتقرت التزين ، وأقسمت كما يقسم الرجال ، وأحبت أن تتزيى بزيهم ، واعتادت على ألعابهم ، وركبت منفرجة الساقين بأقصى سرعة ، واصطادت فى تهـــور واندفاع ، وجندلت فريستها من أول طلقة . ولكنها كانت تقول : لم أقتل مرة حيوانا إلا وأحسست بالشفقة نحوه(١٢) » .

وعلى الرغم من هذا كله ، تجلت فى كريستينا بعض مفاتن النساء . وفى ١٦٥٣ كتب بيرهيوت الذى أصبح فيما بعد أسقف آفرانش يقول : « وجهها دقيق جميل ، وشعرها ذهبى وعيناها براقتان ... يرتسم التواضع على وجهها ، ويبدو عندما تحمر وجنتاها خجلا لدى سماع أية لفظة نابية(١٣) » . وقال قسيس الاعتراف الجزويتى لدى السفير الأسبانى : « ولم تكن تطيق فكرة الزواج ، لأنها ولدت حرة طليقة ، ولسوف تموت حرة طليقة كذلك(١٤) » . ويبدو أنها كانت تحس أن الاتصال الجنسى ليس بالنسبة للمرأة إلا ضربا من المذلة والهوان . ولا ريب فى أنها أدركت — كما أدركت اليزابيث ملكة انجلترا ، أن زوجها لابد أن يطمع فى أن يكون ملكا . وكانت تعى أخطاءها بشكل بالغ الحساسية وتعترف بها فى شجاعة وجرأة . كنت قليلة الثقة بالناس ،

شكاكة طموحة إلى حد الافراط ، حادة الطبع ، فخورة مغرورة ، مزدرية للناس ، هجاءة ، لم أرحم أحدا ، مفطورة على الشك ، قليلة التعصب أو التحمس للدين[١٥] ، ولكنها كانت كريمة إلى حد الإسراف ، مخلصة فى عملها . ويقول القسيس الجزويتى « كانت لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ، فإذا استيقظت قضت خمس ساعات فى القراءة . ولم تشرب قط إلا الماء القراح ، ولم تسمع قط تتحدث عن طعامها أهو جيد أم ردىء الطهى ... وكانت تحضر إلى مجلسها بانتظام ... وانتابتها الحمى مرة لمدة ثمانية وعشرين يوما لم تهمل فيها قط شئون الدولة ... واتصل السفراء بها وتعاملوا معها مباشرة ، فلم يمروا قط يوما على سكرتير أو وزير[١٦] » .

ولم تتطلع إلى أن تنافس الشبان فى ألعابهم ورياضتهم ، ورجال البلاط فى مجال السياسة فحسب ، بل أنها أرادت كذلك أن تنافس العلماء فى علمهم ، لا فى اللغات والآداب وحدها ، بل فى العلوم والفلسفة أيضا . وما أن بلغت الرابعة عشرة حتى كانت قد درست الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية وفى الثامنة عشرة درست اللاتينية ، وبعد ذلك بقليل اليونانية والعبرية والعربية ، وقرأت للشعراء الفرنسيين والإيطاليين وأحبتهم ، وحسدت فرنسا على مدنيتها التى تفيض حيوية ونشاطا ومرحا . وراسلت فى لهفة وحماسة ، الباحثين ، ورجال العلم والفلاسفة فى عدة بلاد ، وجمعت مكتبة ضخمة تضم مخطوطات قديمة نادرة ، هرع الطلبة للرجوع إليها والتزود منها من كل حدب وصوب . وعند وفاتها تأثر الخبراء بذوقها الرفيع الذى تجلى فى اقتناء اللوحات والتماثيل والقطع الفنية المزخرفة بالمينا والمنقوشة على الخشب والمعدن ، والتحف الأثرية . لقد جمعت العلماء ، كما جمعت روائع الفن . وتاقت إلى رؤية العلماء والنقاد والمفكرين يحيطون بها ، وجذبت إلى بلاطها كاوديوس سالما سيوس وايزاز فوسيوس . وهوجو جروشيوس ونيقولا هنسيوس ، وأجزلت لهم العطاء فى سخاء . ومن لم يستطع منهم الحضور أرسلوا إليها كتبهم مع شكرهم وتقديرهم — مثل سكارون وجى دى بلزاك ومد موازيل

دى سكودري . أما ملتون الوقور فإنه - على حين كان يشن هجوما عنيفا على سالما سيوس سالف الذكر - صرح بأنها « صالحة لحكم العالم بأسره ، لا أوربا وحدها[١٧] » . وأرسل إليها بسكال آلته الحاسبة مع رسالة بالغة الرقة يهنئها ويمتدحها بأنها متربعة على عرش مملكة العقل والحكم معا[١٨] » .

وكان غرامها شديدا بالفلسفة ، وراسلت جاسندى ، الذى هنأها - كما هنأها مائة غيره ، بأنها حققت حلم أفلاطون فى وجود ملوك فلاسفة . وجاء فيلسوف العصر المشهور ، رينيه ديكارت ، ورأى ، وعجب إذ سمعها تستنتج أفكاره الأثيرة لديه عن أفلاطون[١٩] . فلما حاول أن يقنعها بأن كل الحيوانات آلات ، ردت عليه بقولها أنها لم تر قط ساعة يدها تلد ساعات « أطفالا[٢٠] » أى ساعات صغيرة . ومثل هذا كثير فيما بعد .

ولم تهمل كريستينا المواهب المحلية . فقد كانت السويد متعددة جوانب الثقافة الحقة . فكان جورج ستيجرنهلم عالما لغويا . متضلعا فى القانون ، من رجال العلوم ، رياضيا ، مؤرخا ، فيلسوفا ، أبا للشعر السويدى. ومركزا للحياة العقلية فى هذا العصر . وأعجبت به جوستاف أدولف فرفعه إلى مرتبة النبلاء . وعينته كريستينا شاعر البلاط ، حتى لحق بأعدائها[٢١] .

وفتنت بنظريات جون كومنيوس فى التربية ، فاستقدمته إلى ستوكهلم ليصلح نظم التعليم فى السويد . ومثلما فعلت إليزابيث بالنسبة لأكسفورد وكمبردج ، زارت كريستينا جامعة أبسالا لتشجع بحضورها الأساتذة والطلبة، واستمعت إلى سترنهلم وغيره يحاضرون فى النص العبرى للتوراة . وشادت كلية فى دوربات وأهدتها مكتبة ، وأسست ست كليات أخرى . وطورت إلى جامعة ، الكلية التى كان أبوها قد أسسها فى آبو (توركو) فى فنلنده . وأرسلت الطلبة للدراسة فى الخارج ، وبعثت بنفر منهم إلى شبه جزيرة العرب ليدرسوا علوم الشرق . واستقدمت بعض الهولنديين المشتغلين بالطباعة ليؤسسوا دارا للنشر فى ستوكهلم . وشجعت رجال العلم السويديين على الكتابة باللغة

الوطنية ، حتى ينتشر العلم بين أفراد الشعب . ولا نزاع فى أنها كانت من أعظم الحكام المستنيرين فى التاريخ .

وهل وهبت هذه الملكة عقلا خاصا بها ، أم أنها كانت مجرد وعاء لا يميز تتدفق فيه كل التيارات العقلية والفكرية التى تدور حولها ؟ لقد انعقد الاجماع عن أنها فيما يتعلق بالحكومة كانت تتصرف بمحض تفكيرها ، وصنعت قراراتها بنفسها ، وحكمت وملكت سواء بسواء[٢٢] . وسنرى فى فصل لاحق كيف أنها اعترضت على سياسة أوكسنسترنا العسكرية ، وكافحت من أجل السلام ، وساعدت على انهاء حرب الثلاثين عاما . إن قصاصات مذكراتها فاتنة مفعمة بالحيوية ، وليس فى الحكم والأمثال التى تركتها بخط يدها شيء مبتذل ؛ ومثال ذلك :

إن قيمة المرء على قدر مايستطيع أن يحب .

ويجدر أن نخشى الحمق البلهاء أكثر مما نخشى الأوغاد .

إنك تسيء إلى الناس إذا لم تخدعهم .

المواهب الخارقة جريمة لا تغتفر .

هناك نجم يوحد بين الناس من الطراز الأول ، رغم أن العصور والمسافات تفرق بينهم .

أن الزواج ليحتاج إلى شجاعة أكثر مما تحتاج الحرب .

إن المرء ليرتفع فوق كل شيء إذا لم يخشى شيئا ، ولم يحسب لأى شيء حسابا .

إن الذى يغضب من الدنيا أشبه بمن تعلم كل ماتعلم دون هدف أو غاية .

إن الفلسفة لا تغير الناس ولا تصلحهم[٢٣] .

وأخيرا ، وبعد اختيار عدد من الفلسفات ، وربما بعد أن امتنعت عن أن تكون مسيحية ، أصبحت كريستينا كاثوليكية أنها متهمة بأنها رضعت

لبان الالحاد والكفر من طبيبها بورديلوت[٢٤] . وذهب مؤرخ سويدى ـ وكرر فولتير قوله[٢٥] ـ إلى أن تحولها إلى الكثلكة كان تمثيلية هزلية مقصودة ، وبناء على هذه النظرية ، تكون كريستينا قد انتهت إلى النتيجة التى تقول بأنه مادامت الحقيقة شيئا لا يمكن معرفته أو الوصول إليه ، فللمرء أن يختار الديانة التى تستهوى قلبه وتتفق مع فكرة الجمال أكثر من غيرها[٢٦] ، وتوفر أكبر قدر من الطمأنينة للناس . ولكن الارتداد إلى الكاثوليكية رد فعل صادق مخلص بعد التشكك المفرط ، فقد يحفر التصوف جذوره فى أعماق الشك . لقد كان فى كريستينا عناصر صوفية خفية ، فكل مذكراتها موجهة إلى الله فى إخلاص بالغ . إن الإيمان ثوب واق . وإن التجرد الكامل منه ليترك الإنسان فى حالة عرى فكرى يتطلع إلى الكساء والدفء . وأى ثوب أدفأ من كاثوليكية فرنسا وإيطاليا الحسية النابضة بالحياة ؟ وتساءلت الملكة : « كيف يكون المرء مسيحيا دون أن يكون كاثوليكيا[٢٧] ؟ » .

وفكرت كريستينا مليا فى هذه المسألة وفى المضاعفات التى ينطوى عليها ارتدادها فإنها إن تركت اللوثرية ، فلابد لها ، بمقتضى قوانين مملكتها ووالدها الحبيب ـ أن تتخلى عن عرشها ، وأن تغادر بلادها كذلك . وأية نكسة مروعة يكون هذا التحول فى العقيدة لدفاع والدها البطولى عن أوربا البروتستانتية ، ولكنها ضاقت ذرعا ولاقت نصبا من واجباتها الرسمية ومن خطب الوعاظ والمستشارين الرنانة ، ومن الثالوث المتحذلق من العلماء والأثريين والمؤرخين . وربما تعبت منها السويد وضاقت بها ذرعا كذلك . وقد أفقرها وهبط بمواردها تخليها من أراضى التاج وهداياها وهباتها السخية لذوى الحظوة لديها والقريبين منها . وتكتلت أغلبية النبلاء ضد سياستها . وفى ١٦٥١ كان ثمة هبة توشك أن تكون ثورة . ولكن زعماءها أعدموا على عجل[٢٨] . ولكنها خلقت وراءها امتعاضا شديدا ، ولكن انتابها المرض آخر الأمر ، لقد أضرت هى بصحتها . وربما كان السبب فى ذلك كثرة العمل والدرس .

وكم من مرة أصابتها الحميات الخطيرة ، مصحوبة بأعراض التهاب الرئتين . وكم من مرة غشيتها اغماءة ، وظلت فاقدة الوعي لمدة ساعة . واشتد عليها المرض في ١٦٤٨ فقالت أنها « أقسمت أن تتخلى عن كل شيء وتصبح كاثوليكية إذا برئت من سقامها وحفظ الله لها حياتها[٢٩] » . إنها كانت إبنة البحر المتوسط فارتعدت فرائصها من برد الشمال القاسي في الشتاء ، وتاقت نفسها إلى سماء ايطاليا ومنتديات فرنسا . فكم يكون جميلا أن تلحق بالنساء المثقفات اللائى بدأن مهمتهن الفذة في رعاية الحياة الفكرية والعقلية في فرنسا ، إذا استطاعت أن تحمل معها ثروة كافية !!

وفي ١٦٥٢ بعثت سراً إلى رومة بأحد الملحقين في سفارة البرتغال ليطلب قدوم بعض الجزويت ليناقشوا معها اللاهوت الكاثوليكي ، فجاءوا متنكرين. ولكن فت في عضدهم وثبط من همتهم بعض الأسئلة التي وجهتها إليهم — هل يوجد إله حقا ، هل تبقى الروح بعد فناء الجسم ، وهل ثمة تمييز بين الصواب والخطأ إلا عن طريق المنفعة . فلما أوشكوا على الرحيل — يأسا — هدأت من روعهم بقولها « ماذا ترون لو أني كنت أقرب إلى أن أصبح كاثوليكية مما تظنون ؟ » وقال أحد الجزويت تعقيبا على ذلك « فلما سمعنا هذا أحسسنا بأننا بعثنا من مرقدنا[٣٠] » .

وكان اعتناق الكثلكة قبل التخلي عن العرش أمرا محظورا قانونا ، ولكنها رغبت قبل التخلي عن العرش ، في الحفاظ على الطابع الوراثي للملكية السويدية ، عن طريق إقناع الديت بالتصديق على اعتبارها لابن عمها شارل جوستاف . خلفا لها . ولكن طول المفاوضات أجل نزولها عن العرش حتى ٦ يونيه ١٦٥٤ . وكان الاحتفال الأخير مؤثرا قدر ما كان تخلي شارل الخامس عن العرش مؤثرا قبل ذلك بتسعين عاما . فإنها نزعت التاج عن رأسها ، وطرحت كل الشارات الملكية ، وخلعت العباءة الملكية ، ووقفت امام الديت في ثوب بسيط من الحرير الأبيض ، وودعت بلدها وشعبها بخطاب فجر

بالدموع عيون النبلاء العجائز الرابطى الجأش ، وبمثلى المدن القليلى الكلام. ووفر لها المجلس الموارد للمستقبل . وأباح لها الاحتفاظ بحقوقها الملكية على حاشيتها .

وغادرت ستوكهلم عند الغسق ، بعد خمسة أيام من تخليها عن العرش . وتوقفت فى نيكوبنج لزيارة أخيرة لأمها . ثم مضت فى طريقها ، ولما لم تذق طعم النوم لمدة يومين ، فإنها مرضت بذات الجنب ، فلما برئت تابعت المسير إلى هامستاد . وهناك كتبت إلى جاسندى ، بأنها تمنحه معاشا وتبعث إليه بسلسلة ذهبية . وفى اللحظة الأخيرة لقت عرضا بالزواج من الملك شارل العاشر الذى توج حديثا ، فرفضت فى عطف وكياسة وتنكرت فى زى رجل تحت اسم كونت دونا ، وركبت البحر إلى الدنمرك ، دون أن تدرى أنها لمدة خمس وثلاثين سنة أخرى ستلعب دورا فى التاريخ .

٣ — بولنده تكفر عن ذنبها : ١٥٦٩ — ١٦٤٨ :

فى هذا العصر عقدت بولندة أيضـــا أواصر السلام مع الكنيسة الكاثوليكية . وقد يكون من المفيد أن نرى كيف استردت الكاثوليكية بسرعة فى هذه المملكة تقريبا كل ما كانت قد فقدته من مكانة فى حركة الاصلاح الدينى ، ولكن فلنمر أولا مرورا عابرا ، كالمعتاد ، بالخلفية السياسية لهذا التطور الثقافى .

١ — الدولة :

تبدأ الفترة بحدث بارز تم إنجازه فى فن الحكم . كانت دوقية لتوانيا الكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقى من بولندة ، يحكمها أدواقها ، وتمتد من البلطيق عبر كييف وأواكرانيا إلى أودسا والبحر الأسود . وكان نمو قوة روسيا يعرض استقلال لتوانيا للخطر . وعلى الرغم من توافق عقيدتها

الأرثوذكسية اليونانية إلى حد كبير مع ديانة روسيا ، فإنها أقرت كارهة أن الاندماج مع بولندة الكاثوليكية قد يكون أفضل للحفاظ على حكمها الذاتى من معانقة الدب الروسى . ومين سجسمند الثانى عهده بتوقيع « اتحاد لوبلين » التاريخى (١ يولية ١٥٦٩) . واعترفت لتوانيا بملك بولندة « دوقا أعظم » عليها . وبعثت بمندوبين أو ممثلين لها إلى البرلمان فى وارسو ، وارتضت أن يكون لهذا البرلمان حق السيطرة على علاقتها الخارجية ، ولكنها احتفظت بعقيدتها وقوانينها وحق التصرف فى شئونها الداخلية . واتسعت أطراف بولندة وبلغ عدد سكانها الآن إحدى عشر مليونا من الأنفس ، من دانزج إلى أودســا ، ومن البحر إلى البحر . فكانت إحدى الدول العظمى دون منازع .

وبموت سجسمند الثانى دون عقب ذكر (١٥٧٢) انتهت أسرة « جاجللون » التى كانت قد بدأت فى ١٣٨٦ ، وهيأت لبولندة خطا متصلا من ملوك اتسموا بالخلق والإبداع ، وحضارة قامت على التسامح الدينى واستنارة قوامها الروح الانسانية . وكان النبلاء يكرهون الملكية الوراثية ، على أنها إهدار لحقوقهم وحرياتهم الاقطاعية ، فاستقر عزمهم الآن على الاحتفاظ بالسلطة فى أيديهم عن طريق ملكية انتخابية ، فأسسوا جمهورية من النبلاء وجعلوا ملوك بولندة القادمين خدما أو أتباعا للبرلمان . ولما لم يكن البرلمان يضم كبار النبلاء أو الأعيان فحسب ، بل كان يضم كذلك صغار النبلاء ، فقد بدا أن هذه الخطة تحقق المثل الأعلى لأرسطو فى حكومة تمتزج فيهـــا العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية ، فى قيود وضوابط متبادلة . ومهما يكن من أمر ، فإن الدستور الجديد ، فى نطاق ذاك العصر ، لم يكن يعنى إلا انتكاسة إقطاعية ، تفتيت السلطة والزعامة ، على حين كانت منافستا بولندة فى البلطيق — السويد وروسيا — تنصهران فى وحدات عسكرية بفضل الملكيات الوراثية التى كان يحق لها أن تفكر على اساس الأجيال . وبات انتخاب الملك الآن فى بولندة مزادا لأصوات النبلاء تعطى لمن يدفع أكثر من بين المرشحين

الذين تمولهم ، عادة الدول الأجنبية . وبذلك استطاع عملاء فرنسا بتوزيع العطايا والأموال باليمين وبالشمال ، شراء تاج بولندة للمنحل المنحرف هنرى فالوا (١٥٧٣) ليعيدوه بعد ذلك بعام واحد ليحكم فرنسا حكما سيئاً فاسداً تحت اسم هنرى الثالث .

وأصلح مجلس الديت الذى يتولى الإنتخاب خطأه ، بعد فترة خلا فيها العرش وعمت الفوضى ، باختياره ستيفن باثورى ملكا (١٥٧٥) . وكان ، بوصفه أميراً على ترنسلفانيا ، قد اشتهر بالفعل فى مجال السياسة وميدان الحرب وكان عملاؤه فى وارسو قد وعدوا بأنه سيسدد ، إذا انتخب ، الدين الوطنى ، ويمد الخزانة بمائتى ألف فلورين . ويسترد الأراضى التى كانت بولندة قد نزلت عنها لروسيا ، ويضحى بحياته فى ميدان القتال ، إذا اقتضى الأمر من أجل شرف بولندة ومجدها ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيل هذا العرض ؟ . وعلى حين أيدت قلة غنية من النبلاء ترشيح مكسميليان الثانى النمسوى ، نادى سبعة آلاف عضو من الديت المنتخب بباثورى ، فقدم ومعه ٢٥٠٠ جندى ، وكسب قلوب كثير من الناس بزواجه من أناجاجللون ، وقاد جيشا ضد دانزج (التى رفضت الإعتراف به) وأرغم الثغر المغرور على دفع غرامة قدرها مائتى ألف جوادن للخزانة الوطنية .

وعلى الرغم من كل هذا لم يستوثق النبلاء من أنهم يحبون الملك الجديد ، بعينيه الحادتين النافذتين . وتفكيره الواقعى ، وشاربه المروع ، ولحيته التى توحى بالاستبداد والدكتاتورية . لقد احتقر الأبهة والمواكب والاحتفالات وارتدى ثيابا بسيطة ، بل لبس الملابس المرقعة ، وكان طعامه المفضل من لحم البقر والكرنب . ولما طالب بالمال لتجهيز حملة على روسيا أمده النبلاء بقدر غير كاف ، وهم متذمرون . وتقدم معتمدا على معونات ترنسلفانيا ، بجيش صغير ، وحاصر بسكوف ثالثة مدن روسيا آنذاك من حيث الحجم . وأحس إيفان الرابع على الرغم من أنه كان يرهب شعبه ، بأنه أكبر سنا من أن يلاقى عدوا فى مثل

هذه الحيوية والنشاط ، فطلب الصلح ونزل على ليفونيا لبولندة ، وسلم بأبعاد روسيا عن البلطيق (١٥٨٢) . وعندما أدركت إيفان المنية (١٥٨٤) اقترح باثورى على سكستس الخامس أن يغزو كل روسيا ويوحدها مع بولندة ، ويطرد الأتراك من أوربا ، ويعيد كل أوربا الشرقية إلى حظيرة البابا . ولم يعترض البابا . ولكن فى غمرة هذه الاستعدادات الشاقة لحملة صليبية ، فارق باثورى الحياة (١٥٨٦) . واعترفت بولندة، بعد مماته وبعد أن كف عن إرهاقها بأنه من أعظم ملوكها.

وبعد سنة من المساومة خلع الديت العرش على سجسمند الثالث ، الذى يمكن بوصفه وريثا لعرش السويد، أن يوحد البلدين لمسيطرا على مياه البلطيق ويعوقا توسع روسيا . وقضى سجسمند كما رأينا ، نصف مدة حكمه فى مجالات عقيمة لتثبيت سلطانه . وتدعيم المذهب الكاثوليكى فى السويد . وسنحت فرصة أخرى لسجسمند بموت بوريس جودونوف المفاجىء (١٦٠٥) ، حيث عمت روسيا حالة من الفوضى أصبحت معها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ودون استشارة البرلمان البولندى أعلن سجسمند ترشيح نفسه للعرش المسكوفى وسار بجيش إلى روسيا . وعلى حين قضى هو عامين فى حصار سمولنسك ، هزم قائده ستانسلاس زلكوسكى الروس فى كلوشينو وتقدم نحو موسكو ، واقنع النبلاء بقبول لادسوس بن سجسمند ملكا عليهم (١٦١٠) . ولكن هذا الأخير أنكر هذه الترتيبات ، فيجب أن يكون القيصر هو لا ابنه . فلما استولى آخر الأمر على سمولنسك (١٦١١) ، تقدم نحو موسكو ، ولكنه لم يصل إليها قط ، فقد أثقل الشتاء بمعوقاته . وتمرد جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم . وفى ١٢ ديسمبر ١٦١٢، أى قبل نابليون بقرنين من الزمان، تقهقر جيشه وسط سوء النظام والفناء ، من روسيا إلى بولندة . ولم يتبق من هذه الحملات الباهظة التكاليف إلا امتلاك سمولنسك وسفرسكى، بالإضافة إلى نفحة قوية من تأثير بولندة على الحياة الروسية .

وكانت بقية حكم سجسمند سلسلة من الحروب الفاجعة ، فقد ورطه تحالفه مع آل هبسبرج — بما ابتهج له الامبراطور — في صراع كافه غاليا مع الأتراك لم تنج منه بولندة إلا بفضل مهارة قوادها وشجاعة جنودها . واستفاد جوستاف أدولف من انشغال بولنده في الجنوب في غزو ليفونيا . وبمقتضى صلح ألتمارك (١٦٢٩) سيطرت السويد على ليفونيا وعلى البلطيق . وقضى سجسمند نحبه محطما متهدما (١٦٣٢) .

وخلع الديت تاج بولندة على ابنه لادسلاس الرابع ، الذي كان الآن في السابعة والثلاثين ، وكان قد كشف عن نشاطه وهمته وجلده كقائد ، وكسب صداقات كثيرة بفضل خلقه الصريح المرح . وأساء إلى البابا بتسامحه مع البروتستانتية في بولنده ومع الأرثوذكسية في لتوانيا . وأباح في ثورن قيام حوار عام سلمي بين رجال الدين الكاثوليك واللوثريين والكلفنيين (١٦٤٥) وشجع الفن والموسيقى . واشترى لوحات روبنز وأقمشة جوبلان المزركشة وأقام أول مسرح بولندى دائم ، ومثل عليه الأوبرا الإيطالية ، وتبادل الرسائل مع جاليليو في سجنه ، ودعا العالم البروتستانتى جروشيوس إلى بلاطه وفارق الحياة (١٦٤٨) في الوقت الذي هددت فيه الدولة البولندية ثورة عارمة في القوزاق .

٢ — المدنية :

كان الاقتصاد البولندى لا يزال يتسم بسمات العصور الوسطى . وكانت التجارة الداخلية في أيدى الباعة المتجولين ، والتجارة الخارجية مقصورة إلى حد كبير على دانزج وريغا ، ولم تكن طبقة التجار تتمتع بثراء يذكر ، وقلما سمح لأفرادها بعضوية البرلمان ، فإن النبلاء تحكموا في الديت وفي الملك وفي الاقتصاد ، وسيطروا على هؤلاء جميعا . وكان يفلح الضياع الواسعة مزارعون خاضعون لتنظيمات إقطاعية أقسى من بعض الوجوه مما كان عليه الحال في

مزارع فرنسا فى العصور الوسطى . وكان النبيل المالك يضع هذه التنظيمات بنفسه ، ويفرضها بقوة جنوده ، ويحرم على مستأجريه مغادرة نطاق ولايته دون موافقته ، وينقلهم من مكان إلى مكان ، ويزيد من الأرض أو ينقص منها وفق مشيئته ، ويفرض عليها فى كل عام أيام عمل لايتقاضون عنها أجرا ويرغمهم على أن يبيعوه أو يشتروا منه وحده ، وعلى أن يبتاعوا منه كل عام قدرا من الجعة الرديئة الصنع . وكان يستطيع تجنيد أبنائهم لخدمته فى زمن السلم والحرب . كان هؤلاء المزارعون أحراراً . « قانونا لهم » حق التملك والتوريث ، ولكن « الأب » الجزويتى سكارجا نعتهم بأنهم أرقاء[٣١] .

وكانت الحياة قروية فى معظمها . وكان النبلاء يتجمعون فى وارسو لإملاء إرادتهم الجماعية ، ولكنهم عاشوا فى ضياعهم ، يصطادون ويتشاجرون ، ويستمتعون بأطيب المتع ، ويتبادلون المآدب الباذخة ، ويتدربون على الحرب وكانت الزيجات تتم عن طريق الوالدين . وقلما سئلت البنت رأيها ، وقلما عارضت ، فالمفروض أن الحب الذى يولده الزواج والأبوة أقوى على البقاء والدوام من الزواج الذى ينشأ عن الحب . وكانت النساء متواضعات جادات نشيطات . وكانت آداب السلوك الجنسى مرعية كل الرعاية . ولم نسمع بقصص غرام خارج نطاق الزوجية قبل القرن الثامن عشر[٣٢] . وكان الرجال ، لاالنساء ، هم الذين يضعون قواعد السلوك . باستثناء سيسيليا ريناتا التى تزوجت من لاديسلاس الرابع ١٦٣٧ ، والتى أحيت الآثار الإيطالية التى استوردها الفنانون ورجال الدين فى أزمنة سابقة . ولويزماري جونزاج التى تزوجها ١٦٤٨ ، والتى جلبت معها موجة من قواعد السلوك الفرنسية والكلام الفرنسى بقيت حتى القرن العشرين . وكان فى الرقصات البولندية رقة مهيبة ، حدت برجل فرنسى فى ١٦٤٧ إلى التحدث فى إعجاب عن البولنديات .

ولم يقدر للفن البولندى أن يلاحق المستوى الذى كان قد وضعه فيت ستوس فى كراكاو ١٤٧٧ . لقد نسجت أقمشة سجسمند الثانى المزركشة فى الفلاندرز

وأقام مهندسون معماريون ونحاتون إيطاليون التماثيل لسجسمند وباثورى وآنا جاجللون فى كاتدرائية كرا كاو ، وكنائس الجزويت الباروكية فى كرا كاو ونيزويو وعاهود سجسمند الثالث الشهير فى وارسو ، وأصاب الوهن التصوير فى بولندة تحت هجمات البروتستانت على الصور الدينية ، ولكن مارتن كوبر رسم صورة شخصية ملهمة للملك باثورى .

وعانى التعليم — كما عانت الفنون التخطيطية من الإضطراب الديني . ومرت جامعة كرا كاو بفترة انحطاط عابر . ولكن باثورى أسس جامعة ولنو (١٥٧٨) ، وفى كرا كاو وولنو ويوزنان وريجا وغيرها أسس الجزويت كليات بلغ من امتيازها وتفوقها أن كثيراً من البروتستانت أثروها لتنشئة أبنائهم عقليا وخلقيا . وخير من كل هذه مدرسة طائفة « الموحدين » فى كراكاو التى جذبت إليها ألف طالب من مختلف الملل . وأعد جان ذا موسكى مستشار باثورى ذو النزعة الإنسانية ، فى زاموسك جامعة جديدة خصصت أساسا للدراسات الكلاسيكية .

وكانت ثمة وفرة فى الأدب فى بولندة . وكانت الخلافات الدينيـة فظة فى النعوت مهذبة معقولة فى الشكل ، ومن ثم فإن ستاتسلاس أورزيكوسكى الذي كان يدافع عن الكاثوليكية ، ناضل من أجلها بضراوة وتعصب عنيف ، فى لغة بولندية رائعة ، تعد من أحسن ما كتب فى تاريخنا[٣٣] ، ولم يكن يقل عنها شهرة فى الأسلوب « رجل البلاط البولندى » (١٥٦٦) الذى ألفه لوكاز جورنيكى وهو تعديل لكتاب كاستليونى « رجل البلاط » . وبرز الجزويتى بيترسكارجو فى الشعر والنثر والتعليم والسياسة . وانتقل من رياسة جامعة ولنو إلى منصب كبير الوعاظ فى البلاط الملكى وقضى فيه أربعة وعشرين عاما كان فيها « بوسويه » بولنده ، واستنكر فيها غير وهاب ولا وجل الفساد الذى رآه يستشرى من حوله . وتنبأ بأنه إذا لم تصل الأمة إلى حكومة أكثر استقرارا ومركزية فإنها لابد أن تقع فريسة للدول الأجنبيـة ، ولكنه نادى بملكيه مسئولية مقيـدة

ومحددة بالقانون . وظل شعر كوكانوسكى دون منافس فى مجاله وفى لغته حتى القرن التاسع عشر ، ولايزال شعبيا مألوفا حتى اليوم . وقد بلغ الشاعر ذروة الأثارة والإلهام فى رثائه وحزنه على أبنته أورسولا التى ماتت فى نضارة الطفولة .

وعوق الصراع الدينى كل نواحى الثقافة البولندية فى ذاك العصر . ففى النصف الأول من القرن السادس عشر بدا أن البروتستانتية قدر لها أن تسيطر على بولندة، وعلى ألمانيا والسويد أيضا. وكسبت إلى جانبها كثيرا من النبلاء تمردا على سلطة الملك وفساد الكنيسة ، ووسيلة لانتزاع أملاكها[٣٤] . ومنح سجسمند الثانى بلاده تسامحا دينيا واسع النطاق . وبعد عام من وفاته صاغت لجنة من الديت (٢٨ يناير ١٥٧٣) «اتحاد وأرسو الكونفدرالى» الذى يضمن الحرية الدينية لكل الشيع والفرق بلا استثناء . فلما عرض المشروع للتصويت عارضه الأعضاء الأسقفيون فى المجلس . ولكن أقره بالإجماع الأعضاء العلمانيون الثمانية والتسعون، بما فى ذلك واحد وأربعون كاثوليكيا[٣٥]، وهذا يمثل نقطة بارزة فى تاريخ التسامح ، لأن أى أعلان رسمى سابق من هذا القبيل لم يصل إلى هذا المدى . وأنتعشت فى ظل هذه الحماية العريضة عدة طوائف متباينة ، اللوثريون ، والكلفنيون ، وأتباع زونجلى ، وأنصار تجديد العماد ، والأخوة البوهيميون ؛ وغير القائلين بالتثليث . وفى ١٥٧٩ قدم إلى بولندة فاوستس سوسينس، وبدأ يؤسس كنيسة قائمة على مذهب التوحيد ولكن أهالى كراكاو أخرجوه من داره ودمروا مكتبته ، وكادوا يقتلونه لولا أن المدير الكاثوليكى للجامعة هب لنجدته (١٥٩٨[٣٦])، واتحد الكلفنيون مع اللوثريين فى المطالبة بطرد الموحدين أتباع سوسينس من بولندة . وأمر الديت فى ١٦٣٨ بإغلاق مدارس الموحدين ؛ وفى ١٦٥٨ نفى أفراد هذه الطائفة من البلاد . ففروا إلى ترانسلفانيا والمجر وألمانيا وهولنده وانجلترا، وأخيرا إلى أمريكا، ليجدوا أعظم معبر عنهم فى شخص أمرسون .

أن التعصب الشعبي والتربية الجزويتية والنظام الكاثوليكي والسياسة الملكية والتشيع الطائفي البروتستانتي، أجتمعت كلها بعضها إلى بعض لتقضى على البروتستانتية في بولندة . فإن الطوائف الجديدة حاربت الواحدة منها الأخرى بمثل الضراوة التي حاربت بها المذهب القديم . وتعلق المزارعون بالمذهب القديم لمجرد أنه قديم ؛ حيث كان يمثل الأرتياح إلى العادة والعرف المألوف ؛ ولما أنضم الملكان — باثوري وسجسمند الثالث — إليه، وجد كثير من البروتستانت المرتدين وأبنائهم ، أنه من الأفضل لهم أن يعقدوا أواصر السلام مع الكنيسة وكان معظم الألمان في بولنده - من البروتستانت ، وتلك حقيقة وجهت الشعور الوطني إلى مناصرة الكاثوليكية ومعاونتها . وتعاونت الكنيسة تعاونا جادا مع هؤلاء الأعوان المتفرقين على استرداد بولندة إلى حظيرة البابا ، فأرسلت نخبة من أكثر الدبلوماسيين فيها رصافة ، وأكبر الجزويت المغامرين ، ليكسبوا إلى جانبها ، الملوك والنساء والأطفال ، بل حتى النبلاء البروتستانت أنفسهم . وحذر رجال الدولة الكنسيون ، مثل الكاردينال ستانسلاس هوسيوس والأسقف جيوفني كومندون ، الملوك من تأسيس نظام اجتماعي أخلاقي سياسي مستقر على المذاهب البروتستانتية المائعة المتصارعة . وأثبت الجزويت قدرتهم على الدفاع عن الأمور التي كان الناس يتشككون فيها ولا يصدقونها ، ضد ما استحدث الآن من معتقدات وطقوس . وفي نفس الوقت فإن رجال الدين الكاثوليك الذين ألتزموا بقرارات مجمع ترنت ، خضعوا الآن لإصلاح ديني صارم مثير للأعجاب (٣٧) .

ولكن للكاثوليك أيضا مشكلة . ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندة عمل على إيجاد تلاحم مثير للغضب بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية وكان الخلاف بين الكنيستين طفيفا ولكن الصلوات الأرثوذكسيه اتبعت الطقوس السلافيه ، كما اتخذ القساوسة الأرثوذكس زوجات . وفي ١٥٩٦، وعن طريق « اتحاد برست ليتوفسك » ، شكل جان زاموسكي مجموعة وسطاً من

رجال الدين والعلمانيين فى « كنيسه موحده » ، اعتنقت فكرة زواج رجال الدين، واتبعت الطقوس السلافية، وفى نفس الوقت ارتضت المذهب الكاثوليكى الرومانى واعترفت بسيادة البابا . وراود زعماء الكاثوليك الأمل فى ان يؤدى مثل هذا الحل الوسط او التوفيق بين الكنيستين ، تدريجا ، إلى كسب الملتين اليونانيه والروسيه إلى جانب الأمتثال للبابا . ولكن الكنيسه الجديدة لاقت مقاومه مثيرة . وذبح أهل بولوك رئيس اساقفتها .

وظل ملوك بولندة طوال القرن السادس عشر ، يطبقون تسامحا دينيا أكثر تقدما منه فى أى بلد مسيحى آخر . ولكن السكان الكاثوليك كثيرا ماعادوا سيرتهم الأولى إلى سياسة العداء الشديد، فانقضوا على كنيسة بروتستانتية فى كراكاو ، ونبشوا قبور البروتستانت (١٦٠٦ — ١٦١٧) . وحطموا كنيسة بروتستانتية فى ولنو ، وضربوا — وقيل قتلوا — قساوستها (١٦١١) وفى بورنات أحرقوا كنيسة لوثرية . وفضوا اجتماعا خاصا « بالاخوة البوهيميين »[٣٨] . ولم يشترك رجال الدين الكاثوليك فى هذه المظاهرات الدينية الشعبية، ولكنهم أفادوا منها. وتعاونت كل الظروف على تأييد الكنيسة القديمة ، حتى تم لها النصر فى ١٦٤٨ .

٤ — روسيا المقدسة : ١٥٨٤ — ١٦٤٥

١ — الشعب :

قال نادزدين فى ١٨٣١ : « ماعليك ألا أن تلقى نظرة على حريطة العالم ليتولاك الرعب ازاء قدر روسيا وماقسم لها . » وكانت قد وصلت فى ١٦٣٨ إلى المحيط الهادى عبر سيبيريا ، وإلى بحر قزوين عبر نهر الفولجا ، ولم تكن على أية حال ، فقد وصلت بعد إلى البحر الأسود ، فقد اقتضى هذا حروبا كبيرة . ولم يجاوز عدد السكان عشرة ملايين فى ١٥٧١[٩٩] . وكان يمكن أن

توفر الأرض الغذاء لهذه الملايين فى سهولة ويسر ، لولا أن الفلاحة الطائشة المهمله أنهكت المزرعه تلو الأخرى ، فانتقل الفلاحون إلى أرض أقوى وأخصب .

ويبدو أن هذه النزعة إلى الهجرة أسهمت فى نشأة الرقيق . ذلك أن معظم المستأجرين كانوا يحصلون من النبلاء ملاك الأرض على سلفيات لتنظيف المزرعة وتجهيزها بالأدوات وأعدادها للزرع . وكانوا يدفعون على هذه القروض نحو ٢٠ ٪ (٤٠) ، فلما عجز الكثير منهم عن سداد ما اقترضوا صاروا أرقاء لهؤلاء الملاك . لأن قانونا صدر فى ١٤٩٧ نص على أن يكون المدين المقصر فى الدفع عبدا لدائنه حتى يوفى الدين . وتفاديا لهذه العبودية هرب بعض الفلاحين إلى معسكرات القوازق فى الجنوب . وحصل بعضهم على حريته بالموافقة على استصلاح أراضى جديدة غير ممهدة . وبهذه الطريقة استوطنت سيبيريا ، وهاجر بعضهم إلى المدن حيث اشتغلوا ببعض الحرف ، أو اشتغلوا فى المناجم أو صناعة المعادن أو صناعة الذخيرة ، أو خدموا التجار ، أو تجولوا فى الشوارع يبيعون السلع . وشكا الملاك من أن هجرة المستأجرين عن المزارع — دون دفع ديونهم عادة — قد عوقت الإنتاج الزراعى ؛ وجعلت من المتعذر على الملاك دفع الضرائب المتزايدة التى تطلبها الدولة . وفى ١٥٨١ ، وضمانا لاستمرار زرع الأرض ؛ حرم أيفان الرهيب على المستأجرين لدى طبقة الأوبرشنيكى — رجال الإدارة — أن يتركوا المزارع دون موافقة الملاك ؛ وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت تفقد الآن مركزها الممتاز شيئا فشيئا . فقد بقى الرقيق الذى نشأ بهذه الطريقة يعمل فى ضياعها . وسرعان ما طالب النبلاء ورجال الدين الذين تملكوا الجزء الأكبر من أرض روسيا ؛ مستأجريهم بهذا . فكان الفلاحون الروس فى الحقيقة ؛ إن لم يكن بمقتضى القانون ؛ أرقاء مرتبطين بالأرض (٤١) .

وكانت روسيا لاتزال لاصقة بالهمجية . فالسلوك فظ غليظ ؛ والنظافه ترف نادر ، والأمية امتياز طبقى ؛ والتعليم بدائى ، والأدب فى معظمه حوليات

رهبانية أوعظات دينية أو نصوص طقسية ، والكتب الخمسمائة التي نشرت في روسيا بين عامى ١٦١٣ و١٦٨٢ كانت كلها تقريبا دينية(٤٢). ولعبت الموسيقى دورا هائلا في الدين وفي البيت . وكان الفن خادما للعقيدة الأرثوذكسية ، وشادت الهندسة المعمارية كنائس معقدة زاخرة بأماكن الصلوات والمعابد الصغيرة الملحقة بها . وبالمبانى الناشئة عنها ، وبالقباب البصلية الشكل ، مثل كنيسة عذراء الدون في موسكو . وزين فن الرسم جدران الكنائس والأديار بالرسوم الجصية التي حجب الآن معظمها ، أو بالصور الدينية والأيقونات الغنية بالأبداع التصويرى لا المهارة الفنية(٤٣) ، كما هو الحال في كنيسة معجزة سان ميكاييل في كراكاو . وفي ١٦٠٠ لم يعد رسم الأيقونات فنا بل اصبح صناعة تنتج قطعا متماثلة على نطاق واسع ، للتعبد والتبتل والتقوى داخل البيوت أما الإنتاج الفنى البارز في هذا العصر فهو برج الناقوس الذى يبلغ ارتفاعه مائة متر — وهو برج ايفان فليكى (جون الأكبر) الذى أقامه أحد المهندسين الألمـــان في ميدان الكرملين (حوالى ١٦٠٠) كجزء من برنامج بوريس جودونوف في الأشغال العامة لتخفيف حدة التعطل .

وفي الكنائس الفخمة المتألقه بالزخارف الثمينه ، المعتمه بالكآبه المتعمدة والتى تجلب النعاس بالطقوس المهيبة والتراتيل والصلوات الجهورية الرنانة ، طبع رجال الدين الأرثوذكس الناس على التقوى والطاعة والأمل المتواضع . وقل أن تعاونت عقيدة ما مع الحكومة مثل هذا التعاون الوثيق . وضرب القيصر المثل في التمسك المخلص الصادق بالدين وفي البر بالكنيسة ، ولقاء هذا أحاطته الكنيسة ، بدورها ، بهالة من القداسة الرهيبة ، وجعلت من عرشه حرما منيعا لاتنتهك حرمته ، وغرست في الأذهان أن الخضوع له وخدمته واجب يلتزم به الناس أمام الله . وأسس بوريس جودونوف البطريركية الروسية مستقلة عن القسطنطينية (١٥٩٨) ولمده قرن من الزمان نافس مطران موسكوا المقام السامى للقيصر ومكانته العالية ، وفي بعض الأحيان تحدى سلطانه . وفي ١٥٩٤ عندما أوفد البابا كليمنت الثامن إلى موسكو ، بعثة تقترح اتحاد الكنيسة

الأرثوذكيسة واللاتينية تحت زعامة البابا ، رفض بوريس الاقتراح قائلا : « أن موسكو هي الآن رومة ذات المذهب القديم الحق (الأرثودكسى) » . وجعل الجميع يوجهون الدعوات ويقيمون الصلو من أجله وهو وحده بوصفه « الحاكم المسيحى الوحيد على الأرض »[٤٤] .

٢ — بوريس جودونوف : ١٥٨٤ — ١٦٠٥

لم يكن بوريس فى الواقع بعد إلا حاكما فقط . أما القيصر فكان فيودور الأول ايفانوفتش (١٥٨٤ — ١٥٩٨) ، الابن الهزيل لايفان الرابع الرهيب وآخر أفراد « آل روريك » (مؤسس روسيا) . وكان فيودور قد شهد موت أخيه الأكبر بضربة شيطانية من أبيه ، فلم يشأ أن يتشبث بارادته أو يعارض فى شيء ، وانزوى هربا من مخاطر القصر ، منصرفا إلى العبادة والتبتل ، وعلى الرغم من أن شعبه لقبه « بالقديس » فإنه أيقن أنه كانت تعوزه القوة والصلابة ليحكم الرجال . وكان ايفان الرابع قد عين مجلسا لتوجيه الشاب وتقديم النصح والمشورة له . ولكن أحد أعضائه ، وهو أخو زوجة فيودور — بوريس جودونوف — سيطر وقبض على زمام الأمور ، وأصبح حاكم البلاد .

وكان ايفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة ، ابنا آخر ، هو ديمترى ايفانوفتش الذى كان آنذاك (١٨٥٤) فى الثالثة من عمره ، ورغبة من المجلس فى أن يجنب الطفل أخطار الدسائس — بخلاف دسائسه هو ، أى المجلس — أرسل الطفل وأمه للاقامة فى أوجليتش ، على بعد نحو ١٢٠ ميلا إلى الشمال من موسكو . وهناك فى ١٥٩١ قضى ابن القيصر نحبه بطريقة لم يتم التحقق منها بعد . وقصدت إلى هذا البلدة لجنة للتحقيق فى الحادث ، يرأسها الأمير فاسيلى شويسكى أحد أعضاء المجلس ، وجاء تقريرها يقول بأن الصبى قطع حلقومه فى نوبة صرع ألمت به . ولكن أم ديمترى وجهت الاتهام بأنه قتل بأمر من جودونوف[٤٥] . ولكن جريمة بوريس لم تثبت قط ، ولا تزال مثار جدل بين بعض المؤرخين[٤٦] . وأجبرت الأم على الترهب ، ونفى أقرباؤها

من موسكو ، وأضيف ديمترى إلى قائمة القديسين الأرثوذكس ، وطواه النسيان إلى حين ..

وكان بوريس — مثل ريتشارد الثالث فى انجلترا — أكثر توفيقا فى الحكم أثناء وصايته على العرش ، منه بعد تربعه عليه فيما بعد . وعلى الرغم من إنه كان ينقصه التعليم الرسمى النظامى ، بل ربما كان أميا ، فقد أوتى مقدرة جبارة ، وبدوانه بذل جهود مضنية لمواجهة مشاكل الحياة فى روسيا . فأصلح الإدارة الداخلية ، وحد من فساد القضاء ، وأولى الطبقات الدنيا والوسطى عطفا ورعاية ، وكلف الأشغال العامة بتهيئة فرص العمل للفقراء من سكان المدن ، وخفف من أعباء الأرقاء والتزاماتهم ، وكان — كما يقول أحد كتاب الحوليات المعاصرين — « محبوبا لدى كل الناس »(٤٧) . وحظى باحترام الدول الأجنبية وثقتها(٤٨) . ولما مات القيصر فيودور الأول (١٥٩٨) طلبت الجمعية الوطنية من جودونوف بالاجماع أن يتولى العرش . فقبلة مع تظاهره بالمعارضة خجلا من أنه غير جدير به ، ولكن ثمة شبهة بأن عملاءه كانوا قد مهدوا السبيل فى الجمعية الوطنية . ونازع جماعة من النبلاء من الذين كرهوا منه دفاعه عن طبقة العامة(٤٩) . نازعوا فى حقه فى اعتلاء العرش . وتآمروا على خلعه . فأودع بوريس بعضهم السجن ونفى آخرين . وأرغم فيودور رومانوف (والد أول قيصر من أسرة رومانوف) ، على أن يدخل فى سلك الرهبنة . ومات نفر من هذه المجموعة المغلوبة على أمرها . فى ظروف موائية لبوريس إلى حد اتهامه بتدبير قتلهم . ولما كان يعيش آنذاك فى جو من الشك والفزع . فإنه بث العيون والأرصاد هنا وهناك . وأبعد المشتبه فيهم وصادر أملاكهم . وإعدم الرجال والنساء . وانهارت شعبيته الأولى . وتركته السنوات العجاف من (١٦٠٠ — ١٦٠٤) ، بغير تأييد ومساندة من الأهالى الذين يتضورون جوعا فى مواجهة المكائد التى كان يديرها النبلاء فى تصميم وعناد .

وثمة مكيدة أصبحت ذات شهرة فى التاريخ ، والأدب والموسيقى . ففى ١٦٠٣ ظهر فى بولنده شاب ادعى أنه ديمترى المفروض أنه مات . والوريث الشرعى

لعرش فيودور ايفانوفتش . واعتبر بوريس ، الواثق من نفسه (٥٠) ، أن هذا الشاب ليس إلا جريشكا أوتربيف الراهب الذى جرد من ردائه الكهنوتى ، والذى كان من قبل فى خدمة آل رومانوف . أما البولنديون الذين كانوا يخشون توسع روسيا ، فقد سرهم أن يجدوا بينهم وفى متناول يدهم ، من يطالب بالتاج المسكوفى ، وابتهجوا أكثر من ذلك بزواج « ديمترى » هذا من بنت بولندية ، واعتناقه الكاثوليكية . وتغاضى سجسمند الثالث الذى كان قد وقع لتوه (١٦٠٢) هدنة مدتها عشرون عاما مع روسيا . عن حشد ديمترى لمتطوعين بولنديين . وناصر الجزويت بشده قضية هذا المدعى . وفى أكتوبر ١٦٠٤ عبر ديمترى نهر الدنيبر مع أربعة آلاف رجل . فيهم المنفيون الروس ، وجنود مرتزقة ألمان ، وفرسان بولنديون . وأيده النبلاء الروس سرا ، ولو أنهم تظاهروا بالحياد . وانضم الفلاحون الآبقين إلى القوات المتقدمة ، ورحب الشعب الجائع الذى طال انتظاره للتعلل بأمل كاذب ، بديمترى الجديد ، ورفع لواءه رمزا للملكية الشرعية والأمانى اليائسة . ووسط الهتاف تحرك الجمهور المتضرع نحو موسكو من الغرب ، وانقض من الجنوب القوزاق المستعدون دوما للنزال . وانقلبت الحركة إلى ثورة .

ولما رأى بوريس أن هذا بمثابة غزو بولندى ، بعث بجيشه إلى الغرب ، وهزم فصيلة من قوات ديمترى ، ولكنه لم يدرك البقية . ولم يتلق جودونوف وهو قابع فى قصر الكرملين إلا أنباء جمهور الرعاع الزاحف المتزايد عدده . والسخط الذى ينتشر ، والأنخاب التى يشربها البويار (النبلاء) حتى فى موسكو ، فى صحة ديمترى الذى أعلنوا على الشعب أنه ابن القيصر المقدس الذى اختاره الله ليكون قيصرا . وفجأة ، وبعد شكوك وآلام مبرحة معروفة لدى بوشكين وموسورجسكى ، ولا يعلم التاريخ عنها شيئا — مات بوريس (١٣ أبريل ١٦٠٥) وأوصى البطريرك بسمانوف والنبلاء بابنه خيرا . ولكن البطريرك والنبلاء تحولوا إلى المدعى . وقتل ابن جودونوف وأرملته ، وفى غمرة النشوة الوطنية رحب « بديمترى الزائف » وتوج قيصرا على روسيا بأسرها .

٣ — « زمن الشدائد » : « ١٦٠٥ — ١٦١٣ » :

لم يكن القيصر الجديد حاكما غير صالح ، كما هي شيمة الملوك ، ولم يكن ذا قوام يبعث على الرهبة ولا بهى الطلعة ، ولكنه كان برغم هذا وذاك قادرا على امتشاق الحسام وامتطاء الخيل ، مثل أى نبيل كريم المحتد وتحلى القيصر الجديد برجاحة العقل وسعة الادراك وفصاحة اللسان وحلاوة الشمائل ، وبساطة غير متكلفة صدمت قواعد السلوك والتشريفات فى حياة القصور . وأدهش موظفيه باهتمامه الجاد بالإدارة ، كما أدهش جيشه بتوليه تدريبه بنفسه . ولكن تعاليه على بيئته كان متعمدا واضحا أكثر مما ينبغى . فأبدى احتقاره صراحة لخشونة النبلاء وأميتهم وجهلهم ، واقترح ارسال أبنائهم لتلقى العلم فى الغرب ، وسعى إلى استقدام معلمين أجانب لتأسيس مدارس ثانوية فى موسكو . وسخر من للعادات الروسية ، وأغفل الطقوس الأرثوذكسية ، وأهمل تحية صور القديسين ، وتناول طعامه دون أن ترش مائدته بالماء المقدس ، وأكل لحم العجل الذى اعتبرته الطقوس نجسا . وأخفى — وربما لم يأخذ يوما بمأخذ الجد — تحوله إلى الكاثوليكية ، ولكنه أحضر إلى موسكو زوجته البولندية الكاثوليكية ، يحف بها أخوة فرنسيسكان وممثل البابا . وكان فى بطانته هو نفسه نفر من البولنديين والجزويت ، وأنفق فى سخاء من أموال الخزانة ، فضاعف رواتب ضباط الجيش ، وخصص لأصدقائه الضياع المصادرة من أسرة جودونوف . ولما كان لايهوى السكون ، كما كان رجلا عسكريا ، فإنه دبر حملة ضد خان القرم وأعلن الحرب عمليا بإرساله سترة من جلد الخنزير إلى الحاكم المسلم . وربما كاد أن يخلى موسكو من الجنود تماما ، بإصداره أوامره اليهم بالتحرك نحو الجنوب ، وخشى النبلاء من أنه كان يفتح العاصمة لغزو بولندى .

وبعد اعتلاء ديمترى عرش روسيا ببضعة أسابيع تآمرت زمرة من النبلاء بزعامة شويسكى على خلعه . واعترف شويسكى بأنه لم يقرأ أو يعترف « بالمدعى » إلا لمجرد التخلص من جودنوف ، أما الآن فيجب ابعاد الأداة

التى اصطنعت لهذا الغرض ، واجلاس نبيل أصيل على العرش (٥١) . وكشف ديمترى المؤامرة ، واعتقل زعماءها ، وبدلا من الإسراع باعدامهم ، كما تقضى بذلك التقاليد ، منحهم الحق فى أن يحاكموا أمام الجمعية الوطنية التى اختير أعضاؤها لأول مرة من بين جميع الصفوف والطبقات . فلما أصدرت حكمها على شويسكى وآخرين بالاعدام خفف ديمترى الحكم إلى النفى ، وبعد خمسة أشهر أباح للمنفيين العودة . وكان كثير من الناس يعتقدون أنه ابن ايفان الرهيب ، ولكنهم شعروا الآن — بعد تصرفه على هذا النحو — أن مثل هذا الاعتدال أو الرفق غير التقليدى يلقى ظلالا من الشك على أبوته الملكية. وعاد المتآمرون المعفو عنهم إلى تدبير المؤامرات من جديد . واشتركت فيها أسرة رومانوف التى احتمى ديمترى بظل الانتساب إليها . وفى ١٧ مايو ١٦٠٦ اقتحم شويسكى الكرملين بأتباعه المسلحين . ودافع ديمترى عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقتل بيده كثيرا من مهاجميه ، ولكنه فى النهاية غلب على أمره وذبح . وعرضت جثته فى ساحة الاعدام ، وألقى على وجهه قناع حقير ، ووضع فى فمه مزمار ، ثم بعد ذلك أحرقت الجثة ، وأطلق عليها مدفع حتى تذرو الرياح رمادها فلا تبعث بعد الآن .

ونادى النبلاء المنتصرون بشويسكى قيصرا تحت اسم فاسيلى الرابع ؛ وآلى على نفسه الا يعدم أحدا ولا يصادر أملاكا ، دون موافقة « الدوما » (مجلس النبلاء) . وأقسم فى كاتدرائية أوسبنسكى أغلظ الأيمان بأنه « لن يلحق بأى انسان أذى دون موافقة المجلس » أى الجمعية العمومية التى تضم كل الطبقات. وغالبا ما انتهكت هذه الضمانات ، ولكنها كانت على أية حال خطوة تاريخية على طريق تطوير الحكومة فى روسيا .

وأخفقوا فى تهدئة تلك العناصر الكبيرة من السكان التى تولاها الحزن والأسى لخلع ديمترى . فاندلعت ثورة فى الشمال ، ونصب زعيما لها « ديمترى » زائف آخر ، أمده سجسمند الثالث ملك بولنده بعون غير رسمى . فالتمس

شويسكى العون من شارل التاسع ملك السويد ، عدو سجسمند ، وأرسل شارل قوة سويدية إلى روسيا ، فأعلن سجسمند الحرب عليها ، واستولى قائده زلكوسكى على موسكو ، وخلع شويسكى (١٦١٠) وحمل إلى وارسو حيث أرغم على الترهب فى أحد الأديار . واتفقت زمرة من النبلاء على الاعتراف بلادسلاس — ابن سجسمند ، البالغ من العمر أربعة عشر عاما قيصرا على روسيا ، شريطة المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية ، ومساعدة الجيش البولندى للنبلاء فى اخماد الثورة الاجتماعية التى كانت تهدد الحكومة الارستقراطية فى روسيا .

وكانت الثورة فى بداية أمرها استنكارا دينيا ووطنيا لتنصيب قيصر بولندى ، ومنع هرموجنس بطريرك الأرثوذكسية الشعب من حلف يمين الولاء لملك كاثوليكى . وقبض البولنديون عليه ، وسرعان ما قضى نحبه فى سجنه ، ولكن نداءه جعل من المتعذر على لادسلاس أن يحكم البلاد . ودعا الزعماء الدينيون الشعب إلى طرد البولنديين بوصفهم كاثوليك مهرطقين . وبدا أن الحكومة تنهار ، وعمت الفوضى روسيا . واستولى الجيش السويدى على نوفجورود واقترح أن يتولى عرش روسيا أمير سويدى . ورفض الاعتراف بلادسلاس الفلاحين فى الشمال والجنوب ، والقوازق فى الجنوب ، واقاموا حكما خاصا بهم فى المقاطعات . وأعملت عصابات قطاع الطرق السلب والنهب فى القرى والمدن ، ونكلت بكل من يقاوم . وتعطلت الزراعة ، ونقص انتاج الأغذية ، واختلت وسائل النقل ، وعمت المجاعة ، واضطر السكان فى بعض الأقسام إلى أكل لحوم البشر[٥٢] . ودحل جمهور ثائر موسكو ، وفى غمرة الفوضى والشغب أشعل الحريق فأتت النار على معظم المدينة (٩ مارس ١٦١١) وتقهقرت الحامية البولندية إلى الكرملين ، ترقب عبثا قدوم سجسمند لنجدتها .

وفى نزنى نوفجورد نظم قصاب يدعى كوزمامنين ، جيشا ثوريا آخر ، يحدوه الاخلاص للأرثوذكسية ، ودعا كل أسرة إلى التنازل عن ثلث ما عملك

لتمويل الهجوم على العاصمة . وتم هذا بالفعل ، ولكن الناس لن ينقادوا إلى زعيم غير ذى لقب . فدعا منين الأمير ديمترى بوجارسكى ليتولى القيادة ، فقبل المهمة ، وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صامتين ضارعين ، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية فى الكرملين . وصمدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفيران ولحم البشر ، وكانوا يغلون المخطوطات اليونانية ليحصلوا على المرق ، ثم استسلموا وفروا (٢٢ أكتوبر ١٦١٢) وظلت ذكرى هذا العام حية عزيزة فى أذهان الروس ، على أنه عام التحرير ، وعندما أجلى الفرنسيون بعد ذلك بقرنين من الزمان ، عن موسكو التى جللها رماد الحريق مرة ثانية ، أقام الروس المنتصرون نصبا تذكاريا لمنين وبوجارسكى ، الجزار والأمير اللذين ضربا لها أروع مثل للبطولة فى ١٦١٢ .

ودعا بوجارسكى والأمير ديمترى تروبتسكوى ممثلين علمانيين ودينيين عن كل أجزاء الامبراطورية إلى مجلس لانتخاب ملك جديد . واستخدمت مختلف الأسرات نفوذها بطريقة خفيفة لتحقيق أغراض خاصة ، ولكن كانت الغلبة آخر الأمر لأسرة رومانوف ، واختار المجلس ميكاييل الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر آنذاك ، وفى ٢١ فبراير ١٦١٣ نادى به قيصرا سكان موسكو الذين يمكن تجميعهم وتوجيههم بسرعة . وبعد أن أنقذ الشعب الدولة ، نسب الفضل فى ذلك ، تواضعا ، إلى النبلاء .

وقضت الحكومة الجديدة على الخلل الاجتماعى والثورة ، وثبتت دعائم الرق وتوسعت فيه وهدأت من روع السويد بالتخلى عن انجريا ، ووقعت مع بولندة هدنة مدتها أربعة عشر عاما ، وفكت الهدنة أسر فيودور رومانوف ، والد ميخائيل ، الذى طال أمد أسره . وكان بوريس قد أرغمه على الترهب ، وأطلق عليه اسم الراهب فيلارت . وعينه ابنه ميخائيل بطريرك موسكو ، ورحب به مستشارا له وبلغ من القوة والنفوذ حدا أطلق معه الشعب عليه اسم « القيصر الثانى » . وتحت الحكم المزدوج الذى شارك فيه الوالد والولد

وبرغم المزيد من الثورات والحروب ؛ حققت روسيا بعد جيل من الفوضى، سلاما مزعزعا مقرونا بالضغط والاستياء . أن زمن الشدائد والمتاعب الذى بدأ بموت بوريس ، اختتم باعتلاء ديمترى العرش ، وهـذا بدوره كان ابتـــداء عهد أسرة رومانوف التى قدر لها أن تحكم روسيا حتى عام ١٩١٧ .

الفصل العشرون

الإسلام يتحدى

١٥٦٦ — ١٦٤٨

١ — الأتراك

فى غمرة الصراعات الداخلية — سياسية ولاهوتية — فى العالم المسيحى أحس بعض المفكرين بالانزعاج والقلق من أن العناية الإلهية أطلت ، فى حياد ظاهر ، على الصراع الأكبر بين المسيحية والإسلام . ولقد تم طرد الإسلام من أسبانيا ، ولكن « دار الإسلام » (العالم الاسلامى) كانت لا تزال شاسعة مترامية الأطراف ، ضمت أندونسيا وشمال الهند . والحق أن هذا كان عصر أسرة المغول الزاهر فى دلهى (١٥٢٦ — ١٧٠٧) . وضم الإسلام أفغانستان وآسيا الوسطى وايران كلها « حيث آذنت عظمة الفن الفارسى بالغروب فى هذه الحقبة . وإلى الغرب من إيران كانت دولة الإسلام هى الامبراطورية العثمانية أو التركية - التى لم يكن ينافسها آنذاك فى أتساع أطرافها الا الامبراطورية الأسبانية ، واحتفظت بالسيطرة على شواطىء البحر الأسود ، وتحكمت فى مصبات الدانوب ، والدنيبر والدينستر ، وساعدت حلفاءها خانات التتار ، على السيطرة على القرم ومصب نهر الدون . وأستولى الأتراك على أرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا وبلادالعرب - الشرق الأدنى بأسره - . وهناك كان فى حوزتها أشهر مدن العالم القديم والوسيط . بابل ، نينوى ، بغداد ، دمشق ، أنطاكية طرطوس ، أزمير ، نيقية ، مكة وبيت المقدس - حيث كان المسحيون ، بترخيص من المسلمين ، يحجون إلى قبر المسيح . واستولوا فى شرق البحر الأبيض على الجزر العظيمة قبرص ورودس وكريت ، وكانت الأغلبية الساحقة فى شمال افريقية

من المسلمين ، من البحر الأحمر إلى الأطلسى ، فكان يحكم مصر باشوات يعينهم السلاطين ، وكان يحكم طرابلس وتونس والجزائر ومراكش أسرات مسلمة محلية يختلف خضوعها للسلاطين باختلاف البعد بينها وبين الآستانة ، وكان هذا هو عهد أسرة السعديين (١٥٠٠ — ١٦٦٨) فى المغرب ، وكانت عاصمتها مراكش تعج بالتجارة وتتألق بالفن . وأمتدت الدولة العثمانية فى أوربا من البسفور عبر اليونان (بما فيها أثينا واسبرطه) والبلقان والمجر، على بعد مائة ميل من فيينا، وعبر دالمشيا إلى أبواب البندقية، وعبر البوسنه والبانيا ، وما كان ثمة الاقفزة واحدة عبر الادرياتيك حتى تصبح فى ايطاليا البابوية . وهناك، وفى فيينا الواقعة تحت الحصار ، لم يكن الحوار الكبير بين البروتستانت والكاثوليك بل بين المسيحية والإسلام . وداخل هذا النطاق الإسلامى عاشت المسيحية حياتها الممزقة .

ومهما كان من أمر امتداد الإسلام غربا فإنه ظل شرقيا . وكانت القسطنطينية نافذة على أوربا ولكن جذور العثمانيين أمتدت كثيراً إلى الوراء ، إلى آسيا وبذلك استطاعت تركيا المزهوة المبتهجة أن تقلد أوربا . وفى بعض بقاع العالم الإسلامى قتلت حرارة الصحراء أو الحرارة المدارية روح الحيوية . وعوقت المسافات الشاسعة غير المسكونة التجارة ، ولم يجد الناس فى أنفسهم تحمسا إلى كسب المعرفة وتحصيلها مثل الأوربيين الغربيين ، فشجعوا الجمود وعدم التحرك ، وكانوا أكثر استعدادا للقناعة ولم يتصفوا بالطموح . وكانت الحرف والصناعات غير المتغيرة فى الإسلام متقنة ، ولكنها كانت تتطلب وقتا ، وكان يعوزها الذوق ، ولم تتجه إلى الصناعة على نطاق واسع وكانت القوافل مثابرة صابرة ، ولكنها لم تقو على منافسة الأساطيل التجارية التابعة للبرتغال وأسبانيا وانجلترا والأراضى الوطيئة التى كانت تجوب كل المسالك المائية إلى الهند . على أن بعض الثغور الواقعة على البحر المتوسط مثل أزمير، اذدهرت بفضل نقل البضائع بين السفن والقوافل . وينفخ الإسلام فى الناس روح

الشجاعة المفعمة بالأمل زمن الحرب ، ولكنه كان يغرس فى نفوسهم وقت وقت السلم روح التسليم بالقضاء والقدر التى تثبط من عزائمهم (*) وأغراهم بحلقات الذكر والأحلام الصوفيه . وعلى الرغم من أن الإسلام فى عصر الفتوة والشباب أجاز قدراً كبيراً من العلوم . فإنه هبط آنذاك بالفلسفة إلى حذلقة جوفاء قوامها التعاليم والأساليب التقليدية . وعمل العلماء من رجال الدين الذين سنوا القوانين على أساس القرآن الكريم على تنشئة الأطفال على الدين القويم ، وحرصوا على كل الحرص حتى لا يطل عصر العقل برأسه على العالم الإسلامى . وهناك هيأ الصراع بين الدين والفلسفة نصراً حاسماً للدين .

أضف إلى ذلك أن هذا الدين تيسر له غزو البلاد التى اقتطعت من العالم المسيحى . فقد كان للكنيسة الشرقيه بطاركتها فى القسطنطينية وانطاكية ، وأورشليم والاسكندرية ، ولكن عدد المسيحين فيها كان يتناقص بسرعة ، وظل الأرمن فى آسيا الصغرى والأقباط فى مصر على عقيدتهم المسيحية ، ولكن الجماهير عامة فى آسيا وأفريقية والبلقان اعتنقت الإسلام . وربما كان لهذا أسباب عملية ، فلو أنهم بقوا على عقائدهم المسيحية لحرموا من الوظائف العامة ، ودفعوا ضرائب باهظة مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وسلموا واحدا من كل عشرة من أبنائهم ليربى تربية إسلامية تؤهله للانضمام إلى الإنكشارية ليعمل فى الجيش ، أو ليتولى الوظائف الحكومية .

وفيما عدا هذا ، تمتع المسيحيون فى العالم الإسلامى بتسامح دينى ما كان حاكم مسيحى ليحلم بمنحه للمسلمين فى أى بلد مسيحى . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن المسلمين كان لهم فى أزمير ١٥ مسجدا ، وللمسيحيين ٧ كنائس ولليهود ٧ معابد [١] . وكانت السلطات فى تركيا والبلقان تتولى حماية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أى تحرش أو ازعاج أثناء العبادة

---

* هذا كلام يدل على عدم التعمق فى فهم حقيقة الاسلام ؛ ولكننا نورده بنصه توخياً للامانة فى الترجمة — (المترجم)

والصلوات[٢] . وذهب صمويل بيبس فى يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للاتراك لأن البلاد نعمت فى ظل الحكم العثمانى بحرية دينية أكبر مما نعمت به فى ظل الأباطرة الكاثوليك . وهذا حق كل الحق من جانب المسيحيين المهرطقين . فقد ذكر سير توماس أرنولد : « أن الكلفنيين فى المجر وترنسلفانيا والموحدين فى هذا البلد الأخير آثروا الخضوع للاتراك على الوقوع تحت نير آل هبسبرج المتعصبين وأن البروتستانت فى سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك، وربما أرتضوا عن طيب خاطر أن يشتروا حريتهم الدينية مقابل الخضوع للحكم الأسلامى[٤] » وبما يلفت النظر أو يثير الدهشة أكثر من ذلك، حكم السلطات المسيحية القيادية على تاريخ اليونان الحديث : —

إن كثيرا من اليونان ذوى المواهب العظيمة والخلق الرفيع كانوا أكثر إدراكا لتفوق المسلمين، حتى أنهم ، حين نجوا من سوقهم إلى خدمة السلطان فى نطاق « ضريبة الأطفال » ، اعتنقوا الإسلام طواعية واختيارا . ولابد من التسليم بأن السمو الخلقى فى المجتمع العثمانى كان له دخل كبير فى هذا التحول إلى إسلام ، قدر ما كان للطموح الشخصى لدى الأفراد[٥] .

ولكن من الصعب تحديد هذا « السمو الخلقى » لدى أتراك القرن السابع عشر . فان تافرنيه الذى تجول واشتغل بالتجارة فى البلاد الإسلامية فى ١٦٣١ — ١٦٣٣ ، ١٦٣٨ ، ١٦٤٣ — وما بعدها ، قال : « فى تركيا لصوص كثيرون يتجمعون فى عصابات تقطع طريق التجار[٦] ، وكان الأتراك معروفين بنزعتهم الهادئة إلى الخير ولكن نفس الديانة التى روضت دوافعهم غير الإجتماعية وقت السلم ، أطلقت لهم العنان فى ضراوة وعنف فى حربهم مع « الكفار » ، وكان استرقاق الأسرى المسيحيين مباحا . ووقعت غارات فى الأراضى المسيحية القريبة من الحدود العثمانية لاصطياد المسيحيين واسترقاقهم . ومهما يكن من أمر ، فإن اتجار العثمانيين فى الرقيق كان أقل بكثير ، عددا وقساوة ، من الحملات التى قام بها المسيحيون لجمع الرقيق فى القارة السوداء . وكان الانغماس فى الشهوة الجنسية فى العالم الإسلامى أشد

وأكثر أرهاقا منه فى العالم المسيحى ، ولو أنه كان عادة فى نطاق الحدود المنظمة لتعدد الزوجات . وكان المجتمع التركى ، على وجه التحديد . مجتمع رجال ، ولما كان اتصال الرجال بالنساء محظورا خارج البيت . فقد أنس المسلمون بمعاشرة الغلمان ، عشرة عذرية (أفلاطونية) أو جسدية . وانتشر السحاق داخل الحريم [٨] .

وسادت حياة عقلية نشيطة ، ولو أنها مقيده ، بين أقلية كبيرة من المسلمين. وربما كانت نسبة معرفة الكتابه والقراءة فى تركية أوربا فى القرن السابع عشر أعلى منها فى العالم المسيحى وربما حكمنا على وفرة الكتب من ثبت جمعه حاجى خليفة (١٦٤٨) ، يضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب فى اللغات العربيه والتركية والفارسية . وكانت هناك مئات المجلدات فى الدين والفقه والعلوم والطب والبلاغة والسير والتاريخ [٩] . وكان من أشهر المؤرخين أحمد بن محمد ، غالبا ما استندنا فى كتابتنا هذه إلى مؤلفه « تاريخ الأسرات الإسلامية فى أسبانيا » (نفح الطيب) . وقد عرفناه أساسا باسم « المقرى » وقد أشتق أسمه من اسم مسقط رأسه فى قرية فى الجزائر . ومعظم كتابه عبارة عن قطع منقولة أو مختصرة من كتب قديمة ، ومع ذلك فهو انتاج جدير بالذكر فى عصره ، لم يزودنا بأخبار السياسة والحرف فقط ، بل أمدنا كذلك بشىء عن الأخلاق والقانون والنساء والموسيقى والأدب والطب . وأحيا مدونته بالتفاصيل الممتعة والحكايات والنوادر التهذيبية .

ونظم الشعر كل من عرف القراءة والكتابة فى تركيا تقريبا . واشترك الحكام بحماسة فى هذه المباراة (كما هو الحال فى اليابان) . وألف محمد سليمان أوغلوا المعروف « بالفضولى » (وهو أسم أخف على السمع) ، أرق أغانى الحب فى ذاك العصر ، وربما بدت سخيفة ساذجة فى الترجمة . الإنجليزية الرديئة التى توفرت لنا ، ولكننا ندرك مراميه — تميزت غادات بغداد بالدفء والحرارة والطراوة ونعومة الملمس ، والخفر والرقه حتى

يتزوجن . أما محمود عبد الباقى (المتوفى ١٦٠٠) وهو أعظم الشعراء الغنائيين العثمانيين ، فانه بعد أن كان المغنى الأثير لدى سليمان القانونى ، ظل يشدو لمدة أربعة وثلاثين عاما بعد وفاة راعيه . وكتب نافع الذى عاش فى أرضوم ، هجاء لاذعا ، لابد أن شيئا منه صعد إلى السماء ، فانه بينما كان السلطان مراد الرابع يقرأ قصيدة منه نزلت صاعقة على قدميه،فمزق السلطان الكتاب ونفى الشاعر من القسطنطينية ، وسرعان ما أعيد إليها ، ولكن قصيدة هجائية أخرى لذعت الوزير بيرم باشا ، فأمر بقطع رأسه (١٠) .

وظل الفن العثمانى ينتج التحف والروائع ، فقد بنى مسجد أحمد الأول فى ١٦١٠ ليشرف على العاصمة بمآذنه الست المحلقة فى الجو ، وسلسلة قبابه المنتفخة (البصلية الشكل) ، وأعمدته المحززة الضخمة فى الداخل ، وأقواس الفسيفساء ، والكتابات الفخمة والزخارف المتألقة . وبعد ذلك بخمسة أعوام أهدى السلطان لزوجته ذات الحظوة لديه مسجد يتى فالدى جاميسى الرائع . وبنى فى هذه الحقبة فى دمشق مسجدان فخمان . أما فى أدرنه فإن المهندس المعمارى الذى لا نظير له ، سنان الذى كان قد وضع تصميم مسجد سليمان شاد للسلطان سليم الثانى مسجدا يعده بعض الناس أعظم من أى مسجد آخر فى القسطنطينية .

ولم تتفوق أية حضارة على الإسلام فى صنع تربيعات القرميد الجميلة التى نشاهدها ، على سبيل المثال فى مسجد أحمد الأول ، وأجمل منها تلك التى تزين مدخل ضريح سليم الثانى بالقرب من أيا صوفيا بباقات من الأزهار البيضاء والزرقاء وسط أغصان وأوراق خضراء وزرقاء وحمراء ، ولا يمكن أن تكون الزهور الحية أجمل من ذلك ، بل قد تحسد نظيراتها المصنوعة على طول بقائها . وكانت أزنيق — حيث رأس قسطنطين منذ ثلاثة عشر قرنا المجمع التاريخى الذى ثبت العقيدة المسيحية — نقول كانت مشهورة بتربيعاتها البراقة وثمة نماذج مقنعة منها فى متحف المتروبوليتان للفن .

وكان رسم المنمنمات فى تركيا يحاكى نظيره فى فارس التى سنتحدث عنها وشيكا أما الخط فقد ذاع صيته (يقال أن سطرا واحداً بخط مير عماد بيع بقطعة

من الذهب أثناء حياته)[١١] إلى حد أنه لم يطبع أى كتاب فى تركيا قبل عام ١٧٢٨ . وفى النسيج كذلك كان الأتراك تلاميذ الفرس ، ولكن لم يتفوق عليهم فيه إلا هؤلاء . ولم يبلغ السجاد التركى درجة الإيرانى فى رقة النسيج ودقة التصميم والرسم أو الثراء فى الألوان . ولكنهم يحتلون مكانة عالية فى تاريخ هذا الفن . وكان السجاد التركى فى القرن الخامس عشر قد كسب شهرته بالفعل فى الغرب لأننا نراه فى لوحات الرسام الإيطالى أندريا ما نتنيا ، وبعده فى بنتوريكيو ، وفى باريس بوردون وهولبين . وكسى كثير من قصور التيودور بالسجاد التركى ، بل إن كرومول المتشدد نفسه كان لديه اثنتان وعشرون قطعة منه[١٢] . وإننا لنجد هذا السجاد ممثلا فى قطع النسيج المزركش (الكانفاه ، الجويلان) ، يوضح للناس حياة لويس الرابع عشر . لقد كان الغرب يدرك أن الشرق لديه الفنون والمدافع سواء بسواء .

٢ ــ معركة ليبنتو

ومهما يكن من شيء ، فقد كان على حكام الغرب أن يرقبوا المدافع ، لأن سلاطين آل عثمان كانوا قد أعلنوا عن عزمهم على تحويل أوربا بأسرها إلى الإسلام . أن رصيدهم البشرى وثروات مملكتهم الزاحفة فى كل مكان هيأت لهم أكبر جيش وأحسنه عتادا وعدة فى أوربا . وكان عدد الانكشارية وحدهم خمسين ألفا . وربما كان خلاص الغرب وخلاص المسيحية فى ترامى أطراف الإمبراطورية العثمانية على هذا النحو ، فما كانت المسافات البعيدة لتساعد على تجميع الموارد المبعثرة فى الوقت المناسب ، كما أن السلاطين ، ولو أنهم شكلوا أسرة حاكمة أبقى على الزمن من أية أسرة حاكمة مسيحية ، دب فيهم الفساد وانتابهم التدهور حيثما تهيأت « للحريم » فرصة لتحقيق مآربهن ، وكانوا يكلون أمور الحكم إلى وزراء مؤقتين سريعى الزوال، نزع بهم تزعزع مراكزهم إلى التخفيف من وطأة سقوطهم واعتزال مناصبهم ، بجمع الثروات أيام سطوتهم .

وهكذا كان سليم الثانى الذى خلف سليمان القانونى ١٥٦٦ ، حاكما منحلا خاملا ، لم تتجل عبقريته إلا فى أنه عهد بالإدارة وللسياسة إلى وزيرة القدير محمد سوكللى . وانقطعت غارات الأتراك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأن الإمبراطور مكسيمليان الثانى اشترى السلام مقابل جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكات . وحول سوكللى وجهه شطر فريسة أقرب . فقد احتفظت بلاد العرب من قبل ، باستقلالها الدينى ، ولكن تم الآن للباب العالى فتحها (١٥٧٠) وكانت ممتلكات البندقية لاتزال متناثرة فى بحر إيجه ، تعوق أساطيل تركيا وتجارتها . وقصد لا لا مصطفى على رأس ٦٠ ألف مقاتل لمهاجمة قبرص وأهابت البندقية بالدول المسيحية لنجدتها ، فلم يستجب لندائها إلا البابا وأسبانيا . فإن بيوس الخامس لم يكن قد نسى أن الأسطول التركى فى ١٥٦٦ هدد أنكونا ثغر البابا وقلعته على الإدرياتيك . كما علم فيليب الثانى أن عرب الاندلس استصرخوا السلطان لإنقاذهم من ويلات الحكم الاسبانى (١٥٦١) وأن السلطان رحب بمبعوثيهم إليه . وكان الموقف الدبلوماسى مواتيا . ذلك أن الإمبراطور لم يكن يشترك فى الحرب ضد تركيا ، لأنه كان قد وقع من فوره معاهدة سلام معها ولم يكن من الشرف ولا فى مصلحة أمنه أن ينقضها وعارضت فرنسا أية خطة تزيد من قوة أسبانيا وترفع من شأنها . ووثقت عرى الصداقة مع الاتراك عونا لها على مواجهة الإمبراطور . وخشيت انجلترا مغبة الدخول فى مغامرة مشتركة مع فيليب الثانى يجعلها تحت رحمة أسبانيا الكاثوليكية فى حالة انتصارها . وساور البندقية بعض القلق من أن الانتصار قد يأتى بالقوات الأسبانية إلى الأدرياتيك . فتقضى على احتكار البندقية لهذا البحر وسيطرتها عليه . وقضى بيوس عاما كاملا فى التغلب على هذه الحيرة والتردد . وكان عليه أن يرضى باستخدام البندقية وأسبانيا لأموال الكنيسة . وأخيرا فى ٢٠ مايو ١٥٧١ انضمت القوى الثلاث فى « عصبة مقدسة » واستعدت للحرب .

وفى أثناء هذه المفاوضات تقدم الهجوم التركى على قبرص . مع خسائر

جسيمة تكبدها الطرفان . وسقطت نيقوسيا بعد حصار دام خمسة وأربعين يوما . وأعدم بحد السيف عشرون ألفا من سكانها ، وقاومت فاماجوستا زهاء عام . وعندما سقطت (٦ أغسطس ١٥٧١) سلخ البطل المدافع عنها ، مارك أنطونيو براجادينو ، حيا ، وحشى جلده بالقش وأرسل إلى القسطنطينية تذكارا للنصر .

وكانت الظروف تستحث العصبة المقدسة على العمل ، فجمعت قواتها . وأسهمت بالسفن والرجال ، كل من فلورنسة وبارما ولوكا وفرارا وأوربينو وجنوه ، عدو البندقية القديم . وفى نابلى تسلم دون جوان النمسوى لواء العيادة فى احتفال مهيب من الكاردينال دى جرانفل . وفى ١٦ سبتمبر ، بعد أن تناول البحارة والجنود القربان المقدس من يد الجزويت والكبوشيين الذين التحقوا بالحملة ، أبحر الأسطول الضخم (الأرمادا) من مسينا إلى جزيرة كورفو فى محاذاة جنوبى إيطاليا ، عبر مضيق أوترانتو . وهناك ترامت أنباء المذابح والفظائع التى اقترنت بسقوط قبرص . وتعالت صيحات «النصر النصر» فليحى المسيح ، عندما أصدر دون جوان أوامره بالانطلاق إلى القتال .

وفى ٧ أكتوبر ١٥٧١ تحرك الأرمادا عـــبر خليج بتراس إلى خليج كورنث . وكان الأسطول التركى ينتظر بعيدا عن ثغر ليبنتو ، وهو يضم ٢٢٢ سفينة شراعية كبيرة ، و ٦٠ سفينة صغيرة ، و ٥٧٠ مدفعا ، و ٢٤ ألف جندى ، و ١٣ ألف ملاح ، و ٤١ ألف مجدف . وكان لدى المسيحيين ٢٠٧ سفن شراعية ، وست سفن شراعية فينيسية ضخمة تحمل المدافع ، و ٣٠ سفينة صغيرة و ١,٨٠٠ مدفع . و ٣٠ ألف جندى و ١٣ ألف وتسعمائة ملاح ، و ٤٣ ألف مجدف[١٣] . ورفع الأسطول المسيحى علم المسيح مصلوبا . ورفع الأسطول التركى علم السلطان يحمل لفظ الجلالة « الله » موشى بالذهب . وتراجع جناح المسيحيين الأيمن أمام الاتراك ، ولكن الجناح الأيسر الذى كان يقوده البنادقة حول المقاومة الضارية إلى هجوم منظم ، وأودت مدفعيتهم

بحياة آلاف من الأتراك . وأصدر دون جوان أمره بأن تتحرك سفينة قيادته قد مانحو سفينة أمير البحر التركى موسيناد على . فلما التقت السفينتان ، قفز ثلثمائة من جنود دون جوان الأسبان المحنكين إلى السفينة التركية بقيادة راهب كبوشى ، يلوح بالصليب عاليا . وتقرر مصير المعركة ، عندما أسرت السفينة ، ورفع رأس على المفصول عن جسده فوق سارية عليه[١٤] . وانهارت الروح المعنوية لدى الاتراك . وهربت ٤٠ من سفنهم ، وأسرت ١١٧ أخرى، كما أغرق أو أحرق خمسون سفينة . ولقى حتفه فى المعركة أكثر من ثمانية آلاف رجل من الاتراك ، وأسر عشر آلاف ، ووزع معظمهم رقيقا على المنتصرين . وحرر نحو ١٢ ألفا من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب التركية . وفقد المسيحيون ، وقتل منهم ٧٥٠٠ رجل من بينهم أفراد من أعرق وأشهر الأسرات فى إيطاليا . ولا نزاع فى أن معركة ليبنتو كانت أعظم معركة بحرية فى التاريخ الحديث . ووصفها سرفنتيز الذى كان من بين الجرحى المسيحيين البالغ عددهم ٧٥٠٠ بأنها «أعظم حدث بارز جدير بالذكر شهدته العصور الخوالى أو العهود الحاضرة . وقد لا يكون له نظير فى المستقبل(*) »[١٥] .

وكان يجدر أن تكون هذه أكبر معركة فاصلة فى التاريخ الحديث ، لولا أن استنزاف المجدفين والأضرار التى لحقت بالأسطول المنتصر ، وهبوب عاصفة عنيفة ، حال دون تعقب الاتراك . فقد ثار النزاع بين المسيحيين حول اقتسام المجد والغنائم . ولما كانت أسبانيا قد أسهمت فى القتال بنصف السفن والنفقات ، والبندقية بثلثها والبابا بالسدس ، فقد وزعت الغنائم بقدر هذا الاسهام . ووزع الأسرى الاتراك بهذه النسبة ، فخص أسبانيا ٣٦٠٠

(*) على بعد نحو مائة ميل إلى الشمال الغربى ، قرب اكتيوم . على خليج آرثا الحالى ، انتزع اكتافيوس بأربعمائة سفينة حربية السيادة على عالم البحر المتوسط القديم من أنطونيوس وكليوبطره ، وسفنهما الحربية الخمسمائة (٢ سبتمبر ، ٣١ ق . م) .

عبد مكبلين فى الأصفاد ، ومن نصيب البابا منح دون جوان ١٧ عبدا مكافأة شرفية لقاء خدماته[١٦] . ورغب بعض الزعماء المسيحيين فى الاحتفاظ بالارقاء المسيحيين الذين حرروا من السفن التركية ، ولكن البابا بيوس الخامس حرم هذا التصرف[١٧] .

وابتهجت أوربا الكاثوليكية بأسرها حين وصلت أنباء النصر . وازدانت البندقية بأكاليل الزهر والتحف الفنية ، وتبادل الرجال القبلات فى الشوارع ، ورسم تيشيان وتنتورتو وفيرونيز لوحات ضخمة عن المعركة ، واحتفل بالقائد الفينيسى سباستيان فنييرو أياما وليالى كثيرة ، وأخيرا اختير لتولى منصب « الدوج » (القاضى الأول فى جمهورية البندقية) . أما فى رومه ، حيث قضى رجال الدين وعامة الناس ساعات كل يوم فى الصلوات وأحر الدعوات منذ غادر الارمادا مسينا ، فقد تعالت صيحات « الشكر للرب » فى مرح وابتهاج وارتياح ، وكاد البابا بيوس الخامس ، منظم النصر ، أن يرفع دون جوان إلى مرتبة القديسين وأطلق عليه عبارة الإنجيل « هناك رجل أرسل من عند الله اسمه يوحنا » (انجيل يوحنا ، ١ : ٦) وتليت القداسات وأطلقت الألعاب النارية ، ودوت طلقات المدافع . ورجا البابا من المنتصرين أن يحشدوا أسطولا آخر ، وتوســـل إلى حكام أوربا أن ينتهزوا الفرصة ليتحدوا فى حرب صليبية لطرد الأتراك من أوربا ، ومن الأرض المقدسة . وأهاب بشاه إيران ، وبأمير اليمن السعيد أن ينضما إلى المسيحيين للانقضاض على الاتراك[١٨] . ولكن فرنسا الحاقدة على أسبانيا اقترحت على السلطان ، عقب ليبنتو مباشرة ، تحالفا مباشرا ضد فيليب الثانى[١٩] (*) .

(*) فى عام ١٥٣٦ حصلت فرنسا من تركيا على أولى « الامتيازات » . وجددت فى ١٥٦٩ ولم تكن تنازلات بل معاهدة اتفق بمقتضاها ، أساسا ، على أن يعامل الرعايا الفرنسيون فى الأراضى التركية ، ويحاكموا وفق القانون الفرنسى « القضاء خارج أراضى الدولة » ووقعت تركيا مثل هذه الامتيازات مع انجلترا فى ١٥٨٠ ، ومع المقاطعات المتحدة (فى الأراضى الوطيئة) فى ١٦١٣

واشتركت أنباء هذا العرض مع عوامل أخرى فى ثنى فيليب عن عزمه على القيام بعمل جديد ضد القوة العثمانية الرئيسية . وتورط فى النزاع مع انجلترا ، وفى المأزق الذى أوقعه فيه دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، كما استاء من إصرار البندقية على احتكار التجارة فى الأدرياتيك ، وخشى من أن انتصارا ثانيا على الأتراك قد يبعث القوة والحياة فى امبراطورية البندقية المتداعية ، فتصبح منافسا قويا لأسبانيا . أما بيوس الخامس الذى أرهقته الانتصارات والهزائم معا ، فإنه لقى ربه فى أول مايو ١٥٧٢ ، وماتت معه العصبة المقدسة .

٣ — اضمحلال السلاطين

وفى نفس الوقت ، وبنشاط أفزع الغرب . بنى العثمانيون أسطولا آخر ، فى مثل ضخامة الأسطول الذى كاد أن يدمر عن آخره . وفى بحر ثمانية أشهر بعد معركة ليبنتو ، كان ثمة أسطول تركى مكون من ١٥٠ سفينة يجوب البحار بحثا عن الأسطول المسيحى الذى بلغ من سوء النظام حداً لم يجرؤ معه على الخروج من مكمنه . وشجع الجميع البندقية على استئناف الحرب ، ولكن أحداً لم يمد لها يد المساعدة ، ومن ثم فإنها عقدت مع السلطان (٧ مارس ١٥٧٣) صلحا لم تتنازل بمقتضاه عن قبرص فحسب ، بل دفعت كذلك للسلطان تعويضا يغطى ما تكبده من نفقات فى فتح الجزيرة . لقد خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب . ويبدو كيف أنهم لم يصبهم أى وهن ، من العرض الجرىء الذى تقدم به سوكوللى إلى البندقية (١٥٧٣) ، وهو أنها إذا انضمت إلى الأتراك فى حربهم ضد أسبانيا ، فلسوف يساعدونها فى غزو مملكة نابلى لتكون تعويضا سخيا لها عن ضياع قبرص . ورفضت البندقية هذا العرض لأنه يشجع السيطرة التركية على إيطاليا والعالم المسيحى . وفى أكتوبر أحيا دون جوان مجده بالاستيلاء على تونس لحساب أسبانيا ، ولكن فى بحر عام واحد استطاع الأتراك بأسطول ضخم آنذاك (٢٥٠ سفينة) استعادة المدينة

وذبح الأسبان الذين كانوا قد استوطنوها حديثاً . وعلى سبيل الاحتياط أغاروا على سواحل صقلية . ومات سليم الثاني في ١٥٧٤م ولكن ظل سوكوللي يتولى شئون الدولة ويدير دفة الحرب .

وقد يدعو إلى حيرة الفلاسفة أن يرى المؤرخون اضمحلال الدولة العثمانية في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) على حين أنه كان يحب الفلاسفة ، ولكنه كان مولعاً بالنساء كذلك . وأنجب مائة وثلاثة أطفال من عدد غير كبير من الزوجات . وكانت «بافو» الزوجة ذات الحظوة لديه ، وهي أمة من أسرى البندقية ، أسرته بمفاتنها ، وتدخلت في شئون الدولة ، واشترى نفوذها بالمال ، وتقلص نفوذ سوكوللي ، ولما اقترح بناء مرصد ثارت ثائرة الشعب ضده في نعرة تعصب ذميم ، فقتلوه (١٥٧٩) ، وربما كان هذا بأمر السلطان مراد . وعمت الفوضى ، وانخفضت قيمة العملة ، وتمرد الانكشارية لهبوط قيمة أجورهم لأنهم يتسلمون نقداً رديئاً ، وأفسدت الرشوة الموظفين ، بل أن أحد الباشوات كان يفاخر بأنه رشا السلطان . وانغمس مراد في ملذاته الجنسية ومات متأثراً بالإفراط فيها .

وسيطرت «بافو» على ابنها محمد الثالث (١٥٩٥ ١٦٠٣) قدر سيطرتها على والده . وبدأ حكمه بالعملية التقليدية ، فقتل تسعة عشر من أخوته ، إغراء وحثاً لآل بيته على أن يركنوا إلى الهدوء والمسالمة ، ولكن اخصاب مراد ، أو ذريته الكبيرة ، جعلت من هذا السلام المنشود مشكلة عسيرة ، فإن كثيراً من أبناء السلطان بقوا على قيد الحياة تحدق بهم الأخطار . وانتشر الفساد وسادت الفوضى . وضيعت الهزيمة في الحرب مع النمسا وفارس قيمة الانتصارات التركية . وواجه أحمد الأول خطر ظهور الشاه عباس الأول حاكماً قوياً في فارس ، فقرر حشد قواته على الحدود الشرقية ، ورغبة في التخفيف منها في الغرب ، أمر السلطان وكلاءه بتوقيع صلح «زتفا توروك» (١٦٠٦) ، وهي أول معاهدة تنازل الأتراك المزهوون بتوقيعها خارج القسطنطينية . ودفعت النمسا للسلطان مائتي ألف دوكات ، ولكنها أعفيت من أية جزية

بعد ذلك . وقبلت ترنسلفانيا السيادة التركية طواعية واختيارا ، كذلك عقدت فارس الصلح (١٦١١) ، وأعطت تركيا مليون رطل من الحرير ، تعويضا عن الحرب . وتميز هذا العهد فى جملته بالتوفيق والسلامة لولا ما شابه من استمرار الانكشارية فى تمردهم . وكان السلطان أحمد رجلا تقياً حسن النية ، وبذل للجهد ، ولكنه أخفق فى القضاء على قتل الإخوة أخوتهم فى الأسرة المالكة .

وأقترح عثمان الثانى (١٦١٧ — ١٦٢٢) تنظيم الانكشارية والإصلاح من شأنهم ، ولكنهم اعترضوا وقتلوه ، وأجبروا أخاه الأبله المعتوه مصطفى الأول على اعتلاء العرش ، ولكن مصطفى أوتى من رجاحة العقل ما جعله يتخلى عنه (١٦٢٣) لابن أخيه مراد الرابع البالغ من العمر أثنى عشر عاما (١٦٢٣ — ١٦٤٠) . واختار الانكشارية كبار الوزراء ، وكانوا يذبحونهم كلما لاح لهم أنه قد آن الأوان لأحداث تغيير . واقتحموا القصر الملكى وأجبروا السلطانة قسيم على أن تفتح لهم أقبية الكنوز استرضاء لهم . وفى ١٦٣١ عادوا إلى القصر ثانية ، وتعقبوا السلطان الشاب إلى جناحه الخاص وطالبوا برؤوس سبعة عشر موظفاً . وقدم أحدهم — حافظ — نفسه للجماعة ، فداء للباقين ، فمزقوه إربا . وقابلهم مراد ، وهو لا يزال بعد غض الإهاب ، بما بدا أنه تهديد هين لين : « إنى لأرجو أن يمدنى الله بعون من عنده : يا رجال الدم ، يا من لا تخشون الله ، ولا تستشعرون الخجل أمام رسوله ، سيحل عليكم أشد الانتقام[٢٠] » وانتهز الفرصة الملائمة ليشكل قوة موالية له ، ودبر قتل الواحد تلو الآخر من زعماء التمرد . وسحقت محاولات أخرى للثورة والعصيان ، بقسوة شديدة . وفى بعض الأحيان ، شارك السلطان بنفسه ، مثل — بطرس الأكبر — فى تنفيذ أحكام الأعدام . وقتل كل أخوته فيما خلا واحداً ظنه أبله لا يخشى منه شيء . وفى نشوة سلطته الملكية فرض عقوبة الأعدام على تناول التبغ أو القهوة ، والأفيون أو الخمر . وقيل أن جملة من أعدموا فى عهده مائة ألف شخص ، باستثناء من لقوا حتفهم فى

الحرب[٢١] . واستتب لبعض الوقت النظام الاجتماعى ونزاهة الإدارة. ولما أحس الآن بأنه فى مأمن إلى حد معقول ، استأنف الحرب مع فارس ؛ وقبل أن يتحداه محارب فارسى فى نزال فردى ، فأرداه قتيلا ، واستولى على بغداد (١٦٣٨) ، وجاد بصلح على نصر ، ولدى عودته إلى القسطنطينية استقبله أهلوها استقبال المنتصر الظافر . ومات بعد ذلك بعام واحد متأثرا بداء النقرس الذى سبب له الادمان على الخمر . وكان فى الثامنة والعشرين من العمر .

وبعد وفاة مراد الرابع ، عاد اضمحلال تركيا سيرته الأولى . فإن ابراهيم الأول نجا من موت محقق بيد أخيه ، لكونه مخبولا ، أو لتظاهره بالخبل ، وتجددت الفوضى والفساد فى ظل حكمه الضعيف الطائش . وشن الحرب على البندقية وأرسل حملة إلى كريت . وسد البنادقة منافذ الدردنيل . وتضور أهالى القسطنطينية جوعا . وثار الجيش وشنق السلطان . وعادت إلى ذاكرة الغرب المسيحى قصة الحرس البريتورى فى رومه ، وانتهوا إلى أنه لم يعد ثمة مبرر لأن يرهبوا قوة الأتراك وفى بحر خمس وثلاثين سنة أخرى كان الأتراك على أبواب فيينا من جديد .

٤ — الشاه عباس الأكبر : ١٥٨٧ — ١٦٢٩

انه لمن حسن حظ الغرب المسيحى أنه فيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٦٣٨ ، حين كانت فرنسا أولا ، ثم ألمانيا من بعدها ، قد شلت حركتها الحروب الدينية ، أن الأتراك الذين كان يمكن أن يمدوا حدودهم الغربية إلى فيينا ، وجهوا كل همهم وطاقتهم إلى فارس . وهنا أيضا كان الدين مبررا يستتر وراءه شهوة السلطان والسيطرة . فإن الأتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ، رموا الفرس بالمروق لأنهم اتبعوا مذهب الشيعة ، ودمغوا كل من ولى الخلافة بعد على ، وهو زوج بنت الرسول ، بأنه مغتصب لها . وكانت ذريعة

الحرب بطبيعة الحال دنيوية أكثر منها دينية — وهى الرغبة فى حكم الأقليات طمعا فى مزيد من الأراضى والموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب . ونتيجة لسلسلة من الحروب المتواصلة تقدم الأتراك نحو الفرات والقوقاز وبحر قزوين ، مستحوذين على العاصمة الفارسية الجديدة تبريز ، والعاصمة العربية القديمة بغداد، التى وصفها بيدرو تكسيرا (١٦١٥) بأنها مدينة غنية عامرة بالأتراك والفرس والعرب واليهود ، الذين يعيشو فى ٢٠ ألف بيت من الآجر ، تزحمها حركة الثيران والجمال والخيل والحمير والبغال المحملة ، والرجال نظيفى الثياب ، وكثير من النساء المليحات الوسيمات ، وعيونهن ، كلهن تقريبا ، جميلة تحدق فوق خمرهن أو من خلالها »[٢٢] . وقد كلف أحد الموظفين بالسهر على حماية الغرباء هناك .

وإلى الشرق من بغداد والفرات كانت تقع الولايات الفارسية الممزقة ، وتمتد إلى القوقاز وبحر قزوين فى الشمال الغربى ، وإلى تركستان فى الشمال الشرقى ، وإلى أفغانستان شرقا ، وإلى المحيط الهندى جنوبا ، وإلى خليج العرب (الخليج الفارسى) فى الجنوب الشرقى ، وكأنها أجزاء مبعثرة لجسم واحد ، تنتظر أن تحل فيها روح تضم شتاتها .

وكان عباس الأكبر خامس شاه ، أو ملك ، من الأسرة الصفوية التى كان قد أسسها إسماعيل الأول فى تبريز ١٥٠٢ . وفى عهد الشاه الثانى طهما سب الأول الذى امتد حكمه طويلا (١٥٢٤ ــ ١٥٧٦) تعرضت الدولة الجديدة لغارات كبيرة من الأتراك . وبعد موته فتح الأتراك الولايات الفارسية : العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم . وفى نفس الوقت جاء الأزابكة من بلاد فيما وراء النهر ، واستولوا على هراة ومشهد ونيسابور ، واجتاحوا الولايات الفارسية الشرقية . ولما ارتقى عباس العرش (١٥٨٧) وهو فى الثلاثين من العمر ، دون أن يكون له عاصمة ، عقد الصلح مع الأتراك ، وتقدم شرقا ليقابل العدو الأصغر شأنا وأقل نفرا . وبعد حروب دامت أعواما استرد هراة وطرد الأزابكة من فارس ، ومات بعد ذلك متلهفا

على ملاقاة الاتراك . ولكن الخسائر والأحقاد القبلية كانت قد استنزفت جيشه الفتى كان كذلك تعوزه أحدث وسائل الفتك والتدمير .

وحوالى هذه الفترة (١٥٩٨) وصل من انجلترا إلى فارس فى بعثة تجارية انجليزيان مغامران هما سير أنطونى شيرلى وأخوه الأصغر روبرت ، يحملان هدايا ثمينة وخبرة عسكرية . وكان برفقتهما خبير فى صنع المدافع . وتمكن الشاه عباس بمساعدتهما من إعادة تنظيم جيشه ، وزوده بالبنادق والسيوف معا ، وسرعان ما توافر لديه ٥٠٠ مدفعاً . وقاد قواته الجديدة ضد الأتراك وطردهم من تبريز (١٦٠٣) ، واسترد اريفان وشروان وكادن . فأرسل عليه الأتراك جيشا عرمرما قوامه مائة ألف رجل ، هزمه عباس بستين ألفا فقط (١٦٠٥) ، واسترد بذلك أذربيجان وكردستان والموصل وبغداد وامتد حكم عباس من الفرات إلى السند .

وحتى قبل هذه الحملات الشاقة ، كان الشاه عباس قد شرع (١٥٩٨) فى تشييد عاصمة جديدة ، أبعد منالا على الغزاة من تبريز ، وأقل تدنسا بذكريات الأجانب واقدام السنين ، كانت أصفهان موغلة فى القدم لمدة ألفين من السنين (ولو لم تكن تحمل هذا الاسم) ، وكان عدد سكانها ثمانين ألفا . وعلى مسافة نحو ميل من المدينة القديمة أقام مهندسوه رقعة مستطيلة اسمها ميدان الشاه أو الميدان الملكى ، طولها ١٦٧٤ قدما وعرضها ٥٤٠ قدما ، وتحوطها الاشجار وعلى جانبين منها متنزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس . وفى الناحية الجنوبية شيد مسجد الشاه أو المسجد الملكى ؛ وإلى الشرق بنى مسجد لطف الله والقصر الملكى ؛ وشغلت بقية المساحة بالحوانيت والخانات والمدارس . وإلى الغرب من الميدان شق طريق باتساع مائتى قدم « شاهار باغ » (البساتين الأربعة) تحف به الأشجار والحدائق تزينه البرك والنافورات وعلى جانبي هذا الطريق المزدان بالأشجار قامت قصور الوزراء . وجرى عبر المدينة نهر زاياند الذى بنيت عليه ثلاثة جسور ، كان أحدها « الله فردى خان » تحفة

جميلة فى فن البناء ، يمتد ١١٦٤ قدما مع طريق عريض ممهد ؛ ويمر مقنطر على الجانبين للمشاة ؛ وكانت المدينة الجديدة تروى وتبترد بواسطة القنوات والخزانات والنافورات والشلالات . وكان التصميم فى مجموعة قطعة رائعة فى تخطيط المدن ، تضارع أروع ما عرفه ذاك العصر فى أى مكان آخر [٢٣] .

وعندما زار الرسام الفرنسى سيمون شاردان أصفهان (١٦٧٣) دهش عند رؤية حاضرة على مثل هذا النسق فى الإدارة والتجارة والصناعات والفنون » تحوطها ١٥٠٠ قرية ، ويسكنها ٣٠٠ ألف نسمة . وكان بالمدينة وضواحيها ١٦٢ مسجداً و ٤٨ كلية و ٢٧٣ حماما عاما و ١٨٠٠ خان (فندق صغير) . ووصف تافرنييه أصفهان عندما رآها فى ١٦٦٤ بأنها تضارع باريس فى الاتساع ولكن سكانها يبلغون عشر سكان العاصمة الفرنسية ، لأن كل أسرة فى أصفهان كان لها بيتها وحديقتها ، وأن الأشجار بها كانت كثيرة إلى حد أنها بدت « غابة لا مدينة » [٢٤] أنها صورة جميلة لولا أن تافرنييه يستطرد فيقول : « وأمام كل بيت حوض تلقى فيه كل أسرة فضلات بطونها . ثم يأتى الفلاحون يومياً ليحملوها ليستخدموها فى تسميد أراضيهم ، ولا بد أن تقابل فى كل البيوت فتحات فى الجدران تطل على الشارع . يقبع فيها الناس ، ولا يخجلون من التغوط والتبول على مرآى من الدنيا بأسرها » [٢٥] .

وكان الشاه عباس يدرك تمام الإدراك أن أوربا الغربية تحمد له شغله الأتراك فى الشرق ، فأرسل سير أنتونى شيرلى فى بعثة لاقامة العلاقات بينه وبين الحكومات المسيحية ، وفتح الطريق أمام صادرات فارس من الحرير دون تدخل الوسطاء الأتراك . وعندما قدم المندوبون الأوربيون إلى أصفهان أكرم وفادتهم وأباح لهم الحرية الدينية . وكان قد أسر خمسة آلاف من الأرمن أثنـــاء حروبه مع تركيا ، فلم يستعبدهم ، ولكن أباح لهم النهوض بمقرهم فى جولفا بالقرب من أصفهان ، وأفاد من نشاطهم التجارى ومن مهاراتهم . وهناك شادوا كنيستهم الخاصة بهم وزينوها بخليط من الصور المقدسه

المسيحية والزخارف الإسلامية ولعبت برأس الشاه عباس فكرة صهر الأديان كلها فى دين واحد « وفرض السلام على السموات والأرض »(٢٦) . وبطريقة أكثر واقعية استغل الشاه الحماس الشيعى لدى الفرس كأداة لرفع معنوياتهم وروحهم القومية ، وشجع شعبه على الحج إلى مشهد على أنها مكة مسلمى فارس، وسعى هو بنفسه ثمانمائة ميل من أصفهان إلى مشهد ليؤدى المناسك ويوزع الهبات والصدقات .

ومن ثم فإن العمارة التى جعل أصفهان تتألق بها ، كانت دينية أساساً ، مثل كنيسه العصور الوسطى فى الغرب . فكان يحول أموال الفقراء إلى أماكن للعبادة تكون عظمتها وجمالها وهدوءها مفخرة وملكا للجميع . وكان أعظم ما يثير الاعجاب فى مبانى العاصمة الجديدة مسجد الشاه الذى بنـــاه عباس (١٦١١ — ١٦٢٩) . وكان « الميدان » مدخلها الرائع وطريقها الفاخر ،وبدأ الميدان كله وكأنه يؤدى إلى البوابة التى ترحب بالداخلين إليها . وأول مايبهر العين المآذن التى تطوق المدينة بأبراجها الناتئه المخرومة التى يوحد المؤذنون فيها الله ، والخزف اللامع الذى يكسو أطار الأبواب ، ثم الأفريز وما عليه من عبارة منقوشة . يتقرب بها عباس إلى الله بهذا الضريح . حتى حروف الهجاء فى فارس كانت فنا . وكانت الحوائط داخل العقود مزدانة بعناقيد موشاة بزهور بيضاء . ثم الساحة الداخلية المكشوفة للشمس ، ومنها عبر أقواس أخرى إلى الحرم المقدس تحت القبة الكبرى . ويجدر بالمرء أن يقصد إلى الخارج مرة أخرى ليتفحص القبة ، والخط الكوفى الرائع عليها . وشكلها المنتفخ ، وهى مع ذلك رشيقة جميلة ، مغطاة بالتربيعات المطلية بالميناء ، فى لون أزرق وأخضر فى زخرفة عربية بديعة فوق أرضية لا زوردية . وعلى الرغم من جور الزمان فإن هذه « حتى فى يومنا هذا من أجمـــل المبانى فى العالم »(٢٧) .

وثمه مسجد قد لا يثير الاعجاب بمثل هذا القدر ، ولكنه أدق وأرق ،

وهو الذى شاده الشاه عباس تخليداً لذكر والد زوجته ، وهو من أولياء الله الصالحين ، وهو مسجد الشيخ لطف الله ، وله باب رشيق ، وحرم ومحراب من الفسيفساء الفاتنة ، وفوق كل هذا ، فإن جماله من الداخل يجل عن الوصف، وأبعد عن التصديق — الزخارف العربية ، والأشكال الهندسية والزهور والحليات الدرجية فى رسم متقن موحد . وهذا هو فن تجريدى ، ولكن فى منطق وتكوين واتساق لا يربك العقل أو يشوش الذهن ، بل فى نظام يسهل إدراكه ، يبعث فى النفس الارتياح والهدوء .

وفى الجانب الشرقى من الميدان بنى الشاه عرشاً مكشوفاً تحت قوس كبير « الباب العالى ». وفيه استقبل الناس أو شهد سباق الخيل أو مباريات البولو فى الميدان *) . وخلف هذه البوابة كانت تقع الحدائق الشاهانية ، وهى تضم عدة قصور إستخدمها الشاه لأغراض خاصة . ولا يزال أحد هذه القصور موجوداً ، ولكن نال منه الزمن كثيراً . أربعون عموداً ، قاعة الاستقبال ، حجرة العرش قائمة على عشرين عموداً من شجر الدلب ، مكسوة بالمرايا ، وقاعة طويلة تزينها رسوم زيتية تحكى أحداث عصر الشاه . وكانت أبواب القصر مصنوعة من الخشب المصقول المزدان بمناظر الحدائق ومجموعات الزهر. وفى متحف المتروبوليتان للفن يوجد أثنان من هذه الأبواب . ولا تزال قائمة فى مكانها الزخارف الجصية اللامعة ، مذهبة ، وفى ألوان أخرى ، من سقف قاعة الاستقبال . وهنا أيضاً نجد الفن التجريدى ، وقد بلغ حد الكمال . فى المنطق وفى التصميم .

ووجه الشاه عباس من قصوره المتعددة ومن معسكره حيـــاة مملكته الآخذة فى الاتساع . لقد أهتم ، مثل معظم الحكام العظام ، بكل الجوانب فى حياة شعبه .فبنى الطرق والجسور ، ومهد الأميال الكثيرة من الطرق ورصفها

(*) لا تزال أعمدة المرمر الرخامية قائمة فى الميدان . وجاءت لعبة البولو إلى أوربا من فارس .

بالتجارة . وشجع الصناعات والتجارة الخارجية وإستخراج المعادن من بطن الأرض . وبنى السدود . وتوسع فى رى الأراضى ، وأمد المدن بالماء النقى . وجدد المدن التى لحقت بها أضرار — مشهد ، قزوين ، تبريز ، همذان قال تافرنييه : «كثيراً ما تنكر الشاه وجاب أنحاء أصفهان ، كأى مواطن عادى ، مدعياً أنه يبيع ويشترى . وكل همه أن يكشف عن التجار المطففين الذين يستخدمون موازين ومقاييس زائفة ..... فرأى اثنين مجرمين منهم ، فأمر بدفنهما أحياء»[٢٨] تلك هى الطريقة الشرقية لفرض إحترام القانون وتدعيمه وعند قصور الإشراف والرقابة والشرطة ، يكون الهدف من صرامة العقوبة كبح جماح النزعة الطبيعية فى الإنسان إلى التحلل من القانون أو خرقه . وربما كانت الحياة الحافلة بالحروب هى التى جنحت بالشاه عباس إلى اللجوء إلى هذه القسوة أداة لكبح جماح الناس أو للانتقام . فقتل أحد أبنائه وسمل عينى آخر[٢٩] . ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه نظم الشعر ، وقام بكثير من أعمال البر والاحسان ، ورعى كثيراً من الفنون .

وبموت الشاه عباس (١٦٢٩) أنقضى العصر الذى بلغ فيه الحكم والفن فى ظل الأسرة الصفوية ذروة المجد . ولكن النظام الذى أرسى دعائمه نشاطه المتصل فى كل الميادين ، ظل سائداً قرابة قرن من الزمان بعده . وعلى الرغم من تعاقب عدد من الملوك الضعاف أحتفظت الأسرة الصفوية بالعرش حتى دهمها غزو الأفغان المفاجىء العنيف لبلاد الفرس (١٧٢٢ — ١٧٣٠) وعلى الرغم من فترة الانحلال السياسى هذه ، ظل فن الصفويين محتفظاً بمكانته بين أعظم نتاج لذوق الانسان ومهارته .

٥ — فارس تحت حكم الأسرة الصفوية : ١٥٧٦ — ١٧٢٢

والآن نلقى بنظرة على عهد الصفويين ، من وفاة طهماسب الأول (١٥٧٦) ، حتى نهايته (١٧٢٢) ، لأن هذا تطور ثقافى لا يمكن اقتطاعه ، تمشياً مع تسلسل الأحداث فى أوربا . لقد ترك لنا كثير من السائحين الغربيين بيانات مشرقة عن

هذا العصر فى فارس . منهم بدرو تكسييرا الذى كان هناك فى ١٦٠٠ والأب الجزويتى كروسنسكى الذى أقام فى أصفهان من ١٧٠٢ — ١٧٢٢ وكتب « تاريخ الثورة فى فارس » وهو يتناول الأسرة الصفوية بأسرها ، وجان تافرنييه الذى وصف بالتفصيل رحلاته (١٦٣١ — ١٦٦٨) فى تركيا وفارس والهند وجزر الهند الشرقية ، وجان شردان الذى دون فى عشرة مجلدات أنباء إقامته فى فارس (١٦٦٤ — ١٦٧٧) فإنه على الرغم مما لاقاه من ريح السموم بالقرب الخليج ، وقع فى غرام فارس ، وآثر أصفهان على باريس وقت الصيف ، ووجد فى أصفهان من « الروعة والجمال » ما جعله يقول « أنا نفسى لا أستطيع أن أنساها أو أمسك عن ذكرها لكل إنسان » . وقال أن سماء فارس الصافية كان لها أثرها على الفن الفارسى فأضفت عليه بهاء ورواء ولونا براقاً . كما كان لها أثرها الطيب على أجسام الفرس وعقولهم [٣٠] (*) واعتقد أن الفرس أفادوا من إختلاطهم بأهل جورجيا والقوقاز الذين أعتبرهم أجمل وأشجع أهل الأرض — ولكنهم لا يضارعون الجياد الفارسية فى رشاقتها وجمالها [٣١] .

ولكن هذه البلاد التى كانت يوماً جنة عدن ، ومقر الخلفاء الذين ازدانوا بالجواهر الثمينة ، والشعراء الذين نظموا اعذب الشعر ، دمرتها غارات المغول وتمزق الحكومة ، واهمال الترع وهى شرايين الحياة ، وامتلاؤها بالطمى ، وتحول طرق التجارة ، فإن اكتشاف طريق مائى فى كل أجزاء من غرب أوربا إلى الهند والصين قد أصاب تجارة فارس بالكساد . على أن بعض التجارة انتقل عبر الأنهار إلى الخليج . وفى ١٥١٥ استولى البرتغاليون على هرمز وهى أهم الثغور على الخليج ، وظلوا فيها لمدة قرن . وفى ١٦٢٢ طردهم منها جيش الشاه عباس بمعونة سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية ،

(*) أنظر شيشرون حيث يقول : « ان هواء أثينا الطيب يقال أنه ساعد على توقد الذكاء عند أهل أتيكا »

وبنى الشاه بالقرب منها مرفأ تجاريا آخر هو بندر عباس (ثغر عباس)، فساعدت التجارة التى نمت فيه على تمويل الفن والبذخ فى عهده. وظلت القوافل تسير من الغرب إلى الشرق عبر فارس، وخلقت شيئا من الثراء فى المدن الواقعة على طريقها، ووصف تـكسييرا حلب بأنها مدينة تضم ٢٦ ألف بيت، كثير منها مبنى من الحجر المصقول، وبعضها يليق لسكنى الأمراء، كما تضم المسلمين والمسيحين واليهود جنبا إلى جنب، كما كان بها حمامات عامة نظيفة جميلة، وعدة شوارع مرصوفة بالبلاط المصنوع من الرخام[٣٢].

ولم تكن الصناعة قد تجاوزت بعد طور الصناعات اليدوية — صناعة العصور الوسطى التى تتسم بالمثابرة على بذل الجهد والتذوق الرفيع مع الأناة والبطء — ولكن كان فى حلب مصنع للحرير، وكان التبغ يزرع فى كل مكان ويقول شاردان أنه كان للفرس طريقة فى ترشيح التبغ، فكان الدخان يمر بالماء، ومن ثم «ينقى التبغ من كل العناصر الزيتية والضارة[٣٣]»، وأصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس، «فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون النرجيلة[٣٤]». وكان الشاه على النقيض من ذلك، فكره عادة التدخين، وحاول أن يشفى منها رجال حاميته بحيلة. فأتى بروث الخيل وجففه، ووضعه بدلا من التبغ فى الأوانى التى يملأون منها الأراجيل، وأوضح لهم أن هذا تبغ غالى الثمن أهداه همذان، فدخنوه، وبالغوا فى إمتداحه. وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عبير ألف من الزهور. فصاح الشاه «بئس هذا العقار، أنه لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل[٣٥]».

وكان أى رجل وهبه الله المقدرة والكياسة يستطيع أن يحتل مكانا فى حاشية الشاه، فلم يكن هناك اعتبار لأرستقراطية المولد، أو الحسب والنسب[٣٦]. فثياب الجنسين من كل الطبقات كانت فى أساسها واحدة. رداء يصل إلى الركبتين، ذو أكمام ضيقة، وحزام عريض (مصنوع أحيانا من الحرير الموشى بالزهور) حول الخصر، وقميص من القطن أو الحرير تحت الرداء، وسروال مضموم عند رسغ القدمين، وعمامة تتوج هذا كله. وكتب تافرنييه:

« كانت ملابس النساء ثمينة ، وفيما عدا هذا لا يفترقن عن الرجال فى شىء كثير ، فارتدين السراويل مثلهم »[٣٧] . وأقمن فى عزلة فى الحريم ، وقلما غادرن البيت ، فإذا فعلن فنادرا ماسرن على الأقدام . وكان ثمة ثلاثة أجناس، فكان الرجال يوجهون كثيرا من شعر الغزل إلى الغلمان . ورأى توماس هربرت ، وهو انجليزى فى بلاط الشاه عباس — « سقاة من الغلمان فى صدرات من الذهب ، وعمامات مزدانه باللمع (الترتر) ، وأخفاف فاخرة ، تتدلى خصلات الشعر على أكتافهم ، عيونهم يقظة تحوم فى كل زاوية ، ووجناتهم متوردة »[٣٨] .

ولحظ شاردان نقصا فى السكان فى زمانه ، ونسبه إلى :

أولا : النزعة النكراء لدى الفرس إلى اتيان الفعلة البغيضة ، ضد الطبيعة مع الجنسين كليهما .

ثانيا : الترف المفرط (الحرية الجنسية) السائد فى البلاد ، فالنساء هناك يبدأن الحمل فى سن مبكرة ، ويستمر الإنجاب لفترة قصيره ، وما ان يجاوزن سن الثلاثين حتى ينظر إليهن على أنهن عجائز تقدمت بهن السنون . ومن ثم يسرع الرجال إلى التردد على نساء فى ميعة الصبا والشباب ، فى إفراط شديد، وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بعدد كبير من النساء ، فانهم لا ينجبون منهم مزيدا من الأطفال قط . وهناك كذلك نساء كثيرات جدا يعمدن إلى الإجهاض ، ويلجأن إلى مختلف أنواع العلاج ضد الحمل ، لأنهن إذا بلغن الشهر الثالث أو الرابع من الحمل ،ينصرف عنهن أزواجهن إلى نساء أخريات حيث يرون أنه ينافى اللياقة أن يقربوا امرأة تقدمت بها أيام الحمل إلى هذا الحد .

وكان هناك ، على الرغم من تعدد الزوجات ، عاهرات أو بغايا كثيرة وانتشر شرب الخمر انتشارا واسعا ، رغم تحريم الاسلام للخمر . وكثرت المقاهى واشتق اللفظ الأوربى من نظيره العربى « قهوة » . وكانت النظافة

أكثر شيوعا فى المظهر منها فى الحديث . وكانت الحامات — منتشرة ، وكانت أحيانا مزخرفة بشكل جميل . ولكن كثر هناك الابتذال والفحش . وقال عنهم تافرنييه « انهم مخادعون مراءون كبار » . ويقول شاردن أنهم اعتادوا كثيرا على الغش ، ولكنه يضيف أنهم ألطف الناس فى الدنيا » ، متسامحون كرام ، أساليبهم جذابة غاية الجاذبية ، وطباعهم لينة غاية اللين ، وحديثهم ناعم غاية النعومة ... وهم فى مجموعهم أكثر الشعوب تمدنا فى الشرق وكانوا مولعين بالموسيقى وكان شعراؤهم ، فى العادة يغنـــون — القصائد التى ينظمونها .

ويمكن أن نحكم على تفوق الشعراء الفارسيين من مبلغ شعبيتهم وحظوتهم فى بلاط المغول فى دلهى ، ولكن لم يتهيأ لأحد منهم فى تلك الحقبة مترجم مثل فتزجرالد لينقل إلى أسماع الغرب قصيدهم . وانا لنعلم أن (عرفى الشيرازى) كان على رأس الشعراء فى القرن السادس عشر . وكان يرى أنه أعلى مكانة من (سعدى) على الأقل ، ولكن من منا ، نحن المحليين فى تفكيرنا واهتماماتنا سمع عنه ؟ . وكان شعره أحب إلى الناس من شخصه ، كما نستخلص من (الأصدقاء) الذين جاءوا ليستمتعوا بعلته القتالة .

لقد انحطت قواى إلى هذا الحد ، ووقف أصدقائى الفصحاء كالمنابر حول فراشى ووسادتى . واحد منهم يداعب لحيته بيده ، وينصب رقبته ويقول . (وا أبتاه) . لمن دامت الدنيا ؟ (سبحان من له الدوام) .

جدير بالإنسان ألا يتعلق قلبه بالمراتب الزائفة والثروة الزائلة . أين امبراطورية جامشيد وأين الأسكندر ؟ .

ثم يأتى آخر ، ويمسح بأكمامه عينيه المبللتين بالدموع ، ويقول فى صوت رقيق ولفظ حزين : « أيتها الحياة كلنا يسير على هذا الطريق لنرحل عن هذه الدنيا . كلنا مسافرون نعبر عليه ، ويمضى بنا الزمن » .

وآخر ينمق كلامه بألفاظ أرق فيقول : استجمع قواك ، وهون عليك فانى ، لهدف واحد ، سوف أجمع أشعارك ونثرك وبعد نسخها وتصحيحها ، أقدمها عقوداً من الدر تعز من شأنك وترفع من قدرك .. فلعل الله يمن على بالشفاء فأسترد عافيتى . ولسوف ترى كيف أصب جام غضبى على رؤوس هؤلاء المنافقين التعساء .

وكان منافس « عرفى » فى الشعر هو « صائب الأصفهانى » الذى أخذ بسنة الهجرة إلى دلهى ، كما هاجر الفنانون الفرنسيون والفلمنكيون فى ذلك العصر إلى رومه . ولكنه عاد بعد عامين إلى أصفهان ، وأصبح شاعر البلاط لدى الشاه عباس الثانى (١٦٤٢ — ١٦٦٦) ، وكان ينحو قليلا نحو الفلسفة ، فنظم أبياتا تفيض بالحكمة :

أن الحديث عن الكفر والإيمان كليهما يؤدى فى النهاية إلى نفس المكان والحلم هو الحلم ، ولكن المفسرين هم الذين يختلفون .. وإن العلاج الوحيد لهذه الدنيا التى لاتستقيم أمورها ، هو إغفالها وتجاهلها ، فإن اليقظ فيها هو الذى يستغرق فى سبات عميق .

وأن الموج ليجهل الطبيعه الحقة للبحر . وكيف يدرك الفانى العابر حقيقه الخالد الباقى ، أن أشد مايقض مضجعى حول يوم البعث هو إنه لزام علينا أن نرى ثانية وجوه البشر .

وإذا فاتنا أن ننعم بموسيقى الشعر الفارسى ، فى مقدورنا أن نستمتع بفن فارس ففى الفن . حديث يمكن استيعابه وفهمه ، فان البراعة والأناقة والذوق ، أى كل ماتشكل فى فارس على مدى ألفى سنة . أينع وأتى أكله الآن فى العمارة والخزف والتذهيب والخط وحفر الخشب وأشغال المعادن والنسيج والأقمشة المزركشة والسجاد .وكل أولئك روائع تزدان بها متاحف العالم اليوم . وقد علمنا من قبل أن أحسن عمارة هذا العصر شيدت فى عهد الشاه عباس الأول فى أصفهان . وهناك بنى عباس الثانى (مسجد الأشرف

(١٦٤٢) ، وهناك فى غروب شمس الصفويين شاد الشاه حسين (مدرسة أم الشاه) التى قال عنها لورد كيرزون أنها من أفخم أطلال فارس ، وثمة مدن أخرى كانت تفاخر بمنشآت جديدة : مثل مدرسة الخان فى شيراز ، والضريح الضخم لخوجة ربيع فى مشهد ، والمقبرة المخربة الآن ، ولو أنها لاتزال جميلة ، وهى مقبرة (قدم جاه) فى نيسابور ، والجامع الأزرق فى اريفان .

وأسس الشاة عباس فى أصفهان أكاديمية للرسم ، كان مطلوبا من الطلبة فيها — كجزء من برنامجهم ، وأن ينسخوا أشهر المنمنمات حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص . والآن ، وواضح أنه نتيجة لأثر أوربا ، استباح الرسامون العلمانيون التحول عن التقليد الإسلامى ، برسم منمنمات يبرز فيها إنسان على أنه الفكرة الرئيسية والتسلسل هنا قلب الطراز الإيطالى رأسا على عقب . ففى الرسم فى عهد النهضة أهملت المناظر الطبيعية أول الأمر ، ثم أصبحت خلفية ثانوية ، (وربما باضمحلال النزعة الفردية فى ظل الإصلاح المضاد) طغت على الأشخاص . ولكن فى التصوير الإسلامى كانت رسوم الأشخاص مستبعدة أول الأمر ، ثم أبيحت على أنها شىء ثانوى عارض ، وفى المراحل المتأخرة فقط (ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة) طغت رسوم الأشخاص وبرزت فى الرسم . ومثل هذا فى « مدرب الباز »[٤٦] : رجل عظيم يرتدى ثوبا أخضر يعبث بطائر على معصمه مع خلفية أقل بروزا من زهور ذهبية اللون . وفى « شاعر يجلس فى الحديقة[٤٧] تكشف كل التفاصيل عن الرشاقة الفارسية المتميزة ، وثمة ابتداع آخر فى الرسوم الحائطية ، التى رأينا مثالا لها فى « شهيل سوتون » . ولكن الأساتذة العظام تخصصوا فى زخرفة القرآن الكريم ، أو تذهيب الآثار الأدبية القديمة مثل الشاهنامة للفردوسى ، أو جولستان لسعدى ، التى ذهبها « مولانا حسن » البغدادى بماء الذهب .

وتفوق فى الرسم فى هذه الفترة الصفوية الثانية ، رضا العباسى . الذى أضاف

إسم الشاه إلى إسمه تقديرا واعترافا بالرعاية الملكية . وفاقت شهرته شهرة بهزاد لمدة جيل . وتدهور بعده الفن ، فإن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته ، انتهيا إلى إفراط مخنث . وفى نفس الوقت فإن الطراز الفارسى الذى تأثر بالفن الصينى ، أثر بدوره فى رسم المنمنات فى بلاط المغول ، بل حتى فى عمارتهم . وذهب حروسيه إلى أن «تاج محل» لم يكن إلا فصلا جديدا فى فن أصفهان(٤٨).

وظل الخط فنا رئيسيا فى فارس . وكاد مير عماد لنسخه الدقيق للمخطوطات القديمة ، أن يظفر بمثل الحب الذى حظى به لدى الشاه عباس رضا العباسى من أجل منمنماته . وكانت الكتب موضع إعزاز وحب لشكلها قدر ما هى لمحتوياتها . فالتجليد الرائع يبهج العينين واليدين كما تفعل الزهرية الرقيقة ووقع الفنانون تجليدات الكتب بمثل الفخر الذى وقعوا به الصور ، فنقش على جلدة كتاب مذهبة من أوائل القرن السابع عشر ، «من صنع محمد صالح التبريزى »(٤٩) . وثمة غلاف آخر مصنوع من الورق المعجن ، وعليه رسوم « بورنيش اللك » ، موقع عليه باسم على رضا . ومؤرخة فى ١٧١٣(٥٠) وكلاهما جميل إلى حد مغر .

إن التربيعات المحلاة بالرسوم فى المدن الفارسية لتبهر الأنظار ، بعد القباب أو عليها ، إن طول عمرها ليثير الدهشة من فن صناعة الخزف ، الذى يهيء طول البقاء لمثل هذا البريق . وإطالة عمر اللون بتزجيجه بالنار كانت من المهارات القديمة فى فارس . لقد كانت التربيعات المزججة فى سوسة عاصمة دارا الأول ملك الفرس (٤٠٠ ق . م .) فريدة من نوعها بالفعل . وكانت سبائك الذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن تصهر لتخرج ألوانا أكثر لمعانا ، وخاصة الأحمر الياقوتى والأزرق الفيروزى ، وكانت مضاعفة الأحراق تزيد من صلابة الصلصال والتزجيج ليقاوم فعل الزمن . ويحتمل أن يكون الأرمن قد استخدموا الخزافين الفرس لصنع التربيعات فى كنيستهم المسيحية فى جولفا وهى تبلغ فى دقتها دقة المنمنمات . وربما كان أجمل منها ، التربيعات المحلاة

بالرسوم فى مجموعة كوركيان ، المنسوبة إلى أصفهان فى النصف الثانى من القرن السابع عشر [٥١] .

واستمر الخزافون فى أصفهان وكاشان وغيرهما ، يبدعون أشكالا من الخزف — القنانى والزبديات والأباريق والأطباق والفناجين ، مطلية تحت التزجيج بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة . وأصبح الخزف المزخرف الفسيفسائى مادة أثيرة لتغطية الجدران فى المساجد والقصور . واستورد الشاه عباس الخزف الصينى ، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل ، ولكن أعوزتهم الطينة والمهارة . ومرة أخرى بفضل استحثاث الحاكم وتشجيعه بذلت المحاولات فى أصفهان وشيراز لمنافسة زجاج البندقية . وتفوق صناع الأشغال المعدنية فى نقش النحاس وتطعيمه ، وثمة نموذج جميل منها يرجع إلى ١٥٧٩ شمعدان موجود فى متحف متروبوليتان للفن ، وفى الارميتاج فى لننجراد غمد سيف من الذهب مرصع بقطع كبيرة من الزمرد دقيقة الصنع .

وكانت صناعة النسيج صناعة رئيسية وفنا . وشغل الرسامون والنساجون والصباغون حيزا كبيرا فى اصفهان . وكانوا يعدون بالآلاف . وكان إنتاجهم هو السلعة الرئيسية فى تجارة الصادرات . كما أنه أكسب فارس شهرة عالمية فى أقمشة الأطلس والمخمل والتفته والمطرزات والحرائر . وكان الشاه عباس كلما أراد أن يقدم هدية خاصة ثمينة ، اختار بعض التحف من إنتاج الأنوال الفارسية . ويقول شاردان « أن الثياب التى أهداها بهذه الطريقة لا حصر لها » [٥٢] والثياب التى كان يرتديها الشاة ورجال حاشيته من الحرير و الأقمشة المقصبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد ذهب معه شاردان إلى أنها لا مثيل لها فى ملابس أى بلاط فى أوربا . وكتب يقول « إن فن الصباغة أدخل عليه فى فارس تحسين أكثر منه فى أوربا ، فكانت الألوان أكثر ثباتا ولمعانا ، ولا تحول بسرعة » [٥٣] . ولم يكن لمخمل كاشان نظير فى أى مكان آخر . ولا تزال بعض قطع منه من أروع المعروضات فى متاحف بوسطن ونيويورك

ومدان فرانسسكو وواشنجطن . ومن بين التحف التى استولت عليها القوات المسيحية بعد ارتداد الأتراك عن فيينا بساط من المخمل الحريرى المقصب ، من الواضح أنه صنع فى اصفهان فى عهد الشاه عباس(٥٤) .

وبلغ النسيج الفارسى ذروته فى التصميم وصنع الجلد ، وشهد عصر الشاة عباس غاية مجد هذا الفن فى فارس . وكاد السجاد أن يكون ضروريا للفارسى قدر حاجته إلى الملابس ، وقال توماس هربرت فى القرن السابع عشر : « كان فى بيوت الفرس قليل من الأثاث والأدوات المنزلية ، اللهم إلا السجاجيد وبعض أشغال النحاس . . . وكانوا يتناولون الطعام وهم متربعون على السجاد على الأرض ، مثل حائكى الملابس . وليس ثمة إنسان مهما قل شأنه إلا جلس على سجادة ثمينة أو غير ثمينة . وكل الدار أو الحجرة . . . مغطاة بالسجاد(٥٥) وساد آنذاك اللون القرمزى القاتم أو الأحمر الخمرى الداكن ، ولكن التصميم أو الرسم كان هادئا مريحا للنظر ، بغية أحداث التوازن بين هذه الوفرة التى تزخر بها السجادة ، أو أنها صممت لإبراز موضوع رئيسى بمنطق مقبول . وقد يكون هذا التصميم هندسيا ، وهنا تكون متنوعات لا حصر لها ، تضفى على أقليدس جمالا وبهاء . وكثيرا ما قام التصميم على الأزهار ، وهنا تستمتع العين بتشكيلة غنية من الأزهار ، ولكنها منسقة تنسيقا جميلا ، تمثل النتاج المحبب إلى الناس فى حدائقهم : أزهار مصفوفة فى أصص ، أو منثورة هنا وهناك ، أو أزهار يصورها الخيال ولا تراها العين ، مع زخارف عربية تنساب هنا وهناك فى رشاقة وروية . وفى بعض الأحيان كانت الحديقة نفسها تزود بالتصميم : الأشجار والشجيرات والمزاهر ، والمياه الجارية ، رتبت كلها فى شكل هندسى ، وقد يتركز التصميم حول رسم كبير نافر تتدلى منه نتوءات فى كل الأطراف ، وقد يعرض الزخارف الحيوانية أو مناظر الصيد .

ويأتى بعد ذلك الجهد المضنى والصبر الطويل : مد الخيوط طولا فى اللحمة على النول ونسجها مع خيوط السداة العرضية ، وحيا كة عقد صغيرة من

الصوف أو الحرير الملون فى اللحمة ، لتلوين « الوبر » والرسم ، وقد يكون فى البوصة المربعة ١٢٠٠ عقدة ، أو ٩٠ مليوناً من العقد فى سجادة مساحتها ٢٣ قدما مربعا[٥٦] . ويبدو أن العبودية قد نسجت هذا الفن أو ارتبطت به ، ولكن العامل كان يتيه عجباً بدقة وجمال ما أخرجت يداه ، محولا هذه التشكيلة العجيبة من المواد إلى كل منتظم متناسق متسلسل الأجزاء . وكان هذا السجاد يصنع فى أثنى عشر مركزاً فى فارس وأفغانستان والقوقاز ليضفى رواء وبهاء على القصور والمساجد والبيوت ، أو ليقدم هدايا ثمينة إلى الملوك والأصدقاء .

ومر السجاد الفارسى والتذهيب الفارسى بتطورات مشابهة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتأثرا « بأشرطة السحاب » وغيرها من الرسوم من الصين . وكان لهما بدورهما أثر على الفنون فى تركيا والهند . وبلغا ذروة التفوق والامتياز على عهد الصفويين وما أن جاء عام ١٧٩٠ حتى أنتج السجاد الفارسى على أساس الكم ، فتسرعوا فى تصميمه ونسجه لسوق أوسع وأقل إلحاحا على البراعة والإتقان ، وبخاصة السوق الأوربية . ومهما يكن من أمر ، فإنه حتى فى هذه الحقبة ، كانت هناك قطع نادرة فريدة ، لا نظير لها من حيث النسيج واللون والرسم فى أى مكان آخر فى العالم .

وهكذا كانت فارس ، وهكذا كان الإسلام فى آخر ازدهار لسلطانهما وفنهما — حضارة تختلف اختلافا عميقا عن حضارتنا فى الغرب ، وفى بعض الأحيان معادية عداء مقرونا بالازدراء ، تدمغنا بأننا مشركون ماديون ، وتسخر منا أخذنا بنظام الزوجة الواحدة وهو أشبه ما يكون بنظام الأمومة ، وأحيانا انقضت علينا تقتحم أبوابنا كالسيل الجارف ، وما كان ينتظر منا أن نتفهمها أو نعجب بفنها حين كان الجدل شديداً بين المسلم والمسيحى ، ولم يكن قد ثار بعد بين دارون والمسيح ، ولم تنته المنافسة بين الثقافتين بعد ، ولكنها فى الكثير الغالب توقفت عن سفك الدماء ، ولكل منهما مطلق

الحرية فى الامتزاج بالأخرى عن طريق التأثير المتبادل ، فالشرق يأخذ عنا صناعاتنا وأسلحتنا ، ويصبح غربيا . ولقى الغرب نصبا من الثراء والحرب ، وبات يلتمس شيئا من هدوء البال وطمأنينة النفس . وربما ساعدنا نحن الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة ، وأعاننا الشرق على التواضع فى الفلسفة والتهذيب فى الفنون . فالشرق غرب ، والغرب شرق ، ولا بد عاجلا أن يلتقى الإثنان .

الفصل الحادي والعشرون

« هرمجدون »

أو

الحرب الإمبراطورية الفاصلة

١٥٦٤ — ١٦٤٨

١ — الأباطرة

فى عام ١٥٦٤ كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة — برغم أنها ، كما قال فولتير ، لم تكن ، لا إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة — ، خليطا رائعا من دول نصف مستقلة : ألمانيا ، ولكسمبورج ، وفرانس — كونتيه ، واللورين ، وسويسرا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وجزء من المجر . وكانت هذه كلها تدين بالولاء والسلطان للإمبراطور مكسمليان الثانى سليل بيت هبسبرج العريق ، الذى حكم الإمبراطورية منذ ١٤٣٨ وسيواصل حكمها حتى ١٨٠٨ . وبعد أن اعتزل شارل الخامس الملك (١٥٥٥ — ١٥٥٦) اقتسمت الأسرة نصف أوربا بين فرعيها ، فحكم الهبسبورج النمسويون الإمبراطورية ، أما الهبسبرج الأسبان فحكموا أسبانيا وولاياتها . وندر فى التاريخ أن تسلطت أسرة واحدة حقبة هذا طولها على أناس هذا عددهم .

وكان حكم آل هبسبرج أكثر تحررا فى الامبراطورية فى أسبانيا ، لأن الدول التى تألفت منها الامبراطورية كانت تختلف أشد الاختلاف سواء فى الحكومة ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الصفات العرقية ، بحيث عجزت حتى

سلطة آل هبسبرج وهيبتها عن منع هـذه القوى المندفعة بعيدا عن المركز من أن تحيل الامبراطورية إلى رابطة واهية عن وحدات تحكم ذاتها فى عزة وكبرياء أما الديت الامبراطورى ، الذى لم يكن يلتئم شمله الا بين الحين والحين ، فقد وجد أن الحد من سلطان الامبراطور أيسر من تشريع قوانين تقبلها كل دولة ، وأما الناخبون الامبراطوريون السبعة الذين كانوا يختارون الامبراطور ، فقد سيطروا عليه بالعهود والمواثيق التى انتزعوها منه ثمنا لانتخابه . وهؤلاء الناخبون هم ملك بوهيميا ، وحكام سكسونيا ، وبراندنبورج ، والبالاتينات ، و « الناخبون الروحيون » ـ أى رؤساء أساقفة كولونيا ، وترير ، ومانيز . ولم يحكم الامبراطور حكما مباشرا سوى النمسا ، واستريا ، وكارنثيا ، وكاربولا ، والتيرول ، وأحيانا بوهيميا ، ومورافيا ، وسيليزيا ، وغرب المجر . وكانت موارده المستقلة ثابتة من هـذه الأقطار ، فاذا أراد مزيداً من الموارد فعليه أن يتخذ سمته وقبعته فى يده ، إلى الديت الامبراطورى الذى بيده مفاتيح المال .

حين مات فرد يناند الأول (أخو شارل الخامس) فى ١٥٦٤ ، نقل الناخبون التاج الامبراطورى لولده مكسمليان الثانى ، الذى ظفر من قبل بتاجى بوهيميا والمجر . وكان محببا للناس إلى حد لا يناسب امبراطورا . فقط اصطفى الجميع فى دفء طبعة الطيب وروحه المرحة ، ولطفه وأدبه مع كل الطبقات ، وعقله وفؤاده المفتوحين ، فاذا أضفت إلى ذلك كله ذكاءه وتسامحه وتشجيعه للعلم والموسيقى ، والفن ، اجتمعت لك صورة سيد مهذب « جنتلمان » لم يصدق الناس أنه توج . وكان قد عرض تبوأه العرش للخطر حين آثر الوعاظ اللوثريين على نظرائهم الكاثوليك ، وأصر على تناول الأسرار المقدسة بالخمر وبالخبز ، ولم يمتثل للطقس الكاثوليك ، امتثالا ظاهريا الا حين اكره على الخيار بين الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الرومانيه أو اعتزال الحياة العامة على أنه حمى البروتستنت خلال ذلك من الاضطهاد . وقد ندد بمذبحة القديس برثلميو وقال انها قتل بالجملة (١) ، وسمح لوليم أورنج بتجنيد جيش فى المانيا

لقتال دوق ألفا فى الاراضى المنخفضة . وفى هذا العصر الذى ساده التعصب والحرب ، ضرب لدول الامبراطورية وعقائدها مثالا رائعا فى تسامح برىء من اللامبالاه ، وسلام لم يشبه الجبن . وحين حضرته المنية (١٥٧٦) أبى أن يتقبل آخر الشعائر من كنيسة رومه ، ولكن الامبراطورية بأسرها أجتمعت على الترحم عليه .

وكان قد أقنع الناخبين بقبول ولده رودلف خلفا له ، برغم مارآه فيه — بلاريب — من طباع أو آثار تعليم خطرة على الوفاق الدينى . فلقد كان رودلف الثانى بطبعه شكاكا مكتئبا . وكان من الجائز أن يصبح الوريث لفيليب الثانى لذلك بعث به إلى أسبانيا ليتلقى جزءا من تعليمه المدرسى ، فقضى اليسوعيون هناك على كل ميل فيه للتسامح . وما لبث عقب ارتقاء العرش أن فرض القيود الصارمه على حرية العبادة البروتستنتية وعمل على الحد من انتشارها زاعما — وله بعض الحق [٢] — أن عنف الجدل الدينى ، وتعصب الشيع البروتستنتية فيما بينها ، يقوضان سلام الامبراطورية واستقرارها . على أنه لم يكن خلوا من الفضائل التى حببت الناس فى أبيه فقد عاش فى بساطة وتواضع دون تكلف لأبهة الامبراطورية . وحين انتقد أحد أخوته رفعه الكلفة مع الفقراء والوضعاء أجاب : « ينبغى ألا ينسينا سمونا فوق الناس بمكانتنا وعراقة محتدنا أننا مرتبطون مع سائر البشر بنقائصنا وعيوبنا [٣] » .

والحق أنه آثر أن يكون عالما على أن يكون امبراطورا . تعلم ست لغات ، ومارس كل علم وفن تقريبا ، واقتنى مجموعات ثمينة من الصور والتماثيل وأنواع النبات وعينات الحيوان . وأعان الشعراء والمؤرخين ، وأنشأ الكثير من المدارس . وحذق الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وكذلك الكيمياء القديمة والتنجيم ، وأمد بالمال البحوث الفلكية التى اضطلع بها تيكوبراهى وكبلر اللذان أهدياه جداولهما الرودلفية للنجوم . وإذ أيستغرقه العلم وهو فى قصرة ببراغ — التى اختارها عاصمة له — فانه لم يجد

وقتا للزواج ، ولم يتسع له الوقت الكثير للحكم . فلم يحضر أى اجتماع للديت بعد ١٥٩٤ ، ورفض أن يوقع أوراقا رسمية بعد ١٥٩٨ وفوض بالسلطة نوابا ذوى حظوة لديه ، ولكن تعوزهم الكفاية . ولما تقدم به العمر انحدر عقله لا إلى درك الجنون ، بل إلى حال من العزلة يشوبها الاكتئاب وطول التفكير ويلازمها خوف الاغتيال . فانه رأى فيما يرى النائم — أو لعل تيكو براهى قد طالع فى النجوم[٤] — أن قاتله سيكون راهبا فانتهى به الأمر إلى الارتياب فى رجال الدين الكاثوليك ولا سيما اليسوعيين[٥] ، ثم أكرهته الضغوط الداخلية والخارجية على التخلى لأخيه الأصغر ماتياس فى ١٦٠٨ عن حكم النمسا والمجر ومورافيا ، وفى ١٦١١ عن عرش بوهيميا وكل ما بقى له من سلطات . ومات فى ١٦١٢ .

أما ماتياس فكان قد بلغ الخامسة والخمسين، بعدأن أقعدته الحملات الحربية عن الاستمتاع بالحكم النشيط . لذلك عهـــد بالحكم والسياسة جميعا إلى ملشيور كليزل أسقف فيينا القدير الحى الضمير . ولكن كليزل أغضب الكاثوليك بما قدم للبروتستنت من تنازلات ، وأغضب البروتستنت لأن هذه التنازلات كانت دون ما يبتغون . وأعتقل فرديناند ، أرشيدوق استيريا، وابن عم ماتياس ، الأسقف كليزل (١٦١٨) ، وظفر بإنتخابه إمبراطورا عقب موت ماتياس (١٦١٩) . وهنا كانت هرجدون قد أندلع لهيبها .

٢ — الإمبراطورية

لم تكن سويسره جزءاً من الإمبراطورية إلا صوريا ،وتركت الانتصارات المؤزرة التى أحرزتها البلاد على الأباطرة وكبار الأدواق،الولايات السويسرية (الكانتونات) حرة فى التناحر فيما بينها.فانضمت سافوى وأسبانيا إلى الولايات الكاثوليكية التى تزعمتها لوسرن ، فى جهود دبلوماسية أو حربية لأرجاع الولايات البروتستنتية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . وبدأ اليسوعيون

من كليتهم يلوسرن فى ١٥٧٧ حملة من التعليم والوعظ والدس . وأصلح ممثلوا البابا فى سويسرة الفساد فى رجال الدين الكاثوليك ، وقضوا على التسرى بين الكهنة ، وصدوا التأثيرات البروتستنتية المنبعثة من زيوريخ وجنيف وبرن .

وكانت جنيف تفيق ببطء من سلطان كلفن . فقد خلف تيودور دى بيز أستاذه (١٦٦٤) زعيما لجماعة « الرعاة » الموقرة والمجمع الكنسى « للرعاة والعلمانيين » ، وعن طريقهم وأصل عمل الكنيسة المنصلحة فى لباقة وكياسة لم يقو على إحباطهما سوى « الكراهية اللاهوتية » وسافر فى أرجاء فرنسا ليحضر المجامع الكلفنية ، وقد شهدناه يدافع عن قضية البروتستنتية فى مؤتمر بواسى . وكافح فى وطنه ، وإن لم يوفق كل التوفيق فى كفاحه ، ليحافظ على الفضيلة الصارمة التى فرضها كلفن على الناس . فلما إنحرف كبار رجال الأعمال أكثر فأكثر عن هذه الجادة ، قاد بيز رجال الدين فى حملة للتنديد بالربا ، والاحتكار ، والإستغلال ، وحين اقترح مجلس المدينة أن يقتصر الوعاظ فى وعظهم على مسائل الدين ، أجاب بيز بأنه يجب ألا يقصى أى شأن من شئون البشر عن دائرة الدين[٦] . وهو من بين كبار زعماء الاصلاح البروتستنتى الوحيد الذى أدرك القرن السابع عشر ، وقد مات فى ١٦٠٨ بالغا التاسعة والثمانين .

أما دور النمسا فى الإمبراطورية فكان مركزيا . ذلك أنها كانت عادة وطن الأباطرة ، وكانت حصن الحضارة الغربية الحصين فى وجه الأتراك الطامعين ، للاصلاح الكاثوليكى . ومقر القوة الكاثوليكية فى حرب الثلاثين . ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تتذبذب فيه بين الكاثوليكية والبروتستنية بل بين المسيحية والكفر . ففى عهد فرديناند الأول (١٥٥٦ — ١٥٦٤) قررت معظم الأبرشيات النمسوية كتاب التعليم المسيحى اللوثرى . وكانت اللوثرية المذهب السائد فى جامعة فيينا ، وأباح الديت النمسوى تناول القربان بالخمر وبالخبز ، وزواج رجال الدين . وكان الناس يعدونها علامة من علامات

العقل المستنير أن يحتقر صاحبه عادة الدفن المسيحى . وأن يدفن الميت دون مساعدة من قسيس .... وبغير صليب . » وفى تقدير أحد الوعاظ فى ١٥٦٧ « أن الألوف وعشرات الألوف فى المدن — أجل . بل فى القرى — لم يعودوا يؤمنون بالله(٧) . » فلما خشى الإمبراطور فرديناند أنهيار الدعم الدينى للحكومة النمسوية وسلطة آل هبسبرج . دعا بطرس كانيسيوس وغيره من اليسوعيين إلى جامعة فيينا . وبدأت الكاثوليكية تستعيد مكانتها بفضل زعامتهم، لأن هؤلاء الرجال المتمرسين جمعوا بين العقل المرهف الصابر، وبساطة العيش التى وقعت أفضل موقع فى النفوس . فما وافى عام ١٥٩٨ حتى غدت كنيسة رومه سيدة الموقف .

ومثل هذا التغيير طرأ على المجر المسيحية . فقد دان ثلثا المجر للحكم التركى منذ ١٥٢٦ ، وكانت الحدود التركية تبعد عن فيينا بأقل من مائة ميل ، ولم يقو الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلاطين حتى عام ١٦٠٦ .. وكانت ترانسلفانيا الواقعة إلى الشمال الشرقى من المجر التركية تؤدى مثل هذه الجزيه ، ولكن حدث فى عام ١٦٠٦ أن أوصى أميرها ستيفن بوكسكاى بالإقليم لآل هبسبرج قبيل موته دون عقب .

أما ديت المجر النمسوية فكان منذ ١٥٢٦ يؤيد حركة الإصلاح البروتستنتى، فقد هيمن عليه النبلاء الطامعون فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية(٨) . وفى ظل الحرية الدينية التى صانوها ظفرت البروتستنتية بمكان السيادة بين الطبقات المتعلمة . ولكن سرعان ما أنقسمت شيعا لوثرية ، وكالفنية ، وتوحيدية ، وتفرق التوحيديون مللا أصغر لاختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح . ولم ير النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر فى ممتلكاتهم مبررا بعد ذلك للبروتستنتية . لذلك رحبوا ببطرس بازمانى وغيره من اليسوعيين، وقبلوا التحول «المثالى» إلى الكاثوليكية، وطردوا «الرعاة» البروتستنت(٩) . واستبدلوا بهم القساوسة الكاثوليك . وفى عام ١٦١٨ أصبح فرديناند أرشيدوق

استيريا ملكا على المجر ، فعزز حركة الإصلاح الكاثوليكى تعزيزا نشيطا .
وفى ديت ١٦٢٥ إستعاد الكاثيك أغلبيتهم . وأصبح بازمانى كردينالا وكاتبا
من أبلغ مؤلفى العصر المجريين ، مع أنه ابن رجل كافنى المذهب .

وأما بوهيميا والاقاليم التابعة لها — وهى مورافيا وسيليزيا ولوزاتيا —
فكانت تغلب عليها البروتستنتية عام ١٥٦٠ . واعترفت الولايات الأربع
بملك بوهيميا سيدا عليها ، غير أنه كان لكل ولاية مجلسها القومى وقوانينها
وعاصمتها — براغ ، وبرون (برنو) ، وبرسلاو ، وبوتزن ، وكانت براغ فى
ذلك الحين من أجمل مدن أوربا وأكثرها أزدهارا . ولم يكن مسموحا
بالتصويت فى الديت البوهيمى الا لملاك الأرض البالغ عددهم ألفا وأربعمائة
ولكن كان من بين أعضائه ممثلون لسكان المدن والفلاحين ، أتاح لهم سلطان
المال نفوذا جاوز مجرد الكلام . وكان معظم النبلاء لوثريين ، ومعظم مواطنى
المدن لوثريين أو كلفنيين ، ومعظم الفلاحين كاثوليكا . ولكن قلة منهم كانت
« أوتراكية » تخلوا فى عام ١٥٨٧ عن تقاليدهم الهسية (مذهب المصلح الدينى
البوهيمى ، والشهيد جون هس ١٣٦٩ - ١٤١٥) ، ولم يتمسكوا الا بتناول
القربان بالخبز وبالخمر ، وأخيراً تصالحوا مع كنيسة روما (١٥٩٣) . أما
أكثر الطوائف الدينية اخلاصا فكانوا « الأنيتاس فراتروم » — وهم الاخوان
البوهيميون أو المورافيون — الذين أخذوا موعظة المسيح على الجبل مأخذ
الجد ، وعزفوا عن كل الحرف والمهن الا الزراعة ، وعاشوا فى بساطة
كبساطة تولستوى المسالمة .

وفى عام ١٥٥٥ جلب فرديناند الأول اليسوعيين إلى بوهيميا . فأنشأوا
كلية فى براغ وربوا « كادرا » من الكاثوليك الغيورين ، واكتسبوا الكثيرين
من النبلاء الذين تزوجوا بنساء كاثوليكيات . ثم أصدر رودلف الثانى
مراسيم . نفى فيها الاخوان البوهيميين أولا ، ثم الكلفنيين ، غير أن الوسائل
أعوزته لتنفيذ هذه المراسيم . وفى عام ١٦٠٩ أقنعة البروتستنت بأن يوقع

الميثاق الملكى « الشهير » الذى كفل حرية العبادة للبروتستنت فى بوهيميا . وبعد عامين نزل رودلف عن العرش لماتياس ، ونقل هذا قضية الامبراطورية إلى فيينا ، وترك براغ مغيظة ثائرة . وفى عام ١٦١٧ اعترف الديت البوهيمى بالارشيدوق فردیناند الاستيرى ملكا على بوهيميا ، وكان عدد الكاثوليك يتكاثر فى هذا الديت برغم أن البلاد مازال أغلب أهلها من البروتستنت[11] وكان فرديناند هذا قد تعلم على يد اليسوعيين وأقسم ان يستأصل شأفة البروتستنتية أن حكم . واتخذ بروتستنت بوهيميا أهبتهم للحرب .

أما المانيا فكانت أخلاطا من الأمم داخل كيان معقد ، كانت إسما لا شعبا ومزيجا من امارات تتفق فى لغتها واقتصادها ، وتتباين أشد التباين فى عاداتها ، وحكمها ، وعملاتها وعقائدها (*) . ولم تعترف أى من هذه الوحدات بسيد عليها الا الامبراطور فقط ثم هى تتجاهله خمسين أسبوعا فى السنة . وقد وجد بعض الأجانب عزاءا فى انقسام المانيا على هذا النحو فكتب سير توماس أوفريرى فى ١٦٠٩ يقول .لو أنها كانت كلها خاضعة لنظام ملك واحد لكان ذلك

(*) كانت ألمانيا في القرن السادس عشر مقسمة إلى سبع دوائر ادارية :

١ — فرانكونيا : وتشمل ورزبرج ، بمبرج ، بايريت .

٢ — بافاريا : وتشمل ميونخ ، ورجنزبرج (راتسبون) وسالسبرج .

٣ — سوابيا : وتشمل بادن ، ستتجارت أو جزبرج ودوقية ورتمبرج .

٤ — الراين الأعلى: ويشمل فرانكفورت (آم مين) وكاسل ودرمستاد ويزبادن ومقاطعة ناسو واقليم هس ودوقية اللورين وجزء من لاراس .

٥ — الراين الادنى: ويشمل وستفاليا جوليش وكليف والبلاتينات وأسقفيات كولون وتربير وماينز .

٦ — سكسونيا السفلى: ويشمل مكلنبرج وبريمن ومجد برج ودوقيات برنزويك ولونبرج وهولشتين .

٧ — سكسونيا العليا : وتشمل ليبزج وبرلين ودوقية بوميرانيا الغربية ومقاطعتى سكسونيا وبراندنبرج .

أمرا رهيبا بالنسبة لباقى أوربا (١٢) لا بل أن هذا الوضع أرتاحت الية المانيا من وجوه كثيرة . صحيح أنه أضعفها فى المنافسة السياسية والحربية مع الدول الموحدة , ولكنه أعطاها حرية محلية ، وتنوعا دينيا وثقافيا قد يفضله الالمان بحق على أرستقراطيات متمركزة مضنية كارستقراطيات فيليب الثانى فى أسبانيا ولويس الرابع عشر فى فرنسا . فلم تكن هنا باريس تطغى وتعج بسكانها وتمتص دم الحياة من قطر بأكمله بل كوكبة من مدن مشهورة لكل منها طابعها وحيويتها .

على أن المانيا لم تعد تحظى بذلك التفوق الاقتصادى الذى كان لها فى شمال أوربا قبل لوثر ، برغم هذه التشكيلة من المدن العظيمة والبلاطات الصغيرة . ذلك أن كشف طريق بحرى خالص من غرب أوربا إلى الهـــند ، وفتح الاطلنطى للتجارة ، أفادا البرتغال وأسبانيا أولا ، ثم إنجلترا والأراضى الوطيئة بعدهما ، وقد أضر بإيطاليا التى هيمنت من قبل على تجـارة الشرق ، وشاركت فى اضمحلال إيطاليا تلك الأنهار والمدن الألمانية التى كانت تنقل التجارة من إيطاليا إلى الشمال . فأخذت ثغور الأراضى الوطيئة فى بحر الشمال، وثغور الدنمرك وبولندة فى البلطيق ، معظم التجارة والمكوس . أما عصبة الهانسا فكانت قد فقدت تفوقها الماضى منذ زمن طويل ، ودمرت لوبك فى حربها الطويلة مع السويد (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ولم تحتفظ بثرائها غير فرانكفورت على الراين ، وظلت سوقها السنوية أحفل أسواق أوربا بالقصاد ، وقد أحالت المدينة إلى مركز لتجارة ألمانيا الداخلية والمالية الدولية .

أما إقبال الناس على المال فظل على حاله . وتهرب الناس فى كل مكان من المراسيم التى حرمت تقاضى فائدة تربو على ٥ ٪ . قال قسيس فى ١٥٨٥ « إن رذيلة الربا الكافرة يمارسها الآن المسيحيون فى حرص أشد من حرص اليهود فى الماضى » وشكا واعظ فى ١٥٨١ من أن « ولعا غير مسيحى بالذهب

قد تسلط على كل الناس من جميع الطبقات . فكل من ملك شيئا يغامر به ، يفكر فى الإثراء ... بشتى أساليب المضاربة ، والتعامل فى النقود ، وعقود الربا ، بدلا من القيام بعمل أمين شاق »[١٣] . واستثمر المئات من العاملين مدخراتهم مع أحد بيوت فوجر ، أو فيلزر ، أو هوخشتيتر المالية ، ثم خربت بيوتهم فى افلاسات متكررة . وفى عام ١٥٧٢ أفلس بنك إخوان لوتيز بعد أن جمع أموالا طائلة من صغار المستثمرين ، فأفقدهم بذلك مدخراتهم بل بيوتهم[١٤] . أما بيت فوجرز فقد جلب عليه الخراب افلاس فيليب الثانى ودوق ألفا اللذين شارك هذا البيت فى تمويلهما[١٥] . كذلك أفلس بيت فيلزر فى ١٦١٤ و بلغت ديونه ٥٨٦,٠٠٠ جولدن . ولعل الخوف من التضخم دفع الناس إلى مثل هذه الاستثمارات ، لأن كل أمير ألمانى تقريباً كان يسرق من شعبه بتخفيض العملة ، ولأن الذين زيفوا العملة أو اقتطعوا حوافها تكاثر عددهم . فما وافى عام ١٦٠٠ حتى كانت العملات الألمانية تتردى فى فوضى شائنة.

وزاد عدد السكان بينما تخلف الإنتاج ، ودفع برد الشتاء الناس إلى شفا الثورة . وأكره الفلاحون فى جميع الأقاليم — باستثناء سكسونيا وبافاريا على أن يصبحوا أقنانا . وفى بومرانيا وبراندنبورج وشلزويج وهولشتين وميكلنبورج شرعت القنية (رق الأرض) فى سنة ١٦١٦ أو بعدها[١٦] وقد تساءل كاتب فى سنة ١٥٩٨ « ترى فى أى أرض ألمانية ما زال الفلاح الألمانى يتمتع بحقوقه القديمة ؟ وأين يتاح له أى انتفاع أو ربح من الحقول أو المراعى أو الغابات المشاعة ؟ وأين يتوقف عدد الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية ؟ وأين يجد الفلاح محكمته الخاصة ؟ ألا فليسبغ الله عليه رحمته »[١٧] وذهب الكثير من الفلاحين للعمل فى باطن الأرض ، ولكن أرباح التعدين وأجوره الحقيقية تضاءلت حين دخلت الفضة الأمريكية ألمانيا لتنافس المعدن المستخرج بشق الأنفس من عروق معدنية مستهلكة . أما فى المدن فإن زمالة النقابات القديمة أفسحت الطريق لاستغلال أرباب الصناعات لعمال اليومية . وكان يوم العمل فى بعض الصناعات يبدأ فى الرابعة صباحا وينتهى فى السابعة مساء ، يتخلل ذلك

« فترات لتعاطى الجعة » ، وقد انتزعت نقابة النحاسين من العمال فى عام١٥٧٣ أسبوع عمل بلغت جملة ساعاته اثنتين وتسعين[١٨] . ومنذ عام ١٥٧٩ نسمع بإضرابات ضد استخدام الآلات فى صناعة النسيج بألمانيا[١٩] . وهكذا لم يبق إلا نشوب الحرب حتى يصبح الفقر المدقع كارثة لا نظير لها .

٣ ـ الأخلاق وآداب السلوك

إذا صدقنا مزاعم الأخلاقيين فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، كانت صورة الأخلاق لا تقل قياما عن صورة الاقتصاد . فقد شكا المدرسون من أن الصغار الذين يعهد إليهم بتعليمهم ليسوا مسيحيين بل همج . وكتب ماتياس بريدينباخ عام ١٥٥٧ يقول : « أن الناس يربون أبناءهم تربية بلغت غاية السوء بحيث أصبح واضحا للمعلمين المساكين ... أن عليهم أن يتعاملوا ... مع وحوش ضارية »[٢٠] وقال آخر عام ١٥٦١ « يبدو أن كل نظام أصبح فى خبر كان ، إن التلاميذ جاوزوا الحدود فى العصيان والوقاحة »[٢١] . وفى معظم مدن الجامعات كان المواطنون يترددون فى الخروج ليلا خوفا من الطلاب الذين يهاجمونهم أحيانا بمداهم المفتوحة[٢٢] . كتب ناتان كترانسين فى ١٥٧٨ يقول : « لاشك أن من أهم أسباب انحلال أخلاق الطلاب الذى عم الآن هو تدهور التربية المنزلية . فلا عجب ، بعد أن خلعنا عن أعناقنا نير القوانين والشرائع القديمة ... أن نشهد بين الشطر الأعظم من شبابنا مثل هذه الإباحية المطلقة ، والجهل المطلق ، والوقاحة المستعصية ، والإلحاد الرهيب[٢٣] . ورأى غير هؤلاء « أن التمثيليات الهزلية والعروض والمسرحيات ليست من الأسباب الهينة التى ألقت بالشباب فى مهاوى الرذيلة والفجور »[٢٤] .

أما الكبار فقد قال الوعاظ فى وصفهم أنهم منافقون ، مشاكسون ، نهمون سكيرون ، زناة[٢٥] . وشكا الراعى يوهان كونو فى ١٥٧٩ من أن « الرذيلة بأنواعها استشرت حتى ليرتكبها الناس دون حياء ، لا بل أنهم يفاخرون بها مفاخرة اللوطيين ، وأصبحت أقبح الكبائر وأغلظها تعد فضائل ... فمن

الذى ما زال يرى ، او تكاب الفحشاء خطيئة ؟[٢٦] كتب الراعى برتلماس رنجفالت فى ١٥٨٥ يقول : « هذا الزمان آخر الأزمنة التى نكب بها العالم ، وأشدها فسادا[٢٧] وأصبح التجديف وتدنيس المقدسات شائعا بين كل الرجال تقريبا من جميع المذاهب[٢٨] واستشرى الافتراء على الناس . وكتب كونت أولدنبورج فى ١٥٩٤ يقول : شكا لى ملاحظ أعمالى من الطريقة التى أساء بها الدكتور بيزل فى بريمن إلى سمعته و فترى عليه فى أحد كتبه ، إذ زعم أنه ينفق نهاره فى الشره والسكر والفجور ، وأنه . . . ذئب مفترس للحملان ، وأفعى ، وتيس ، وسقط جهيض .. وأنه يجب التخلص منه أما بشنقه أو إغراقه أو سجنه ، وإما بدولاب التعذيب أو بحد السيف » . ووجد واعظ بلاط أمير سكسونيا الناخب أنه « فى طول ألمانيا وعرضها تقريبا اشيع كذبا » أننى أكسب أقداحا مذهبة كبيرة فى مباريات الشراب . . . وأننى أفرط فى شرب النبيذ . . حتى ليضطر القوم إلى مساعدتى ودفعى على عربة جر كأننى عجل أو خنزيرة مخمورة[٢٩] » .

وكان تناول الطعام والشراب شغلا شاغلا للناس ، فنصف نهار الألمانى الميسور ينفقه فى دفع الطعام من إحدى طرفى القناة الهضمية إلى طرفها الآخر وكان أهل المدن يفخرون بشهيتهم الطيبة التى تفصح عن ثرائهم كما تفصح عنه ثياب زوجاتهم . وقد ذاع صيته أحد لاعبى السيرك فى أرجاء ألمانيا كلها لأنه أكل فى وجبة واحدة رطلا من الجبن ، وثلاثين بيضة ، ورغيفا كبيرا من الخبز — وهى مهمة خر بعدها صريعا . ولم يكن من الأمور الشاذة أن يتصل الغذاء أو العشاء سبع ساعات يتخللها شرب أربعة عشر نخبا . أما حفلات الزفاف فكانت فى أكثر الأحيان قصفا صاخبا يحفل بالنهم والسكر وقد ألف أمير مرح أن يوقع رسائله بهذه العبارة (كن معافى وأسكر) . وقد أسرف كرستيان الثانى أمير سكسونيا الناخب فى تعاطى الخمر حتى أودت بحياته ، ولما يجاوز السابعة والعشرين . وكافحت جمعية الامتناع عن المسكرات لمقاومة هذه الرذيلة ، ولكن أول رئيس لها مات من السكر[٣٠] . وقد أكد

بعضهم أن البطنة قصرت أعمار الناس ، وكتب إرزمس فنتر في ١٥٩٩ يقول « إن الإسراف في الطعام والشراب قلل من عدد المعمرين ، وندر أن ترى رجلا في الثلاثين أو الأربعين لا يشكو مرضا ، سواء كان الحصى ، أو النقرس ، أو السعال ، أو السل ، أو غيره » (٣١) .

ولكن علينا ألا نأخذ هذه الشكاوى المعاصرة مأخذ الجد الشديد . فأغلب الظن أن كثرة الشعب كانوا قوما مجدين ، صابرين ، يخافون الله بالمعنى الحرفي للعبارة . إلا أن الفضيلة لا ينوه بها التاريخ كما لا تنوه بها الصحف — وهذا دليل عن أنها أمر عادي مألوف . فقد كانت زوجات أهل المدن يلزمن بيوتهن في عزلة متواضعة مستغرقات في عشرات الواجبات التي لا تترك لهن فراغا لارتكاب ذنوب أفدح من الثرثرة بالشائعات ، وكانت الكثيرات من نساء الطبقة العليا — مثل أنا زوجة أغسطس الأول أمير سكسونيا الناخب — مثلا يحتذى في الولاء الصادق للأسرة . ولم تخل ألمانيا الصاخبة تلك من الجوانب السارة . محبة الأطفال والبيت ، وكرم الضيافة ، والرقص الطروب والموسيقى الجميلة ، والألعاب والمهرجانات المرحة ، وأول شجرة ميلاد في التاريخ المدون كانت جزءا من احتفال أقيم بألمانيا في ١٦٠٥ ، والألمان هم الذين أحاطوا « عيد ميلاد المسيح » بالمظاهر البهيجة التي تخلفت من ماضيهم الوثني :

وكانت الرقصات والأغاني الشعبية تلد أشكالا من الموسيقى المعزوفة ؛ وكانت التراتيل بسبيلها إلى أن تصير كورالات ضخمة . وغدا الأرغن أثرا فنيا يدخل في فن المعمار ، أما البيان القيثاري ، والعود وغيرهما من الآلات الموسيقية ، فكانت وليدة في التغني بالحب . وحليت كتب الترانيم أحيانا ، لا سيما في بوهيميا ، بزخارف رائعة . أما الترانيم البروتستنتينية فكثيرا ما كانت تعليمية أو جدلية ، وضحت في هذا السبيل برقة ترانيم العصر الوسيط المقدسة ، ولكن الكورالات البروتستنتينية كانت بشيرا بمقدم يوهان سبستيان باخ . وفرض التعليم الموسيقى على المدارس من جميع المذاهب ، وكان مقام الـ « كانتور » ـ أي معلم الموسيقى ـ لا يعلو عليه إلا مقام المدير

أو الناظر فى سلم المراتب المدرسية واشتهر عازفو الأرغن يومئذ شهرة عازفى البيان الآن ، وذاع صيت يعقوب هاندل فى براغ . أما الأخوة هاسلر — وهم هانز ، وكاسبار ، ويعقوب — فقد انتشت جماهير المصلين بموسيقاهم التى كانت من وضعهم فى كثير من الأحيان ، فى درسدن ، ونورمبرج ، وبراغ وقد نحا النبوغ الموسيقى إلى الظهور مرارا وتكرارا فى الأسرة الواحدة ، لا بفضل أية وراثة خفية ، بل نتيجة لعدوى البيت ، وهكذا اتخذ حشد حقيقى من آل شولتز اسم « بريتوريوس » ، ولم يكتف ميخائيل بريتوريوس بوضع مجلدات فى الموسيقى ، بل وضع فى كتابه « أصول الموسيقى » (١٦١٥ — ١٦٢٠) موسوعة شاملة رفيعة لتاريخ الموسيقى وآلاتها وأشكالها .

أما أعظم الأسماء فى هذا العصر وهذا الميدان فهو هنريخ شوتز ، الذى أجمع الكل على الإشادة به « أبا للموسيقى الألمانية الحديثة . وقد ولد لأسرة سكسونية فى ١٥٧٥ ، قبل قرن تماما من مولد باخ وهاندو ، وأرسى دعائم الأشكال والروح الموسيقية التى أوصلها هذان الفنانان إلى ذروة الكمال . وحين بلغ الرابعة والعشرين اتخذ سمته إلى البندقية ، حيث درس على جوفانى جابرييلى . فلما عاد إلى ألمانيا تردد بين الموسيقى والقانون ، ولكنه استقر آخر الأمر على العمل مديرا للموسيقى فى بلاط يوحنا جورج ، أمير سكسونيا الناخب ، بمدينة درسدن . وراح منذ ١٦١٨ يتدفق ألحانا كورالية مهدت السبيل كل التمهيد للعدد الكبير من الموسيقيين من آل باخ بفضل ما فيها من تناول بارع للكوارس (مجموعات المنشدين) وللأصوات المنفردة وللآلات الموسيقية ، ومن مقابلة بين هذه كلها ، ولأول مرة أذيب وخفف مزج الألحان الكورالى الألمانى الثقيل بأسلوب « التوزيع » الأكثر اتساقا ، والذى جمع بين الأصوات والآلات . واحتفالا بزفاف ابنة الأمير الناخب (١٦٢٧) لحن شوتز أولى الأوبرات الألمانية ، واسمها دافنى على أساس أوبرا بيرى التى تحمل هذا الاسم ، والتى أديت بفلورنسة قبل ثلاثة وثلاثين عاما . وتأثر شوتز

برحلة ثانية إلى إيطاليا ، فأعطى مزيدا من الوضوح للأصوات المنفردة والآلات الموسيقية فى « سيمفونياتة المقدسة » (١٦٢٩) إذ وضع موسيقى لنصوص لاتينية من المزامير ونشيد الانشاد . وفى ١٦٣١ غدت سكسونيا مسرحا نشيطا للحرب . فضرب شوتز فى الأرض متنقلا من بلاط إلى بلاط ؛ حتى أنه رحل إلى الدنمرك ، بحثا عن فرق المرتلين والتماسا للرزق ، ولم يرد إلى وظيفته فى درسدن إلا فى ١٦٤٥ ، وفى ذلك العام ابتكر أسلوب موسيقى « آلام المسيح » الألمانية بوضعه موشحة دينية « أوراتوريو » سماها « كلمات المسيح السبع على الصليب » ، هنا بدأت فكرة إعطاء كلمات شخص منفرد لنفس الصوت المنفرد ، ثم يسبق الصوت أو يقفوه بنفس الأنغام فى الآلات ، وقد اقتبس باخ من بعده هذه الطريقة فى موسيقى « آلام القديس متى » . ثم شق شوتز طرقا جديدة مرة أخرى ، إذ نشر فى ١٦٥٧ « الأنغام الألمانية » وهى « كانتاتات » (قصص موسيقية تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) تضعه مع كاريسيمس فى مقام المنشىء المشارك للأناشيد الدينية الدرامتيه وقد هيأ لحنه « نشيد عيد الميلاد » (١٦٦٤) لباخ هدفا آخر يستهدف فيما بعد . ثم بلغ قصاراه بعد عام فى « آلام ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وموته » . وهو نشيد وضعه بصرامة للأصوات وحدها دون أن يخفف بالألحان . وما لبث عقب هذا أن فقد سمعه ، فاعتكف فى بيته ، ومات فى السابعة والثمانين بعد أن لحن فقرة من المزمور ١١٩ تقول : « ترنيمات صارت لى فرائضك فى بيت غربتى » .

٤ ـ الآداب والفنون

كان أبرز إنتاج أدبى للامبراطورية فى هذا العهد ترجمة للكتاب المقدس قام بها الإخوان البوهيميين (١٥٨٨) ، وملحمة Zrinyiasz (١٦٤٤) التى نظمها ميكلوس زرينيي . وخلفت ألمانيا الآن (حوالى ١٦٠٠) إيطاليا بوصفها أروج سوق لنشر الكتب ، لاسيما فرانكفورت وماين .. ففى ١٥٩٨

بدأت سوق فرانكفورت للكتاب تنشر كل نصف عام قائمة بالمطبوعات ، « وشجعت الجماعات الأدبية الشعر والدراما . ولكن الأدب كانت تخنقه الرقابة المدنية والكنيسة . فقد أجمع القادة اللوثريين والكالفنيون والكاثوليك على أن المؤلفات التي تعد ضارة بالحكومة . أو المذهب الرسمي ، أو الآداب العامة . يجب حظرها . ومن عجب أن مجموع الكتب التي حرمتها السلطات البروتستنتية فاق تلك التي أدانتها كنيسة روما [٣٢] . واضمحل العلم لأن الحقيقة شوهتها حدة الجدل . وآية ذلك أن ماتياس فلاكيوس الليريكوس ومساعديه صنفوا تاريخا للكنيسة المسيحية في ثلاثة عشر مجلدا من القطع الكبير . ولكن « قرون مجد بورخ » ، وهو الاسم الذي انتهى الناس إلى إطلاقه على كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » (١٥٥٩ — ١٥٧٤) نسبة إلى مكان تأليفه وإلى تقسيمه حسب القرون — هـذا الكتاب كان متحيزا للكتب التاريخ الكاثوليكية الصادرة في ذلك العهـد ، يوم كان كل كتاب سلاحا في القتال . مثال ذلك أن البابا جريجوري السابع صوره هؤلاء المقاتلون أشد وحشية من كل ما ولد من وحوش . وزعموا أنه قتل عدة باباوات قبل أن يرتقي « كرسي الوباء » [٣٣] . أما أروع التواريخ الرسمية الألمانية ـ في جيله فكتاب يوهان سلايدانوس الذي روى قصة الإصلاح الديني : « الأحوال الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور شارل الخامس » (٥٥٥) ، وقد بلغ من الإنصاف مبلغا لم يترك مجالا — حتى لملانكوف — أن يغتفر له أي تحامل فيه .

وبعد الكتب المحشوة بالمطاعن كانت الدراما أكثر أشكال الأدب شعبية وقد استخدم البروتستنت والكاثوليك المسرح لبث الدعوة ؛ فسخرت التمثيليات البروتستنتية بالبابا سخرية مريرة ، واختتمت عادة بزجه في الجحيم وأخرج معلمو الموسيقى بسويسرة تمثيليات عن آلام المسيح والقيامة . والدينونة الأخيرة ابتداء من ١٥٤٩ ، وشارك في التمثيل أحيانا ٢٩٠ ممثلا .

ومثلت مسرحية آلام «أوبرامير جاو» أول مرة فى ١٦٣٤ وفاء بنذر نذر خلال طاعون ١٦٣٣ . وكانت تعاد كل عشر سنوات ، ويستمر عرضها من الساعة الثامنة والنصف صباحا إلى السادسة مساء ، يتخلل ذلك إستراحة ساعتين فى الظهيرة . وقد دخل الممثلون الإيطاليون ألمانيا عام ١٥٦٨ ، ثم تلاهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز . وسرعان ما أحلت هذه الفرق التمثيلية عروض المحترفين محل العروض الخاصة، وقد أثارت الكثير من الشكاوى بسبب فحشها الذى در عليها الربح الوفير .

وحظى بشعبية فاقت حتى شعبية الممثلين ناقد ألزاسى هجاء ، فيه فحولة وله كفايات متعددة ، يدعى يوهان فيشارت فبعد أن تقمص فى مرح روح عصره، أصدر سلسلة من التقليدات الساخرة ضد الكاثوليكية ، بلغت فى تدميرها الذكى مبلغا جعله بعد قايل أروج كاتب فى ألمانيا ، ففى كتابه « خلية النحل الرومانية المقدســـة الهائلة » هاجم (١٥٧٩) تاريخ الكنيسة ، وعقيدتها ، واحتفالاتها ، وكهنتها ، فى كاريكاتور عنيف ، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور والاجهاض ، والكنيسة فى زعمه قضت بأن « للكهنة » أن يستعملوا زوجات غيرهم فى غير حرج ، وقد وجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال فى بركة قرب دير الراهبات، وهكذا دواليك(٣٤) . وفى هجاء آخر سماه « القبعه اليسوعية الصغيرة » سخر من قبعة اليسوعيين ذات الزوايا الأربع وندد بكل أساليبهم وأفكارهم . وفى عام ١٥٧٥ ، نشر فيشارت ، بعنوان مرح فى ثمانية سطور ، ترجمة مزعومة ، هى فى حقيقة الأمر تقليد وتوسيع لكتاب رابليه « جارجانتوا » ، وقد هزأ الكتاب بجميع نواحى الحياة الألمانية — كظلم الفقراء ، وسوء معاملة التلاميذ ، ونهم الألمان وسكرهم ، وزناهم وفسقهم ، كل ذلك فى خليط من الأساليب ومن اللهجة الألزاسية ، متبل بالبذاءة والظرف . ومات فيشارت فى الثالثة والأربعين بعد أن أفرغ ما فى جعبته من ألفاظ .

ولا يقل عن فيشارت حيوية رجل آخر مات فى نفس السنة ، ١٥٩٠ ، بالغا نفس العمر ، هو نيقوديموس فريشلين ، الذى عاش أكثر من عشرة أعمار فى عمر واحد . ففى العشرين كان أستاذا للتاريخ والشعر فى توبنجن ، ونظم الشعر اللاتينى فى رقة تذكرك برقة هوراس ، وكتب شروحا علمية لفرجيل . وفى الخامسة والثلاثين طرد لهجائه النبلاء . وبعدها عاش عيشة الاستهتار والمرح ، فأسرف فى الشراب ، زاعما أن الخمر لا غنى عنها للعبقرية ، وأن أشعار الزاهدين فى الخمر هزيلة هزالا حقيرا ، وقد اتهم بإفساد فتاة وتسميم أخرى ، وإذ كان مهددا بالمحاكمة الجنائية لعدوانه على الفضيلة ، فقد ظل يفر من بلد إلى بلد ، وأهدى محاضرة منشورة إلى أحد عشر رجلا من الأعيان المختلفين ، الذين وزعهم توزيعا جغرافيا ، ليوفروا له ملجأ يلوذ به فى أى مكان ، ولكنه مات أثر كبوة قبل أن ينتهى من إبداء رأيه فى أعدائه. وجريا على عادة ذلك الزمان نعتوه بأنه : « شاعر قذر حقير ، وسقط للشيطان كذاب لئيم[٣٥] » . ولكنه كان ألمع شاعر استطاعت ألمانيا أن تنجبه فى ذلك الجيل الشقى .

أما الفن فقد أضر به عزوف البروتستنت عن الصور والتماثيل ، واضمحلال الكنيسة بوصفها راعية للفن ، وإفساد التأثير الايطالى الغريب على ألمانيا للطرز الوطنية ، وتدهور الذوق نتيجة لخشونة الأخلاق وعنف الجدل ، ثم نار الحرب الآكلة بعد ذلك . وأعجب العجب أن تنتج الحرفية الألمانية ، برغم هذه المثبطات ، فى العقود الستة السابقة للحرب ، عدة قصور فخمة ، ودور للبلدية بهية ، وتنجب مصورا قديرا ، وتبدع بعض التحف الثمينة فى الفنون الصغيرة . وكانت مجموعات الامبراطور رودلف الثانى والدوق ألبرت الخامس أمير بافاريا نواة لمتحف ميونخ الشهير « قاعة الفن القديمة » وكان ألبرت نفسه « مديتشيا ألمانيا » ، فأحال بلاطه جنة « للفنانين ، وجمل

عاصمته بالعمارة ، وجمع التماثيل فى « الانتكواريوم » * ، — وهو أول متحف للتماثيل القديمة شمال الألب .

وفى ١٦١١ — ١٦١٩ بنى معمارى هولندى للدوق مكسمليان الأول فى ميونيخ « المقر » الذى ظل قرونا بيتا لأدواق بافاريا وناخبيها وملوكها . وقد أسف جوستاف أدولف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى استكهولم ذلك المثال المحبب من عمائر فترة الاصلاح البروتستنتى المتأخرة فى ألمانيا . أما اليسوعيون فقد شيدوا بطراز الباروك ، على طريقتهم التى تعنى بالزخرفة والتنميق ، كنائس بديعة فى كوبلنز ، وديلنجن ، وكنيسة هوف (كنيسة القديس ميخائيل) بميونيخ وصمم سانتينو سولارى كاتدرائية سالزبورج ، على طراز أكثر بساطة وفخامة ، قبيل اندلاع حرب الثلاثين ببضع سنين .

وإذ كان الأمراء قد استولوا على معظم الثروة الكنسية فى ألمانيا البروتستنتية ، فإن العمارة فيها لم تعد كنيسة بل مدنية ، وأحيانا عمارة قصور . وبنيت القلاع الضخمة ، كقلعة هايلينجبرج فى بادن ، المشهورة بسقفها المصنوع من خشب الزيزفون المنقوش ، فى قاعتها المعروفة بالريترزال (أى صالة الفرسان) ، وقلعة أشافينبورج على الماين ، وقلعة هايدلبرج ، التى ما زالت مشهدا من مشاهد ألمانيا الكبرى . وأقيمت دار بلدية « راتهاوس » الفاخرة لتضم إدارة البلدية فى لوبك وقلاع بادربورن ، وبريمن ، وروتنبورج واجزبورج ونورمبرج وجراتز . وعهد تجار المنسوجات فى أجزبورج إلى الياس هول ، كبير معمارى المدينة ، ببناء قاعتهم « تزويج هاوس » أى قاعة الأقمشة . كذلك بنت بريمن قاعة للغلال « كورنهاوس » ، وفرانكفورت قاعة للملح « زالتسهاوس » لتجار الغلال والملح على التوالى ، ولكن من كان يتوقع أن يبنى الخل لنفسه بيتا رفيع الذوق يظله كقاعة الخل « ايسيجهاوس » ؟

* هذا المتحف وغيره من المنشآت الموسومة بعلامة نجمية فى هذا القسم دمرت أو لحق بها ضرر بليغ فى الحرب العالمية الثانية .

وارتفعت الآن ، وفى الأعوام المائة والخمسين التالية ، القصور فى كل مكان بألمانيا لتأوى الأمراء الظافرين ، وقد بنيت بطراز الباروك اللولبى البهيج . من ذلك أن حاكم « أنسباخ بايرويت » أنفق ٢٣٧٠٠٠ فلورين (٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) على قصر بلاسنبورج الذى يملكه ، فى إمارة من أفقر إمارات الامبراطورية . وأرفع من هذا القصر ذوقاً ، القصر الأميرى الذى أعد لرؤساء أساقفة ماينز . وتبدو عمارة بيوت هذه الفترة بهية إلى حد خلاب سواء فى تقاليدها أو رسومها ، غير أن طبيبا ساخطا وصف البيوت الألمانية فى ١٦١٠ بأنها تتألف من حجرات قذرة مظلمة خبيثة الرائحة قل أن يدخلها الهواء النقى[٣٦] ، ومع ذلك فإن داخل البيت فى المدينة كان الموطن الحقيقى لفنون ألمانيا الصغيرة ، فقد حفل بالزخارف التى أبدعتها أيد ماهرة كالحشرات الخشبية والسقوف المنقوشة ، والأثاث المتين المنقوش والمطعم ، والدرابزينات الحديدية المشغولة ، والأقفال والقضبان المنصوبة فى أشكال فخمة ، وتماثيل العاج الصغيرة ، وأقداح الشراب الفضية أو الذهبية . لقد كان ساكن المدينة الألمانى لا يشبع من الزخارف فى بيته .

وازدهر الحفر ، لا سيما على النحاس ، فى ألمانيا حتى خلال الحروب . واستهل لوكاس كيليان وأخوه فولفجانج ، حوالى ١٦٠٠ ، عهد أسرة موهوبة من الحفارين اتصل نشاطها طوال القرن السابع عشر بفضل ولدى فولفجانج ، وهما فيليب وبرتلماوس ، وامتد حتى ١٧٨١ بفضل أبناء حفدة فيليب . على أن النحت الألمانى أضرت به المحاولات التى بذلها النحاتون لتقليد الأشكال الكلاسيكية الدخيلة على الطبيعة والمزاج الألمانيين . وكان الحفارون الوطنيون ، إذا أرسلوا أنفسهم على سجيتها ، يبدعون تحفا من أرفع طراز ، مثال ذلك مذبح الكنيسة الأوسط ، والمذبحان الجانبيان ، التى حفرها فى الخشب هانزدجلر لكنيسة أولتريش فى أوجزبورج ، أو التماثيل السبعون التى نقشها ميخائيل هونيل لكاتدرائية جورك بالنمسا . ومن المعالم البارزة فى هذا العصر

نافورات الماء العجيبة التى استلهمت المثل الايطالية . كنافورة « فيتلسباخر » المقامة أمام الرزيدنتز « بميونيخ و « نافورة الفضيلة » (توجندبرونن) ، أمام كنيسة لورنز فى نورمبرج .

حين نمى إلى روبنز أن آدم الزهايمر قد مات لتوه (١٦١٠) وهو بعد فى الثانية والثلاثين قال « خليق بهذا الخطب أن يغرق مهنتنا فى حزن عميق . فلن يكون من السهل تعويضه ، إذ محال فى رأيي أن يكون له نظير فى (رسم) الصور الصغيرة والمناظر الطبيعية ، وأشياء أخرى كثيرة[٣٧] . وقد ولد آدم هذا فى فرانكفورت ثم قصد إيطاليا وهو فى العشرين ، وبعد أن أقام فى البندقية ردحا من الزمن انفق ما بقى من عمره فى روما . وقد تضرع روبنز إلى الله « أن يغفر لآدم خطيئة الكسل » ، ولكننا لا ندرى أهو الكسل « الذى جعل الزهايمر يقصر فنه على الرسوم الصغيرة على الأطباق النحاسية . إذ لا يمكن أن يكون الكسل هو الذى جعله يضفى على مناظر الطبيعة ذلك الصقل الدقيق الذى نراه فى « الهروب إلى مصر[٣٨] » أو ذلك التجسيد للضوء والهواء الذى جعل منه على حدوده المتواضعة ، « رمبرانتا » قبل رمبرانت . ويلوح أنه كان يجزى جزاء طيبا على فنه ، ولكنه جزاء لا يكفى لإشباع حاجاته وميوله . وقد أفلس ، وسجن بسبب دينه ، ثم مات عقب الإفراج عنه .

كان الرسم على الزجاج فنا أثيرا فى هذا العصر . فى زيوريخ ومازال أولا ، ثم فى ميونيخ ، وأوجزبورج ، ونورمبرج ، وأصبحت النوافذ فى الأديار والمنازل غنيه بالألوان كأنها نوافذ كنيسة من العصر الوسيط وظهر نقش الزجاج فى بواكير القرن السابع عشر فى نورمبرج وبراغ . واشتهرت أسرة هيرشفوجل بنورمبرج بالزجاج والخزف الفنيين ، وأدفأت كولونيا وزيجبورج قلوب الألمان بالأباريق والكيزان الأنيقة النقوش ، وكثيرا ما كانت المواقد تحاط بفخار مزجج بالألوان . ولم يكن للألمان قريع فى أشغال الخشب والعاج والحديد والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة . وكان

لنجارى الأثاث مكان مرموق ، حتى أن واحدا منهم حكم عليه بالشنق عقاباً على السرقة صدر العفو عنه لأنه كان « نجاراً فنياً » ماهراً جداً . والدرابزين الحديدى المحيط بمقبرة الامبراطور مكسمليان الأول فى انزبروك رائع جداً.
وقد صنع أنطون آيزنهوت فى ١٥٨٧ آنية للطقوس الكنسية من فضة بلغت من دقة الرسم وغنى الحلية ما يضعها إلى اليوم فى قمة الآنية التى من نوعها . وكان الصاغة الألمان مطلوبين فى كل مكان ، ووجدت أشغالهم سوقا أوربية لها فى غير عناء . وصنعت كئوس الشراب، والأقداح ، والأباريق الفضية فى عشرات الأشكال المضحكة ، وكان فى وسع الألمان أن يترنحوا بالخمر يشربونه من طواحين الهواء ، والفوانيس ، والتفاح ، والقردة ، والخيل ، والخنازير ، والرهبان، والراهبات. لقد كانوا يخوضون الحرب اللاهوتية حتى فى كئوسهم المتصارعة .

٥ — المذاهب المتصارعة

كان ديت أوجزبورج (١٥٥٥) قد وصل بالصراع الدينى إلى هدنة جغرافية حول مبدأ « الناس على دين ملوكهم » ، « إقليمه دينه » — أعنى أن دين الحاكم فى كل دور يفرض ديناً على رعاياه ، وعلى المخالفين أن يرحلوا . وكان الاتفاق يمثل قدراً ضئيلا من التقدم ، لأنه أحل الهجرة محل الإعدام ؛ ولكنه اقتصر على اللوثرية والكاثوليكية ، وكان من آثار اقتلاع عائلات كثيرة من جذورها اقتلاعا أليما زادت الفوضى والمرارة فى ألمانيا . وكان ينتظر من السكان أن يغيروا مذهبهم إذ خلف حاكم يدين بأحد المذهبين حاكما يدين بالمذهب الآخر . وبات الدين مطية وضحية للسياسة والحرب

أما وقد انقسمت ألمانيا فى اللاهوتية على هذا النحو ، فإنها لا تقدم قبل حرب الثلاثين خريطة دينية بسيطة : ويمكن القول عموماً بأن الشمال كان بروتستنتيا ، والجنوب وأرض الراين كاثوليكيين ، ولكن بما أن مبدأ

أوجزبورج لم يمكن فرضه فرضا دقيقاً ولا سريعاً ، فقد بقى الكثير من البروتستنت فى مناطق كاثوليكية، والكثير من الكاثوليك فى بلاد بروتستنتية. وقد أتيح للكاثوليك ميزتان هما التقاليد والوحدة ، أما البروتستنت فقد تمتعوا بقسط أوفر من حرية العقيدة ، وانقسموا إلى لوثريين وكلفنيين وقائلين بتجديد العماد وموحدين ، وحتى فى صفوف اللوثريين نشبت حرب عقائدية بين أتباع ملانكتون المتحرر وخصومه . وفى ١٥٧٧ صاغ اللوثريين عقيدتهم فى «كتاب الوفاق» ، وبعد هذا التاريخ طرد الكلفنيون من الدويلات الألمانية اللوثرية . ولكن أمير البالاتينات الناخب ، فردريك الثالث ، رعى الكلفنية وجعل جامعة هايدلبرج معهدا لاهوتيا للشباب الكلفيني . وهناك ، فى ١٥٦٣ وضع اللاهوتيون الكلفنيون كتاب « التعليم المسيحى » فى مفهوم هايدلبرج، وقد صدم الكاثوليك واللوثريين جميعا برفضه عقيدة الحلول الحقيقى للمسيح فى خمر العشاء الربانى وخبزه . وسمح للكاثوليك بالعيش فى البالاتينات شريطة أن يقصروا عبادتهم على بيوتهم ، أما الموحدون فقد قمعوا بشدة . وفى ١٥٧٠ نازع رجلان فى ربوبية المسيح ، أو ضيقا حدودها ، فأعدما أثر أصرار الاساتذة الكلفنيين فى جامعة هايدلبرج على أعدامهما . على أن الامير الناخب لويس ابن فردريك ، آثر المذهب اللوثرى وفرضـــه ، ولكن أخاه يوحنا كازيمير ، أثناء وصايته (١٥٨٣ — ١٥٩٢) ، فضل الكلفنية وفرضها ، ثم وطد الامير الناخب فردريك الرابع (١٥٩٢ — ١٦١٠) تلك السياسة . وتزوج أبنه فردريك الخامس (١٦١٠ — ١٦٢٣) اليزابيت ستيوارت (ابنة جيمس الاول ملك انجلترة) . وطالب بعرش بوهيميا، وعجل بنشوب حرب الثـــلاثين .

وكان الصراع بين اللوثريين والكلفنيين لايقل مرارة عنه بين البروتستنت والكاثوليك ، وقد أضر بتعاون البروتستنت خلال الحرب لأن تعاقب النصر والهزيمة على الفريقين كليهما ، تارة هذا وتارة ذاك ، ومن ثم اضطهاد المنتصر

للمهزوم كان يخلف ميراثا من الكراهية ، مثال ذلك أنه فى ١٥٨٥ طرد الكونت فولفجانج حاكم أيزنبورج رونيبورج جميع الموظفين اللوثريين فى إقليمه وأحل الكلفنيين محلهم ، ولكن أخاه وخليفته الكونت هنرى أنذر الوعاظ الكلفنيين فى ١٥٩٨ بأن عليهم أن يرحلوا خلال أسابيع برغم البرد القارس ، وفى ١٦٠١ ولى الحكم الكونت فولفجانج ارنست ، فطرد الوعاظ اللوثريين وأعاد المذهب الكلفينى . وحدث مثل هذا الاحلال للكلفنيين محل اللوثريين فى أنهالت (١٥٩٥) ، وهاناو (١٩٥٦، وليبى (١٦٠٠) . وفى بروسيا الشرقية أعدم يوهان فونك المتهم بميوله الكلفنية فى سوق كونيجزبرج وسط تهليل الجماهير (١٥٦٦) [٣٩] . كذلك أعدم المستشار نيقولا كريل فى درسدن (١٦٠١) لتوجيهه الطقوس اللوثرية وجهة كلفنية ، ولتأييده للهيجونوت الفرنسيين [٤٠] .

وفى ١٦٠٤ أعتنق الشريف موريس حاكم هيس — كاسل المذهب الكلفينى ، ثم فرضه فى ١٦٠٥ فى هذا الاقليم وفى هيس العليا ، وهزم جنوده حشدا من اللوثريين المقاومين وحطموا الصور الدينية فى الكنائس ، أما الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثرى إلى الكلفنى فقد نفوا[٤١] . وفى أمارة براندنبورج الناخبة قام نزاع عنيف بين اللوثريين والكلفنيين حول خبز القربان المقدس ، وهل يتحول حقيقة بعد تقديسه إلى جسد المسيح وأخيراً قضت الحكومة بأن الكلفنية هى المذهب الحق (١٦١٣ وما بعدها)[٤٢] .

ووسط تذبذبات الحقيقة هذه احتدم ذلك « السعار اللاهوتى » كما سبق أن سماه ملانكتون — احتداما لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، إلا فيما ندر . من ذلك أن راعيا لوثريا يدعى نيفاندر (١٥٨٢) عدد أربعين خصيصة من خصائص الذئاب ، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكلفنيين ثم وصف الميتات الرهيبة التى لقيها أعداء اللوثريين ، وقال بأن

زونجلي حين خر صريعا فى المعركة ، « قطع جسده سيورا ، واستعمل الجنود شحمه ليشحموا به أحذيتهم ، لأنه كان رجلا بدينا[٤٣] » . وجاء فى نشرة لوثرية فى ١٥٩٠ « إن أراد أحد أن يقال له فى بضع كلمات أية مادة من مواد الايمان نقاتل عليها جاس الأفاعى الكلفنية الشيطانى ، كان الجواب ، كلها بلا استثناء ... ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين ، بل يهود ومسلمون معمدون[٤٤] » . وفى سوق فرانكفورت كتب ستانسلاوس رسكيوس (١٥٩٢) « لقد لاحظنا منذ سنين أن الكتب التى يؤلفها البروتستنت ضد البروتستنت ثلاثة أمثال تلك التى يؤلفها البروتستنت ضد الكاثوليك[٤٥] » . وقال كاتب بروتستنتى فى ١٦١٠ فى معرض الرثاء لهذه الحال « أن هؤلاء اللاهوتين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشبة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والاتساع بحيث لا تبدو بارقة أمل فى أن يكف كل هذا الصراخ والقذف والشتم واللعن والحرم قبل مجىء اليوم الآخر[٤٦] » .

ولكى نفهم هذا « السعار اللاهوتى » علينا أن نتذكر أن جميع أطراف النزاع أجمعوا على أن الكتاب المقدس كلمة الله المعصومة ، وإن الحياة بعد الموت ينبغى أن تكون أهم شغل للناس فى هذه الدنيا . كذلك لابد أن تفسح الصورة مكانا للتقوى الصادقة التى أورثت الكثيرين من اللوثريين والكلفنيين والكاثوليك الاتضاع والتسامى فوق حمى المذاهب وهذيانها . فقد هرب « أهل التقوى » هؤلاء من المنابر اللاهوتية والتمسوا فى خلوتهم شيئا من الحضرة الإلهية المطمئنة . وما زال مؤلف يوهان آرنت « حديقة الفردوس الصغيرة » يقرأ فى ألمانيا البروتستنتية باعتباره كتيبا للتأمل الورع . وانتهى يعقوب بومى بهذه النزعة إلى فكرة الوحدة الصوفية لروح الفرد مع إله تصوره ينبوعا كونيا ، وأساسا لكل الأشياء ، ينتظم كل « شر » وكل « خير » وزعم بومى أنه رأى « كائن الكائنات كلها ، ورأى جهنم ، كما رأى مولد الثالوث الأقدس[٤٧] » . ولا يجد العقل غير المتعاطف مع الصوفية فى كتاب بومى « فى شارة كل الأشياء » ١٦٢١ « إلا دوامة من السخافات ، ومن بواعثه

العزاء أن نعرف أن صوفيا آخر ، هو يوحنا وميسلي ، وصفه بأنه « هراء رفيع[٤٨] » . وأفضل من التراتيل البسيطة الحسية التي ألقها التقي اليسوعي فردريك فون سبي .

واليسوعيون هم الذين قادوا الحملة الصليبية الكاثوليكيه لإسترداد الأرض المفقودة في ألمانيا كما فعلوا في كل مكان في أوربا ، وقد بدأوا بمحاولة إصلاح الاكليروس الكاثوليكي . كتب اليسوعي بطرس فابر من فورمز في ١٥٤٠ يقول : « اسمح اللهم بأن يكون في هذه المدينة ولو كاهنان أو ثلاثة ليس لهم علاقات غرامية حرام ، أولا يعيشون في خطايا معروفة أخرى[٤٩] » . على أن أهم خططهم كانت اصطياد الشباب ومن ثم فتح اليسوعيون الكليات في كولونيا ، وتريير ، وكوبلنز ، وماينز ، وشبيير ، وديلجن ، ومونستر ، وفورتسبورج ، وانجولستات ، وبادربورن ، وفرايبورج ، وقد طاف بطرس كانيسيوس ، الرأس المفكر والروح والحركة لهذه الحملة اليسوعية ، بكل أرجاء ألمانيا تقريبا على قدميه ، منشئا الكليات ، موجها المجادلات اليسوعية العنيفة ، شارحا للحكام الألمان مزايا المذهب القديم . وقد حث الدوق ألبرت الخامس على أن يستأصل بالقوة شأفة البروتستنتية بأسرها من بافاريا[٥٠] . وبفضل اليسوعيين ، والكبوشيين ، وإصلاح الاكليروس ، وغيرة الأساقفة ، ودبلوماسية البابوات وسفرائهم ، استعيد إلى حظيرة الكنيسة في النصف الثاني من القرن السادس عشر نصف الأرض التي كسبتها البروتستنتية الألمانيـــة في النصف الأول منه . وقد استعملت بعض ألوان الاكراه هنا وهناك ، غير أن الحركة كانت في جملتها سيكولوجية سياسية ، ذلك أن جماهير الشعب ملت طول الشك والجدل والجبرية ، ورأى حكامهم في الكاثوليكية التقليدية سندا للحكومة والنظام الاجتماعي أقوى من سند بروتستنتية غارقة في فوضى الانقسام ، محفوفة بالمخاطر التي تكتنف كل مذهب جديد .

فلما أدرك البروتستنت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية انتحارية . وجهوا منابرهم وأقلامهم ضد عدوهم الرومانى. ومهدت حرب الكلام والمداد لحرب المدافع والدم ، وتفاقم التقاذف بالمطاعن حتى قارب نشوة القتل. ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ كالروث ، والنفاية ، والحمار ، والخنزير ، والبغى ، والقاتل. ففى عام ١٥٦٥ اتهم الكاتب الكاثوليك يوهان ناس اللوثريين بممارسة القتل ، والسرقة ، والكذب ، والغش ، والشره ، والسكر ، ومضاجعة المحارم ، والجريمة ، دون ما خشية ، لأن الايمان فى زعمهم يبرر كل الأشياء ،، ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساء[٥١]. وقد اعتبر الكاثوليك هلاك البروتستنت الأبدى إحدى بديهيات اللاهوت ، ولكن الواعظ اللوثرى أندرياس لانج كتب (١٥٧٦) بثقة مماثلة « أن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطاق النعمة الالهية ، ومغفرة الخطايا ، والخلاص . فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد فى نار الجحيم المشتعلة وكبريتها[٥٢] . وراح الكتاب من الجانبين يتبادلون الافتراءات على نحو ما يفعل الآن فى حرب العقائد السياسية . وراجت أسطورة «البابة» (امرأة) يوانا فى الأدب البروتستنتى . وكتب أحد رجال الدين البروتستنت فى ١٥٨٩ يقول: «ما أشد نفاق هؤلاء اليسوعيين الأوغاد السفلة إذ يلجون فى إنكار هذه الحقيقة، وهى أن البغى الانجليزية آجينس كانت « بابة » فى روما وأنها ولدت غلاما خلال أحد المواكب العامة[٥٣] » . وجاء فى إحدى المواعظ أن البابوات كانوا وما زالوا بلا استثناء واحد ، لوطيين ومستحضرى أرواح وسحرة ، وأن الكثيرين منهم يستطيعون أن يبصقوا النار من أفواههم .. « كثيرا ما ظهر الشيطان بصورته المرئية للبابوات ... واشترك معهم فى لعن صليب المسيح ووطئه بالأقدام ، ثم الرقص رقصات عارية فوقه ، وهى التى سموها خدمة مقدسة[٥٤] » . وكانت جماهير العابدين ترتشف هذه المسكرات بشغف . قال قسيس بروتستنتى فى ١٥٨٤ ، « لقد تعلم الأطفال فى الشوارع أن يلعنوا عدو المسيح الرومانى وأتباعه الملاعين[٥٥] » .

وكان اليسوعيون أهدافا محببة. فرموا فى مئات الرسوم الهزلية ، والنشرات ، والكتب ، والقصائد ، باللواط ، والزنى ، والبهيمية وفى أحد الكاشهات الخشبية الألمانية ، وتاريخه ١٥٦٩ (ومازال محفوظا فى مجموعة جوته بفايمار) صور البابا على شكل خنزيرة تلد رهبانا يسوعيين فى هيئة خنازير صغار . وفى ١٥٩٣ نشر اللاهوتى اللوثرى بوليكارب الايزر تاريخا للرهبنة اليسوعية باللاتينية . وصف اليسوعيين بأنهم يقارفون أقبح الرذائل مطمئنين إلى رضى البابا وعفوه الكاملين[٥٦] . وأخبرت «صحيفة جديدة صادقة» ١٦١٤ «قراءها بأن الكردينال اليسوعي باللارمين أرتكب الفاحشة ٢٢٣٦ر٢ مرة مع ١٦٤٢ امرأة ، ثم استطردت لتصف عذاب الكردينال على فراش موته ، مع أنه لم يمت إلا بعد سبع سنوات[٥٧] .

وقد رد اليسوعيون أول الأمر فى ضبط للأعصاب . ونضح كانيسيوس باستعمال لغــــة برئية من العنف ، وكذلك فعل الراعى البروتستنتى يوهان ماتيسيوس ، ولكن الجمهور كان يؤثر الطعن على الاعتدال . واتهم المجادلون البروتستنت المتطرفون خصومهم اليسوعيين بقبولهم عقيدة اليسوعى ماريانا التى تدافع عن قتل الطغاة من الحكام ، ورد أحد اليسوعيين الألمان بأن هذه هى بالضبط العقيدة التى يجب تطبيقها على الأمراء الذين فرضوا البروتستنتية على رعاياهم . ولكن يسوعيين آخرين أكدوا للحكام البروتستنت أنهم يعتبرون أمراء شرعيين ، وأن شعرة واحدة من رءوسهم لن تمس . ونشر اليسوعى كونراد فيتر (١٥٩٤ — ٩٩) عشر كتيبات استعمل فيها أقبح ألفاظ الشتم ، معتذرا بأنه إنما يحذو فى ذلك حذو اللاهوتيين اللوثريين ، وكان الجمهور يتهافت على شراء هذه الكتيبات بمجرد طبعها . وأعلن يسوعيو كولونيا أن « الهراطقة العنيديين الذين يبثون الانشقاق فى كل مكان » فى الأقاليم الكاثوليكية

« يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والسارقون والقتلة »

لا بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون ، فهؤلاء لايؤذون سوى الجسد، أما أولئك فيزجون بالنفوس في الهلاك الأبدى.. ولو أن لوثر أعدم أو أحرق قبل أربعين عاما ، أو لو أن نفرا من الناس نخفف العالم من وجودهم ، لما نكبنا بمثل هذه الانشقاقات اللعينة ، ولا بمثل هـذه الملل والنحل التى تكدر صفاء العالم كله[٥٩] .

وبمثل هذه الروح ناشد الكلفنى داود باريئز، استاذ اللاهوت بهايد لبرج (١٦١٨) ، جميع الأمراء البروتستنت أن يشنوا حربا صليبية على البابوية ، وفى حملة كهذه يجب « ألا يتحرجوا من أى ضرب من ضروب القسوة أو العقاب[٦٠] » . وبلغ هذا السيل الدافق من الكتيبات ذروته بطبع ١٫٨٠٠ نشرة فى سنة واحدة (١٦١٨) ، وهى أول سنى الحرب .

فلما قوى بأس الكاثوليك واشتد غضبهم ، ألف عدد من الأمراء البروتستنت « اتحادا من الأقاليم الانجيلية » (١٦٠٨) أو اتحادا بروتستنتيا ليتبادلوا الحماية . ووقف ناخب سكسونيا بمعزل عن الاتحاد ، ولكن هنرى الرابع ملك فرنسا بدأ على استعداد لمديد المعونة لأية مغامرة ضد الإمبراطور الهابسبورجى. وفى ١٦٠٩ ألف عدد من الحكام الكاثوليك يتزعمهم مكسمليان الأول دوق بافاريا ، اتحادا كاثوليكيا ، عرف بالحلف الكاثوليكى ، وما وافى أغسطس من عام ١٦١٠ حتى كانت كل دويلات الامبراطورية تقريبا قد انضمت إليه ، ثم عرضت أسبانيا أن تقدم له المعونة الحربية . ووافق الاتحاد البروتستنتى (فبراير) على أن يساعد هنرى الرابع على الاستيلاء على دوقية يوليس — كليفز ، ولكن مصرع الملك الفرنسى (١٤ مايو) حرم البروتستنت من أقوى حليف لهم . وسرى الخوف فى ألمانيا البروتستنتية ، ولكن الحلف لم يكن على استعداد للعمل . وفى يناير ١٦١٥ أنذر موريس حاكم هيس - كاسل الاتحاد البروتستنتى بأن « الحلف الكاثوليكى ، الذى يحميه البابا ، وملك

أسبانيـــا ، وبلاط بروكسل ، والامبراطور . . . أرسل فى طلب السلاح والذخيرة . . . رغبة . . . فى استئصال شأفة المذهب الانجيلى[٦١] » . وزاد الطين بلة أن كاسبار سكيو بيوس حذر الكاثوليك واللوثريين من أن الكلفنيين يعتزمون تدمير الديانة والسلام العام والاطاحة بالامبراطورية الرومانية المقدسة بأسرها ، ومحو مبدأ أوجزبرج والمذهب الكاثوليكى من الامبراطورية[٦٢] سواء بسواء ، وربما كان هذا محاولة لاشاعة مزيد من الفرقة بين الشيع البروتستانتية . وأضعف النزاعات الاقليمية بين النمسا وبافاريا العصبة الكاثوليكية فى ١٦١٦ . . وراود الناس من جديد حلم السلام !

ولكن فى براغ ناشد الكونت هنريك فون ثورن زعماء البروتستانت منع الكاثوليكى المتحمس الأرشيدوق فرديناند من اعتلاء عرش بوهيميا . وكان الامبراطور ماتياس قد عين خمسة نواب ليتولوا حكم البلاد فى أثناء غيابه . واستبد هؤلاء الحكام بالبروتستانت فى النزاع حول بناء كنيسة فى كلوسترا جراب ، وأرسلوا المعترضين إلى السجن وفى ٢٣ مايو ١٦١٨ قاد ثورن حشدا بروتستانتيا غاضبا إلى قلعة أوسكين ، وصعدوا إلى الحجرات التى كان يجلس بها أثنان من هؤلاء الحكام ، وألقوا بهما من النافذة مع سكيرتير كان يتحمس لهم ، وسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدما ، ولكنهم وقعوا على كومة من الاقذار فتلوثوا أكثر مما أوذوا . فكان هذا «الالقاء من النافذة» تحديا مثيرا للامبراطور وللأرشيدوق وللعصبة المقدسة . وطرد ثورن رئيس الأساقفة والجزويت ، وشكل حكومة مديرين ثورية . وربما شق عليه أن يدرك أنه بذلك أطلق كلاب الحرب من عقالها أو أنه أشعل نارها .

٦ — حرب الثلاثين سنة

١ — طور بوهيميا : ١٦١٨ — ١٦٢٣ :

أرسل الامبراطور ماتياس إلى حكومة المديرين سالفة الذكر عرضا

بإصدار عفو عام ، والدخول فى مفاوضات ، ولكن هذا العرض رفض[٦٣] .
وأنفذ الإرشيدوق فرديناند ، متجاهلا الامبراطور ، جيشين لغزو بوهيميا .
وحرض فردريك الخامس ناخب البالاتينات شارل عمانويل دوق سافوى
المعادى لآل هبسبرج ، على أرسال قوة لنجدة بوهيميا ، بقيادة القائد القدير
بيتر ارنست فون مانسفيلد وأستولى ما نسفيلد على بلسن ، معقل الكاثوليك
فى بوهيميا ، وتقهقرت جيوش فرديناند . واقترح كريستان دون برنزويك
مستشار فردريك على المديرين أنهم إنما يقوون دفاعهم ويستبعدون فرديناند
عن العرش ، إذا عرضوا العرش على فردريك . وفى ٢٠ مارس ١٥١٩ مات
ماتياس ، تاركا فردريك الملك الشرعى على بوهيميا، ووريثا افتراضيا للتاج
الامبراطورى . وفى ١٩ أغسطس أعلن مجلس الديت فى بوهيميا خلع فرديناند
عن عرش بوهيميا ، وفى السابع والعشرين نادى بفردريك أمير البالاتينات
ملكا على بوهيميا . وفى الثامن والعشرين أعلن ناخبو الامبراطور أرشيدوق
استيريا امبراطورا تحت اسم فرديناند الثانى .

تردد فردريك فى قبول هذا المنصب الجديد ، ذلك أنه أدرك أنه بوصفه
من زعماء الكلفنية لا يمكنه أن يعتمد على تأييد اللوثريين ، على حين أنه قد
يواجه معارضة الامبراطورية والبابوية وأسبانيا . وأهاب بوالد زوجته
جيمس الأول ملك إنجلترا أن يمده بجيش ، ولكن بدلا من ذلك ، زوده
الملك الحذر البعيد النظر بالنصيحة — أن يرفض عرش بوهيميا . ولم تغره
أو تحثه زوجته المرحة الجريئة على قبول العرش ، بل وعدته أن تقاسمه عن
طيب خاطر كل ما قدر له أن يلقى ، نتيجة لما يقع عليه اختياره ، وكانت عند
وعدها . ونصح كريستيان أمير برنزويك بقبول العرش . وفى ٣١ أكتوبر
١٦١١ ، دخل الملك الجديد والملكة براغ ، ورحب بهما الديت والاهالى
ترحيبا حارا .

وكان فردريك بعد شابا فى العشرين من العمر ، يتحلى بحسن الخلق والشهامة

والكياسة ، ولكنه لم يكتمل نضجه إلى درجة يتولى معها شئون السياسة والحكم . وكان أول عمل له بعد تولية منصبه فى براغ ، أنه أمر بإزالة المذابح والصور من كنيسة سانت فيتوس ، وهى الحرم الوطنى المقدس ، وسرعان ماعمد أتباعـــه بالمثل إلى تجريد سائر المزارات المقدسة فى بوهيميا . واستنكرت الاقلية الكاثوليكية هذا التصرف، واستاء منه اللوثريون البوهيميون ونظرت ألمانيا اللوثرية بفتور إلى هذا الكلفنى المتحمس وفى ٣٠ أبريل ١٦٢٠ أعلن فرديناند أن فردريك مغتصب للعرش ، وأصدر إليه الأمر بمغادرة الامبراطورية فى أول يونية ، وإلا اعتبر خارجا على القانون وصودرت أملاكه . وعرض الامبراطور أن يضمن عدم تعرض الوبات البروتستانتية الالمانية للهجوم ، إذا هى قطعت مثل هذا العهد للولايات الكاثوليكية . وفى معاهدة أولم (٣ يونية ١٦٢٠) قبل هذا العرض واحتج الأمراء البروتستانت بان فردريك عرض حريتهم للاخطار بتحديه فرديناند . وانحاز الناخب جون جورج أمير سكسونيا بولايته اللوثرية إلى الامبراطور الكاثوليكى .

وفى أغسطس عبر جيش أمبراطورى قوامة ٢٥ ألف رجل ، التمسا إلى بوهيميا بقيادة قائد مكسيمليان البافارى وهو جوهان تسركليس ،كونت تللى الذى تعلم التقوى على يد الجزويت ، وتلقى فن الحرب من دوق بارما وبالقرب من الجبل الأبيض ، إلى الغرب من براغ ، التقى هـذا الجيش بالبوهيميين وهزمهم هزيمة منكرة (٨ نوفمبر) . وفر فردريك واليزابث وحاشيتهما إلى سيليزيا . وعجز الملك والملكة عن جمع جيش هناك ، فالتمسا مأوى فى براند برج الكلفنية . وفى اليوم التالى للمعركة أحتل مكسيمليان أمير بافاريا براج . وسرعان ما أعيدت الكاثوليكة ، وأعيد وضع الصور فى الكنائس ، وأستدعى الجزويت ، ووضع التعليم تحت أشراف الكاثوليك ولم يبح إلا الديانة الكاثوليكية والديانة اليهودية ، وألغى العشاء الربانى بالخبز وبالنبيذ على حد سواء ، وكان يوم القديس جون هس من قبل عيدا وطنيا فجعل يوم حداد تغلق فيه كل الكنائس ، وقبض على ثلاثين من زعماء العصاة وأعدم

منهم سبعة وعشرون . ولمدة عشر سنين ظلت اثنتي عشرة جمجمة تطل متجهمة غاضبة من برج جسر شارل على نهر ملدو (٦٤) وحرمت الهجرة على كل العصاه والمتمردين ، وصودرت أملاكهم — لجانب الملك فرديناد الذى باعها بيع السلعة للكاثوليك ، وقامت طبقة نبلاء كاثوليك جديدة على أكتاف رقيق الأرض . وكادت الطبقات الوسطى والتجارية أن تختفى .

وعلى حين كان مكسيمليان أمير بافاريا يقهر الكلفنية فى بوهيميا على هذا النحو ، فان سبينولا أثناء الهدنة فى الأرض الوطيئة ، قاد قوة كبيرة من الفلاندرز للاستيلاء على البلاتينات ، وأعد بعض صغار الأمراء البروتستانت قوة لمقاومته وأنضم فردريك إليهم ، تاركا زوجته فى لاهاى . فلما أستدعى سبينولا إلى الأرض الوطيئة عند تجدد الحرب بين هولنده وأسبانيا ، حل محله تلى ، وهزم البروتستانت (١٦٢٢) وأستولى على هيدلبرج ، وأعمل فيها السلب والنهب وشحنت مكتبة الجامعة العظيمة فى خمسين عربة ونقلت إلى رومة هدية من مكسيمليان الباقارى إلى البابا جريجورى الخامس عشر . ولما عاد مكسيمليان منتصرا منح البلاتننات ميزتها الانتخابية ، لقاء ما أدى للامبراطور من خدمات . وأصبح للولايات الكاثوليكية الآن الأغلبية فى مجلس الديت الناخب .

أن مدى النصر الكاثوليكى وكماله وشموله أقلق بال الملوك الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . فان تزايد هيبه فرديناند الثانى وسلطانه كان يهدد « حريات » الأمراء الالمان ، كما أن مكسيمليان قلق حين وجد أنه قد سمح له بالاستيلاء على البلاتينات وبافار مع بقاء تبعيتهما للامبراطور . وتعاطف البابا أربان الثامن مع وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن آل هبسبرج أصبحوا من القوة بحيث باتوا خطرا على حرية البابوية وأغضى عما عمد إليه ريشليو من فرض ضرائب على الكاثوليك فى فرنسا لمساعدة الألمان البروتستانت وعن مساعدته بعد ذلك للملك سويدى ضد أمبراطور كاثوليكى . وفى ١٦٢٤ حول الكاردينال المدهش المنظر السياسى فجأة ،

بسلسلة متعاقبة من الضربات الدبلوماسية . ففى ١٠ يونيه وقع تحالفامع هولندة البروتستانتية ضد الفلاندرز وأسبانيا الكاثوليكيتين . وفى ١٥ يونية ضم إنجلترا البروتستانتية إلى الحلف ، وفى ٩ يوليه ضم إليه السويد والدنمرك ، وفى ١١ يوليه أقنع سافوى والبندقية بالانضمام اليه فى محاولة لقطع خط الامدادات والقوات الأسبانية النمسوية عبر ممرات الفالتللين فى جبال الألب الايطالية السويسرية . وفى ١٦٢٥ جاء كريستيان الرابع ملك الدنمرك بعشرين ألف رجل للانضمام إلى قوة مانسفيلد المكونه من أربعة آلاف رجل فى سكسونيا السفلى . وتولى الجزع مسكسيمليان ، فحث الامبراطور على أرسال نجدة إلى تللى الذى تناقص عدد جيشه من ١٨ ألفا إلى ١٠ آلاف بسبب الجو والجوع والمرض واستجاب فرديناند باستدعاء فالنشتين من بوهيميا .

٢ — فالنشتين : ١٦٢٣ - ١٦٣٠ :

كان أسمه الحقيقى ألبرخت فون فالنشتين ، وهكذا كان يوقع أسمه دائما (٦٥) . وكانت اسرته من أعرق الاسرات النبيلة فى بوهيميا . ولد فى ١٥٨٣ ، وتلقى تعليمه أولا على يد « الأخوة البوهيميين » ثم على يد الجزويت ، وتزوج من أرملة غنية طواها الردى سريعا ، تاركة له ثروتها ، وضاعف منها بشراء ثمان وستين ضيعة بثمن بخس ، بفضل خفض قيمة العملة البوهيمية ، من الاملاك التى صادرها فرديناند . وكان مالكا ذكيا تقدميا ، فحسن طرق الزراعه والإنتاج وحول الصناعة ونظم المدارس والخدمات الطبية وأعانات الفقراء ، وأدخر بعض الفائض ليقدم الغذاء لشعبه زمن القحط . ولم يؤثر فى في معاصرية بعبقريته العسكرية فحسب ، بل بجسمه الفارع النحيل ، ووجهه الشاحب الصارم ، وقلقه العصبى ، وزهوه وغطرسته وطبعه الحاد المسيطر . وجعلته « عفته التى لم يتحول عنها » (٦٦) ، يبدو وكأنه فوق مستوى البشر . وكانت ثقته بالتنجيم أقوى من إيمانه بالمسيح .

وملك قلب فرديناند وظفر بحبه ، بالوقوف إلى جانبه ومساندته فى كل

للمراحل التي رقى فيها الأرشيدوق إلى صولجان السلطان. ومن ١٦١٩ وما بعدها أقرض الامبراطور مبالغ ضخمة تكاد تسد نفقات العرش — على سبيل المثال مائتى ألف جلدن فى ١٦٢١ ، وخمسمائة ألف فى ١٦٢٣ . ولم يحصل على أية ضمانات لهذه القروض ، ويكفيه أنه كان يملك ربع بوهيميا ، ويستطيع أن يحشد جيشا متى شاء ، ويتولى قيادته بمهارة فائقة . وفى ١٦٢٤ عندما تحكم الفرنسيون والبنادقة فى ممرات فالتللين ، ولم يعد فى مقدور الجنود والمؤن الأسبانية الوصول من أيطاليا إلى النمسا ، عرض فالنشتين تجنيد خمسين ألف رجل ووضعهم فى خدمة الإمبراطور. فتردد فرديناند لما يعلم من غرام فالنشتين بالقوة والسلطة ولكن تللى فى ١٦٢٥ تعالت صيحاته يطلب المدد فكلف فرديناند فالنشتين بتجنيد عشرين ألف رجل . وفى سرعة مذهلة سار هذا الجيش إلى سكسونيا السفلى ، كامل العتاد ، حسن النظام والانضباط ، يحب قائده إلى حد العبادة ، ويعيش على مايسلبه من الريف .

وصد فالنشتين مانسفيلد فى دسو ، وهزم تللى كريستيان الرابع فى لتر (١٦٢٦) وقضى منسفيلد نحبه ، ووجد كريستيان جيشه الذى يتناقص عدده عاجزا متمردا . وأنقصمت عرى التحالف الكبير الذى كان ريشليو قد شكله نتيجة لحقد جوستاف أدولف على كريستيان الرابع ، وأعلان انجلترا الحرب على فرنسا ، وحملة بكنجهام لمساعدة الهيجونوت فى لاروشيل . فكان على ريشليو أن يسحب قواته من ممرات فالتللين ، التى عادت الآن مفتوحة أمام النمسا وأسبانيا . وتقدم فالنشتين الذى يزداد جيشه عددا يوما بعد يوم ، إلى براندنبرج وأرغم ناخبها جورج وليم على أعلان الولاء للامبراطور ، واندفع نحو دوقية كريستان نفسه . وهى هولستين ، وتيسر له القضاء على كل مقاومة فى غير عناء . وفى نهاية ١٦٢٧ كانت الأجزاء الداخلية من الدنمرك فى قبضته .

ووسع هواء البلطيق الملح من خطط فالنشتين ، فالآن وقد دان كل الساحل الشمالى الألمانى تقريبا ، ومعظم أرض الدنمرك ، للامبراطور ، فلم لا يبنى بحرية

امبراطورية ، ويحمي « الهانسا » ، وبالتحالف مع بولندة الكاثوليكية يمد سلطان الامبراطور على بحر البلطيق وبحر الشمال ، ومن ثم لا يعود الهولنديون والانجليز قادرين على الاتيان بالخشب من ثغور البلطيق عبر مياه السوند ليشدوا أساطيلهم ؛ ويتحكموا فى بحر الشمال وتجارته ويسدوا القنال فى وجه الأسبان أن امتلاك الامبراطور للبلاتينات ممكنة من السيطرة على نهر الراين . ومن ثم يكون الطريق مسدودا أمام الهولنديين فى النهر والبحر . فتنهار قوتهم وثروتهم العتيدة . ولسوف يصبح جوستاف أدولف محصورا فى شبه جزيرة اسكنديناوه وفى ١٦٢٧ كان فالنشتين بالفعل يعد نفسه ليكون أمير البحر فى المحيط وفى البلطيق .

ولم ينظر الأمراء الألمان بعين الرضا إلى انتصارات فالنشتين . ذلك أنهم رأوا أنه بينما نقص جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة مكسيمليان البافاري وكونت تللي إلى نحو ٢٠ ألف رجل ، فإن فالنشتين تولى أمرة قوات بلغ عددها ١٤٠ ألفا . كما أنه لا يعترف بأية مسئولية إلا أمام الأمبراطور وحده ومادام الأمبراطور مطمئنا إلى وجود جيشه من خلفه ، ففي مقدوره أن يحد من « حريات » الأمراء . والحق أن فالنشتين ربما كانت تراوده فكرة القضاء على الملكيات الاقطاعية وتوحيد ألمانيا بأسرها فى دولة قوية واحدة . كما كان يفعل ريشليو فى فرنسا ، وكما كان على بسمارك أن يفعل بعد ذلك بمائتين وأربعين عاما .

ولدى اجتماع الناخبين الأمبراطوريين فى مولهاوزن ، فى شتاء ١٦٢٧ - ١٦٢٨ ، تبادلوا الرأى فيما يراودهم من آمال ومايساورهم من مخاوف . ومال الناخبون الكاثوليك إلى تأييد فالنشتين ، ثقة منهم بأنه سوف يقتلع البروتستانتية من جذورها ويقضى عليها فى مهدها الأول . ولكن عندما أطاح فرديناند بدوق مكلنبرج البروتستانتى ، ونقل الدوقية إلى فالنشتين (١١ مارس ١٦٢٨) فإن الأمراء الكاثوليك أنفسهم تولاهم الجزع من استئثار الأمبراطور بسلطة

خلع الأدواق وتعيينهم وفق مشيئته هو وحده . وما كان أمام الأمراء الاورقة واحدة يلعبون بها أمام فرديناند ، فإنه كان على وشك أن يطلب إليهم ضمان اعتلاء ابنه العرش الامبراطورى . وفى ٢٨ مارس أبلغوه أنه مادامت جيوشه تحت امرة فالنشتين . فإنهم لن يقدموا ضمانا مثل هذا . كما حذره مكسيمليان البافارى ، من أنه إذا لم ينتقص من جيش فالنشتين ومن سلطاته وقوته ، فلا بد يوما من أن يملى هذا القائد سياسة الامبراطورية .

وكأنما لحظ فالنشتين هذا التحذير ، فإنه شرع ، وواضح أنه على مسئوليته الخاصة ، فى إجراء مفاوضات سرية مع كريستيان الرابع ، انتهت بصلح لوبك (٢٢ مايو ١٦٢٩) . ولدهشة أوربا كلها ، أعاد إلى ملك الدنمرك جتلند وشلزويج والقطاع الملكى من هولشتين . ولم يفرض تعويضا ، بل أنه طلب فقط تخلى كريستيان عن أسقفياته الألمانية وسلطته العسكرية ، ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الكرم ، إنه من ناحية ، الخوف من ائتلاف الغرب ضد السيطرة الإمبراطورية على البلطيق والمضايق ، ومن ناحية أخرى الاعتقاد بأن جوستاف أدولف كان يخطط لغزو ألمانيا ، وأخيرا ، تنبأ فالنشتين بأن القضية ستكون بينه وبين جوستاف لا كريستيان .

وربما أقلق استحواذ فالنشتين على السلطة الدبلوماسية بال الإمبراطور ، ولكن كان لزاما عليه أن يخفى شكوكه وحقده المتزايدين ، لأنه كان الآن يخطط أجرأ حركة فى تاريخه ، وقد يكون فى حاجة ماسة إلى مساندة قوات فالنشتين فى كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة الخطرة . أن مستشاريه الجزويت طالما ناشدوه الاستعانة بقوته الجديدة وبقرار إمبراطورى ، لتسترد الكنيسة الكاثوليكية ، بقدر الإمكان ، أملاكها ومواردها التى اقتطعت منها منذ بداية الإصلاح الدينى ، أو على الأقل منذ ١٥٥٢ . ورأى فرديناند الكاثوليكى الشديد التمسك بعقيدته فى هذا المطلب شيئا من العدالة ، ولكنه لم يقدر كل التقدير صعوباته العملية ، فقد بيعت منذ ١٥٥٢ ممتلكات كثيرة من تلك التى كانت ملكا للكنيسة ، ودفع ملاكها الحاليون ثمنها . ولتنفيذ هذا ، أى استرداد

الكنيسة لأملاكها ، لابد من تجريد آلاف من الملاك من ممتلكاتهم ، والمفروض أن يتم هذا عنوة ، وقد تؤدى الفوضى الناتجة عن هذا بألمانيا إلى ثورة . وكان مكسيمليان أمير بافاريا يوما يحبذ هذه الفكرة ، ولكنه الآن فزع لمداها ومضاعفاتها ، وحث الإمبراطور على إرجائها حتى يدرسها مجلس الديت دراسة مستفيضة . وخشى فردیناند أن يرفضها الديت . وفى ٦ مارس ١٦٢٩ نشر « قرار إعادة أملاك الكنيسة » ، وجاء فيه « لم يبق أمامنا إلا أن نأخذ بيد الجماعة المظلومة ، ونبعث بموظفينا ليطلبوا إلى الملاك الحاليين غير المفوضين قانونا أن يعيدوا كل الأبرشيات والأسقفيات والأديار ، وسائر الممتلكات الكنيسية التى صودرت منذ معاهدة باسو ١٥٥٢ . وكان هـذا «الإصلاح المضاد» المقترن بالانتقام وكان كذلك توكيداً للسلطة الإمبراطورية المطلقة . وهى سلطة مطلقة ربما تردد حتى شارل الخامس نفسه فى انتحالها لشخصه .

وقوبل القرار باحتجاجات صارخة على نطاق واسع ، ولكنه نفذ . وحيثما وجدت أية محاولة لمقاومته استدعى جنود فالنشتين وأخمدوها فى كل مكان باستثناء مجد برج التى نجحت فى مقاومة حصار فالنشتين لها . وعادت مدن بأكملها أوجزبرج ، روتنبرج ، دورتمند ، وثلاثون بلدة صغيرة إلى أيدى الكاثوليك ، وكذلك عاد إليهم خمس أسقفيات ومائة دير ، ونظمت من جديد مئات الأبرشيات الكاثوليكية ، ولما طبق المالكون قاعدة « الناس على دين ملوكهم » . متطلبين من الرعايا أن يتقبلوا مذهب الحاكم ، اضطر آلاف البروتستانت أن يرتدوا أو يهاجروا . ومن أوجزبرج وحدها نفى ثمانية آلاف ، بما فيهم الياس هل الذى كان قد فرغ لتوه من بناء دار البلدية الضخمة وهام القساوسة البروتستانت المنفيون على وجوههم فى طول البلاد وعرضها يسألون الناس الخبز ، حتى أن القساوسة الكاثوليك الذين حلوا محلهم استصرخوا الحكومة أن تغيثهم(٦٧) . وما حال دون النجاح النهائى للقرار وللاصلاح المضاد فى ألمانيا ، إلا قدوم جوستاف أدولف .

وإذ استنفذ فرديناند غرضه فى استخدام فالنشتين فى تنفيذ القرار . ولم يجد أية قوات بروتستانتية فى الميدان ، فإنه لم يعد حريصا على الاحتفاظ بقائده . فطلب إليه فى مايو ١٦٣٠ أن يتخلى عن ٣٠ ألفا من جنوده للخدمة فى إيطاليا، فاعترض فالنشتين محتجا بأن ملك السويد يخطط لغزو ألمانيا، فغلب أمره ، وأرسل الثلاثون ألف جندى إلى إيطاليا . وعاد الناخبون فى يوليه واقترحوا عزل فالنشتين . ووافق الإمبراطور، وفى ١٣ سبتمبر أبلغ ضباط الجيش بأن مكسيمليان أمير بافاريا قد حل فى منصب القيادة العليا محل قائدهم وعاد فالنشتين فى سلام إلى ضياعه فى بوهيميا ، وهو يعلم أن جوستاف قد دخل الأراضى الألمانية ، وأن الإمبراطورية لابد أن يكون وشيكا فى حاجة إلى قائد .

٣ — قصة جوستاف البطولية : ١٦٣٠ — ١٦٣٢ :

ينبغى ألا نصور العاهل العظيم فى صورة « جالاهاد » أى فى صورة رجل نبيل طاهر ، تقدم لإنقاذ الديانة الحقة من الوثنيين . . كانت مهمته أن يدعم ويحافظ على استقلال السويد السياسى ونموها الاقتصادى ومن أجل هذين الهدفين قاتل بولندة الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسية والدنمرك البروتستانتية فإذا تجاسر الآن ، بموارده المتواضعة على الدخول فى مباراة ضد الامبراطورية والبابوية وأسبانيا ، مجتمعة ، فما ذلك بسبب الكثلكة ، بل لأنهم هددوا بتحويل بلاده إلى تابع ذليل لملوك غرباء معادين . وأحس بأن خير دفاع ضد مثل هذا الخطر المحدق ، هو إقامة معاقل محصنة سويدية فى الداخل . وترددت سكونيا البروتستانتية ، وانساقت فرنسا الكاثوليكية إلى التحالف مع جوستاف ، لأنها أدركت أن القضية لم تعد نظرية فى اللاهوت بل كفاحا من أجل الأمن عن طريق القوة . ومهما يكن من أمر ، فإن العقيدة ، على الرغم من أنها دافع ضئيل لدى القادة والزعماء ، حافز مثير قوى لدى الشعب ، ويجب أن تضاف طاقتها إلى الروح الوطنية ، لتدفع بالناس إلى ميدان القتال .

وهكذا نزل جوستاف بقواته البالغ عددها ١٥ ألفا فى بوميرانيا، وتقدم إلى الولايات الألمانية الشمالية بوصفها منقذة البروتستانتية ومخلصتها، وإلى فرنسا بوصفها سيفا مصلتا ضد أسرة هبسبرج المنتفخة. وانتظر المدد من السويد والدنمرك وبراندنبرج وبولندة حتى تجمع لديه نحو ٤٠ ألف جندى فى أحسن نظام، مسلحين ببنادق حديثة الطراز، مدربين على سرعة الحركة بمدفعيتهم الخفيفة. ولم يزل القائد بعد شابا فى السادسة والثلاثين، ولكن على الرغم من حملاته فقد اشتد عوده وقوى جسمه، ودوخ جياده كما دوخ أعداءه، وعلى الرغم من ذلك، كان غالبا ما يتقدم الصفوف، سائرا بلحيته الذهبية نحو النصر. وأحبه جنوده لا لأنه منصف. وعلى حين تبع الجيوش الألمانية أفواج من البغايا بلغ من كثرتهن تخصيص بعض الضباط لحفظ النظام بينهن، فإن جوستاف لم يسمح بمحظيات أو مومسات فى معسكره، ولو أن الزوجات سمح لهن بالقيام بخدمة أزواجهن من الجنود(٦٨). وكانت كل كتيبة تؤدى الصلوات فى الصباح وفى المساء، وتستمع إلى عظة كل يوم أحد. وهذا كان نظام رجال كرومول الحديديين قبل وقوع حروب كرومول بعشر سنين وحرم جوستاف، كما حرم كرومول، الارتداد عن الدين قسرا، وحيثما دخل فاتحا ترك الديانة حرة.

وقضى جوستاف بقية عام ١٦٣٠ فى بسط سلطانه على بواميرانيا، وفى البحث عن حلفاء. فاذا تيسر له أن يجمع كل أعداء آل هبسبرج فى حرب صليبية واحدة. لاجتمع له مائة ألف جندى صالحين لملاقاة جيش فلنشتين. وفى ١٣ ديسمبر ١٦٣١ وقعت فرنسا والسويد ميثاقا يحصل الملك بمقتضاه على الرجال، ويدفع الكاردينال (ريشيليو) ٤٠٠ ألف تالر (٤ ملايين دولار؟) سنويا لحملة مدتها خمس سنوات، ولا تعقد أى من الدولتين صلحا دون موافقة الأخرى. والتزم جوستاف بألا يتدخل فى أمر ممارسة العقيدة الكاثوليكية ودعا ريشليو مكسيمليان للانضمام إلى هذا التحالف، ولكن الدوق الناخب بدلا من ذلك أرسل القائد تلى ليعوق تقدم الجيش السويدى. واستولى تلى

على نيوبراند نبرج (١٩ مارس ١٦٣١) وذبح حاميتها المكونة من ٣٠٠٠ رجل . وفى ١٣ أبريل أخذ جوستاف فرانكفورت وذبح حاميتها المكونة من ألفى رجل ، وبينما قضى الملك وقته فى بذل الجهد لضم جون جورج ناخب سكسونيا إلى الحلف ، حاصر تللى وكونت بابنهايم مجدبرج التى كانت لا تزال تقاوم « قرار اعادة أملاك الكنيسة » . وفى ٢٠ مايو وبعد صمود لمدة ستة أشهر ، سقطت المدينة ، وأعمل الجنود المنتصرون فيها السلب والنهب لمدة أربعة أيام . وقتل فى هذه الحروب عشرون ألف رجل ، لا الحامية المكونة من ثلاثة آلاف فقط ، ولكن قتل كذلك ١٧ ألفا من سكان المدينة البالغ عددهم ٣٦ ألفا ، وأحرقت المدينة عن آخرها فيما عدا الكاتدرائية . ووصف هذا المنظر فقال : —

> لم يعد هناك شيء الا الضرب والحرق والسلب والنهب والتعذيب والقتل وحرص كل فرد من الأعداء، بصفة خاصة، على الحصول على أكبر قدر من الغنائم . وتحت التهديد بالضرب أو الرمى بالرصاص أو الذبح أو الشنق ، أرهب الاهالى المساكين وفزعوا ، فلو تبقى لديهم شيء لاحوجوه لوكان مخبأ فى ألف حرز مكين . وفى حمأة الغضب المسعور ، إجتاحت ألسنه النيران المدينة العظيمة الفخمة التى قامت وسط الأرض كعروس جميلة وعذب وأعدم آلاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال . وسط ضجة رهيبة من صيحات وصرخات تمزق الفؤاد ، بطريقة وحشية مخزية ، تقصر أية كلمات عن وصفها . وأية دموع عن ندبها والتوجع لها (٦٩) .

وبذل تللى ، وهو الآن شيخ هرم فى الواحدة والسبعين ، كل ما فى وسعه لوقف المذبحة . وتنبأ بحق بأن الولات البروتستانتية « دون ريب سوف تشتد كراهيتها » بسبب تخريب واحدة من أجمل مدنهم .

وفى ٢٢ يوليه ١٦٣١ وضع ناخب براند نبرج كل موارده تحت تصرف جوستاف وفى ٣٠ أبريل ألف جون جورج بين سكسونيا والسويد . وفى ١٧ سبتمبر سحقت الجيوش السويدية والسكسونية المجتمعة قوات تللى عند بريتنفليد بالقرب من ليبزج وكان هذا أول نصر بروتستانتى هام فى الحرب، وقد أحيا روح السكان البروتستانت . وأصبح شخص ملك السويد الذى كان يقاتل دون درع فى قلب المعركة يعلوه الغبار ، ويتصبب منه العرق ، يوجه ويقود رجاله غير هياب ولا وجل ، نقول أصبح رمزا يشد من عزم شعب كان منذ عهد قريب بمرة عاجز يرهب جيش فالنشتين . واستردت مكلنبرج ، وأعيد الدوق المخلوع إلى عرشه ، ودخلت الولايات ، الواحدة تلو الأخرى ، الحلف السويدى وسرعان ما سيطر جوستاف على خط يمتد عبر ألمانيا من الأودر إلى الراين واتخـــذ مقر قيادته فى ماينز فى قلب إقليم كاثوليكى عادة . وفى نوفمبر سار جون جورج بجيشه السكسونى إلى براج دون أن يلقى أية مقاومة ، وكان حريصا على عدم مهاجمة ضياع فالنشتين فى طريقه .

والآن وقد بقى فرد يناند بلا حليف اللهم الا أسبانيا الفقيرة المعدمة ، وبلا قائد سوى تللى العجوز ، فانه فى تواضع ذليل ولى وجهه شطر فالنشتين (ديسمبر ١٦٣١) وطلب إليه أن يجهز جيشا لانقاذ بوهيميا وحماية النمسا . ووافق القائد المزهو المغرور ، ولكن بشروط غريبة شاذة أن تكون له القيادة العليا على كل القوات الامبراطورية ، وتكون له سلطة التفاوض وتوقيع المعاهدات إلا مع جوستاف ، ويكون له فى البلاد التى يفتحها حق مصادرة الأملاك واصدار العفو وفى أبريل ١٦٣٢ قبلت هذه الشروط جميعها . وجمع فالنشتين جيشا ، كما جمع الأموال اللازمة له ، وعرض على جون جورج صلحا منفردا واستعاد براج دون طلقة واحدة . وانسحب الجيش السكسونى إلى سكسونيا .

وفى الوقت نفسه أستأنف جوستاف القتال ، وهزم تللى عند « رين » (١٥ أبريل) . ومات تللى بعد ذلك بأسبوعين متأثرا بجراحه . واحتل

جوستاف ميونيخ ، وسار فالنشتين بجيشه من بوهيميا وأنضم إلى جيش مكسيمليان (وهنا تفوقت هذه القوات على جيش جوستاف عددا ، إلى حد بعيد ، وأوتاب حلفاؤه فى أن له أطماعا أمبراطوية، فانتابهم القلق وأصبحوا لا يعتمد عليهم ، كما أن قواته كانت على شفا الموت جوعا ، فأعملت السلب والنهب فى البروتستانت والكاثوليك ونفرتهم منه ، على حد سواء . وأعرب جون جورج ، وقد لعبت الخمر برأسه يوما عن تلهفه على التخلص من ملك السويد وكان جوستاف يأمل فى الاستيلاء على فيينا ، ولكنه كان يخشى إنحياز جون جورج إلى فالنشتين ، فتحول إلى الشمال . وفى نورمبرج ، وهو يدرك تمام الادراك أن الريح غير مواتية له ، أرسل تعليماته الأخيرة إلى أوكسنستيرنا ليتولى شئون الحكومة السويدية والحرب . وفى أرفورت ودع زوجته ، وفى ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ ، فى لوتزن بالقرب من ليبزج ، التقى القائدان العملاقان فى ذاك العصر ، وجها لوجه ، وجيش جوستاف ٢٥ ألفا ، وجيش فالنشتين ٤٠ ألفا . واقتتل الجيشان طول اليوم ونزفا ، وأضطربا ثم التأما ، وأضطر فالنشتين إلى التراجع ، ولكن بابنهيم قلب الهزيمة رأسا على عقب، إلى أن أصابته طلقة فى رئته فاختنق بالدم وقضى نحبه . أما جوستاف فانه رأى قلب جيشه يتقهقر ، فقام بنفسه ، على رأس كتيبة من الفرسنان ، وقاد هجمة ضاربة ، ولكن رصاصة أصابت يده اليسرى ، وأخرى أصابت جواده فسقط عنه ثم نفذت رصاصة إلى ظهره . فتجمع الفرسان الدارعون الامبراطوريون حول وسألوه من يكون ، فأجابهم : أنا ملك السويد الذى قد ضمن عقيدة الأمة الألمانية وحريتها بدمه [٧٠] فانهالوا عليه بسيوفهم مرة ومرة ، ثم أعلنوا بأعلى أصواتهم نبأ موته ، وتولى القيادة بعده برنهارد دوق ساكس ويمار . وأحرز السويديون الذين جن جنونهم بفقدمليكهم، أنتصارا باهرا واستخلصوا جثمان جوستاف الذى شوهته الطلقات والطعنات . وفى تلك الليه ابتهج المنهزمون فرحا ، واغتم المنتصرون حزنا ، لأن أسد الشمال قضى نحبه .

٤ ـ انحلال (١٦٣٣–١٩٤٨)

ومن ذلك الحين اختفت عظمة الحرب، وتولى ريشليو زعامة البروتستانت الالمان ونفذ أوكسنستيرنا وصية سيده المتوفى فى دبلوماسية حكيمة . وقاد برنارد دوق ساكس ويمار الفرنسيين ، وبانير وتورستنون السويديين إلى إنتصارات جديدة . ولكن الأمجاد ولت ولم يبق إلا الذعر والفزع . وتنفس الأمراء البروتستنت الصعداء إلى حد ما ، بموت جوستاف ، وتذمروا من الثمن الباهظ الذى أجبروا على تقاضيه لقاء تخليصهم من فرديناند ، وفى هذه العملية اتلفت الأطراف المتنازعة مزارعهم ودمرت مدنهم ، وقاد ملك أجنبى الالمان ضد الالمان ، وبلغ عدد الضحايا مائة ألف .

ويبدو أن فالنشتين فقد أعصابه منذ ذاق طعم الهزيمة لأول مرة . وبعد لوتزن عاد إلى بوهيميا وجهز فى أناة وروية جيشاً آخر ، ولكنه أيضاً ، وقد بلغ الآن الخمسين ، سئم الحرب وتمنى بعض الفراغ ليعالج داء النقرس . فتفاوض ، مستقلا ، مع زعماء البروتستانت ، حتى مع ريشليو[٧١] ولا بد أن فرديناند يكون قد علم أن المنفيين البوهيميين ، بموافقة أكسنستيرنا ، كانوا يتآمرون لاجلاس فالنشتين على عرش بوهيميا[٧٢] . وعندما قاد برنارد دوق ساكس ويمار جيشاً إلى بافاريا توسل مكسيمليان وفرديناند إلى فالنشتين أن يسرع لنجدتهما . ولكنه أجاب بأنه ليس فى مقدوره أن يعد الرجال لعمل من هذا القبيل . لقد وزع جيشه العاطل على الضياع الامبراطورية فى بوهيميا ، وطلب إليه الامبراطور أن يخفف الأعباء المفروضة على هذه الأراضى الامبراطورية فأبى .

وفى ٣١ ديسمبر ١٦٣٣ قرر فرديناند ومجلسه أنه لابد من عزل قائدهم الأعظم ، وتناثرت الشائعات فى جيش فالنشتين تقول بأنه يتآمر لينصب نفسه ملكاً على بوهيميا ولويس الثامن ملكاً على الرومان . وفى ١٨ فبراير وزعت

أوامر امبراطورية على الجيش تحله من قيادة فالنشتين، وبعد ذلك بأربعة أيام، ولى هاربا من بلزن، ومعه ألف رجل. وفى اليوم الخامس والعشرين انقض على غرفته فى إيجر نفر من الجنود الطامعين فى المكافأة، فوجدوه وحيدا أعزل. وأشبعوه طعنا بسيوفهم، ويقول أحد المعاصرين «وفى الحال جروه من قدميه، يصطدم رأسه بكل درجة من درجات السلم[٧٣]». وأسرع القتلة إلى فيينا حيث نالوا ترقية ومالا وأرضا. أما الامبراطور الذى قضى ليالى وأياما، يستبد به الخوف، يتعبد ويتهجد، فقد حمد الله على معاونته سبحانه.

واستمرت الحرب تجر أذيالها أربعة عشر عاما أخرى. وحل ابن فرديناند وسميه البالغ من العمر ستا وعشرين سنة، محل فالنشتين فى منصب القائد الأعلى للجيوش الامبراطورية. وكان شابا جديرا بأن يحب، متعلما، عطوفا كريما، يحب الفلسفة، ويكتب الموسيقى، ويحفر العاج، ومع ذلك لم يكن جاهلا بفنون الحرب. ودحر بمساعدة القواد القدامى، برنارد فى نوردلنجن، وهى أعظم المعارك الامبراطورية حسما فى الحرب. وكادت القوات البروتستانتية أن تنهار تماما، لولا أن أوكسنستيرنا أنقذ الموقف بعقد معاهدة كومبين (٢٨ أبريل ١٦٣٥) التى هيأت لريشليو إسهاما كاملا فى الصراع. ولكن الأمراء البروتستانت فى ألمانيا لم يستسيغوا مشهد كردينال فرنسى يتحكم فى مصيرهم. وتبعوا، الواحد منهم يتلوا الآخر، جون جورج أمير سكسونيا فى عقد الصلح مع الامبراطور الذى رحب بهم، حيث ألفى نفسه تواجهه الجيوش والأموال الفرنسية معا. وبمقتضى معاهدة براغ (٣٠ مايو ١٦٣٥) وافق الامبراطور على وقف العمل بقرار إعادة أملاك الكنيسة لمدة أربعين عاما. وفى مقابل ذلك وعد معظم الأمراء البروتستانت بمساعدته وحلفائه على استرداد الأراضى التى فقدوها منذ مجيء جوستاف أدولف. ولما كانت هذه الأراضى تشمل اللورين. فإن المعاهدة فى الواقع كانت موجهة ضد فرنسا. والسويد، وكانت توكيدا جديدا للوحدة الألمانية ضد الغزاة. وتوارت المشكلة الدينية عن ميدان القتال. وفى نهاية عام ١٦٣٥ كان جيش سكسونيا

البروتستانتية يقاتل السويد البروتستانتية فى ألمانيا الشمالية حيث كان بانير وتورستنسون يناضلان ، بعبقرية عسكرية حديرة بجوستاف ، من أجل الاستيلاء على بعض مواقع قارية من أجل أمن السويد .

وفى الغرب وقف برنارد بشجاعة فى وجه القوات الامبراطورية المتزايدة وفى ١٦٢٨ أمدته فرنسا بالأموال ، وأفضل منها بألفى جندى بقيادة تورن الذى صعد نجمه آنذاك كقائد . وشن برنارد ، بعد أن وصلته الامدادات على هذا النحو ، حملة جديرة بأن تسجلها حوليات الحرب ، من أجل التشبث بالهدف ودقة الاستراتيجية ، وهزم الامبراطوريين فى وينتوير . وأجبر قلعة بريساخ العظيمة على الاستسلام ، وأنهكت قواه وهو فى الرابعة والثلاثين فقضى نحبه (١٦٣٩) وذهب جيشه وفتوحاته ، بما فيها اللورين . إلى فرنسا .

وفارق الامبراطور العجوز الحياة ، وخلا منه المسرح ١٦٣٧ . وورث فرديناند الثالث إمبراطورية تعانى فقرا وحرمانا لا سبيل للخروج منهما ، يكاد أن يكون من المستحيل معهما الإنفاق على جيوش تقف فى وجه ريشليو الذى ما زال قادرا على ابتزار الفرنكات من فرنسا المعدمة . وفى ١٦٤٢ وصل تورستنسون بجيش السويد إلى مسافة ٢٥ ميلا من فيينا ، وأحرز نصرا مبينا فى معركة برتينفيلد الثانية ، حيث فقد الإمبراطوريون نحو ١٠ آلاف رجل ، مما حدا بالأرشيدوق المنهزم ليوبولد وليم ، أخى الإمبراطور الشاب إلى محاكمة ضباطه أمام مجلس عسكرى ، بتهمة الجبن والخور . وقطع رؤوس ذوى الرتب الكبيرة ، وشنق من هم أقل منهم رتبة ، وأطلق الرصاص على عشر الباقين على قيد الحياة من سائر الرتب[٧٤] .

وبدا الآن أن كل عام يأتى بضربات جديدة تنصب على رأس الامبراطور الجديد . ففى ١٦٤٣ تحطمت أسبانيا بانتصار دوق انجين فى ركروا . وفى ١٦٤٤ غزا انجين وتورن أراضى الراين حتى شمال ماينز ، وفى ١٦٤٥ تقدم تورستنسون حتى صار على أبواب فيينا تقريبا ، وانتصر الفرنسيون فى معركة دامية عند الليرهيم ، واجتاح جيش سويدى بقيادة كونت هانس كريستوف

فان كونجز مارك سكسونيا واستولى على ليبزج ، وأرغم جون جورج على الخروج من الحرب . وكان الجيش البافارى قد طرد من البالاتينات فى ١٦٣٤ أما الآن ، فى ١٦٤٦ فقد غزا تورن بافاريا نفسها وخربها ، وتوسل مكسيمليان الذى كان قد ركبه الغرور يوما ، إلى عقد الصلح ، والتمس من الامبراطور أن يفاوض فرنسا من أجل الصلح . ولم يكن فرديناند الثالث صلبا لا ينثنى ، مثل أبيه ، وكانت تصل إلى مسامعه صرخات الإمبراطورية المنهوكة ، فأرسل أقدر مفاوضيه إلى وستفاليا ، سعيا وراء شىء من التوفيق بين العقائد وبين الأسرات .

كان الإمبراطور الشاب أصغر من أن يدرك أن المذبحة والخراب ربما كانا أفظع ما اقترفته أيدى البشر فى جيل واحد فى أى بلد من قبل . فلم يكن هناك جيشان ، بل ستة جيوش - الألمانى والدنمركى والسويدى واليوهيمى والأسبانى والفرنسى معظمها من الجيوش المرتزقة أو الأجانب الذين لا تربطهم أية صلة بالشعب أو التراب أو التاريخ الألمانى ، يقودهم عسكريون مغامرون يقاتلون من أجل أية ملة نظير أجر ، وهى جيوش تعيش على استسلاب الحبوب والفاكهة والماشية من الحقول ، تقيم أو تأوى فى الشتاء إلى مساكن الشعب ، جزاؤها هو حقها فى السلب والنهب ، وابتهاجها بالقتل والغصب . وكان مبدأ مقبولا مسلما به لدى كل الأطراف المتحاربة ، أن تذبح أية حامية كانت قد رفضت الاستسلام بعد أن أصبح الاستسلام أمرا لا مناص منه ، وأحس الجنود أن المدنيين فرائس أو ضحايا مشروعة ، فأطلقوا الرصاص على أقدامهم فى الشوارع ، وجندوهم لخدمتهم . وخطفوا أطفالهم من أجل الحصول على الفدية وأشعلوا النار فى مخازن التبن وأحرقوا الكنائس لمجرد التسلية واللهو . لقد قطعوا أيدى وأرجل قسيس بروتستانتى لأنه قاوم تحطيم كنيسته ، وربطوا القساوسة تحت العربات ، وأجبروهم على الزحف على أيديهم وأرجلهم حتى خارت قواهم من الإعياء[٧٥] ، وكان حق الجندى فى اغتصاب النساء أمراً مسلما به ، فإذا طلب والد أن يحاكم جندى اغتصب ابنته وقتلها ، أبلغه الضابط

المختص بأنه لولم تكن ابنته ضنينة بعذريتها إلى هذا الحد لبقيت على قيد الحياة[٧٦] .

وعلى الرغم من الاختلاط المتزايد تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب ، وكان التناقص مبالغاً فيه وكان مؤقتاً ، ولكنه كان فاجعاً . وتقول التقديرات المعتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من ٢١ إلى ١٥ مليونا[٧٧]. وقدر الكونت فون لوزو أن عدد سكان بوهيميا هبط من ثلاثة ملايين إلى ٨٠٠ ألف [٧٨] . وبين ٣٥ ألف قرية في بوهيميا ١٦١٨ ، هناك نحو ٢٩ ألف قرية هجرها أهلوها أثناء الصراع[٧٩] . وهناك في مختلف أنحاء الامبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد،وقد يقطع المرء في بعض الأقاليم ستين ميلا دون أن يرى قرية أو بيتاً[٨٠] ، وكان في ١٩ قرية في ثورنجيا في ١٦١٨ نحو ١٧١٧ بيتا ، لم يتبق منها في ١٦٤٩ سوى ٦٢٧ بيتا ، لم يكن كثير منها آهلا بالسكان[٨١] .

وتركت آلاف الأفدنة الخصيبة دون فلح أو زرع بسبب نقص الرجال أو الدواب أو البذور ، أو لأن الفلاحين لم يكونوا على ثقة من أنهم سوف يحصدون نتاج ما يزرعون . واستخدمت المحصولات لإطعام الجيوش ، وكان ما تبقى يحرق لئلا يستفيد منه الأعداء . واضطر الفلاحون في كثير من الأماكن إلى أكل الفضلات المخبأة ، أو الكلاب أو القطط أو الفيران ، أو جوز البلوط أو الحشائش ،وقد وجد بعض الموتى وفي أفواههم بعض الحشائش وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والكلاب على لحم الخيول الميتة . وفى الالزاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة ، تلهفا على التهام جثثهم . وفى أراضي الراين كانت القبور تنبش وتباع الجثث لتؤكل . واعترفت امرأة فى زويبروكن بأنها أكلت طفلها [٨٢] . وتعطلت وسائل النقل إلى حد تعذر معه نقل الفائض فى جهة إلى جهة أخرى بعيدة محرومة . وتهدمت الطرق بسبب المعارك ، أو بات من الخطر إرتيادها بسبب قطاع الطرق ، أو ازدحمت بالمهاجرين واللاجئين .

وعانت المدن الصغيرة أقل مما عانت القرى . وهبط عدد سكان كثير منها إلى نصف ما كان عليه من قبل . وأصبحت المدن الكبرى أطلالا خربة — مجدبرج ، هيدلبرج نورمبرج ، نيو ستاد ، بايريت . وتدهورت الصناعة لعدم وجود المنتجين والمشترين والحرفيين ، وكسدت التجارة . وصار التجار الذين كانوا يوما أثرياء يتسولون أو يسرقون ويسلبون من أجل لقمة العيش . وامتنعت الكوميونات عن دفع ديونها بعد أن أعلنت أفلاسها . وأحجم الممولون عن الإقراض خشية أن تتحول القروض إلى هبات أو منح . وأفقرت الضرائب كل الناس ، اللهم إلا القواد والجباة والقساوسة والملوك ، وبات الهواء ساما بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعفنة فى الشوارع . وانتشرت أوبئة التيفوس والتيفود والدوسنطاريا والاسقربوط بين السكان المذعورين ، ومن بلدة إلى أخرى . ومرت القوات الأسبانية بمدينة ميونيخ فتركت وراءها طاعونا أودى بحياة عشرة آلاف ضحية فى أربعة شهور[٨٣] . وذوت وذبلت فى أتون الحرب الفنون والآداب التى كانت تضفى على المدن شرفا ومجداً .

وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء ، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية . واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل ساده العنف ، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب ، أو يقاتلون بسبب الكراهية . على حين عبأ سادتهم عواطفهم فى التنافس على اقتناء الأراضى التى يمكن أن يجمعوا منها الضرائب ، وعلى السلطة السياسية . وهنا وهناك ظهرت بعض النواحى الإنسانية ، فكان الجزويت يجمعون الصدقات ليطعموا الأطفال الذين لا عائل لهم ، كما كان الوعاظ يطلبون إلى الحكومات وضع حد لسفك الدماء وللدمار . وكتب أحد الفلاحين فى مذكراته اليومية « اللهم أنا نتوسل إليك أن تضع نهاية لما نلاقى ، اللهم أما نتوسل إليك أن تعيد لنا السلام . يا إله السموات أنزل علينا السلام[٨٤] » .

٧ — صلح وستفاليا

كان الحكام ورجالهم الدبلوماسيون منـــذ ١٦٣٥ يجسون النبض ويتحسسون الرأى من أجل السلام . وفى تلك السنة اقترح البابا أربان الثامن عقد مؤتمر لبحث شروط المصالحة ، واجتمع المندوبون للتفاوض فى كولون. ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة . وفى همبرج فى ١٦٤١ صاغ ممثلو فرنسا والسويد والامبراطورية اتفاقية مبدئية لينعقد مؤتمر مزدوج فى وستفاليا فى ١٦٤٢ ، ففى مونستر تلتقى فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكلهما فى ظل وساطة البابا والبندقية، وفى أوسنابروك، على بعد ثلاثين ميلا، تلتقى فرنسا والامبراطورية مع السويد لإجراء المفاوضات فى ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدنمرك . وكان هـذا الفصل « المطهر » ضروريا بسبب عدم رغبة المندوبين السويديين فى الاجتماع تحت رياسة ممثل البابا ، ورفض ممثل البابا أن يجلس فى صعيد واحد مع « الزنادقة » .

وجاء التأخير نتيجة إجراءات الأمن وقواعد البروتوكول . واستحث انتصار تورستنسون فى بريتنفيلد الامبراطور إلى الوعد بأن مندوبيه سيصلون فى ١١ يولية ١٦٤٣ ، وتلكأ المندوبون الفرنسيون بينما كانت فرنسا تدبر التحالف مع المقاطعات المتحدة (فى الأراضى الوطيئة) ضد أسبانيا . وافتتح مؤتمر وستفاليا شكلا فى ٤ ديسمبر ١٦٤٤ ، وضم ١٣٥ عضوا بما فيهم رجال اللاهوت والفلاسفة . وانقضت منذ ذاك اليوم ستة شهور فى تحديد نظام الأسبقية فى دخول المندوبين إلى القاعات وجلوسهم وما كان السفير الفرنسى ليدخل فى المفاوضات إلا إذا خوطب بلقب « صاحب الفخامة » . وعندما وصل السفير الأسبانى تجنب السفير الفرنسى ونأى بنفسه عنه ، لأن أيا منهما لا يعترف للآخر بالأسبقية ، واتصل كل منهما بالآخر عن طريق شخص ثالث . ورفضت فرنســـا الاعتراف لفيليب الرابع بلقب ملك البرتغال وأمير قطالونيا . كما رفضت أسبانيا الاعتراف بلقب ملك نافار للويس الرابع

عشر . وتنازع المندوبون السويديون فيما بينهم وأضاعوا الوقت حتى صدرت إليهم أوامر الملكة الشابة الجريئة كريستينا بأن يصلحوا فيما بينهم. ثم يعقدوا مع العدو . وفى الوقت نفسه كان الرجال يذهبون إلى الحرب ليلقوا حتفهم .

وعلى قدر ما كانت جيوش كل فريق منتصرة أو مقهورة ، تلكأ المندوبون فى المفاوضات أو عجلوا بها ، وشغل المحامون أيما شغل بخلق الصعوبات أو إبتداع الحلول الوسط ووسائل التوفيق، يحلون العقد أو يزيدونها تعقيدا . وكان قواد فرنسا يسيرون بخطى واسعة ، ومن ثم فإنها أصرت على تمثيل كل أمراء ألمانيا فى المؤتمر ، على الرغم من أن معظمهم كان قد عقد الصلح مع الامبراطور منذ أمد طويل . وطاب إلى الزمن أن يتوقف حتى يرسل كل الناخبين والأمراء والمدن الامبراطورية ممثليهم ، ورغبة فى إضعاف مركز فرنسا ، عمدت أسبانيا (٨ يناير ١٦٤٨) إلى توقيع صلح منفرد مع المقاطعات المتحدة - التى كانت لتوها قد وعدت فرنسا بعدم توقيع صلح منفرد ، ولكن الهولنديين لم يكونوا ليضيعوا الفرصة التى لاحت لهم ليكسبوا بجرة قلم ما قاتلوا من أجله طيلة ثمانين عاما . فكان جواب فرنسا على هذا أنها رفضت عقد الصلح مع أسبانيا ، واستمرت الحرب بينهما حتى صلح البرينز فى ١٦٥٩ .

وكان يمكن أن ينفض المؤتمر دون نتيجة ، لولا اجتياح تورن لبافاريا ، وهجوم السويد على براغ (يولية ١٦٤٨) وهزيمة الأسبان فى لنز (٢ أغسطس) فإن هذه الأحداث كلها أقنعت الامبراطور بالتوقيع ، على حين أن ثورة الفروند فى فرنسا (يولية) أكرهت مزران على تقديم بعض التنازلات التى تطلق يده للحرب فى الداخل . وعلى هذا ، وقعت آخر الأمر معاهدة وستفاليا فى مونستر وأوزنابروك معا فى ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ - واستمر سفك الدماء تسعة أيام أخر ، حتى وصلت الأنباء إلى جبهات القتال ، وتعالت صيحات « الشكر لله » خاشعة مبتهجة ، من ألف قرية ومدينة .

ولا بد من التسليم بأن المفاوضات واجهت من مشكلات التوفيق ما هو أكثر تعقيداً من أية مشكلات واجهها مؤتمر صلح قبل القرن العشرين ، وأنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة بحكمه ، قدر ماسمحت الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة بين المجتمعين . ولا بد من تلخيص بنود هذه المعاهدة التي أعادت تشكيل أوربا من جديد ، لأنها أوجزت وأخرجت قدرا كبيرا من التاريخ .

١ — حصلت سويسرا والمقاطعات المتحدة على اعتراف رسمي باستقلالهما .

٢ — حصلت بافاريا على البالاتينات العليا (الجنوبية) ، مع صوتها الانتخابي .

٣ — أعيدت البالاتينات الدنيا (الشمالية) ، بوصفها موطنا انتخابيا ثامنا ، إلى شارل لويس بن فردريك المتوفى .

٤ — حصلت براندنبرج على بوميرانيا الشرقية وأسقفيات مندن وهالبرستاد وكامين ، ووراثة أسقفية مجدبرج . وعاونت فرنسا أسرة هوهنزلرن الناشئة في الحصول على هذه الثمار اليانعة ، بفكرة إقامة قوة أخرى ضد آل هبسبرج ، وما كان منتظرا من فرنسا أن تتنبأ بأن براندنبرج ستصبح بروسيا التي سوف تتحداها على عهد فردريك الأكبر ، ثم توقع بها الهزيمة على يد بسمارك .

٥ — ونالت السويد ، بفضل انتصارات جيوشها أساسا ، وبفضل مساندة فرنسا لها في المؤتمر ، بشكل جزئي ، أسقفيتي بريمن وفردن ، ومدينتي ويزمار واستتن ، ومنطقة مصب نهر الأودر ، ولما كانت هذه كلها اقطاعيات امبراطورية ، فقد حصلت السويد على مقعد في الديت الامبراطوري ، ولما استولت بالفعل على ليفونيا وأستونيا وأنجريا وكاريليا وفنلنده فقد أصبحت الآن في عداد الدول العظمى ، وسيدة البلطيق حتى جاء بطرس الأكبر .

٦ — واحتفظت الإمارات الألمانية بما كان لها قبل الحرب من «حريات» فى مواجهة الأباطرة .

٧ — وكان على الامبراطور أن يقنع بالاعتراف بحقوقه الملكية فى بوهيميا والمجر . ومن ثم اتخذت امبراطورية النمسا والمجر شكلها على أنها حقيقة واقعه فى هيكل الامبراطورية الرومانية المقدسة . لقد أنهارت اقتصاديات الامبراطورية المعمرة ، من جهة بسبب نقص السكان وتدهور الصناعة والتجارة أثناء الحرب ، ومن جهة أخرى بسبب مرور المنافذ النهرية الكبيرة إلى دول أجنبية من منافذ الأودر والألب إلى السويد ، والراين إلى المقاطعات المتحدة .

٨ — وكان أكبر الغنم لفرنسا التى مولت ثرواتها السويديين المنتصرين ، وفرض قوادها الصلح فرضا . فسلمت إليها الألزاس فعلا ، مع أسقفيات متزوفردون وتول وحصن بريزاك على الجانب الألمانى من الراين . وسمح الآن للويس الرابع عشر بالاستيلاء على فرانشن كونتية واللورين ، وفق هواه وتحقيق هدف ريشليو — الذى كان الآن قد فارق الحياة — كسر شوكة آل هبسبرج ومد حدود فرنسا ، وتمكين وحدة فرنسا ودفاعها ، والإبقاء على فوضى الإمارات فى الامبراطورية ، وعلى الصراع بين الأمراء والامبراطور ، وعلى النزاع بين الشمال البروتستانتى والجنوب الكاثوليكى ، مما يحمى فرنسا من خطر ألمانيا موحدة . وحلت فرنسا محل أسبانيا ـ أو احتلت أسرة البوربون مكان آل هبسبرج بوصفها قوة عظمى مسيطرة على أوربا ، وسرعان ما علا لويس الرابع عشر إلى منزلة الشمس .

أما الضحية الخفية للحرب فهى المسيحية ، لقد كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخلى عن قرار إعادة أملاك الكنيسة ، وأن تعود سيرتها الأولى إلى الوضع الذى كانت عليه ممتلكاتها فى ١٦٢٤ ، وترى الأمراء مرة أخرى يقررون عقيدة رعاياهم . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا مكن الكنيسة من إخراج

البروتستانتية من بوهيميا موطن إصلاح هس . لقد قضى على الإصلاح المضاد ، ومثال ذلك أنه لم يكن محل نزاع أن تقيم بولندة المذهب الكاثوليكى فى السويد البروتستانتية ، بضعف ما كان عليه من قوة من قبل . ورفض ممثل البابا فى مونستر أن يوقع المعاهدة . وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ أعلن البابا انوسنت العاشر « أنها غير ذات قوة شرعية ملزمة ، ملعونة بغيضه ، ليس لها أى أثر أو نتيجة على الماضى أو الحاضر أو المستقبل »(٨٥) . وتجاهلت أوربا هذا الاحتجاج . ومنذ تلك اللحظة لم تعد البابوية قوة سياسية عظمى ، وانحط شأن الدين فى أوربا .

وكذلك احتج بعض البروتستانت ، وخاصة أولئك الذين فقدوا مساكنهم فى بوهيميا والنمسا . ولكن المعاهدة فى جملتها ـ وهى ثمرة جهود كاردينال توفى وآخر حى ـ كانت نصرا للبروتستانتية التى أنقذت فى ألمانيا . لقد ضعفت فى الجنوب وفى الراين ، ولكنها فى الشمال قويت عن ذى قبل ، واعترفت المعاهدة رسميا بكنيسة الاصلاح أو الكنيسة الكلفنية . وبقيت خطوط التقسيم الدينى التى أقرت فى ١٦٤٨ ، دون تغيير جوهرى حتى القرن العشرين ، حين بدأ التغاير فى معدلات المواليد أو نسب تزايد السكان ، يوسع من رقعة الكثلكة بطريقة تدريجية سليمة .

ولكن على الرغم من إن الإصلاح الدينى قد أنقذ ، فإنه عانى ، مع الكاثوليكية ، من التشكك الذى شجعته بذاءة الجدل الدينى ، ووحشية الحرب ، وقساوة العقيدة . وأعدم أثناء المعمعة آلاف من الساحرات . وبدأ الناس يرتابون فى المذاهب التى تبشر بالمسيح وتقترف قتل الأخوة بالجملة . وكشفوا عن الدوافع السياسية والاقتصادية التى تسترت تحت الصيغ الدينية ، وارتابو فى أن حكامهم يتمسكون بعقيدة حقة ، بل أنها شهوة السلطة هى التى تتحكم فيهم ـ ولو أن فرد يناند الثانى غامر بسلطانه المرة بعد المرة ، من أجل عقيدته . وحتى فى أظلم العصور الحديثة هذه ، ولى كثير من الناس وجوههم

شطر العلم والفلسفة للظفر باجابات أقل اصطباغا بلون الدم من تلك التى سعت العقائد أن تفرضها فى عنف بالغ . وكان جاليليو يفرغ فى قالب مسرحى ثورة كوبرنيكس . وكان ديكارت يثير الجدل حول كل التقاليد وكل السلطة . وكان برونو يشكو إلى أوربا آلامه المبرحة وهو يساق إلى الموت حرقا . لقد أنهى صلح وستفاليا سيطرة اللاهوت على العقل فى أوربا ، وترك الطريق إلى محاولات العقل واجتهاداته ، غير معبد ، ولكن يمكن المرور فيه .

الكتاب الثالث

اجتهادات العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الثانى والعشرون

العلم فى عصر جاليليو

١٥٥٨ — ١٦٤٨

١ — الخرافة *

قد تولد الديانات ، وقد تفنى ، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر . وسعداء الحظ هم الذين يحتملون العيش بدون أساطير ، والكثير منا يعانى فى جسمه وفى أعماق نفسه . وأفضل عقار مسكن فى « الطبيعة » جرعة مما هو فوق الطبيعة . وحتى كبلر ونيوتن مزجا علمها بالأساطير . وآمن كبلر بالسحر . وكتب نيوتن فى العلم أقل مما كتب عن « سفر الرؤيا » .

وكانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصيه العد . فآذاننا تلتهب عندما يتحدث عنا الآخرون . ولا تكون الزيجات التى تتم فى شهر مايو سعيدة . وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذى أحدثها بالزيت المقدس . وتستأنف الجثة نزف الدم فى حضور القاتل . وإن الجنيات والجن الصغير المؤذى والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين لتحوم فى كل مكان . وثمة طلاسم معينة (مثل تلك التى وجدت عند كاترين دى مديتشى بعد وفاتها) تضمن الحظ السعيد ، وتمائم وتعاويذ تقى من التجاعيد ومن العنة ومن شر الحاسد ومن الطاعون . ويمكن أن تبرىء لمسة من الملك المصاب بسل الغدد اللمفاوية فى العنق . وللأرقام والمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية .

(*) يمكن الرجوع إلى الفصل السابع (الجزء ٢٨) الذى يعالج الخرافة والعلم والفلسفة فى انجلترا فى تلك الحقبة .

وكل حادث علامة على رضا الله أو غضبه ، أو من عمل الشيطان . ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس أو خطوط الكف . وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر ، أهو بدر أم فى المحاق . وقد يسبب ضوء القمر الجنون أو يشفى الثؤلول . وتنذر المذنبات بالكوارث . إن العالم (فى الكثير الغالب) يسير إلى نهايته[١] .

وكان التنجيم لا يزال سائدا . على الرغم من تزايد استنكاره ونبذه لدى من يعرفون القراءة والكتابة . وفى ١٥٧٢ انقطع تدريسه فى جامعة بولونا . وفى ١٥٨٢ استنكرته وشجبته محاكم التفتيش الأسبانية . وفى ١٥٨٦ حذر البابا سكستس الخامس الكاثوليك منه . ولكنه ظل بين الأبقاء والإلغاء فى جامعة سالامنكا حتى ١٧٧٠ . وكانت الغالبية العظمى من الناس ، وكثير من أفراد الطبقات العليا ، يستنبئون البروج عن المستقبل من مواقع النجوم ، وكانوا يكشفون عن « طالع » أى طفل مهما كان شأنه بمجرد ولادته ، وقد اختبأ أحد المنجمين بالقرب من مخدع آن النمسوية عند ولادة لويس الرابع عشر[٢] . وعند ما ولد جوستاف أدولف طلب أبوه شارل التاسع إلى تيكو براهى أن يكشف عن طالعه ، فتنبأ المنجم فى حرص وحذر بأنه سوف يصبح ملكا . وكان كبلر ينظر إلى التنجيم بعين الريبة والشك ، ولكنه كان يداهن فيقول : « كما أن الطبيعة هيأت لكل حيوان من الوسائل ما يحصل به على العيش ، فقد هيأت التنجيم للمنجم لتمكينه من العيش » . وفى ١٦٠٩ أجزل فالنشتين العطاء لمن أتاه بطالع سعيد ، وكان دائما يصطحب معه فى رحلاته وجولاته منجما[٤] ، وربما قصد بذلك تشجيع قواته . وكم من مرة استشارت كاترين دى مديتشى وحاشيتها المنجمين[٥] . وحظى جون دى بشهرة فائقة فى التنجيم ، حتى اكتشف أن النجوم تأمره أن يتبادل الزوجات مع أحد تلاميذه[٦] .

وكان التصديق بأفانين السحر آخذا فى التقلص ، باستثناء واحد مخز حقير

ذلك أن تلك الفترة كانت ذروة التخلص من السحرة بالقتل المشروع بحكم القضاء . إن المعذبين ومن ينزلون بهم العذاب ، على حد سواء ، صدقوا بإمكان الحصول على معونة القوى الخارقة للطبيعة بالرقى والتعاويذ أو بوسائل مشابهة ، وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاعة قديس بالصلوات ، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاطفته والتودد إليه . وثمة كتاب صدر فى هيدلبرج ١٥٨٥ تحت عنوان « بعض الأفكار المسيحية حول السحر » ، جاء فيه كحقيقة ثابتة مقررة : « أن كل مكان فى العالم بأسره ، فى الداخل والخارج ، فى البر والبحر ، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة غير المرئية[٧] » وساد الاعتقاد بأن كل الكائنات البشرية يمكن أن « تلبسها » الشياطين وتحل فيها . وفى ١٥٩٣ « ساد الذعر الرهيب فريدبرج المدينة الصغيرة حيث قيل أن الشيطان قد حل بأجسام أكثر من ستين شخصا ، وعذبهم عذابا أليما . . . بل أن القسيس نفسه استحوذ عليه الشيطان وهو يلقى عظته[٨] » . وتصور قصة : «قطيع الخنازير (انجيل متى ٨ : ٢٧ – ٣٤) » كيف أن المسيح أخرج الشياطين من أجسام الذين حلوا بهم ، ألم يمنح أتباعه القدرة على أخراجهم بأسمه (انجيل مرقس ١٦ : ١٧) . وكان الناس يلجأون إلى القساوسة لعمل تعاويذ مختلفة — لإزالة النباتات والحشرات الضارة من حقولهم ، أو لتهدئة الأعاصير فى البحر ، أو تطهير المبانى من الأرواح الشريرة ، أو تطهير كنيسة أصابها بعض الدنس . . . . وفى ١٦٠٤ أصدر البابا بول الخامس منشوراً بمثل هذه الخدمات الكهنوتية . واستنكر الكتاب البروتستانت مثل هذه الرقى والتعاويذ المقدسة على أنها ضروب من السحر . ولكن كنيسة إنجلترا اعترفت بقيمة التعاويذ على أنها طقوس شافية معافية[٩] . وهنا ، كما هو الحال فى كثير من الطقوس ، كان الأثر النفسى عليها طيبا .

وكما أخذ الناس بزمام المبادرة فى طلب التعاويذ ، فإنهم كانوا كذلك أول من طالب بمحاكمة السحرة ، فقد ساد الذعر من قوتهم ومقدرتهم . وجاء فى

أحدى النشرات ١٥٦٣ «أن الدخول فى علاقات مع الشيطان، فيكون فى متناول يدك فى الخواتم أو البللورات، فتستحضره أو تحالفه، وتقوم معه بمثات من أفانين السحر، أكثر الآن شيوعا عن ذى قبل، بين الطبقات العليا والدنيا. وبين المتعلمين وغير المتعلمين». وانتشرت «كتب الشياطين» التى توضح كيفية الاتصال بالنافع منهم ومن معرضين اثنين فى ١٥٦٨ اشترى أحد الأفراد ١٢٢٠ كتابا من هذه الكتب[١٠]. وفى بعض الحالات نصح ضباط محاكم التفتيش قساوسة الأبرشيات «أن يظهروا الناس على أضاليل السحرة وخرافاتهم»، وأشاروا بعدم التصديق «بسبب السجرة»، وأوصوا بعزل قسيس كان يصغى فى سذاجة إلى اتهامات السحرة[١١]. وطالب البابا جريجورى الخامس عشر فى ١٦٢٣ بعقوبة الإعـدام لنفر من الناس تسببت شعوذتهم فى الموت، ولكن البابا أريان الثامن فى ١٦٢٧ أدان المحققين الكاثوليك «لأنهم حاكموا المشعوذين محاكمة ظالمة تعسفية... وانتزعوا من المتهمين إعترافات لا قيمة لها... وعاقبوهم دون بينة كافية[١٢]» وأصدر الإمبراطور مكسيمليان الثانى (١٥٦٨) قراراً بإختبار صحة اعترافاتهم بتحديهم بأن يأتوا بأعمالهم السحرية علنا، وأن يكون النفى أقصى عقوبة يحكم بها عليهم بعد إدانتهم ثلاث مرات. ولكن الأهالى المذعورين طالبوا بالصرامة فى الإختبارات وبالتعجيل بتنفيذ الأحكام.

أن السلطات المدنية والدينية التى كانت تشارك الناس خوفهم من السحر، أو ترغب فى التخفيف من حدته، عمدت إلى أقسى الإجراءات فى محاكمة المتهمين وعذبتهم لتنتزع منهم الإعترافات. وكان لمجلس مدينة نوردلنجن مجموعة خاصة من آلات التعذيب، كان يعيرها للبلاد المجاورة مع التوكيد بأنه «بفضل هذه الآلات، وبوجه أخص آلة الضغط على الإبهام، يمن علينا الله بكرمه بإظهار الحق، أن لم يكن لأول وهلة، ففى آخر الأمر على أية حال[١٣]» أما التعذيب بإبقاء المتهم يقظا لا يذوق طعم النوم، فكان وسيلة معتدلة

خفيفة . وكان التعذيب عادة هو طريق الوصول إلى الإقرار المرغوب فيه . وكانت الإعترافات غـير الموثوقة التى لا يعتد بها . هى التى تحير القضاة أحيانا .

وكان الإضطهاد فى أسبانيا أقل قساوة . ففى مقاطعة لجرونو وجهت محكمة التفتيش الإتهام إلى ٥٣ شخصا من المشتغلين بالسحر ، وأعدمت منهم ١١ شخصا (١٦١٠) ورفضت الإتهامات الأخرى عادة لأنها وهمية أو إنتقامية . وكان الحـكم بإعدام السحرة نادرا . وفى ١٦١٤ أصدرت رياسة محكمة التفتيش إلى ضباطها تعليمات بأن ينظروا إلى إعترافات السحرة على أنها تضليلات جنونية أو عصبية ، وأن يستعملوا الرأفة فى العقوبة(١٤) .

واجتاحت جنوب شرقى فرنسا فى ١٦٠٩ موجة عاتية من الذعر من السحرة ، وأعتقد مئات من الناس أن الشياطين حلت فيهم . وظن بعضهم أنهم تحولوا إلى كلاب وأخذوا فى النباح وعينت لجنة من برلمان بوردو لمحاكمة المشتبه فيهم وأبتدعت طريقة لإكتشاف المواضيع التى دخل منها الشياطين إلى جسم المتهم ، ذلك بعصب عينيه وغرز الأبر فى لحمه ، وأى مكان لا يحس فيه بوخز الأبر ، كان هو المـكان الذى دخل منه الشيطان . وطمعا فى العفو عنهم اتهم المشتبه فيهم بعضهم بعضا . فحوكم منهم ثمانية وهرب خمسة ، وأحرق ثلاثة . وأقسم جمهور النظارة فيما بعد أنهم شاهدوا العفاريت على هيئة ضفادع تخرج من رؤوس الضحايا(١٥) . وفى اللورين أحرق ٨٠٠ شخص بتهمة السحر على مـدى ١٦ عاما . وأحرق فى ستراسبورج ١٣٤ شخصا فى أربعة أيام (أكتوبر ١٥٨٢)(١٦) . وفى لوسرن الـكاثوليكية ، أعدم ٦٢ شخصا فيما بين ١٥٦٢ — ١٥٧٢ . وفى برن البروتستانتية أعدم ٣٠٠ فى السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر ، و ٢٤٠ فى العقـــد الأول من القرن السابع عشر(١٧) .

وفى ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت فى إعدام السحرة حرقا . وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها , ولو أنها لا تكاد تصدق، بأن رئيس أساقفة تريير أمر بإحراق ١٢٠ شخصا فى فالزفى ١٥٩٦ بتهمة أنهم أطالوا فترة الجو البارد أكثر من المألوف بطريقة شيطانية[١٨]. ونسب طاعون الماشية فى إقليم سكونو فى ١٥٩٨ إلى السحرة . وحث مجلس بافاريا المخصوص فى ميونيخ المحققين « على إظهار مزيد من الجدية والصرامة فى الإجراءات » ، فكانت النتيجة إحراق ٦٣ ساحراً ، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة[١٩] » . وفى هاينبرج بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة الشعوذة فى عامى ١٧ — ١٦١٨ وقيل أنه فى ١٦٢٧ — ١٦٢٩ أعدم أسقف وورنبرج ٩٠٠ من السحرة[٢٠] . وفى ١٥٨٢ أصدر الناشرون البروتستانت من جديد ، وبموافقة منهم «مطرقة السحرة» التى كان المحقق الدمنيكانى جاكوب سبرنجر قد نشرها فى ١٤٨٧ ، وهى عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد فى الكشف عن السحرة وفى محاكمتهم . وأصدر أوغسطس ناخب سكسونيا فى ١٥٧٢ قراراً بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحداً . وفى اللنجن أحرق ١٥٠٠ من السحرة فى ١٥٩٠ ، وفى اللوانجن ١٦٧ فى ١٦١٢ ، وفى وسترستتن ٣٠٠ فى عامين[٢١] . وكانت ثمة موجات مماثلة فى أوسنابروك ١٥٨٨ ، ونوردلنجن ١٥٩٠ ؛ وفى ورتمبرج ١٦١٦ . على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة معروفة بعدم الدقة . ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف فى ألمانيا فى القرن السابع عشر[٢٢] .

وارتفعت أصوات قليلة تدعو الناس إلى العقل . وقد رأينا فى مكان آخر احتجاجات يوهان وير وريجنالد سكوت ، كما رأينا كيف حول مونتينى مرحه المتشكك إلى هذه الحمى (حمى قتل السحرة) فى مقاله « الأعرج أو الكسيح » : « كم هو طبيعى ومقبول أن أجد رجلين يكذبان ، أكثر من أن رجلا يمكن فى اثنتى عشرة ساعة أن تحمله الريح من الشرق إلى الغرب ... أو أن يحمل

أحدنا على مكنسة .... خلال مدخنة[٢٣] » أن من يؤمنون بهذا أحوج مايكونون إلى الدواء والعلاج ، لا الموت ، « حتى إذا ما انتهى كل شيء ، فما هى إلا مغالاة فى قدرة المرء على الحكم عن طريق الحدس والتخمين مما يؤدى إلى أحراق المرء حيا »[٢٤] . وهاجم كورنليوس لوس ، الأستاذ الكاثوليكى فى ماينز ، مطاردة السحرة فى كتابه « بين السحر الحقيقى والزائف » (١٥٩٢) ، ولكنه قبل أن يتمكن من نشره ، أودع السجن واضطر أن يعترف علانا بأخطائه[٢٥] . وثمة جزويتى آخر ، هو الشاعر الورع فردريك فون سبى ، فإنه بعد أن عمل كاهن اعتراف لمائتى شخص متهمين بالسحر . استنكر الاضطهاد فى كتاب جرىء «Cautio Criminalis» . (١٦٣١) ، سلم فيه بوجود السحرة ، ولكنه رثى للقبض عليهم لمجرد شبهات لا أساس لها ، ولبعد المحاكمات عن شرعة الانصاف ، وللتعذيب الغاشم الذى كان يمكن أن يجبر ، حتى فقهاء الكنيسة وأساقفتها على الاعتراف بأى شيء[٢٦] .

ولكل خصم من هذا القبيل أثنى عشر محاميا ينبرون للدفاع عن الظلم ، فإن رجال اللاهوت البروتستانت مثل توماس أراستوس فى ١٥٧٢ ، ورجال اللاهوت الكاثوليك مثل الأسقف بنزفلد (١٥٨٩) اتفقوا على أن السحر حقيق وأن السحرة يجب أحراقهم . وأقر الأسقف التعذيب ، ولكنه أوصى بشنق السحرة التائبين قبل أحراقهم[٢٧] . وأيد المحامى والفيلسوف الكاثوليكى جين بودين الاضطهاد والتعذيب فى كتابه « حمى العفاريت » ١٥٨٠ ، وبعد عام واحد ترجم الشاعر البروتستانتى يوهان فسكارت هذا الكتاب ووسع فيه مع تقدير بالغ له ، وانضم إلى بودين فى الحث على أخذ السحرة بشدة لا ترحم ولا تلين[٢٨] .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحمى خفت حدتها ، فعندما أصبحت حرب الثلاثين حربا سياسية بشكل صريح سافر ، لم يعد الدين يحتل مكانا هاما فى كراهيات الناس وحزازاتهم . وانتشرت الطباعة وكثرت الكتب ، ونهضت

المدارس ، وفتحت الجامعات ، وأسهم المكافحون الصابرون سنة بعد أخرى ، بوضع لبنة فى البناء الناشىء ، بناء العلم والمعرفة . وفى مائة من المدن عكف المحبون للاطلاع على اختبار الفروض بالتجارب . وتقلص نطاق ماهو خارق للطبيعة ببطء ، ونما نطاق ماهو طبيعى ودنيوى . أنه تاريخ موضوعى مجرد قاتم ، مؤلف من شظايا ، وهو أعظم مسرحية فى الأزمنة الحديثة .

٢ – انتقال المعرفة

إن الأبطال الأولين هنا هم الطابعون الناشرون الذين غذوا مجرى المداد الذى تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل ، ومن جيل إلى جيل . واستأنفت داراستين الكبيرة للنشر ، نشاطها فى جنيف على يد هنرى استين الثانى ، وفى باريس بفضل روبرت استين الثالث . ونشأت أسرة مثل هذه (نحو ١٥٨٠) فى ليدن كان على رأسها لويس الزفير ، ونهض أبناؤه الخمسة وحفداؤه وابن لأحد حفدته ، بالعمل ، وحملت اسمهم طريقة معينة للطباعة . وفى زيوريخ اكتسب كريستوفر فروشير شهرة فى تاريخ الطباعة والثقافة بطبعاته الدقيقة للكتاب المقدس .

وهيأت دور الكتب مأوى جديدا للذخائر القديمة . ولقد عرفنا مكتبة بودليان فى أكسفورد ومكتبة الاسكوريال ، ومكتبة امبروزيانا فى ميلان (١٦٠٦) . وضمت كاترين دى مديتشى كثيرا من المجلدات والمخطوطات إلى مايعرف الآن بالمكتبة الوطنية . وبدا لافلين أن مكتبة الفاتيكان الجديدة التى أسسها البابا سكستس الخامس (١٥٨٨) « هى أفخم وأجمل وأحسن مكتبة أثاثا فى العالم »[٢٩] .

وبدأ ظهور الصحف : ففى ١٥٠٥ كانت صحيفة « الأخبار » تطبع فى ألمانيا ، فى ورقة واحدة ، بشكل متقطع . وما جاء عام ١٥٩٩ حتى كانت

هناك ٨٧٧ نشرة من هذا النوع ، وكلها غير منتظمة . وأقدم صحيفة منتظمة معروفة في التاريخ هي صحيفة Avis Relation oder Zeitung الأسبوعية التي أسست في أوجزبرج ١٦٠٩ ، وكانت تضم تقارير لوكلاء منتشرين في مختلف أنحاء أوربا، ينقلها التجار والصيارفة، واستمرت في الظهور حتى١٨٦٦ ،صحيفة « بريد فرانكفورت» التي أسست في ١٦١٦ . وبدأت صحف أسبوعية مماثلة في الظهور في فيينا ١٦١٠ ، وفي بازل ١٦١١ . وسرعان ما بدأ فيشارت يسخر من الجمهور « الذي يصدق الصحف » ومن تلهفه الساذج على الأخبار . أن النقل المفرض غير الملائم للأنباء فوت على الجمهور أي أسهام رشيد مخطط في السياسة ، ومن ثم جعل الديمقراطية أمرا بعيد المنال .

وكانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة بطريقة عملية ، في العالم المسيحي بأسره : الكاثوليك والبروتستانت ، ورجال الدين والعلمانيون على حد سواء وفي ١٥٧١ شكلت الكنيسة « لجنة من الكرادلة لتحديد الكتب المحظورة » ، لحماية المؤمنين من الكتب التي تعتبر مسيئة للكثلكة . ولم تكن الرقابة البروتستانتية بمثل قوة الرقابة الكاثوليكية وصرامتها ، ولكنها جادة مثابرة مثلها . وقد نشطت في انجلترا واسكتلندة واسكندناوة وهولندة وألمانيا وسويسرا[٣٠] . وهيأ تباين التعاليم في مختلف الدول للهراطقة أن يتغلبوا ، بشكل أو بآخر ، على الرقابة بنشر كتبهم في الخارج ، وإدخال بعض النسخ منها سراً . والأدب الحديث مدين للرقابة ببعض ما يتسم به من سخرية وظرف وبراعة .

وفي مختلف الترجمات ، ظل الكتاب المقدس يفسر بأنه « كلمة الله » ، وواصل رسالته بوصفه أعظم الكتب شعبية وانتشارا ، وأعظمها أثرا في العقيدة واللغة ، بل حتى في السلوك ، فإن أسوأ الأعمال الوحشية ـ الحروب والاضطهادات ـ عمدت إلى اقتباس النصوص المقدسة لتبرير ارتكابها . ومذ انحسرت الروح الإنسانية التي تميز بها عصر النهضة ، قبل قيام الإصلاح

الدينى ، فإن التعبد بالكتاب المقدس حل محل الإعجاب الأعمى بالآداب الوثنية القديمة . وثارت فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لايكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس ، ولكن علماء اللاهوت أوضحوا أن « الروح القدس » استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه وأصاب الناس غم جديد عندما خلص لويس كابل ـ الأستاذ البروتستانتى للعبرية واللاهوت فى « سومور » ، إلى أن الحروف اللينة وعلامات النطق فى النص العبرى الذى اعتمدته الكنيسة للعهد القديم (التوراه) ، إن هى إلا إضافات أضافها إلى النصوص الأقدم عهدا ، يهود طبرية المازوريون فى القرن الخامس ق . م . أو بعده . وأن الحروف المربعة فى النص المعتمد كانت آرامية بديلة عن الحروف العبرية . وتوسل جوهانس بوكستورف الأكبر ، أعظم علماء عصره . إلى كابل أن يطوى هذه الآراء عن الجمهور ويحتفظ بها لنفسه ، حتى لا تسىء إلى إيمان الناس بالإيحاء اللفظى للكتاب المقدس . ومع ذلك نشر كابل آراءه فى ١٦٢٤ ، وحاول يوهانس بوكستورف الأصغر أن يدحضها ويفندها ، محتجا بأن النقط وعلامات النطق موحى بها من عند الله كذلك . واستمر الخلاف طوال القرن وتخلت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط ، ومن ثم اتخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس أعظم أسلوب أو تعبير مهابة وجلالا لدى الشعب .

وينتمى إلى هذه الحقبة نفر من أشهر العلماء أو الباحثين فى التاريخ . منهم جوستوس لبسيوس ، الذى تردد على جامعتى لوفان وليدن ، وتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية وذاع صيته فى أوربا بفضل طبعاته المصوبة لكتب تاسيتس وبلوتس وسنكا ، وتفوق على كل الأجروميات السابقة فى كتاب « فن الأجرومية » (١٦٣٥) . ورثى لفناء المدنية الأوربية الوشيك ، ولكنه هدأ من روعه واستبشر خيرا « بسطوع شمس امبراطورية جديدة فى الغرب » ـ يعنى « الأمريكتين »[٣١] .

وورث جوزيف جوستوس سكاليجر « وربما كان أعظم أستاذ فذ فى

سعة المعرفة والاطلاع ظهر فى العالم[٣٢] » ، نقول ورث عن أبيه الشهير يوليوس قيصر سكاليجر ، عرش البحث العلمى فى أوربا . ففى آجن فى جنوب غربى فرنسا ، اشتغل بكتابة ما يمليه عليه هذا الوالد . ونهل العلم والمعرفة طوال حياته . فقرأ هوميروس فى ثلاثة أسابيع ، ووفق فى قراءة كبار الشعراء والمؤرخين والخطباء الإغريق . وتعلم العبرية وثمان لغات أخرى . وتجرأ على دراسة الرياضيات والفلك و «الفلسفة» (التى كانت آنذاك تشمل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا) ودرس القانون لمدة ثلاثة أعوام . وربما ساعدت دراسته للقانون على شحذ ملكة النقد عنده ، لأنه فى الطبعات التى أصدرها للمؤلفين القدامى مثل كاتوللوس وتيبوللوس وبروبرتيوس وغيرهم أثار نقدا متعلقا بالنصوص لأحداس عشوائية لقوانين الإجراءات والتأويل أو التفسير . وكان ينظر بعين الاحترام الرشيد للتاريخ أو تحديد الأزمنة فى دراسة التاريخ . وفى أعظم مؤلفاته « فى تصحيح التواريخ » (١٥٨٣) ، وازن لأول مرة بين التواريخ التى أوردها المؤرخون اليونان واللاتين ، وتلك التى وردت أو حددت فى التاريخ أو التقاويم أو الأدب فى مصر وبابل وفلسطين وفارس والمكسيك . وجمع ورتب فى كتابه « تسلسل التواريخ » . (١٦٠٦) كل مادة تاريخية فى الأدب القديم ، وعلى هذا الأساس ألف أول تسلسل زمنى على أساس علمى للتاريخ القديم . وهو الذى قال بأن السيد المسيح ولد فى العام الرابع ق . م . وعندما ترك جوستوس لبسيوس ليدن فى ١٥٩٠ عرضت الجامعة على سكاليجر كرسى « الأبحاث القديمة » فقبله بعد أن ظل ثلاث سنوات مترددا فى قبوله . ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته ١٦٠٩ ، كانت ليدن مقر العلماء .

وكان سكاليجر ، مثل أبيه مزهوا بما يزعم من تحدر أسرته من أمراء دللاسكالا فى فيرونا . وكان ناقدا لاذعا لزملائه العلماء والباحثين ، ولكن فى ساعة تغاضٍ وصفح قال إن إيزاك كازوبون «أعظم الأحياء علما»[٣٣] . وإن حياة كازوبون لتكشف عن مزايا المحن . لقد رأى النور فى جنيف لأن أبويه

كانا من الهيجونوت الذين هربوا من فرنسا ، وعادا إليها وهو فى سن الثالثة وعاش لمدة ستة عشر عاما فى ظل المخاطر والإرهاب أيام الاضطهادات . وكان أبوه يتغيب لفترات طويلة للخدمة فى جيوش الهيجونوت . وغالبا ما اختفت أسرته فى الجبال لتكون بمنأى عن بطش الكاثوليك المسلحين . وتلقى إبزاك أول دروس فى اليونانية فى أحد الكهوف فى جبال دوفينى وفى سن التاسعة عشرة التحق بأكاديمية جنيف . وفى سن الثانية والعشرين صار أستاذا فى اليونانية ، وتولى هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاما وسط العوز والفقر والحصار . وعاش بشق النفس على راتبه . ولكنه كان يقتر فى طعامه ليشترى الكتب . وكان يخفف من وحشية العزلة والعكوف على العلم ، بما يتلقى من رسائل سكاليجرا العظيم . ونشر طبعات لمؤلفات أرسطو وبلينى الأصغر ، وتيوفراستوس ، سحرت الألباب فى دنيا العلم والمعرفة ، لا بمجرد تصويب النصوص ، بل كذلك بالتعقيبات البارعة على الأفكار والطرق القديمة . وفى ١٥٩٦ عندما أخمد هنرى الرابع الصراع الدينى ، عين كازوبون أستاذا فى مونبلييه . ودعى بعد ذلك بثلاثة أعوام إلى باريس . ولكن الجامعة أوصدت أبوابها فى وجوه غير الكاثوليك ، فأحاطه هنرى برعايته ، كأمين للمكتبة الوطنية ، براتب محترم قدره ١٢٠٠ جنيه فى العام . وقال رجل الاقتصاد صلى للعالم كازوبون إنك تكلف الملك كثيرا ياسيدى . إن راتبك يفوق راتب قائدين ، ولا نفع يرجى منك لبلدك[٣٤] . فلما مات هنرى العظيم ، رأى كازوبون أنه قد حان الوقت لقبول دعوة من انجلترا . ورحب به جيمس الأول بوصفه رفيق علم وبحث ... ومنحه راتبا سنويا قدره ٣٠٠ جنيه انجليزى . ولكن الملكة الفرنسية الوصية على العرش رفضت أن تذهب مؤلفاته فى أثره وأزعجه الملك بالأبحاث ، ولم يغفر له المفكرون الإنجليز فى لندن عدم تحدثه بالإنجليزية وبعد أربعة أعوام قضاها هناك ترك المعترك (١٦١٤) فى سن الخامسة والخمسين . ودفن فى وستمنستر .

وكان لقب « العالم » فى ذاك الزمان أكثر احتراما وتشريفا من الشاعر

أو المؤرخ . فإن العالم كان ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار لأن دراسته الدؤوبة حافظت على مواطن الحكمة والجمال الكامنة فى الآداب والفلسفة القديمة وعملت على تنقيتها وتوضيحها . ودخل سكاليجر جامعة ليدن دخول « الأمير الفاتح » ولقى هناك ترحيبا كبيرا . وكانت ثمة أمم كثيرة ترغب فى أن تحوز كاود دى سومين الذى عرفته الدنيا « عالما » من أمثال سالاميوس وبعد موت كازوبون أجمع العالم بأسره على أنه « أعلم الأحياء فى ذلك الزمان » ، وأنه بصفة عامه معجزة الدنيا[٣٥] . فماذا فعل هذا العالم ؟ إنه ولد فى برجندى ، وتلقى تعليمه - وتحول إلى الكلفنية - فى هيدلبرج . وفى سن العشرين تألق نجمه فى نشر طبعة دقيقة محققة لمؤلفات اثنين من كتاب القرن الرابع عشر عن سلطة البابوات العليا المتنازع عليها ، وبعد ذلك بعام واحد ، نشر « خلاصة عن النبات » . وتوالت الكتب بعد ذلك ، حتى بلغت فى جملتها ثلاثين كتابا تميزت كلها بسعة الاطلاع وتناول كل ألوان المعرفة . وبلغ الذروة فى كتاب ضخم مكون من ٩٠٠ صفحة على نهرين بعنوان « أمثلة فى تعدد جوانب الثقافه والمعرفة » (١٦٢٩) . وكان سولينوس ، وهو أحد النحاة فى القرن الثالث - قد جمع فى موسوعة تاريخ البلاد الأوربية الكبرى وجغرافيتها وأعراقها البشرية واقتصادها ونباتها وحيوانها ، وجاء بعد ذلك ناشر متأخر فأطلق عليه « ثقافة متعددة الجوانب » ، ثم جاء سالماسيوس فدون على هذا النص تعليقات واسعة تشمل كل رومه الإمبراطورية . وكان امامه أن يختار بين اثنتى عشرة دعوة وجهت إليه ، فاختار الأستاذية فى ليدن ، ثم عين فى الحال رئيسا لكلية عظيمة وسارت الأمور سيرا حسنا ، حتى كلفه شارل الثانى ملك انجلترا الذى كان متغيبا آنذاك فى هولنده ، بأن يكتب عن إدانة كرومويل بقتل شارل الأول وظهر الدفاع عن الملك شارل الأول فى نوفمبر ١٦٤٩ بعد إعدام الملك بنحو عشرة أشهر . ولم يرق الكتاب فى عينى كرومويل ، واستأجر أعظم شعراء انجلترا للرد عليه . وسنعود للكلام عليه مرة أخرى . وكتب سالماسيوس ردا على ملتون ، ولكنه مات (١٦٥٣) قبل أن يتمه . ونسب إلى ملتون [illegible] القضاء عليه .

وحظيت قلة ضئيلة بمثل هذا القدر الكبير من العلم والمعرفة ، بينما ظل ٨٠٪ من سكان أوربا الغربية أميين . وقضى جون كومنيوس أربعين عاما يكافح فى سبيل النهوض بخطط التعليم فى أوربا . ولد كومنيوس فى مورافيا (١٥٩٢) وارتقى إلى مرتبة أسقف الأخوة المورافيين ولم يتزعزع قط إيمانه بأن الدين هو أساس التعليم وغايته ، فإن رأس الحكمة مخافة الله . وعلى الرغم من أن الأحقاد الدينية فى زمانه جعلت من حياته سلسلة متصلة من المحن والبلايا ، فإنه بقى على إخلاصه لفلسفة التسامح فى الوحدة الأخوية .

> نحن أبناء عالم واحد ، يجرى فى عروقنا دم واحد . وأنه لمن أشد الحماقة أن نضمر البغض والكراهية لإنسان لأنه ولد فى قطر آخر ، أو لأنه يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا . أو لأن له رأيا مخالفا لنا فى هذا الموضوع أو ذاك . إنى لأتوسل إليكم أن تكفوا عن هذا ، فإننا بشر متساوون فى الإنسانية فليكن لنا جميعا هدف واحد وغاية واحدة ، هى خير الإنسانية جمعاء ، ولنطرح جانبا كل الأنانيات والأثرة القائمة على أسس من اللغة أو القومية أو الدين[٣٦] .

وبعد تدوين كثير من النصوص التربوية ، لخص كومنيوس مبادئه فى التربية المثلى (١٦٣٢) وهو من أهم الكتب فى تاريخ التربية . أولا : يجب أن يكون التعليم عاما ، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة . فيجب أن يكون فى كل قرية مدرسة ، وفى كل مدينة كلية ، وفى كل مقاطعة جامعة ، ويجدر أن يكون التعليم العالى متاحا لكل من يثبت القدرة على متابعته ، وينبغى أن تتولى الدولة الإنفاق على الكشف عن مواهب وقدرات المواطنين فيها ، وتدريبها والإفادة منها . ثانيا : يجب أن يكون التعليم واقعيا ، بحيث تربط الأفكار فى كل خطوة بالأشياء الملموسة ، كما يجب تعليم الألفاظ باللغة الوطنية أو بأية لغة أجنبية ، عن طريق مشاهدة الأشياء التى تمثلها أو لمسها أو استخدامها

ويجب أن يتأخر تعليم النحو (الأجرومية) . ثالثا : يجب أن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية . وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب فى الهواء الطلق . ورابعا : ينبغى أن يكون التعليم عمليا ، وألا يكون حبيسا فى سجن التفكير النظرى ، بل مقرونا بالعمل والممارسة ، وأن يمهد ويعد للنهوض بمهمة الحياة . خامسا : يجب تدريس العلوم تدريجيا ، بتقدم الطالب فى العمر ، ويجب افتتاح مدارس البحث العلمى فى كل مدينة أو مقاطعة . سادسا : ينبغى توجيه كل التربية وكل المعرفة إلى تحسين الخلق وبث التقوى فى الفرد ، وإلى إشاعة النظام والسعادة فى الدولة .

وكان ثمة شىء من التقدم . فإن الأمراء الألمان جدوا فى تأسيس مدرسة ابتدائية فى كل قرية . ونادى دوق ساكس — ويمار فى ١٦١٩ بمبدأ التعليم العام الإلزامى لكل البنين والبنات من سن السادسة إلى الثانية عشرة[٣٧] ، مع عطلة مدتها شهر فى موسم الحصاد . وما وافى عام ١٧١٩ حتى عم هذا النظام ألمانيا بأسرها . وكانت المدارس الثانوية لا تزال موصدة أمام الأناث ، ولكنها تضاعفت وحسن مستواها . وفتحت فى هذا العصر اثنتان وعشرون جامعة جديدة * . وكانت جامعة أكسفورد سائرة على طريقة التقدم والنجاح كما وصفها كازوبون فى ١٦١٣ ، وقد تأثر بما رآه من رواتب الأساتذة ومكانتهم الاجتماعية ، بالمقارنه بنظرائهم فى القارة . ففى ١٦٠٠ كانت رواتب الأساتذة فى ألمانيا ضئيلة إلى حد أنهم لجأوا إلى بيع الجعة والنبيذ احتيالا على العيش ، وكان الطلبة فى جامعة يينا يشربون ويلهون فى حانات يديرها الأساتذة[٣٨] . وتدهورت الجامعات الأسبانية بعد فيليب الثانى ، وساءت

(*) فى يينا ١٥٥٨ ، جنيف ١٥٥٩ ، ليل ١٥٦٢ . ستراسبورج ١٥٦٧ ، ليدن ١٥٧٥ هلمستد ١٥٧٥ ، ولنو ١٥٧٨ ورزبرج ١٥٨٢ أدنبره ١٥٨٣ فرانكر ١٥٨٥ جراز ١٥٨٦ ، دبلن ١٥٩٦ ، لوبيين ١٥٩٦ ، هردريك ١٦٠٠ ، جيسن ١٦٠٧ ، جرونتجن ١٦١٤ ، أمستردام ١٦٣٢ . دوربات ١٦٣٢ ، بودابست ١٦٣٥ أوترخت ١٦٣٦ توركو ١٦٤٠ بمبرج ١٦٤٨ .

أحوالها تحت وطأة محاكم التفتيش ، فى الوقت الذى أسست فيه عدة جامعات أسبانية فى مستعمرات أسبانيا فى أمريكا — فى ليما ١٥٥١ ، فى مدينة المكسيك ١٥٥٣ ، أى قبل افتتاح كلية هارفارد (١٦٣٦) بزمن طويل . وافتتح الهولنديون الموسرون ست جامعات فى تلك الحقبة . وعندما نجحت ليدن فى مقاومة الحصار الأسبانى (١٥٧٤) ، وجهت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة الدعوة لأهالى البلدة ، ليدن ، ليبروا رأيهم فيما يمكن أن يكافأوا به ، فطالبوا بإنشاء جامعة ، وكان لهم ما أرادوا . وكانت السلطات الدينية تسيطر على أمور التعليم فى الأقطار الكاثوليكية والكلفنية . وفى انجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة . وفى كل الجامعات تقريبا ، باستثناء بادوا ، كان مطلوبا من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمى ، وكانت الدولة والكنيسة كلتاهما تحد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة . وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات ، فانحصر الطلبة الأسبان فى أسبانيا ، ولم يعد الطلبة الانجليز يلتحقون بجامعة باريس . وظلت أكسفورد حتى ١٨٧١ تفرض على طالب الدرجة الجامعية ، الموافقة على مواد الكنيسه الرسمية التسع والثلاثين . ومال الفكر الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات ، والتمس ملجأ فى الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية .

وهكذا قامت فى هذا العصر أكاديميات خاصة ، لارقيب عليها ، للدراسة والبحث ، وخاصة فى مجال العلوم . وفى رومه ، فى ١٦٠٣ أسس فدريجو سيزى ، مركيز مونتيللو ، أكاديمية ذوى البصر الحاد ، التى التحق بها جاليليو ١٦١١ ، وحدد دستورها هدفها :

> إن جامعة ذوى البصر الحاد تتطلب من أعضائها الفلاسفة أن يكونوا تواقين إلى المعرفة الحقة ، وأن ينصرفوا بكليتهم إلى دراسة الطبيعة ، وبخاصة الرياضيات ، ولن تهمل فى الوقت

> نفسه أو تزيف مناهجها بالآداب والدراسات اللغوية الجميلة التى يزدان بها ، بوصفها حليا وجواهر كريمة ، نطاق العلم بأكمله ، وليس فى خطة هذه الأكاديمية أن تفسح المجال للخطب والمجادلات ويجدربها أن تغضى فى هدوء وصمت عن كل الخلافات السياسية . وعن أى لون من المهاترات الكلامية (٣٩) .

وحلت هذه الجامعة ١٦٣٠ ، ولكن فى ١٦٥٧ واصلت السير على نهجها أكاديمية دل شيمنتو (التجربة والبرهان) . وسرعان ما تأسست جمعيات مماثلة فى انجلترا وفرنسا وألمانيا . حتى يتسنى للروح العلمية الملهمة فى العلوم أن تضع الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث .

٣ ــ أدوات العلم ومناهجه

كان لزاما ، منذ البداية ، أن تكون هناك آلات علمية . فما تستطيع العين المجردة أن تبصر بوضوح كاف ، على مسافة بعيدة ، أو بأشياء بالغة الدقة . إلى الحد المطلوب ، وما يستطيع الجسم أن يمس بدقة تامة ضغط الأشياء أو حرارتها أو وزنها . وما يستطيع العقل أن يقيس المسافه والزمن والكمية والنوعية والكثافة دون أن يخلط بين توازنه الشخصى وبين الحقائق ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى المجهر (الميكروسكوب) ، والمقراب (التلسكوب) ، وبميزان الحرارة (الترمومتر) ومقياس الضغط (البارومتر) . ومقياس الثقل النوعى للسوائل (الهيدرومتر) وإلى ساعات أدق وإلى موازين أكثر حساسية .

كتب جامباتستا دللابورتا فى « سحر الطبيعة » (١٥٨٩) بالعدسة المقعرة تبدو الأشياء أصغر ولكن أوضح ، وبالعدسة المحدبة تراها أكبر ولكن أقل وضوحا فى معالمها ، فإذا عرفت على أية حال كيف تجمع بين النوعين على نحو سليم ، لأمكنك أن ترى الأشياء على البعد والقرب كبيرة واضحة معا (٤٠)

تلك كانت القاعدة التى بنى عليها المجهر ومنظار الميدان ومنظار الأوبرا ، والمقراب ، أى أنها مجموعة من المخترعات ، وكلها متنوعة الأنسجة . وكان المجهر البسيط . أى العدسة المحدبة الواحدة ، معروفة لأمد طويل . أما الاختراع الذى حول البيولوجيا فهو الميكروسكوب المركب الذى يجمع بين عدة عدسات لامة . ونمت صناعة شحذ العدسات وصقلها بصفة خاصة فى الأراضى الوطيئة وعاش سبينوزا عليها ومات بها . وحوالى ١٥٩٠ جمع صانع النظارات المدعو زخارياس جانس ، فى مدلبرج ، بين عدسة مزدوجة مقعرة وأخرى مزدوجة محدبة ، ليضع أقدم مجهر مركب معروف : وبفضل هذا الاختراع ظهرت البيولوجيا الحديثة والطب الحديث .

وجاء بعد ذلك تطبيق آخر لهذه القواعد لحول علم الفلك . ذلك أنه فى ٢ أكتوبر ١٦٠٨ قدم صانع نظارات آخر فى مدلبرج ، هو هانز لبرشى . إلى الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة (التى مازالت فى حرب مع أسبانيا) وصفا لآلة يمكن بها رؤية الأشياء من مسافة بعيدة . إن لبرشى وضع عدسة مزدوجة محدبة «العدسة الشيئية» على الطرف البعيد من أنبوبة ، وعدسة مزدوجة مقعرة «العينية» على الطرف القريب . وأدرك المشرعون القيمة العسكرية لهذا الاختراع فكافأوا البرشى بتسعمائة فلورين . وفى ١٧ أكتوبر أثبت رجل هولندى آخر — جاكوس متيوس ، أنه كان قد صنع من تلقاء نفسه ومن وحى تفكيره هو ، آلة مماثلة . وما أن سمع جاليليو بهذه التطورات حتى صنع آلة التلسكوب (المقراب) الخاصة فى بادوا (١٦٠٩) ، التى كبرت الأشياء إلى ثلاثة أمثالها ، وتلك هى الآلات التى كبر بها العالم . وفى ١٦١١ اقترح كبلر أنه يمكن الحصول على نتائج أفضل ، إذا عكست أوضاع العدسات فى اختراع جاليليو ، باستخدام العدسة المحدبة فى «العينية» والمقعرة فى «الشيئية» . وفى ١٦١٣—١٦١٧ صنع الجزويتى كرستوف شينر ، على هذا الأساس ، مقرابا «تلسكوب» أفضل ، بيد أنه أدخل شيئا من التحسين على ما كان معروفا من قبله[٤١] .

وفى الوقت عينه ، وعلى نفس الأسس التى كانت معروفة لدى « هيرو » السكندرى فى القرن الثالث الميلادى أو قبله ، كان جاليليو قد اخترع (حوالى ١٦٠٣) مقياسا للحرارة (ترمومتر) . بأن وضع الطرف المفتوح لأنبوبة زجاجية فى وعاء من الماء ، وكان طرفها الثانى عبارة عن بصيلة زجاجية (منتفخ الترمومتر) فارغة ، عمد إلى تسخينها بملامستها ليديه . فلما سحب يده بردت البصيلة ، وارتفع الماء فى الأنبوبة . وفى ١٦١٣ قسم جيوفنى ساجريدو ، صديق جاليليو ، الأنبوبة إلى مائة درجة .

وجاء أفانجلستا تورشللى ، أحد تلاميذ جاليليو ، فأحكم سداد أحد طرفى أنبوبة طويلة ، وملأها بالزئبق ، وأوقفها بطرفها المفتوح مغمورة فى وعاء به الزئبق ، فلم يفض زئبق الأنبوبة إلى الوعاء . وأرجع علماء الفيزياء هذه الظاهرة إلى « اشمئزاز الطبيعة من الفراغ » . وأرجعها تورشللى إلى ضغط الهواء المحيط على الزئبق فى الوعاء . وعللها بأن الضغط الخارجى لابد أن يرفع الزئبق فى الوعاء إلى الأنبوبة الخالية المفرغة من الهواء . وأثبتت التجربة صحة ما ذهب إليه . وأوضح أن التغيرات فى ارتفاع الزئبق فى الأنبوبة يمكن استخدامها مقياسا للتغيرات فى الضغط الجوى ، ومن ثم صنع فى ١٦٤٣ أول مقياس للضغط الجوى (البارومتر) الذى لا يزال الآلة الأساسية فى الأرصاد الجوية .

ومنذ تزودت العلوم بهذه الأدوات الجديدة ، فإنها اتجهت إلى الرياضيين تسألهم طرقا أفضل للحساب والقياس وللتدوين بالعلامات والرموز واستجاب نابيير وبيرجى — كما عرفنا — لهذا النداء باللوغاريتمات ، وأوترد بالمسطرة الحاسبة ، ولكن كانت ثمة نعمة أكبر باختراع الطريقة العشرية وكانت بعض آراء أو مقترحات اجتهادية قد مهدت الطريق ، كما هى العادة . فإن الكاشى السمرقندى (المتوفى ١٤٣٦) كان قد أوضح أن النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها هي : ٣,١٤٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ، وهـــذا كسر عشرى — مستخدما مسافة

بياضا بدلا من النقطة ، أى العلامة العشرية بين الكسر والرقم الصحيح . ثم جاء فرانسسكو بللوس من مدينة نيس ١٤٩٢ فاستخدم النقطة العشرية وشرح سيمون ستيفينوس الطريقة الجديدة فى رسالة تعتبر فاتحة عصر جديد ، هى « الطريقة العشرية » (١٥٨٥) عرض فيها كيف « تعلم بسهولة لم يسمع بها من قبل أن تؤدى كل المسائل الحسابية بالأعداد الصحيحة دون كسور » ونفذ « النظام المترى » فى قارة أوربا أفكاره فى قيـــاس الأطوال والأحجام والعملة . ولكن الدائرة والساعة أقرتا بفضل الرياضيات البابلية ، فاحتفظتا بالقسمة الستينية .

وفى ١٦٣٩ نشر جيرارد دسارج رسالة ممتازة عن القطع المخروطى . وأحيا فرانسوا فيير الباريسى دراسة علم الجبر التى كانت قد ضعفت، باستخدام الحروف للدلالة على مقادير معروفة أو مجهولة على حد سواء واستبق ديكارت فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية فى ومضة من ومضات الالهام ، حين اقترح التعبير على الاعداد والمعادلات بأشكال هندسية والعكس بالعكس (ومن ثم يمكن ايضاح التناقص المستمر فى قيمة العملة فى فترة معينة فى رسم بيانى احصائى) ؛ وأنه من معادلة جبرية تمثل شكلا هندسيا ، يمكن جبريا استخلاص نتائج تثبت صحتها هندسيا ، ولذلك يمكن استخدام الجبر لحل المسائل الهندسية العويصة . وافتتن ديكارت باكتشافاته إلى حد أنه ذهب إلى أن هندسته أسمى من هندسة اسلافه قد رسموا فصاحة شيشرون على حروف الهجاء عند الأطفال (٤٢) . أن هندسته التحليلية ونظرية كافا ليبرى عن « غير القابل للانقسام أو التجزئة » (١٦٢٩) وتربيع ليلر التقريبى للدائرة . وقياس روبرفال للخط المنحنى ، وتورشللى وديكارت ، إن كل أولئك عبدوا الطريق أمام ليبنتز ونيوتن لاكتشاف التفاضل والتكامل .

وباتت الهندسة الآن هدف كل العلوم بقدر ما هى أداتها . ولحظ كبلر أن العقل إذا هجر « مملكة الكمية » فانه يهيم فى متاهات الظلام والشك[٤٣]. وقال جاليليو عن الفلسفة وهو يقصد « الفلسفة الطبيعية » أو العلوم :

> ان الفلسفة مدونة فى هذا السفر الضخم، ألا وهو الكون الذى يقف دوما مكشوفا أمام أعيننا نحملق فيه كيف نشاء . ولكن لن يتسنى لنا فهم هذا الكتاب إلا إذا تعلمنا، أول الأمر، كيف نعى اللغة ونقرأ الحروف التى تتألف منها . أن هذا السفر مكتوب بلغة الرياضيات[٤٤] ،

وتتطلع ديكارت وسبينوزا إلى تحويل الميتافيزيقا (علم ما وراء الطبيعة) نفسها إلى صيغة رياضية .

وبدأ العلم الآن يحرر نفسه من أغلال أمه وهى الفلسفة . لقد هز كتفيه لأرسطو غير مبال به . وأدار ظهره للميتافيزيقا متجها نحو الطبيعة ، وطور وسائل التمييز لديه ، وسعى لتحسين حياة الانسان على الأرض . أن هذه الحركة تنتسب إلى قلب عصر العقل ، ولكنها لم تؤمن كل الايمان ولم تثق كل الثقة « بالعقل الخالص » — أى العقل المستقل عن التجريب والاختبار . وكم من مرة ضل مثل هذا التفكير ، ونسج خيوطا واهية مضللة . أن العقل والتقاليد والسلطة يجب الآن ضبطها وكبح جماحها بدراسة الحقائق المتواضعة وتسجيلها . ومهما قال المنطق، فيجدر بالعلم ألا يتقبل الا ما يمكن قياسه كمًّا ، والتعبير عنه رياضياً ، واثباته بالتجربة

٤ — العلم والمادة

اندفعت العلوم خطوات إلى الأمام فى تسلسل منطقى، خلال التاريخ الحديث:

الرياضة والفيزياء فى القرن السابع عشر، والكيمياء فى الثامن عشر، والبيولوجيا فى التاسع عشر ، وعلم النفس فى القرن العشرين .

والشخصية البارزة فى تلك الحقبة هى جاليليو . ولكن ثمة أبطال كثيرون أقل شأنا جديرون بالذكر فقد أسهم ستيفينوس فى تحديد قوانين البكرة والرافعة ، وأجرى دراسات قيمة فى ضغط الماء ، ومركز الجاذبية، رمتوازى أضلاع القوى ، والمستوى المائل . وحوالى ١٦٩٠ فى دلفت ، استبق جاليليو فى تجربته المزعومة فى بيزا ، حيث أوضح — على خلاف الاعتقاد القديم — أنه إذا ترك جسمان من نوع واحد مهما اختلفا فى الوزن، ليسقطا معا من عل فإنهما يصلان إلى الأرض فى وقت واحد[٤٥]. ووضع ديكارت قانون القصور الذاتى ، فى صيغة بالغة الوضوح — وهو أن أى جسم يظل فى حالة الجمود أو فى حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية . وسبق هو وجاسندى ، إلى نظرية الجزيئات فى الحرارة . وأسس رسالته فى « الأرصاد » (١٦٣٧) على الكوزمولوجيا (علم الكوينات يبحث فى أصل الكون وبنيته العامة وعناصره ونواميسه) التى لم تعد مقبولة ، ولكن هذه الرسالة أسهمت كثيرا فى وضع أسس الأرصاد الجوية كعلم من العلوم . وتوسع تورشللى ١٦٤٢ فى دراساته عن الضغط الجوى لتشمل ميكانيكا الرياح ، حيث ذهب إلى أن هذه هى التيارات الموازنة التى تنجم عن الاختلافات المحلية فى كثافة الهواء . أما جاسندى ، ذلك الرجل المشهور بالمامه بكل العلوم ، فانه تابع التجارب فى قياس سرعة الصوت ، وتوصل إلى أنها ١٤٣٧ر١ قدما فى الثانية . وأعاد صديقه الكاهن ، مارتن مرسن ، التجربة، وقرر أنها ١٣٨٠ر١ قدما ، وهذا أقرب إلى الرقم السائد ، وهو ١٠٨٧ر١ ووضع مرسن فى ١٦٣٦ السلسلة الكاملة للنغمات التوافقية التى يحدثها سلك رنان .

وتركزت أبحاث البصريات حول مسائل الانعكاس والانكسار العريصة، وبخاصة عند مشاهدتها فى قوس قزح . وحوالى ١٥٩١ وضع ماركو أنطونيو

دى دومنيس رسالة فى « الضوء » أوضح فيها تكوين قوس قزح الرئيسى ، (وهو الوحيد الذى يمكن رؤيته بصفة عامة) على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاس واحد لضوء على قطرات بخار الماء فى السماء أو الرذاذ . وتكوين قوس قزح الثانوى (وهو قوس من الألوان فى ترتيب عكسى ، يرى أحيانا بشكل باهت ، خارج القوس الرئيسى) . على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاسين . وفى ١٦١١ عالج كبلر فى رسالة « الانكسارات » موضوع انكسار الضوء فى العدسات . وبعد ذلك بعشر سنين جاء ولبرورد سنل من ليدن ، وصاغ قوانين الانكسار فى دقة جعلت من الميسور اجراء حساب أدق لعمل العدسات فى الضوء ، وصنع ميكروسكوبات وتلسكوبات أفضل . فطبق ديكارت هذه القوانين على الحساب الميكانيكى لزوايا الاشعاع فى قوس قزح . أما تفسير ترتيب اللون فكان لزاما أن ينتظر مجىء نيوتن .

وأدى بحث جلبرت — الذى يعتبر بداية عصر جديد — فى الجاذبية الأرضية إلى سلسلة طويلة من النظريات والتجارب . واقترح فيانوس سترادا عضو جمعية يسوع ، الارسال البرقى (١٦١٧) ، وذلك بأن يتصل رجلان الواحد منهما بالآخر ، من بعيد ، عن طريق استخدام الفعل المتجانس لابرتين مغناطيسيتين وضعتا بحيث تشيران فى وقت واحد إلى حرف هجاء واحد بعينه ، وفى ١٦٢٩ أدلى جزويتى آخر ، نيقولو كابيو ، بأول وصف عرفه العالم للتنافر الكهربى . وجاء عالم آخر هو أثناسيوس كيرشر ، فوصف فى كتابه « المغناطيس » (١٦٤١) قياس المغناطيسية بتعليق مغناطيس فى إحدى كفتى ميزان ، ومقاومة تأثيره بوضع موازين فى الكفة الأخرى . وعزا ديكارت المغناطيسية إلى تأثير الجزيئات التى تنفثها الدوامة الكبرى التى اعتقد هو أن الأرض نشأت عنها .

وكانت الكيمياء القديمة (الخيمياء) لاتزال شائعة ، وخاصة كبديل ملكى لخفض قيمة العملة . فكان الامبراطور رودلف الثانى ، وناخبو سكسونيا

وبراندنبرج والبالاتينات ، ودوق برنزويك وكونت هس ، يستخدمون جميعا أرباب الكيمياء القديمة لصنع الفضة أو الذهب[٤٦] . ومن هذه التجارب ومن الحاجة إلى علم المعادن وصناعة الصباغة . ومن الحاح الطبيب الألمانى باراسلوس على الدواء الكيمياوى ، من هذا كله بدأ علم الكيمياء يتشكل . وكان أندريا ليبافيوس يمثل هذا الانتقال من «الخيمياء» إلى الكيمياء . وكان مؤلفه « الدفاع عن خيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة» (١٦٠٤) استمرارا للسعى وراء المطلب القديم ، ولكن كتابه « الكيمياء » (١٥٩٧) كان أول رسالة منهجية فى الكيمياء العلمية الحديثة . واكتشف باراسلسوس كلوريد القصدير ، وكان أول من صنع سلفات الأومنيوم، وكان من أوائل من اقترح نقل الدم كعلاج. وكان معمله فى كوبرج إحدى عجائب المدينة. ووضع جان بابتستافان هلمونت — وهو نبيل ثرى أكب على العالم وصرف همه فى تقديم الخدمات الطبية للفقراء — وضح اسمه بين مؤسسى الكيمياء بتمييز الغازات عن الهواء وتحليل أنواعها وتركيبها . ونحت لفظة « غاز » من اللفظة الأغريقية Chaos وحقق إكتشافات كثيرة فى مجاله المختار ، ابتداء من الغازات المتفجرة فى البارود ، إلى امكانات الاشتعال فى « ريح الإنسان»[٤٧] واقترح القلويات فى علاج الحموضة المفرطة فى الجهاز الهضمى. وأوصى يوهان جلوبر بيللورات سلفات الصوديوم للاستعمال كعلاج ممتاز من الظاهر أو من الباطن. ولا يزال « ملح جلوبر » يستخدم كملين . ان جوبر وهلمونت كليهما اشتغل بالخيمياء (أو الكيمياء القديمة) كهواية .

وأسهمت كل هذه « العلوم الطبيعية » فى تحسين الانتاج الصناعى ، وأدوات القتل فى الحروب.وطبق الفنيون المعرفة الجديدة بالحركات والضغوط فى السوائل والغازات ، وتكوين القلوى ، وقوانين التذبذب ، ومسارات الاسقاط والقذف،وتنقية المعادن.واستخدم البارود فى تفجير المناجم(١٦١٣) وفى ١٦١٢ اخترع سيمون ستورتفانت طريقة لانتاج فحم« الكوك»لتخليصه

من العناصر المتطايرة . فهذا « الكوك » له قيمته وأهميته فى صناعة المعادن ، لأن شوائب الفحم العادى تصر بالحديد ، وقد حل محل الفحم النباتى وأنقذ الغابات . وقلت تكلفة صناعة الزجاج ، حيث عم استعمال زجاج النوافذ فى ذاك العصر . وبنمو الصناعة تضاعفت المخترعات الميكانيكية. لأنها كانت تعود إلى أبحاث العلماء أقل منها إلى مهارات الصناع الذين يتوقون إلى توفير الوقت . ومن هنا فاننا نسمع لأول مرة عن المخراط اللولبى فى ١٥٧٨، واطار الحبك والربط فى ١٥٨٩ . والمسرح الدائر فى ١٥٩٧ ، وآلة درس القمح وقلم الحبر فى ١٦٣٦ .

وقام المهندسون آنذاك بأعمال فذة تستحق الاعجاب حتى فى أيامنا هذه، فقد رأينا كيف أن دومنيكو فونتانا هز رومه باقامة مسلة فى ميدان القديس بطرس . وابتدع ستفينوس مهندس موريس ناسو ، نظام البوابات للتحكم فى السدود — وهى حارسة جمهورية هولندة . واستخدم منفاخ ضخم فى تهوية المناجم ، والمضخات المعقدة فى رفع المياه إلى أبراج لتضغت المياه إلى البيوت والنافورات فى المدن مثل أوجزبرج وباريس ولندن وأنشئت قناطر ترووس على أساس القاعدة الهندسية البسيطة وهى أن المثلث لا يمكن أن يعدل شكله ألا بتغير طول أحد الجوانب . وفى ١٦٢٤ سارت غواصة تحت الماء لمسافة ميلين في نهر التامين[٤٨] . وتقدم جيروم كاردان وجامباتستا دللابورتا وسالومون دى كوز بنظرية الآلة البخارية خطوة إلى الأمام ، وفى ١٦١٥ وضع كوز وصفا لآلة لرفع الماء بفعل قوة تمدد البخار[٤٩] .

ولم تكن الجيولوجيا قد ولدت بعد ، حتى اللفظ نفسه لم يكن موجودا ، وكانت دراسة الأرض تسمى « علم المعادن » وجال النظر بعين الاجلال إلى قصة « الخلق » فى التوراة دون المقامرة بالبحث فى نشأة الكون . ورمى برنارد باليسى بالزندقة لاحيائه الفكرة القديمة التى تقول بأن الأحافير والمستحاثات ليست إلا بقايا متحجرة لكائنات ميتة. وغامر فيكارت بالقول

بأن الكواكب السيارة بما فيها الأرض كانت يوما كتلا متوهجة مثل الشمس، وعندما برد الكوكب، كون قشرة من السوائل والمواد الصلبة فوق نار مركزية داخلية، أنتج دخانها الينابيع الحارة والبراكين والزلازل(٥٠).

وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية والرواد والتجار الذين أرادوا نشر دياناتهم أو التوسع فى العلم والمعرفة أو التجارة. وفى ١٥٦٧ وما بعدها ارتاد الملاحون الأسبان البحار الجنوبية، وكشفوا جزيرة جوادالقنال وغيرها من جزر سليمان — وسميت كذلك على أمل العثور هناك على كنوز سليمان. وزار المبشر البرتغالى بيكوياس (الذى أخذ أسيرا فى الحبشة (١٥٨٨)، النيل الأزرق، وحل اللغز قديما بأن فيضان النيل المنتظم ليس له من سبب ألا فعل الأمطار فى مرتفعات الحبشة. وواضح أن ولم جانسزون كان أول من وطئت قدماه أرض استراليا (١٦٠٦). وكشف آبل تسمان تسمانيا ونيوزيلند (١٦٤٢) وجزر فيجى (١٦٤٣) ودخل التجار الهولنديون سيام وبورما والهندالصينية. ولكن المعلومات عن هذه البلاد وعن الصين، وردت إلينا أساسا عن طريق المبشرين الجزويت. وبأمر من هنرى الرابع ملك فرنسا ارتاد صمويل تشامبلن ساحل نوفاسكوشيا وصعد فى نهر سانت لورنس إلى قرب مونتريال، وأسس أتباعه مدينة كويك، وبينوا على الخريطة البحيرة التى تحمل اسمه.

وكافح صانعو الخرائط حتى لا يتخلفوا كثيراً عن الرواد والمستكشفين، ومنهم جيراردوس مركيتور (جيرهارد كريمر) الذى درس فى لوفان، وأسس محلا لصنع الخرائط والأدوات العلمية والكرات الأرضية. وفى ١٥٤٤ قبض عليه وحوكم بتهمة الهرطقة، ولكنه تفادى العواقب الوخيمة، فوجد على أية حال أنه من الحكمة أن يقبل دعوة وجهت اليه من جامعة دوزبرج، حيث أصبح رساما للخرائط لدى دوق جوليس كليفز (١٥٥٩). وطوال حياته التى امتدت اثنين وثمانين عاما، جهد مركيتور دون كلل أو ملل فى رسم خرائط

للفلاندرز واللورين وأوربا والأرض . وفى مؤلفه المشهور « الوصف الجديد الدقيق للارض وطرق الملاحة» (١٥٦٨) أدخل نظام « الأسقاط المركاتورى» فى الخرائط الذى أدى إلى تيسير الملاحة. باظهار دوائر خطوط الطول موازية بعضها لبعض ، ودوائر العرض خطوطا مستقيمة ، وكلتا المجموعتين من الخطوط تشكل زوايا قائمة ، الواحد منهـا مع الآخر . وفى ١٥٨٥ شرع فى اصدار « أطلسه» الـكبير (ونحن مدينون له بالفضل فى استخدام هذا اللفظ)، محتويا على إحدى وخمسين خريطة،فى اتقان ودقة لم يسبق لهما مثيل،وصف فيها الأرض المعروفة آنذاك . ودخل صديقه أبراهام أورتل فى مبارات معه بكتابه الجامع « مدار الأرض » (أنتورب ١٥٧٠) . أن هذين الرجلين كليهما حرر الجغرافيا من ارتباطها الألفى السعيد ببطلميوس (الفلكى السكندرى فى القرن الثانى الميلادى) ، ووضعاها فى شكلها الحديث . وبفضلها احتفظ الهولنديون بمـــا يكاد يكون احتكارا تاما لصناعة الخرائط طيلة قرن من الزمان .

٥ ــ العلم والحياة

وكان على علم الإحياء (البيولوجيا) أن ينتظر قرنين من الزمان حتى يتسنم الذروة ، ونشأ علم النبات على مهل من خلال الدراسات الطبية للأعشاب العلاجية واستيراد النباتات الغريبة إلى أوربا وجلب المبشرون الجزويت لحاء الشجر من بيرو (الكينين) والونيلية (نبات أمريكى استوائى ، الفانيليا) والراوند . وأدخل البطاطس حوالى ١٥٦٠ من بيرو إلى أسبانيا ، ومنها انتشر فى أنحاء القارة . ووصف برسبيرو ألبينى أستاذ علم النبات فى بادوا خمسين نباتا أجنبيا زرعت مجددا فى أوزبا . ومن دراساته لنخيل البلح استدل على التكاثر الجنسى فى النبات الذى أوضحه تيوفراستوس فى القرن الثالث ق . م . يقول ألبينى : « إن إناث نخيل البلح لا تحمل ثمرا إلا إذا اختلطت أغصان الأشجار الذكور والأشجار الإناث بعضها ببعض ، أو كما يحصل عادة ، إلا إذا تناثر

الغبار الموجود فى غلاف الأشجار الذكور أو أزهار الأشجار الاناث[٥١] .
وقد يقسم لناؤوس فيما بعد النباتات وفقا لطرق تكاثرها ، ولكن الآن فى ١٥٧٣ قدم أندريا سيسالبينو الفلورنسى أول تقسيم منهجى للنباتات ، ١٥٠٠ نوع منها ـ على أساس بذورها وثمارها المختلفة . وأورد جاسبار بوهين (من مدينة بازل) فى مؤلفه الضخم « جدول عالم النبات » (١٦٢٣) تصنيفا لنحو ٦٠٠٠ نبات ، وبذلك استبق ما أنجزه بعد ذلك ليناؤوس من تصنيف وتسمية ثنائية تبعا للجنس والصنف ، وقضى بوهين أربعين عاما فى إعداد « جدول النبات » ، ومات بعد سنة من صدوره ، وبقى مرجعا أساسيا لمدة ثلاثة قرون .

وبدأت « معشبات الأطباء الخاصة تتطور الآن إلى حدائق نباتية تديرها الجامعات أو الحكومات للجمهور . وكان لأقدمها التى أسست فى بيزا ١٥٤٣ ، شهرة كبيرة أيام سيسالبينو . وأسس فى زيوريخ حديقة نباتية فى ١٥٦٠ ، ثم فى بولونا وكاسل وليدن وليبزج وبرسلا وبازل وهيدلبرج وأكسفورد . وفى ١٦٣٥ نظم جى دى لابروس ـ طبيب لويس الثالث عشر « حديقة النباتات الطبية » المشهورة فى باريس ، أما حدائق الحيوان ، بوصفها معارض للوحوش لتسلية الجماهير ، فقد وجدت فى الصين (١١٠٠ ق . م) وفى رومه القديمة ، وفى المكسيك أيام الأزتيك (حوالى ١٤٥٠) ، أما الطراز الحديث فقد افتتح فى درسدن فى ١٥١٤ ، وفى فرساى فى عهد لويس الثالث عشر .

ولقى علم الحيوان عناية أقل مما لقى علم النبات ، لأنه قدم علاجات أقل ، اللهم إلا فى الطب الأسطورى أو الخرافى ، وفى ١٥٩٩ شرع بوليس ألدروفاندى فى نشر ١٣ مجلدا ضخما فى التاريخ الطبيعى ، وعاش حتى رأى ستة منها فى المطبعة ، ونشر سناتو بولونا السبعة الباقية من مخطوطات المؤلف على نفقة الدولة . ولم يحتل مكان هذه المجلدات أو ينسخها إلا كتاب بوفون « التاريخ الطبيعى » (١٧٤٩ - ١٨٠٤) . وابتدأ الجزويتى المتعدد الثقافات أثناسيوس

كيرشر علم الأنسجة العضوية بكتابه الذى وصف فيه (١٦٤٦) الديدان المتناهية الصغر التى وجدها مجهره (الميكروسكوب) فى المواد المتعفنة . أن الاعتقاد بتوالد الكائنات الدقيقة توالدا تلقائيا من اللحم المتعفن أو الفاسد ، أو حتى من الطين ، كاد يكون سائدا تماما ، ولو أن هارفى كان على وشك أن يدحضه فى كتابه « توالد الحيوان » (١٦٥١) . وكان علم الحيوان متخلفا ، لأن نفرا قليلا من المفكرين رأوا الأجداد العليا للحيوان كما رأوهم فى الإنسان ولكن فى ١٦٣٢ كتب جاليليو إلى دوق تسكانيا الأكبر : « ولو أن التباين بين الإنسان وسائر الحيوان هائل جدا ، فإنه يمكن القول بحق بأنه أكثر قليلا من التباين بين بنى البشر أنفسهم[٥٢] » . أن العقل الحديث كان يرتد يبطء إلى ما عرفه الاغريق قبل ذلك بألفى عام .

وآوى علم التشريح إلى شيء من الركود بعد جهود فيساليوس . وكان تشريح الجثث لا يزال محل معارضة — كما فعل هوجو جروتيوس[٥٣] . ولكن « دروس التشريح » الكثيرة فى الفن الهولندى تعكس الارتياح العام إلى هذا العمل . والاسم اللامع هنا ، مثلما هو فى الجراحة هو جيولامو فابرزيو أكوابندانت . تلميذ فللوبيو وأستاذ هارفى . وفى أثناء رياسته لجامعة بادوا شيدت هناك قاعة التشريح الكبرى — وهى المبنى الوحيد المحتفظ به كاملا من تلك الحقبة ، إن اكتشافه للصمامات فى الأوردة ، ودراساته فى تأثيرات الأربطة قادتا هارفى إلى شرح الدورة الدموية وتقدمت المعرفة بدورة السوائل فى الجسم خطوة إلى الأمام بكشف جاسبارو أسللى للأوعية اللمفاوية التى تنقل الكيلوس الشبيه باللبن (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) من الأمعاء الدقيقة . والحق أن أسللى ، على الرغم من اسمه « الجحش الصغير » وصف الدورة الدموية قبل أن ينشر هارفى نظريته بست سنين . وكان اندريا سيسالبينو قد شرح النظرية الأساسية (١٥٧١) قبل هارفى بنصف قرن . وظل يتعلق بالفكرة القديمة ، وهى أن بعض الدم يمر من الحجاب الحاجز للقلب ، ولكنه

اقترب ، أكثر من هارفى ، من شرح كيفية انتقال الدم من الشرايين إلى الأوردة إن أنبل الجيوش كانت تتقدم على مائة جبهة لتخوض أعظم الحروب والمعارك إنها معارك العلم .

٦ ـ العلم والصحة

وفى هذا النضال من أجل العلم والمعرفة ، كانت المعركة الأساسية هى معركة الحياة ضد الموت ، وهي معركة خاسرة على الصعيد الفردى ، ظافرة بانتظام على المستوى الجماعى . وكم للأطباء والمستشفيات ، فى نضالهم لعلاج الأمراض والآلام ، من أعداء بشريين فى القذارة الشخصية ، والقذارة العامة ، والسجون الكريهة الرائحة والمثيرة للاشمئزاز ، والدجالين وجرعاتهم السحرية ، والمتصوفين « العلميين » ، ومعالجى الفتق ، نديبى الحجارة ، ومعالجى اعتام عدسة العين ، وخالعى الأسنان ، هواة تحليل البول . وسارت الأمراض الجديدة فى سباق مع العلاجات والأدوية الجديدة .

وكان مرض الجذام قد اختفى ، وقللت الوسائل الوقائية من الاصابة بمرض الزهرى ، وكان فاللوبيو قد اخترع (١٥٦٤) غلافات من الكتان لإتقاء عدوى هذا المرض . (وسرعان ما استخدم هذا لمنع الحمل ، وكان يباع لدى الحلاقين والمومسات أو أصحاب المواخير [٥٤]) . ولكن أوبئة التيفوس والتيفود والحمى والملاريا والدفتريا ، والاسقربوط والانفلونزا والجدرى والدوسنطاريا ، ظهرت فى تلك الحقبة فى عدة أقطار فى أوربا ، وبخاصة ألمانيا . وثمة احصاءات قد يكون مبالغا فيها ، بأن الوفيات بلغت ٤٠٠٠ من الطاعون الدملى فى بازل ١٥٦٣ — ١٥٦٤ ، وأن ٢٥٪ من سكان فريبورج ـ أم ـ بريزو ماتوا بالطاعون ١٥٦٤ ، و ٩٠٠٠ فى ردستوك ، و ٥٠٠٠ فى فرانكفورت ١٥٦٥ ، ٤٠٠٠ فى هانوفر ، و ٦٠٠٠ فى برونزويك ١٥٦٦ [٥٥] وعزا السكان المذعورون مثل هذا الطاعون إلى دس السموم عمدا . وفى فرانكشتين فى سيليزيا أحرق ١٧ شخصا

أحياء حتى الموت للاشتباه فى أنهم دسوا السم[٥٦] . وكانت وطأة الطاعون الدملى شديدة جدا فى فرانكفورت فى ١٦٠٤ حتى لم يعد هناك من الرجال من يكفى للقيام بدفن الموتى[٥٧] . وتلك مبالغات واضحة ، ولكن يروى عن مصادر موثوقة أنه بسبب الطاعون الدملى فى إيطاليا ١٦٢٩ — ١٦٣١ مات فى ميلان ٨٦ ألفا ، وفى جمهورية البندقية ما لا يقل عن ٥٠٠ ألف ، وفيما بين ١٦٣٠ — ١٦٣١ كان عدد ضحايا الطاعون مليون شخص فى جنوب إيطاليا وحده[٥٨] ، وقلما سار معدل الانجاب عند النساء مع شدة الدهاء وسعة الحيلة فى إزهاق الأرواح . وضوعفت آلام الوضع بتزايد عدم جدواه . وكانت نسبة الوفيات فى الأطفال تبلغ خمس المواليد قبل إتمام السنة الثانية من العمر[٥٩] وكانت الأسرات كبيرة والسكان قليلين .

وكانت الصحة العامة آخذة فى التحسن ، والمستشفيات يتضاعف عددها وتعليم الطب يصطبغ بالتشدد والصرامة — ولو أنه كان من الميسور الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة علمية . وكان فى بولونا وبادوا وبازل وليدن ومونبيلييه وباريس مدارس طب ذائعة الصيت تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء أوربا الغربية . وأمامنا مثال فذ من البحث الطبى الدؤوب طيلة ثلاثين عاما من التجارب حاول بها سانكتوريوس تحويل العمليات الفسيولوجية إلى نظم كمية . وأنجز قدرا كبيرا من عمله بينما كان جالسا إلى مائدة على ميزان كبير ، وسجل ما يطرأ على وزنه من تغيرات عند دخول أو خروج المواد الصلبة والسوائل ، بل إنه وزن العرق نفسه . ووجد أن جسم الانسان يخرج بضعة أرطال يوميا عن طريق التنفس العادى . وانتهى إلى أن هذا شكل جوهرى من أشكال الطرد أو التخلص من الزوائد . واخترع مقياسا طبيا للحرارة (١٦١٢) وآخر للنبض ، ليعاون هذا وذاك فى تشخيص الأمراض .

وكان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلقة . ووصف بعض مشاهير الأطباء ، كعلاج ، الضفادع المجففة تخاط فى كيس يعلق على الصدر ، كمصيدة

يتصيد ويمتص الهواء الفاسد المسموم المحيط بالجسم فى المناطق المصابة بالطاعون[٦٠] . وجمعوا بين امتصاص الدم بالعلقات أو بالحجم ، وبين تناول مقادير كبيرة من الماء ، على أساس أن بعض السائل الداخل إلى الجسم سوف يتحول إلى دم جديد غير ملوث .وكانت ثمة مدرستان للعلاج تتباريان على الفريسة ، وهو المريض : مدرسة العلاج الميكانيكى التى نشأت عن آراء ديكارت التى تقول بأن كل عمليات الجسم ميكانيكية ، ومدرسة العلاج الكيميائى التى بدأها باراسلسوس، وطورها هلمونت . والتى تفسر كل وظائف الأعضاء بأنها كيمياوية . وكانت المعالجة المائية العلمية شائعة . وكانت المياه العلاجية موجودة فى باث انجلترا ، وفى سبا فى الأراضى الوطيئة ، وفى بلومبيير فى فرنسا ، وفى أماكن أخرى كثيرة على الراين وفى إيطاليا ، وقد رأينا مونتيني يجرب العلاج بالمياه فى هذه الأماكن ، ونثر حصى الكلى طوال الطريق . وأدخل إلى أوربا عقاقير جديدة ، مثل الناردين (حوالى١٥٨٠) ، والأنتيمون (الأثمد) حوالى ١٦٠٣ ، وعرق الذهب (١٦٢٥) ، والكينين (١٦٣٢) .ودون دستور الصيدلة والأدوية فى انجلترا (١٦١٨) نحو١٩٦٠ عقارا. ويذكر مونتيني علاجات خاصة ادخرها نفر من الأطباء لمرضاهم الصبورين

> القدم اليسرى لسلحفاة ، بول السحلية ، روث الفيل ، كبد حيوان الخلد . الدم المستخرج من الجناح الأيمن لحمامة بيضاء. وبالنسبة للمصابين بحصى الكلى مثلى .... روث الفار المسحوق ... وغير ذلك من السخافات التى توحى بالسحر والتعاويذ أكثر منها بالعلم الجاد[٦١] .

وكانت مثل هذه العلاجات التافهة الغريبة باهظة التكاليف إلى حد كبير وكان الناس فى القرن السابع عشر يئنون من أثمان الدواء أكثر مما يضجون من أجور الأطباء[٦٢] .

وترك طب الأسنان للحلاقين ، وكان يقوم فى معظمه على الخلع . وكان بين « الحلاقين الجراحين » آنذاك جماعة من المحترفين المهرة ، من أمثال امبرواز بارى ، فرانسوا روست ، اللذين أحييا الخلع القيصرى ، وجسبارو طلياكوتسى المتخصص فى إعادة تشكيل الأذن والأنف والشفاة ، من لدائن البلاستيك ، وقد اتهمه الأخلاقيون بالتدخل فى صنع الله ، ونبشت رفاته من الأرض المطهرة ، ودفنت فى أرض غير مقدسة (٦٣) . وكان وهلم فبرى « أبو الجراحة فى ألمانيا » أول من أوصى ببتر العضو أو الطرف فوق الجزء المصاب . وأورد جيوفنى كول أقدم وصف معروف لعمليـــة نقل الدم (١٦٢٨) .

وامتعض المرضى من أجر الطبيب ، كما هو الحال فى كل العصور . وسخر الممثلون الهزليون من ردائه الطويل وحذائه الاحمر ، ومن رزانته ووقاره وهو إلى جانب فراش المريض ، وإذا كان لنا أن نصدق هجو الممثلين الهزليين الفكاهيين ، فإن مكانته الاجتماعية لم تكن تعلو كثيرا من مرتبة المعلم ، ولكننا لو رجعنا إلى تاريخ « درس التشريح » لرمبرانت ، لشهدنا طبقة من الرجال تتمتع بمنزلة رفيعة فى المجتمع ، قادرة حتى على الاسهام فى لوحة عظيمة . أن أعظم فلاسفة ذاك العصر ، الذى كان يحلم ، كما يحلم كل منا ، بمستقبل أفضل للبشرية ، فكر فى تحقيق حلمه على أساس تحسين الخلق الانسانى والنهوض بالعلوم الطبية ، بوصفهما أكثر العوامل ملاءمة لمثل هذه الثورة ؛ وفى هذا يقول ديكارت : « إن العقل نفسه يعتمد كثيراً على سلامة أعضاء الجسم وتنظيم أدائها لوظائفها ، إلى حد أنه إذا كان من الميسور أن نفتش عن وسيلة تزيد بها من عقل الانسان وقدرته ، فاعتقادى أنه ينبغى أن نلتمسها فى الطب والدواء »(٦٤) .

٧ — من كوبرنيكس إلى كبلر

لقد تركنا علم الفلك لنعرض له فى خاتمة المطاف ، لأن أبطاله ، وهم يقتربون من نهاية هذه الفترة ، يشكلون العناصر الرئيسية فيها .

أن نفس الكنيسة التى كان عليها أن تخرس جاليليو ،قادت الطريق إلى أحد المنجزات العظمى فى علم الفلك الحديث — ألا وهو إصلاح التقويم . أن مراجعة التقويم التى كان قد قام بها سوسينز ايوليوس قيصر حوالى ٤٦ ق . م . أدت إلى زيادة السنة باحدى عشرة دقيقة و١٤ ثانية . ومن ثم فانه فى ١٥٧٧ تخلف التقويم اليوليانى عن تعاقب الفصول بنحو١٢ يوما ، وبذلك لم تقع أعياد الكنيسة فى المواعيد التى قصد لها أن تقع فيها .وكم من محاولات بذلت لاصلاح التقويم : فى عهد كليمنت السادس ، سكستس الرابع ، ليو العاشر — ولكن نشأت عوائق جمة ، منها عدم اتفاق الجميع على حل معين . وعدم توفر المعرفة الدقيقة بالفلك . وفى ١٥٧٦ قدم إلى البابا جريجورى الثالث عشر تقويم قام بتصويبه لويجى ججليو . وأحاله البابا إلى لجنة من اللاهوت والمحامين ورجال العلم ، ومن بينهم الجزويتى البافارى كرستوفر كلافيوس الذى اشتهر بتضلعه فى الرياضيات والفلك ، وواضح أن المخطط النهائى كان من صنعه . واستمرت المفاوضات طويلة مع الأمراء والأساقفة لتحقيق تعاونهم فى هذا المجال وأثيرت اعتراضات كثيرة وأخفقت المساعى التى بذلت للحصول على موافقة الكنائس الشرقية . وفى ٢٤ فبراير ١٥٨٢ وقع البابا جريجورى الثالث عشر المرسوم الذى أقر « التقويم الجريجورى » فى العالم الكاثوليكى . ومن أجل التعادل بين التقويم القديم والحقائق الفلكية ، حذفت عشرة أيام من شهر أكتوبر ١٥٨٢ ، أى أن اليوم الخامس اعتبر اليوم الخامس عشر ، وعمدوا من أجل ذلك إلى ضروب معقدة من الحسم والخصم فى حساب الفوائد وغيرها من المعاملات التجارية . وللتعويض عن الخطأ فى التقويم اليوليانى ، فانهم زادوا فى سنوات القرون التى تقبل القسمة على ٤٠٠ ، يوما فى شهر فبراير ليصبح ٢٩ يوما .

وعارضت البلاد البروتستانتية هذا التغيير. وتمرد الأهالى فى فرانكفورت (على نهر السين) وفى بريستول، اعتقاداً منهم بأن البابا أراد أن يسلبهم عشرة أيام بل أن مونتينى نفسه زمجر وشكا، وهو الشديد الطمع فى الزمن، فقال «إن ما عمد اليه البابا أخيراً من اختصار عشرة أيام من السنة قد أزعجنى إلى حد أنى لا أكاد استرد عافيتى»[٦٥]، ولكن التقويم الجديد — الذى لن يحتاج إلى تصويب آخر لمدة ٣٣٣٣ سنة — أخذ بالتدريج يلقى قبولا فى الولايات الألمانية فى ١٧٠٠، وفى انجلترا فى ١٧٥٢، وفى السويد فى ١٧٥٣، وفى روسيا ١٩١٨[*].

وثمة تلكؤ شبيه بهذا حدث فى ارتضاء وتقبل فلك كوبرنيكس. وكان من الممكن دراسته وتعليمه فى إيطاليا، لو أنه عرض على أنه فرضية قابلة للجدل، لا على أنه حقيقة واضحه[٦٦]. ودافع عنه جيوردانو برونو، وتساءل بالفعل كمبانللا إذا كان سكان الكواكب الأخرى ظنوا أنفسهم، كما يظن أهل الأرض، أنهم مركز الأشياء، وهدفها[٦٧]. وتسابق اللاهوتين البروتستانت مع الكاثوليك عامة فى إستنكار الطريقة الجديدة، ودحضها بيكون وبودين على السواء[٦٨]. والأغرب من هذا كله أن أعظم الفلكين فى نصف القرن التالى لوفاة كوبرنيكس (١٥٥٣)، رفضها كذلك.

ولد تيكو براهى فى ١٥٤٦، فى مقاطعة سكانيا التى كانت آنذاك دنمركية

(*) من الناحية المثالية كان يمكن تقسيم السنة إلى ١٣ شهرا فى كل منها ٢٣ يوما، مع يوم أجازة لا تاريخ له (أو يومين فى السنة الكبيسة) فى نهاية العام. ومن ثم يكون التقويم فى الصحيفة الواحدة، مع بعض إشارات دوارة للدلالة على الشهر والسنة، نافعا لكل الشهور إلى ما لا نهاية، حيث يقع كل يوم من أيام الأسبوع فى نفس التواريخ على مر الشهور والأعوام. ويمكن أن تنقسم سنة العمل إلى شهور متساوية وارباع متساوية. ولكن هذا، مع اشد الآسف قد يزعج القديسين ويوقعهم فى حيرة.

وهى الآن فى الطرف الجنوبى للسويد ، وكان أبوه عضواً فى مجلس الدولة الدنمركى ، وأمه مديرة ملابس الملكة . أما عمه الثرى جورجن الذى انفطر قلبه غما لأنه لم ينجب أولاداً ، فقد اختطفه، وتملق أبويه واسترضاهما بكل الوسائل ، ابتغاء موافقتهما ، وهيأ للطفل كل فرص التعليم ووسائله . وفى سن الثالثة عشرة التحق تيكو بجامعة كوبنهاجن . وطبقا لما ذكره جاسندى ، انجذب تيكو إلى الفلك عندما سمع أحد المعلمين يناقش موضوع كسوف شمس قادم . ولحظ حدوث الكسوف كما تنبأوا به ، وعجب لهذا العلم الذى بلغ مثل هذه القدرة على التنبؤ، واشترى نسخة من كتاب بطليموس « المجسطى » . وأكب عليها إلى حد أهمال سائر الدراسات . ولم يتخل قط عن النظرة الهندسية التى تجلت فى القرن الثانى من عصرنا .

وفى سن السادسة عشرة نقل إلى جامعة ليبزج ، حيث درس القانون بالنهار ، ودرس النجوم بالليل . وحذروه من أن مثل هذا العمل قد يؤدى إلى انحطاط فى الجسم وانهيار فى الأعصاب . ولكن تيكو أصر وثابر ،وأنفق كل ما يحصل عليه فى شراء الآلات الفلكية . وفى ١٥٦٥ مات عمه ، تاركا له ثروة كبيرة . وأسرع تيكو ، بعد تسوية أموره ، إلى وتنبرج ، لمزيد من الرياضيات والفلك ، ثم غادرها فراراً من الطاعون ، إلى روستوك ، وهناك اشترك فى مبارزة أطاحت بجزء من أنفه ، فاتخذ أنفاً براقاً جداً من الفضة والذهب ظل به بقية حياته . وانهمك فى التنجيم وتنبأ بموت سليمان القانونى ، ليجد أن السلطان قد فارق الحياة بالفعل (٦٩). وبعد كثير من التجوال فى ألمانيا عاد إلى الدنمرك ، وشغل نفسه بالكيمياء . وأعاده إلى الفلك كشف نجم جديد فى مجموعة ذات الكرسى (١٥٧٢) . أن ملاحظاته السعيدة لهذا النجم المتنقل ، وما كتبه عنه فى أول مؤلف نشر له « النجم الجديد » أكسباه شهرة فى كل أنحاء أوربا . ولكن أزعجا بعض وجهاء الدنمرك الذين اعتقدوا أن التأليف ضرب من حب الظهور الذى لا يليق بالدم الأزرق . وأذهلهم

تيكو بزواجه من بنت فلاحة . ويبدو أنه أحس بأن زوجة وربة بيت بسيطة، خير رفيق لفلكى منصرف بكليته إلى الفلك ، وأحسن صنو منفتح سمح لرجل ذى أنف ذهبي .

ولما لم يقنع تيكو بالتسهيلات الفلكية فى كوبنهاجن ، فإنه اتخذ طريقه إلى كاسل ، حيث كان الدوق وليم الرابع قد بنى ١٥٦١ أول مرصد ذى سقف دوار ، وطور يوست بورجى ساعة حائط ذات رقاص (بندول) جعلت من الميسور تحديد أوقات رصد النجوم وحركاتها فى دقة لم يسبق لها مثيل . وامتلأ تيكو حماسا جديداً فعاد إلى كوبنهاجن ، وأثار اهتمام فردريك بمشروع لإقامة مرصد . فوضع الملك تحت تصرفه جزيرة هفين (فينوس) فى مياه السوند . وأجرى عليه راتبا كبيراً،واستطاع تيكو بهذا المال بالإضافة إلى موارده الخاصة ، أن يشيد هناك قصراً وحدائق أطلق عليهما أورانيبرج (مدينة السماء) ، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعملا وعدة مراصد ومصنعا لما تحتاج إليه من آلات . ولم يكن لديه مقراب (تلسكوب) ، حيث كان لابد من انتظار ثمانية وعشرين عاما حتى يتم اختراعه —على أن أرصاد تيكو هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات قيمة كانت فاتحة لعصر جديد .

وطيلة إحدى وعشرين سنة فى جزيرة هفين جمع تيكو وتلاميذه من المادة ما يفوق فى حجمه ودقته أية مادة معروفة من قبل . وسجل كل يوم ، ولعدة سنوات ، حركة الشمس الظاهرية ، وكان من أوائل الفلكيين الذين أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات،ولذلك عاود أرصاده وملاحظاته مرات ومرات . وكشف عن التغيرات فى حركة القمر ووضعها فى صيغة قانون . وأدى به تدقيقه الشديد فى تفقد أحد المذنبات فى ١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم الآن ، بأن المذنبات أجرام سماوية حقيقية تتحرك فى مدارات محددة منتظمة ، بدلا من كونها تنشأ فى الغلاف الجوى للارض . وعندما نشر تيكو الثبت الذى جمعه عن ٧٧٧ نجما ، وحددها بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة فى مكتبته، فإنه بذلك برر حياته .

وتوفى فردريك الثانى فى ١٥٨٨ . وكان الملك الجديد طفلا فى الحادية عشرة ، ولم يطق الأوصياء الذين تولوا الحكم صبرا على غرور تيكو براهى وحدته وإسرافه ، كما فعل فردريك من قبل . وسرعان ما انخفضت المنح الحكومية ثم انقطعت فى ١٥٩٧ . فغادر تيكو الدنمرك ، واستقر به المقام فى قلعة بنالك ، بالقرب من براغ ، ضيفا على الإمبراطور رودلف الثانى الذى أمل فى الحصول منه على نبوءات تنجيمية . وأحضر تيكو آلاته وسجلاته من هيمن ، وأعلن عن مساعد . فجاءه كبلر (١٦٠٠) ، وعمل مع سيده الذى يصعب التعامل معه وإرضاؤه ، عملا متقطعا ، ولكنه كان مخلصا فيه . وفى الوقت الذى كان فيه تيكو يتوق إلى الخروج من المادة الغزيرة التى جمعها بنظرية معقولة عن السموات ، دهمه وهو جالس إلى المنضدة انفجار فى المثانة ، وبقى يتلوى من الآلام لمدة أحد عشر يوما ثم فارق الحياة (١٦٠١) . وهو حزين على عدم اتمام عمله . وقال خطيب الجنازة أنه « لم يطمع فى شىء سوى الوقت[٧٠] » .

٨ — كبلر : ١٥٧١ — ١٦٣١

كان انتقال تيكو إلى براغ من حسن حظ العلم ، لأن كبلر ورث أرصاده وملاحظاته ، واستنتج منها قوانين الكواكب التى مهدت لنظرية نيوتن فى الجاذبية . وبجمعت ، من براهى إلى كبلر إلى نيوتن . ومن كوبرنيكس إلى جاليليو إلى نيوتن ، خطوط أساسية لتكون علم الفلك الحديث .

ولد كبلر فى فيل Weil بالقرب من شتتجارت، وكان أبوه ضابطا فى الجيش، طالما خرج للحرب مؤثراً ميدانها على حياة المنزل ، وأخيراً عاد وافتتح حانة اشتغل يوهان نادلا فيها . وكان الصبى سقيما معتل الصحة ، شل الجدرى يديه وأضعف باستمرار بصره . وآنس منه دوق روتنبرج أنه يمكن أن يصبح واعظا فاضلا . فتولى الانفاق على تعليمه . وفى توبنجن ، حول ميكائيل ماستلن الذى كان يقوم بتدريس فلك بطلميوس — حول كبلر سراً إلى

نظرية كوبر نيكس . وتحمس الشاب للنجوم إلى حد أنه تخلى عن التفكير فى أى عمل كنسى .

وبعد الحصول على الدرجة الجامعية أصبح كبلر مدرسا فى ستيريا ، يعلم اللاتينية والبلاغة والرياضيات مقابل ١٥٠ جلدن فى العام ، مع مسكن بالمجان ، يضاف إلى هذا ٢٠ جلدن لقاء تحرير تقويم تنجيمى سنوى . وفى سن الخامسة والعشرين تزوج كبلر من سيدة فى الثالثة والعشرين ، كانت قد شيعت زوجا لها إلى مثواه الأخير ، وانفصلت عن زوج ثان ، وقدمت له هذه السيدة مهراً وأتت إليه بابنة ، وأضاف هو ستة أطفال بمرور الزمن . وبعد سنة من الزواج أرغم كبلر على مغادرة جراز لأنه كان بروتستانتيا (١٥٩٧) ، وكان فرديناند دوق ستيريا الجديد كاثوليكيا صميما فأصدر أمره إلى كل رجال الدين والمعلمين البروتستانت بمغادرة بلاده . وكان كبلر قد اقترف إثما آخر بنشره « الكون الخفى » (١٥٩٦) الذى دافع فيه بحرارة عن نظرية كوبرنيكس ، وأرسل نسخا منه إلى تيكو وجاليليوا ملافى عونهما . وبعد سنة عانى فيها الفقر المدقع ، انقذته دعوة تيكو إياه إلى براج . ولكن كان من الصعب التعامل مع تيكو وارضاؤه . ولقى كبلر عنتا فى العقيدة وفى كسب العيش . وأنتاب الزوجة مرض عصبى . بعد ذلك توفى تيكو ، وعين كبلر خلفا له براتب سنوى قدره ٥٠٠ فلورين .

وكان تيكو براهى قد أوصى لكبلر بسجلاته ، ولم يورثه آلاته . ولما لم يستطع شراء أحسن الآلات ، فإنه وجد نفسه مسوقا إلى دراسة أرصاد تيكو وملاحظاته دون أن يضيف إليها شيئاً . وما كان له أن يقول مع نيوتن « إنى أخترع فروضا » ، بل على العكس . امتلا رأسه بالفروض وبات يهمهم بها ، « عندى ذخيرة من المخترعات أو من ثمرات الخيال[٧١] » . وكانت مهارته الفذة تكمن فى أختبار الفروض . كما تمثلت حكمته وعقله فى طرحها جانبا ، إذا ثبت أن النتائج التى توصل إليها رياضيا ، لا تتمشى مع الظواهر التى رصدها أو لاحظها[٧٢] . وفى محاولته لتعيين مدار المريخ جرب ٧٠ فرضا على مدى أربع سنوات .

وفى آخر الأمر فى ١٦٠٤ توصل إلى كشفه الأساسى الممتاز الذى فتح عصراً جديدا — وهو أن مدار المريخ حول الشمس عبارة عن قطع ناقص ، وليس دائرة ، كما ظن الفلكيون ابتداء من أفلاطون ومن جاء بعده بما فيهم كوبرنيكس . فالمدار المتخذ شكل القطع الناقص هو الوحيد الذى ينسجم مع الأرصاد المتكررة التى قام بها تيكو وغيره . وقفز ذهن كبلر المتوقد الذكاء إلى التساؤل : ماذا لو كانت مدارات كل الكواكب على شكل قطع ناقص ؟ وبادر إلى تفحص الفكرة على أساس الملاحظات والأرصاد المدونة ، فاتفقت معها اتفاقا يكاد يكون تاما . وفى رسالة باللاتينية عن حركات المريخ « الفلك الجديد وحركة المريخ » . (١٦٠٩) نشر أول قانونين من « قوانين كبلر » أولهما : أن كل كوكب يدور فى مدار على شكل قطع ناقص ، الشمس إحدى بؤرتيه ، والثانى أن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس ، لا كلما ابتعد عنها ، وأن نصف القطر الذى يمتد من الشمس إلى الكوكب يقطع ، فى دورانه مسافات متساوية فى أزمنة متساوية ، وعزا كبلر الاختلافات فى سرعة الكواكب إلى زيادة انبثاق الطاقة الشمسية التى يحسها الكوكب كلما اقترب من الشمس ، ومن هذه الناحية طور كبلر عن جلبرت فكرة الجذب المغناطيسى وهى قريبة جدا من نظرية نيوتن فى الجاذبية .

وعند موت الامبراطور رودلف (١٦١٢) انتقل كبلر إلى لنز ، وعاد ثانية إلى العيش على التعليم فى المدارس ، وماتت زوجته فتزوج من بنت فقيرة يتيمة . وفيما كان يزود بيته الجديد بالخمر ، افتتن بالصعوبة التى لقيها فى تقدير محتويات قنينة ذات جوانب منحنية . وساعد البحث الذى نشره عن هذه المسألة على التمهيد لاكتشاف حساب التفاضل (الكميات المتناهية الصغر) .

وبعد أن فكر كبلر لمدة عشر سنوات تفكيرا عميقا فى إيجاد العلاقة بين سرعة الكوكب وحجمه ، نشر فى كتابه « تناسق الكون » (١٦١٩) قانونه الثالث ، مربع زمن دورة الكوكب حول الشمس يتناسب مع الجذر التكعيبى

لمتوسط بعده عن الشمس (مثال ذلك . أن زمن دورة المريخ يمكن إثبات أنه ١٫٨٨ من زمن دورة الأرض ، ومربع هذا هو ٣٫٥٣ والجذر التكعيبي لهذا هو ١٫٥٢ ، أي أن متوسط المسافة بين المريخ والشمس يصبح ١٫٥٢ من المسافه بين الأرض والشمس . وكان لكبلر أن يبتهج أيما ابتهاج لوضعه دوران الكواكب بمثل هذا الترتيب والانتظام إلى درجة أنه شبه كل سرعة فى المدار بنغمة على السلم الموسيقى ، وانتهى إلى أن الحركات مجتمعة شكلت « تناغم النجوم » الذى لا تسمعه ، على أية حال ، إلا « روح » الشمس . ومزج كبلر علمه بالتصوف موضحا مرة أخرى مقالة جوته الكريمة . إن عيوب الإنسان هى أخطاء زمانه ، على حين أن فضائله هى من عنده . ويمكن أن نغتفر غروره حين كتب فى مقدمة « تناسق الكون » ،

أن ما وعدت به أصدقائى فى عنوان هذا الكتاب . . . وما أثرته منذ ١٦ عاما كموضوع يستحق البحث . وهو الذى من أجله انضممت إلى تيكو براهى . . . وهو الذى خصصت له أحسن سنى حياتى ، ، . . قد أخرجته اليوم إلى النور . . . لم تمض بعد ثمانية عشر شهرا حين سقطت الشمس المشرقة على . . . ان يعوزنى شىء ، سوف أطلق العنان لثورتى المقدسة . . . إذا غفرتم لى فلسوف أبتهج . . ولئن غضبتم فلسوف أحتمل غضبكم . . . سبق السيف العذل . لقد وضع الكتاب ، وليس يهمنى كثيرا أن يقرأ الآن ، أو أن تقرأه الذرارى والأعقاب ، ولم لا ينتظر قرنا ليجد قارئا ، كما انتظر « الله » الاله ستة آلاف عام حتى وجد مستكشفا[٧٣] .

وفى « خلاصة فلك كوبر نيكس » (١٦١٨ – ١٦٢١) أوضح كبلر كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبر نيكس ، فقال « لقد شهدت من أعماق نفسى بأنها صحيحة ، وإنى لأتأمل جمالها فى ابتهاج غامر لا يكاد يصدق[٧٤] ، ووضعت الرسالة فى عداد الكتب المحظورة لأنها نمت

عن أن نظرية كوبرنيكس كانت قد أثبتت . ولم ينزعج كبلر ، وهو البروتستانتى الورع . وعاش لفترة قصيرة فى بحبوحة من العيش وسط التهليل والتصفيق . وكان بصفة عامة يتقاضى راتبه بوصفه فلكى الامبراطور ، ومن بريطانيا الثانية دعاه جيمس الأول (١٦٢٠) ليذهب إلى هناك ليزدان به البلاط الملكى ولكنه رفض الدعوة خشية أن يعانى من أن يصبح حبيسا فى جزيرة[٧٥] .

وشارك كبلر أهل زمانه فى الإيمان بالسحر ، واتهمت أمه بممارسته . وادعى بعض الشهود أن ماشيتهم ، بل أنهم هم أنفسهم ، قد انتابتهم العلل لمجرد أن « فرو كبلر » قد مستهم ، وأقسمت إحدى المشاهدات على أن ابنتها البالغة من العمر ٨ سنوات قد أصابها سحر أم كبلر بالمرض ، وهددت بقتل الساحرة إذا لم تبادر بإبراء البنت . وأنكرت المرأة المتهمة كل ما نسب إليها , ولكن قبض عليها وأودعت السجن مكبلة فى الأغلال ، ودافع عنها كبلر فى كل مراحل نظر الدعوى . واقترح المدعى العام فى الولاية أن ينتزع منها الاعتراف بالتعذيب ، واقتيدت إلى غرفة التعذيب لترى الآلات المستخدمه فيه ، ولكنها ظلت تؤكد براءتها . وأفرج عنها بعد أن قضت فى السجن ثلاثة عشر شهرا . ولكنها ما لبثت أن ماتت (١٦٢٢) .

أن هذه المأساة بالاضافة إلى آثار نشوب الحرب هنا وهناك ، ملأت سنى كبلر الأخيرة بالغم والقتام . وفى ١٦٢٢ احتلت القوات الامبراطورية مدينة لنز وقارب سكانها أن يهلكوا جوعا . وفى وسط هذه الفوضى وأصل كبلر صياغة أرصاده وملاحظاته ، وأرصـــاد تيكو وغيره من الفلكيين وملاحظـاتهم ، وتدوينها فى « الجداول الرودلفية » التى ضمت وصنفت ١٠٠٥ نجما ، وبقيت ذات قيمة معترف بها لمدة قرن من الزمان . وفى ١٦٢٦ انتقل إلى أولم . وأبطأ به راتبه الامبراطورى ولاقى عنتا شديداً فى الانفاق على أسرته . وأهاب بدوق والنشتين أن يعينه منجما ، فكان له ما أراد ، وظل لعدة سنوات يتبع القائد يحسب له الطالع وينشر التقاويم التنجيمية . وقصد فى ١٦٣٢ إلى رجنز برج يلتمس من الديت أن يدفع له رواتبه المتأخرة .

واستنزفت الجهود ما بقى له من قوى جسمية ، فإنتابته الحمى ، وأودت بحياته فى أيام قلائل (١٥ نوفمبر ١٦٣٠) وهو فى التاسعة والخمسين من العمر وقد طمست الحرب كل معالم قبره .

وكانت رسالته فى تاريخ الفلك أن يتوسط بين كوبرنيكس ونيوتن . وتقدم على كوبرنيكس بإحلاله المدارات ذات القطع الناقص محل المدارات الدائرية ، وبالتخلى عن الانحرافات وأفلاك التدوير ، وفى وضعه الشمس فى إحدى بؤرتى القطع الناقص ، لا فى مركز دائرة . وبهذه التغييرات خلص نظرية كوبرنيكس من الصعاب التى كادت تبرر رفض تيكوبراهى لها . وعن طريقه بدأت الآن فكرة القياس من مركز الشمس تلقى قبولا وتنتشر إنتشاراً واسعا . وحول ما كان مجرد حدس براق ، إلى فرضية مصوغة فى تفصيل رياضى . وأمد نيوتن بقوانين الكواكب التى قادته إلى نظرية الجاذبية . وعلى حين احتفظ كبلر بعقيدته الدينية راسخة لا تتزعزع ، أظهر أن الكون كيان له قانون ، ونظام كامل متناغم متناسق ، فيه قوانين تحكم الأرض كما تحكم هى نفسها النجوم . وهو يقول « أن كل ما أصبوا إليه أن أدرك كنه الذات الآلهية . فأنى أجد الله فى الكون الخارجى مثلما أجده فى داخلى أنا »[٧٦] .

٩ — جاليليو : ١٥٦٤ — ١٦٤٢ :

١ — الفيزيائى :

ولد جاليليو جاليلى فى بيزا يوم وفاة ميكلانجو (١٨ فبراير ١٥٦٤) ، فى نفس العام الذى ولد فيه شكسبير . وكان أبوه فلورنسيا مثقفاً أسهم فى تعليمه اليونانية واللاتينية والرياضيات والموسيقى . ولم يكن من قبيل العبث أن يكون جاليليو ، على وجه الدقة تقريباً ، معاصراً لمنتفردى (١٥٦٧ — ١٦٤٣) لأن الموسيقى كانت من ضروب عزائه وسلواه الدائمة ، وبخاصة فى سنى شيخوخته التى فقد فيها بصره ، فعزف على الأرغن عزفا جديراً بالاكبار والتقدير ،

وعزف على العود عزفا جيداً . وأحب الرسم والتصوير ، وأبدى فى بعض الأحيان أسفه أنه لم يصبح فنانا . وفى إيطاليا العجيبة التى قضى فيها شبابه ، ظل تيار النهضة يلفح الوجوه موحيا إلى الناس بالكمال . وحزن جاليليو لأنه لم يتيسر له أن يصمم معبداً أو ينحت تمثالا أو يصور لوحة أو ينظم شعراً أو يؤلف موسيقى أو يقود سفينة(٧٧) ، لقد هفت نفسه إلى أن يقوم بهذا كله ، وإنا لنحس حين ندقق النظر فيه أنه لم يكن يعوزه إلا الوقت . وكان يمكن تحت أى الظروف على إختلافها ، أن يكون مثل هذا الانسان رجلا عظيما فى أية ناحية من النواحى . ونزع جاليليو فى صباه ، بطبيعته أو بحكم الظروف إلى صنع الالآت واللعب بها .

وأرسل وهو فى السابعة عشرة إلى جامعة بيزا ليدرس الطب والفلسفة . وبعد سنة واحدة أنجز كشفة العلمى الأول — وهو إن تأرجحات البندول ، بصرف النظر عن إتساعها ، تستغرق نفس الوقت . وبإطالة ذراع البندول أو تقصيره أمكنه أن ينقص أو يزيد من معدل ذبذبته حتى تزامنت مع نبضه ، وبهذه « البلسيلوجيا » (علم النبض) استطاع أن يقيس ضربات القلب بدقة .

وحوالى هذا الوقت اكتشف أقليدس ، حيث استمع مصادفة إلى معلم يدرس الهندسة لغلمان دوق تسكانيا الأكبر ، فبدا له أن منطق الرياضيات أسمى ، بما لا يقاس ، من الفلسفة الإسكولاستية (الفلسفة النصرانية فى القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة) وفلسفة أرسطو ، اللتين تلقاهما فى قاعة الدرس فانصرف خفية ، وفى يمناه « مبادىء » إقليدس ، إلى متابعة دروس معلم الغلمان واهتم به المعلم ، ولقنه الدروس سرا . وفى ١٥٨٥ ترك جاليليو جامعة بيزا دون أن يحصل على درجة وانتقل إلى فلورنسة ، وبتوجيه من المعلم انصرف فى ولع شديد إلى الرياضيات والميكانيكا . وبعد ذلك بعام واحد اخترع ميزانا هيدروستاتيا ليقدر الأوزان النسبية المعادن فى سبيكة وأثنى عليه وامتدحه كلافيوس الجزويتى لبحث فى مركز الجاذبية فى الأجسام الصلبة . وفى تلك الأثناء انحطت موارد أبيه ، وكان عليه أن يواجه الالتزام بكسب قوته بنفسه

فتقدم بطلبات للتدريس فى بيزا وفلورنسة وبادوا ، فرفضوا تعيينه لصغر سنه وفى ١٥٨٩ ، بينما كان هو وأحد أصدقائه يسعيان للحصول على عمل فى القسطنطينية وفى الشرق ، نمى إلى علمه خلو كرسى الرياضيات فى بيزا . فتقدم لشغله ، وهو قليل الرجاء فى الحصول عليه . وكان بعد فى الخامسة والعشرين . وعين فى هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات براتب قدره ٦٠ سكودى فى العام . وكاد بهذا الراتب أن يتضور جوعا . ولكنه استطاع أن يكشف عن نشاطه وجلده .

لقد اشتد عوده إلى حد كبير ، فبدأ لفوره ، من منصة التدريس ، فى شن الحرب على فيزياء أرسطو . لقد قال الإغريق « بأن الحركة إلى أسفل لأية كتلة من الذهب أو الرصاص أو أى جسم آخر يهبط نتيجة تنقله ، أسرع بالنسبة لحجمه[٧٨] . وذهب لكريشيس[٧٩] وليونارد ودافنشى[٨٠] إلى هذا الرأى . وفى الأزمنة القديمة نفسها ناقش هبارخس (حوالى ١٣٠ ق . م) رأى أرسطو عن هبوط الأجسام بفعل الثقل » . وذهب يوانس فيليبونس (٥٣٣) وهو يعلق على أرسطو « إلى أن الفرق الزمنى بين سقوط جسمين وزن أحدهما ضعف وزن الآخر » ، هو لا شىء البتة ، أو أنه فرق ضئيل جدا لا يمكن[٨١] ادراكه وهنا نأتى إلى قصة مشهورة ، ولو أنها محل نزاع ، وردت أولا فى سيرة حياة جاليليو ، التى كتبها صديقه فنشنزو فيفيانى فى ١٦٥٤ (بعد ١٢ عاما من وفاة جاليليو) ، مدعيا أنها مستقاة من كلام جاليليو نفسه .

ما كان أشد فزع الفلاسفة كلهم ، حين أثبت جاليليو أن كثيرا جدا من النتائج التى استخلصها أرسطو ، زائفة ، عن طريق التجارب والبراهين الدامغة . . . من ذلك أن سرعة الأجسام المتحركة من مادة واحدة ، ولكن مختلفة الوزن ، ومتحركة فى نفس الوسط لا تحتفظ بالتبادل بتناسب وزنها . كما قال أرسطو . ولكنها كلها تتحرك بنفس السرعة . مدللا على ذلك بتكرار التجارب من فوق برج بيزا ، بحضور

سائر المعلمين وكل الفلاسفة والطلبة ... أنه عزز مكانة كرسي التدريس وحظى بشهرة أهاجت حقد الفلاسفة منافسيه عليه حتى ثاروا ضده[٨٢].

أن جاليليو نفسه لم يذكر شيئا عن تجربة بيزا فى كتاباته الباقية . كما أنة لم يرد ذكرها فيما دونه إثنان من معاصرية فى ١٦١٢ و ١٦٤١ عن تجاربهما الخاصة بهما فى إسقاط أجسام مختلفة الوزن من فوق البرج المائل[٨٣] ورفضت قصة فيفيانى على أنها أسطورة من نسج بعض الباحثين فى ألمانيا وأمريكا * . وليس من المؤكد كذلك أن زملاءه الأساتذة فى بيزا استاءوا . وترك هذه الجامعة فى صيف ١٥٩٢، وربما كان السبب فى ذلك أنه عرض علية مركز أعلى ومرتب أكبر ، فنراه فى سبتمبر أستاذا فى بادوا يدرس الهندسة والميكانيكا والفلك ، وقد حول داره إلى معمل دعا إليه طلبته وأصدقاءه . وتجنب الزواج ولكنه اتخذ عشيقة أنجبت له ثلاثة أطفال .

ووضع جاليليو ما جمعه من أبحاث وتجارب ، فى كتابه « محاورات حول علمين جديدين » ، وذلك فى أيامه الأخيرة ، قبيل وفاته ، ويقصد بهذين العلمين الاستاتيكا والديناميكا وأثبت عدم قابلية المادة للفناء . وصاغ قواعد الرافعة والبكرة . وأوضح أن سرعة سقوط الأجسام سقوطا مطلقا تزيد بنسبة

(*) إن كتابات أرسطو هى فى الغالب ملاحظات موجزة ، ربما توسع فيها أو عدلها فى محاضراته . وربما قصد بقطعة «De Coelo» أنه فى وسط مقاوم ، بما فى ذلك الهواء الطلق ، تسقط الأشياء ذات الكتلة المكثفة مثل قطعة النقود ، أسرع ما تسقط الأشياء ذات الحجم الكبير والوزن الصغير مثل قطعة الورق . وهذا بطبيعة الحال صحيح . ولكن فى فراغ ، تسقط قطعة النقود والورقة أو كرة من الرصاص وريشة ، بنفس السرعة . بل أنه حتى فى الهواء الطلق ، فإن قطعة الورق إذا تمضت فى كتلة متضامة تسقط بنفس السرعة التى تسقط بها العملة تقريبا . وإذا لحظنا التعديل فى بيان فيفيانى أن الأشياء يجب أن تكون من نفس المادة .. وأن تسقط فى نفس الوسط ، فإن الهوة بين فيلسوف اليونان وعالم بيزا تضيق كثيرا .

منتظمة . وقام بتجارب كثيرة على مستويات مائلة ، وحاول أن يبرهن على أن أى جسم يتدحرج إلى أسفل على مستوى ما يمكن أن يصعد على مستوى مائل إلى ارتفاع مماثل لسقوطه لولا الاحتكاك أو أية مقاومة أخرى . وانتهى إلى قانون القصور الذاتى (وهو أول قوانين نيوتن للحركة) — وهو أن أى جسم متحرك ، يستمر بشكل غير محدود فى نفس الخط وبنفس معدل الحركة ، مالم تتدخل معه قوة خارجية[٨٤] وأثبت أن أية قذيفة تدفع فى اتجاه أفقى تسقط إلى الأرض فى منحنى قطعى مكافىء يقابل قوة الدفع وقوة الجاذبية . وحول العلامات الموسيقية إلى مسافات موجبة فى الهواء ، وأوضح أن درجة النغم تعتمد على عدد الذبذبات التى يحدثها الوتر المعزوف فى وقت محدد . وقال بأن النغمات تبدو متوافقة متآلفة إذا طرقت الذبذبات الآذان فى انتظام إيقاعى[٨٥] . إن خواص المادة لا تكون إلا المادة التى يمكن معالجتها رياضيا — التمدد ، الوظيفة ، الحركة الكثافة . اما الخواص الأخرى — الأصوات والطعم والرائحة والألوان وما إليها ، فإنها تستقر فى الشعور فقط ، فإذا فنيت المخلوقات الحية انمحت هذه الصفات وأبطلت[٨٦] ، وراوده الأمل فى أن هذه ، الصفات الثانوية ، يمكن بمرور الزمن تحليلها إلى خواص طبيعية أولية المادة والحركة ، ويمكن قياسها رياضيا[٨٧] .

وتلك إضافات أساسية مثمرة للعلم ، عوقها عدم كفاية الآلات والأجهزة العلمية . ومن ذلك أن جاليليو استخف بعامل مقاومة الهواء فى سقوط الأجسام والقذائف . ولكن ما من رجل ، منذ أرشميدس ، أدى للفيزياء مثلما أدى جاليليو .

٢ — الفلكى :

كان جاليليو ، فى أخريات أيام إقامته فى بادوا ، يخصص جزءا أكبر فأكبر من وقته للفلك . وفى ١٥٩٦ كتب إلى كبلر (الذى يصغره بسبع سنين) رسالة يشكره فيها على كتابه « الكون الخفى » جاء فيها : —

إنى لأعتبر نفسى سعيدا لأجد فى شخصك زميلا عالما مثلك ، فى بحثى عن الحقيقة . . . وساعكف على قراءة كتابك تحدونى كل الرغبة فى استيعاب ما فيه ، لأنى كنت لعدة سنوات من أنصار نظرية كوبرنيكس ، ولأنه (أى الكتاب) يكشف لى عن أسباب كثير من الظواهر الطبيعية البالغة الابهام والتى لا يمكن فهم كنهها فى ضوء الفرضية المقبولة عامة . ودحضا لهذه الفرضية جمعت براهين كثيرة . ولكنى لا أنشرها ، حيث يثنينى عن نشرها حظ أستاذنا كوبرنيكس الذى حظى لدى نفر قليل من الناس بشهرة خالدة ، ولكن لقى تجريحا واستنكارا من كثرة لا يحصى عديدها (لأن عدد الأغبياء كبير جدا) .

وقد أتجاسر على نشر تأملاتى إذا كثر أمثالك[٨٨] .

وأعلن جاليليو إيمانه بنظرية كوبرنيكس فى محاضرة ألقاها فى بيزا ١٦٠٤ وصنع فى ١٦٠٩ أول مقراب (تلسكوب) له ، وفى ٢١ أغسطس عرضه على السلطات الرسمية فى البندقية وإليك روايته فى هذه المناسبة : —

أن كثيرا من النبلاء وأعضاء السناتو ، برغم كبر سنهم ، صعدوا أكثر من مرة إلى قمة أعلى كنيسة فى البندقية (سان مارك) لكى يروا الأشرعة والمراكب . . . وهى بعيدة جدا بحيث لا بد من انقضاء ساعتين قبل رؤيتها بغير منظارى المقرب . . . لأن تأثير آلتى يصل إلى حد أن أى جسم على مسافة خمسين ميلا ، يظهر كبيرا كما لو كان على مسافة خمسة أميال فقط . . . إن السناتو الذى عرف كيف نهضت بخدمته لمدة سبعة عشر عاما فى بادوا . . . أصدر أمرا باختيارى للأستاذية مدى الحياة [٨٩] .

وأدخل جاليليو على تلسكوبه من التحسينات ما جعله يكبر الأشياء ألف مرة . وذهل لما رأى من عالم جديد من النجوم التى تبلغ عشرة أمثال ما دون عنها من قبل . وشوهد أن المجموعات الآن تحتوى على عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، ورئى أن « بنات أطلس » ستة وثلاثون

بدلا من سبع ، وأن « كوكبة الجبار » ثمانون بدلا من سبع وثلاثين ، وظهرت « المجرة » ، لا كتلة سديمية ، بل غابة من النجوم الكبيرة أو الصغيرة . ولم يعد القمر سطحا أملس ، بل تغضن من الجبال والأودية ، ويمكن أن يفسر ضوؤه فى نصفه غير المواجه للشمس بأنه ، بصفة جزئية ، راجع إلى ضوء الشمس المنعكس من الأرض . وفى يناير ١٦١٠ اكتشف جاليليو أربعة من « الأقمار » التسعة ، أو توابع المشترى . وكتب يقول : « هذه الأجسام الجديدة تدور حول نجم آخر كبير جدا ، مثلما يدور حول الشمس ، عطارد والزهرة ، وربما غيرهما من الكواكب الأخرى المعروفة (٩٠) » وفى يولية اكتشف دائرة زحل الذى ظنه خطأ ثلاثة نجوم . وكان نقاد كوبرنيكس قد قالوا بأنه إذا كانت الزهرة تدور حول الشمس ، فلا بد أن يكون لها ، مثل القمر ، أوجه — أى تغييرات فى النور وأشكال ظاهرية ، وقالوا بأنه لا توجد أية علامة على هذه التغييرات . ولكن فى ديسمبر كشف تلسكوب جاليليو عن مثل هذه الأوجه ، واعتقد بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بدوران الكوكب حول الشمس .

إننا لا نكاد نصدق ، ولكن جاليليو أكد فى رسالة إلى كبلر ، أن أساتذة بادوا أبوا أن يؤمنوا بصحة كشوف جاليليو ، بل أبوا أن يشاهدوا السموات من خلال مناظيره (٩١) . لقد سئم الحياة فى بادوا وتطلع إلى مناخ علمى أفضل فى فلورنسه (التى كانت الآن تتحول من الفن إلى العلم) فأطلق على توابع المشترى اسم « سيديرا مديشيا » ، وهو اسم كوزيمو الثانى دوق تسكانيا الأكبر وفى مارس ١٦١٠ أهدى إلى كوزيمو رسالة باللاتينية (Sidereus nuncius) لخص فيها كشوفه الفلكية . وفى شهر مايو كتب إلى سكرتير الدوق رسالة تلتهب بمثل الحماسة والزهو اللذين فاضت بهما رسالة ليونارد وإلى دوق ميلان فى ١٤٨٢ . وعدد فيها الموضوعات التى كان يدرسها ، والكتب التى يأمل أن يدون فيها ما انتهى إليه من نتائج ، وتساءل هل فى مقدوره أن يحصل له من سيده على وظيفة تتطلب أقل الوقت للتدريس وأكثر الوقت للبحث . وفى

يونية عينه كوزيمو « كبير الرياضيين فى جامعة بيزا ، وكبير الرياضيين فى والفلاسفة لدى الدوق الأكبر » ، براتب سنوى قدره ألف فلورين ، دون التزام بالقيام بالتدريس . وفى سبتمبر انتقل جاليليو إلى فلورنسه ، دون أن يصطحب معه خليلته .

وكان قد أصر على لقب الفيلسوف ولقب الرياضى على السواء ، لأنه أراد أن يؤثر فى الفلسفة والرياضيات كلتيهما . وأحس ، كما أحس راموس وبرونو وتلزيو وغيرهم من قبل ، وكما كان يدال بيكون فى نفس هذا العقد من السنين . على أن الفلسفة (التى فهمها على أنها دراسة وتفسير للطبيعة فى جميع مظاهرها) قد ارتمت فى أحضان أرسطو ، وأنه قد حان الوقت للتحرر من الأربعين مجلدا اليونانية ، وللنظر إلى العالم بمقولات أكثر انطلاقا وعيون وعقول مفتوحة . أنه يمكن القول بأنه وثق بالعقل ثقة كبيرة . « إنى لكى أثبت لخصومى صحة النتائج التى انتهيت إليها ، اضطررت إلى أن أثبتها بتجارب كثيرة مختلفة .ولو أنى أنا وحدى لم أحس قط بأنه من الضرورى أن أقوم بتجارب كثيرة [٩٢] .

وكان فيه من الغرور وروح المشاكسة ما يتسم به المبتكرون المجددون ، ولو أنه تحدث أحيانا فى تواضع حكيم ، « ما قابلت قط يوما رجلا جاهلا إلا تعلمت منه شيئاً[٩٣] » . وكان مجادلا عنيداً بارعا فى طعن غريمه بعبارة ، أو سلقه بألسنة حداد .وعلى هامش كتاب للجزويتى أنطونيو روتشو يدافع فيه عن فلك بطلميوس ، كتب جاليليو : « جاهل ، فيل ، أحمق ، غبى ، خصى[٩٤] » .

ولكن هذا كان بعد انضمام الجزويت إلى إتهامه . وقبل اصطدامه بمحكمة التفتيش كان له أصدقاء كثيرون فى « جماعة يسوع » ، وعمد كريستوفر كلافيوس إلى إثبات ملاحظات جاليليو بملاحظاته هو نفسه .وأطنب جزويتى آخر فى مدح جاليليو على أنه أعظم الفلكيين فى ذاك العصر . وثمة لجنة من الباحثين الجزويت ، عينها الكردينال بللارمين لفحص كشوف جاليليو ،

فكتبب تقريراً أيدت فيه كل النقاط[٩٥] . وعندما قصد إلى رومه فى ١٦١١ أكرم الجزويت وفادته على أنه « زميل رومانى » لهم . وكتب يقول : « أقمت مع الآباء اليسوعيين وكانوا قد تحققوا من الوجود الفعلى للكواكب الجديدة ، وظلوا يوالون رصدها لمدة شهرين ، وقارنا ملاحظاتنا وأرصادنا فوجدناها متفقة كل الاتفاق[٩٦] » ورحب به كبار رجال الكنيسة ، وأكد له البابا بول الخامس شعوره الطيب الذى لا يتغير نحوه ورضاه عنـــه[٩٧] .

وفى أبريل عرض على المطارنة والأساقفة ورجال العلم فى رومه نتائج أرصاده التى كشفت عن وجود البقع الشمسية التى فسرها هو بأنها سحب . ومن الواضح أن جاليليو كان يجهل أن يوهان فابريكيوس كان قد أعلن بالفعل عن كشفها فى بحثه « البقع الشمسية » (ويتنبرج ١٦١١) ، واستبق جاليليو فيما استخلصه من أن « دورية » البقع تدل على دوران الشمس ، وفى ١٦١٥ وجه كرستوف شينر أستاذ الرياضيات الجزويتى فى انجلوستاد ، إلى ماركوس ولزر كبير القضاة فى أوجزبرج ، ثلاث رسائل زعم فيها أنه كشف البقع الشمسية فى أبريل ١٩١١ . فلما عاد جاليليو إلى فلورنسه تلقى من ولزر نسخة من رسائل شينر ، وناقشها فى بحث له « ثلاث رسائل عن البقع الشمسية » نشرته أكاديمية دى لنسى فى رومه ١٦١٣ ، وزعم أنه رصد البقع فى ١٦١٠ ، وعرضها على الأصدقاء فى بادوا . وفى ملحمة ادعاء السبق إلى كشف البقع تخلخلت أواصر الصداقة بين جاليليو والجزويت .

واقتناعا من جاليليو بأنه يمكن تفسير كشوفه على أساس من نظرية كوبرنيكس ، شرع يتحدث عن النظرية على أنها قد تم إثبات صحتها . ولم يكن لدى الفلكيين اليسوعيين أى اعتراض على اعتبارها مجرد فرضية . وأرسل شينر اعتراضاته على آراء كوبرنيكس مع رسالة يستميله ويسترضيه فيها : « إذا أردت أن تتقدم بحجج مضـادة فإنها لن تسىء إلينا فى شىء ، بل على

النقيض من ذلك ، إن كل هذا سيعيننا على إظهار الحقيقة[٩٨] . » وأحس كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبرنيكس كان واضحا كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء فى الكتاب المقدس . وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبرنيكس . ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأساسية إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار كوكب الأرض مقرا (كرسيا) دنيويا له — هذه الأرض التى يريدون اليوم أن يجردوها من مكانتها السامية ومنزلتها الرفيعة ، وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة ، وبين نجوم لا حصر لها ؟ » .

٣ — فى المحاكمة :

واجه جاليليو هذه المشكلة فى عناد وتشدد . وفى ٢١ ديسمبر ١٦١٣ كتب إلى الأب كاستللى : « حيث أن الكتاب المقدس يتطلب تفسيرا يختلف عن المعنى المباشر للألفاظ (مثلما يحدث عند تحدثه عن غضب الله ، وبغضه وتأنيبه ويديه وقدميه) . فإنه يبدو لى ليس للكتاب المقدس كبير شأن فى حال الجدل والمناظرات الرياضية ... وأعتقد أن العمليات الطبيعية التى ندركها بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة ، أو نستنتجها بالدليل المقنع . لا يمكن دحضها أو تنفيذها بآيات من الكتاب المقدس[٩٩] . وانزعج الكاردينال بللارمين ، وبعث إلى جاليليو عن طريق أصدقاء الطرفين ، بعتاب قاس ، وكتب إلى فوسكارينى تلميذ جاليليو يقول : « يبدو لى أنه ينبغى أن أنصحكما ، أنت وجاليليو ، ألا تتحدثا بمثل هذه اللهجة القاطعة (عن الفلك الجديد وكأنه قد ثبتت صحته) ، بل على سبيل الافتراض فحسب ، وهو ما أنا مقتنع بأن كوبرنيكوس نفسه قد فعل من قبل[١٠٠] » .

وفى ٢١ ديسمبر ١٦١٤ بدأ الهجوم توماسوكاتشينى ، وهو واعظ دومنيكانى ، اتخذ تورية بارعة من آية الانجيل « أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء » (أعمال الرسل ١ — ١١) ومضى يوضح أن نظرية

كوبرنيكس تتعارض تعارضا تاما لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس وأرسل معارضون أقل شأنا بشكاوي إلى محكمة التفتيش ، وفي ٢٠ مارس ١٦١٥ أودع كاسيني اتهاما رسميا ضد جاليليو في المحكمة ، فكتب المونسنيور ديني إلى جاليليو أنه لن يمس بسوء إذا وضع في منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأى كوبرنيكس هو مجرد فرضية[١٠١] . ولكنه أبى ، كما قال ، أن يعدل أو يخفف من كوبرنيكس . وفي رسالة نشرت في ١٦١٥ ، كتب إلى دوقة تسكانيا الكبرى يقول : « بالنسبة لترتيب أجزاء الكون ، أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة في مركز دوران الأجرام السماوية * . على حين أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول الشمس[١٠٢] ، ثم مضى يمعن في الهرطقة :

« إن الطبيعة عنيدة ثابتة لا تتغير ، ولا تتجاوز قط القوانين التي فرضت عليها . ولا تكترث في قليل ولا كثير بأن الناس لا يفهمون أسبابها ولا مناهجها العويصة المبهمة . ومن ثم فإنه يبدو أنه ليس ثمة شيء طبيعي تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا ، أو تثبته لنا البراهين الضرورية ، ينبغي أن يكون محل نزاع بمقتضى نصوص الكتاب المقدس ، التي قد يكون لها معنى مختلف كامن وراء الألفاظ » .

على أنه وعد بالامتثال للكنيسة :

إني أعلن (ولسوف يتضح صدقي وإخلاصي) لا مجرد أني أقصد أن أستسلم حرا مختارا وأعترف بأخطائي التي يمكن أن أقع فيها في هذا النقاش ، نتيجة الجهل بأمور تتعلق بالدين ، بل أني كذلك لا أحب أن أدخل في نزاع حول هذه الأمور مع أي إنسان كان . . . وهدفي

(*) من سخرية التاريخ أن هذه قضية لا يؤمن بها اليوم أي فلكي ، وربما كان الفلك بأسره ، مثل التاريخ برمته ، يجب أن يؤخذ على أنه مجرد فرضية . وليس ثمة تيقن من العالم الاخر ، كما أنه ليس ثمة تيقن من الأمس .

الوحيد هو أنه إذا وجد من بين الأخطاء التى قد تكثر فى بحث موضوع بعيد عن اختصاصى ، أى شىء يفيد الكنيسة المقدسة فى اتخاذ قرار يتعلق بمنهج كوبرنيكس ، فيمكن أن تأخذه وتنتفع به ، كما يحلو لرؤسائها ، وإلا فليمزق كتابى ويحرق . لأنى لا أقصد ولا أزعم أن أجنى ثماراً تجانبها التقوى والكثلكة (١٠٣) .

ولكنه أضاف : « أنى لا أشعر بأنى مضطر إلى الايمان بأن الله الذى أمدنا بالاحساس والعقل والفكر ، قصد بنا أن نضيع فرصة استخدامها والانتفاع بها (١٠٤) »

وفى ٥ ديسمبر ١٦١٥ قصد إلى رومة من تلقاء نفسه مزوداً برسائل ودية من الدوق الأكبر إلى ذوى النفوذ من المطارنة والأساقفة ، وإلى سفير فلورنسة فى الفاتيكان . وفى رومة أخذ جاليليو على عاتقه أن يحول الرجال الرسميين عن رأيهم فرادى ، وعرض نظرية كوبرنيكس كلما سنحت له فرصة وفى كل مناسبة ، وسرعان ما بات « كل فرد فى رومة يبحث فى النجوم (١٠٥) » . وفى ١٦ فبراير ١٦١٦ أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بللارمين بأن يستدعى من يدعى جاليليو وينذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة ، وفى حالة امتناعه . . . يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالأمر بالاقلاع عن تدريس آراء كوبرنيكس أو الدفاع عنها ، بل حتى مناقشتها ، فإذا لم يذعن لهذا يودع السجن (١٠٦) . وفى اليوم ذاته مثل جاليليو أمام الكاردينال بللارمين وأعلن امتثاله للأمر (١٠٧) . وفى ٥ مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخى :

إن الفكرة التى تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة ، وهى من الناحية الفلسفية فكرة زائفة ، وهى كذلك هرطقة لا جدال فيها ، لأنها تناقض النصوص المقدسة . والفكرة التى تقول بأن الأرض ليست مركزاً للكون بل حتى أن لها دورة يومية ، زائفة من الناحية الفلسفية ، وأنها على الأقل اعتقاد خاطىء (١٠٨) .

وفى نفس اليوم حرمت « لجنة فهرست الكتب الممنوعة » نشر أو قراءة

أى كتاب يدافع عن النظريات الممنوعة ، أما بالنسبة لكتاب كوبرنيكس « (١٥٤٣) » فقد حظرت إستخدامه حتى يتم تصويبه . وفى ١٦٢٠ أباحت للكاثوليك قراءة الطبعات التى حذفت منها تسع عبارت كانت تثبت أن النظرية صحيحة .

وعاد جاليليو أدراجه إلى فلورنسه وخلا إلى الدروس فى داره « بلمو سجاردو » ، وكف عن الجدل حتى ١٦٢٣ . وفى ١٦١٩ نشر أحد مريديه ، ماريو جيدوتشى ، مقالا يجسم فيه نظرية جاليليو (المرفوضة الآن) وهى أن المذنبات عبارة من إنبثاقات فى الغلاف الجوى للأرض ، منتقدا بشدة آراء الجزويتى أورازيو جراسى فما كان من الحبر أو الأب الغاضب إلا أن نشر تحت اسم مستعار هجوما على جاليليو وأشياعه . وفى ١٦٢٢ أرسل جاليليو إلى المونسنيور شيزارينى فى رومه مخطوطة «للمحلل» يرد به على جراسى وينبذ فى مجال العلم أى استشهاد أو مرجع إلا الرصد والعقل والتجربة . وبموافقة المؤلف خفف أعضاء أكاديمية لذبى بعض عبارات قليلة وبهذه الصيغة قبل البابا أربان الثامن أن يهدى إليه ، وأجاز طبعه (أكتوبر ١٦٢٣) أنه ألمع تاليف جاليليو ، وإحدى روائع النثر الايطالى والقدرة والبراعة فى الجدل والمناظرة . وقيل إن البابا سر به ، وأن الجزويت تضايقوا منه .

وما أن ظفر جاليليو بهذا التشجيع حتى قصد ثانية إلى رومه (أول أبريل ١٦٢٤) أملا فى تحويل البابا الجديد إلى الايمان بآراء كوبرنيكس . وتلقاه أربان بالود والترحات — واستقبله ست مرات فى لقاءات طويلة ، وأغدق عليه الهدايا . واستمع إلى حجج كوبرنيكس ، ولكنه أبى أن يرفع حظر المحكمه . وقفل جاليليو راجعا إلى فلورنسه ، يعزيه تصريح أربان للدوق الأكبر : « لقد غمرنا بعطفه الأبوى لوقت طويل هذا الرجل العظيم الذى تتألق شهرته فى السماء كما تملأ الأرض[١٠٩] . وفى ١٦٢٦ شد من عزم جاليليو تعيين تلميذه بنديتو كاستللى رياضيا للكرسى البابوى ، وتلميذ آخر هو الأب نيقولو ريتشاردى كبير مراقبى المطبوعات ، فسارع الآن لاستكمال

مؤلفه الأساسى ، وهو عرض لمنهج كوبرنيكس والمنهج المعارض له . وفى مايو حمل المخطوطة إلى رومه ، وعرضها على البابا ، وحصل على ترخيص من الكنيسة بنشرها ، شريطة معالجة الموضوع على أنه فريضة . وعاد إلى فلورنسه حيث راجع الكتاب وأصدره فى فبراير ١٦٣٢ تحت عنوان طويل « محاورة جاليلى جاليليو ... حيث أنه فى اجتماعات دامت أربعة أيام ، نوقش فيها المنهجان الرئيسيان فى العالم : منهج بطلميوس ومنهج كوبرنيكس « مع عرض ، دون تحيز ولا تحديد ، للحجج الفلسفية والطبيعية للمنهجين كليهما » .

وربما جلب الكتاب على مؤلفه بلايا أقل ، وكسب له شهرة ، لولا بدايته وخاتمته . تقول المقدمة : « إلى القارىء البصير الفطن » :

منذ عدة سنوات نشر فى رومه مرسوم بابوى مفيد ، قضى — تجنبا للنزعات الخطيرة فى عصرنا الحاضر — بفرض نطاق من الصمت المعقول على الرأى الذى نادى فيه فيثاغورس . والذى يقول بأن الأرض تدور . ومن الناس من ذكر فى توقح وصفاقه — أن هذا المرسوم لم ينبع من تحريات وتدقيقات تتسم بالحكمة وحسن التمييز ، بل عن هوى ينم عن قلة الدراية والمعرفة ، وتعالت الشكاوى بأنه يجدر الايتاح للمستشارين الذين ليس لديهم أيه دراية بالأرصاد الفلكية فرصة التضييق على ذوى العقول المفكرة المتأملة عن طريق قوانين الحظر المتهورة الطائشة(١١٠) .

والحق أن فى هذا إشارة للقارىء بأن صيغة الحوار تتسم بالمراوغة تملصا من محكمة التفتيش . وكان فى الحوار شخصيتان هما سلفياتى وساجريدو ، وهذان أسمان لاثنين من أصدق أصدقاء جاليليو ، وهما يدافعان عن منهج كوبرنيكس ، وشخصية ثالثة — سمبلشيو ، يدحضه ، ولكن فى مغالطة صريحة واضحة ، وقرب نهاية الكتاب أورد جاليليو على لسان سمبلشيو عبارة ، كان أزر امان الثامن قد أصر على إضافتها . وهى بالحرف الواحد تقريبا :

« إن الله هو القوى وهو على شىء قدير ، ومن ثم لا يجوز أن نقدم المد

والجزر دليلا ضروريا على حركتى الأرض لأننا بذلك نحد من سعة علم الله وقدرته ، وعلى هذه العبارة يعلق سلفياتى تعليقا ساخراً فيقول : « أنها وأيم الحق حجة إنجيلية ممتازة »[111] .

أن الجزويت اللذين تناولت « المحاورات » كثيرا منهم فى لهجة قاسية (جاء فيها أن أفكار شينر عقيمة تافهة » ، أوضحوا للبابا أن عبارته سالفة الذكر أوردت على لسان شخصية أبرزها الكتاب ساذجة غافلة ، فعين أريان لجنة لفحص الكتاب ، وقررت اللجنة أن جاليليو لم يتناول نظرية كوبرنيكس على أنها فريضة ، بل على أنها حقيقة ، وأنه حصل على الترخيص بنشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشويهات بارعة ، وأضاف الجزويت إلى ذلك ، عن حكمة وبصيرة ، أن نظريات كوبرنيكس وجاليليو أشد خطرا على الكنيسة من هرطقات لوثر وكلفن . وفى أغسطس ١٦٣٢ حظرت المحكمة الاستمرار فى بيع كتاب « المحاورات » وأمرت بمصادرة النسخ الباقية . وفى ٢٣ ديسمبر دعت جاليليو للمثول أمام مندوب الحكومة فى رومه . وتوسل أصدقاؤه إلى أولى الأمر أن تشفع له لديهم سقامه وشيخوخته (٦٨ عاما) ، ولكن على غير طائل . وبعثت ابنته إليه وكانت وقتئذ راهبة متحمسة بخطابات مؤثرة ترجوه فيها أن يمتثل للكنيسة ، كما نصحه الدوق الأكبر أن يذعن ، وزوده بمحفة الدوق الأكبر ، ودبر مع سفير فلورنسه أمر اقامته فى السفارة . ووصل جاليليو إلى رومه فى ١٣ فبراير ١٦٣٣ .

وانقضى شهران قبل أن تدعوه محكمة التفتيش إلى المثول أمامها (١٢ أبريل) واتهم بنقض عهده بالالتزام بقرار ٢٦ فبراير ١٦٣١ ، وحثوه على الاعتراف بذنبه ، فرفض محتجا بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أنها مجرد فرضية ، وظل سجينا فى قصر المحكمه حتى ٣٠ أبريل ، وهناك انتابه المرض ، ولم يعذبوه ، ولكنهم ربما أشاعوا فى نفسه الخوف من التعذيب . وفى مثوله الثانى أمام اللجنة اعترف فى ذلة وخشوع أنه أورد آراء كوبرنيكس بشكل أكثر

إنحيازا إليه منه ضده ، وعرض أن يصحح هذا فى « حوار » يلحق بالأول . فرخصوا له بالعودة إلى دار السفير . وفى ١٠ مايو أعادوا التحقيق معه ، وعرض أن يكفر عن خطيئته، وتوسل إليهم أن يرحموا شيخوخته واعتلال صحته . وفى التحقيق معه للمرة الرابعة (٢١ يونية) أكد أنه بعد قرار ١٦١٦ « لم يعد يخامرنى أى شك ، وآمنت ، ولا زلت أؤمن ، برأى بطليوس — أن الأرض لا تدور ، وأن الشمس هى التى تدور — على أنه حق كل الحق ، ولا يقبل الجدل »[١١٢] ، فاعترضت المحكمة بأن محاورات جاليليو اوضحت ، بما لا يدع مجالا للشك ، أنه يقر آراء كوبرنيكس، وأصر هو على أنه كان ضد هذه الآراء منذ ١٦١٦ . وظل البابا على اتصال بالتحقيق ، ولو أنه لم يشهده بشخصه . وكان جاليليو يأمل فى أن يمد له أربان الثامن يد العون ، ولكن البابا رفض التدخل . وفى ٢٢ يونيه أصدرت المحكمة قرارها بادانته بالهرطقة والتمرد والعصيان . وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علنا أمام الجمهور بالتخلى عن آرائه ، وحكمت عليه « بالسجن فى هذه المحكمة لمدة تحددها هى وفق مشيئتها » ، ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاث التالية، وجعلوه يجثو ويبرأ من نظرية كوبرنيكس ، ويضيف :

> بقلب مخلص ، وإيمان صادق ، ألعن وأبغض وأعلن التخلى عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إلى ، وبصفة عامة ، عن أى خطأ أو هرطقة أخرى أخالف فيها ... الكنيسة المقدسة. وأقسم أنى لن أذكر بعد اليوم أى شىء قد يثير مثل هذه الريب حولى ، وأنى إذا عرفت أى هرطيق أو أى شخص مشتبه فى أنه هرطيق فلابد أن أبلغ عنه هذه المحكمة .... وأدعو الله أن يمنحنى العون، وأرجو أن تساعدنى هذه الكتب المقدسة التى أضع يدى عليها[١١٣] .

ووقع على الحكم سبعة من الكرادلة ، ولكن البابا لم يصدق عليه [١١٤].
أما قصة أنه عند مغادرته قاعة المحاكمة غمغم متحديا « ومع ذلك فهى تدور فعلا » . فإنها أسطورة لم يظهر لها أثر قبل ١٧٦١ [١١٥] . وبعد قضاء ثلاثة أيام فى سجن محكمة التفتيش ، سمح له ، بأمر من البابا ، بالذهاب إلى قصر الدوق الأكبر فى ترنيتا مونتى فى رومه . ثم نقل بعد أسبوع إلى مسكن مريح فى قصر تلميذه السابق ، رئيس الأساقفة أسكانيو بتشولومينى فى سيينا . وفى ديسمبر ١٦٣٣ . سمح له بالانتقال إلى داره الخاصة فى أرسترى بالقرب من فلورنسه أنه من الناحية العملية كان لا يزال سجينا ، محظورا عليه مغادرة مسكنه ، ولكنه كان حراً فى مواصلة دراساته . وتعليم تلاميذه ، وتأليف كتبه واستقبال زائريه ـ وهنا زاره ملتون فى ١٦٣٨ . وجاءت ابنته الراهبة لتقيم معه . واحتملت هى نفسها عقوبة تلاوة المزامير السبعة .

٤ ـــ الشيخ الجليل :

واضح أن جاليليو كان الآن رجلا متهدما مغلوبا على أمره ، أذلته كنيسة أحست بأنها وصية على عقيدة بنى البشر وآمالهم وأخلاقهم ، أن تخليه عن آرائه بعد قضاء عدة شهور فى السجن . وعدة أيام فى المساءلة والمحاكمة ، بما كان من الجائز أن يحطم عقل مكافح شاب كما يحطم إرادته ، نقول أن هذا التخلى كان أمرا يمكن التجاوز عنه لدى شيخ هرم علق بذاكرته إحراق برونو قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاما ولكنه فى الواقع لم يهزم فقد انتشر كتابه فى كل أنحاء أوربا فى أكثر من عشر لغات ترجم إليها . ولم يمح أثره .

وخفف من أحزانه وآلامه فى سيينا وفى أرسترى اشتغاله بتلخيص أبحاثه الفيزيائية فى مؤلف ضخم آخر : « محاورات ... حول علمين جديدين » . ولما كانت أبواب المطبعة الإيطالية موصدة دونه بمقتضى الحكم الذى صدر ضده، فإنه أجرى مفاوضات سرية مع طابعين أجانب، وانتهى الأمر بأن مطبعة الزفير أصدرت الكتاب فى ليدن ١٦٢٨ . وهللت له دنيا العلماء على أنه سما

بعلم الميكانيكا إلى مستوى لم يبلغه من قبل . وبعد صدوره ، عكف جاليليو على إعداد محاورات إضافية درس فيها ميكانيكا القذف أو الإطلاق ، وأشار إلى ماجاء به نيوتن فيما بعد فى قانونه الثانى عن الحركة . ويقول أول مؤرخى سيرة جاليليو : « فى أخريات أيام حياته ، وفيما كان يعانى كثيرا من اعتلال صحته ، كان عقله مشغولا دوما بالمسائل الميكانيكية والرياضية»[١١٦]، وفى١٦٣٧ وقبيل أن يفقد بصره ، أعلن عن آخر كشوفه الفلكية ، نودان أوميسان القمر ـ تغيرات جانبه المواجه للأرض دائما . وفى١٦٤١ ، وقبل وفاته ببضعة شهور قلائل ، شرح لابنه طريقة صنع ساعة ذات بندول .

إن اللوحة التى رسمها له سوسترمان فى أرسترى (والموجودة الآن فى قاعة بيتى) هى العبقرية مجسمة : جبهة عريضة ، وشفتان مشاكستان مولعتان بالجدل والمناظرة ، وأنف دقيق ، وعينان حادتان ، نفاذتان ، وهذا وجه من أكرم الوجوه فى التاريخ . وفقد الشيخ الجليل بصره فى ١٦٣٨ . وربما كان التحديق المجهد سبب ذلك ، وكان يجد شيئا من العزاء فى اعتقاده بأن أحدا من بنى الإنسان من عهد آدم ، لم ير أكثر مما رأى هو ، فهو يقول : « إن هذا الكون الذى وسعت فيه وكبرته ألف مرة ، تقلص الآن وانحصر فى نطاق جسمى الضيق ، هكذا أراد الله ، ولابد أن أريد هذا أنا أيضا»[١١٧] . وفى١٦٣٩ حين كان يعانى من الأرق ومن مائة من الآلام الأخرى رخصت له محكمة التفتيش فى زيارة فلورنسه ، تحت مراقبة دقيقة ، ليرى أحد الأطباء ويحضر القداس . فلما عاد إلى أسترى ، أملى على فيفانى وتورشللى ، وعزف على العود حتى فقد سمعه كذلك . وفى ٨ يناير ١٦٤٢ ، وكان قد قارب السابعة بعد الثمانين ، فاضت روحه بين أيدى حوارييه .

وأطلق عليه جروتيوس « أعظم عقل فى كل العصور»[١١٨] . وثمة شىء من القصور فى العقل والخلق بطبيعة الحال . فأخطاؤه ــ الغرور والزهو والانفعال والخيلاء ــ إن هى ببساطة إلا عشرات مناقبه أو ثمنها : الثبات

الشجاعة ، الأصالة . ولم يعترف بأهمية حسابات كبلر فى مدارات الكواكب وكان يتراخى فى الاعتراف بقيمة أعمال معاصريه، وقلما تحقق. كم من كشوفه فى الميكانيكا كانت قد أنجزت قبله . لقد أجرى بعضها رجل آخر من فلورنسه إسمه ليوناردو . ولكن الآراء التى عوقب من أجلها ليست هى بالضبط ما يعتنقه الفلكيون اليوم ، ومثله مثل معظم الشهداء تحمل أن يكون الصواب خطأ — ولكنه لم يكن على خطأ فى إحساسه بأنه خلق من الديناميكا علما كاملا ، وأنه وسع العقل البشرى وزاد من قدرة الناس على رؤية الأشياء وفقا لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية ، بفضل إبرازه ، بمقياس أكبر كثيرا عن ذى قبل ، أن الكون واسع سعة رهيبة . وشارك كبلر شرف تقبل الناس لآراء كوبرنيكس ، كما شارك نيوتن شرف إظهار أن السماء نفسها تفصح عن عظمة القانون . ثم أنه ، بوصفه من أفاضل أبناء عصر النهضة ، كتب أحسن نثر إيطالى فى زمانه .

وانتشر أثره حتى عم كل أوربا . أن إدانته هى التى رفعت مكانة العلم فى البلاد الشمالية ، على حين حطت من قيمته لفترة قصيرة فى إيطاليا وأسبانيا وليس معنى هذا أن محكمة التفتيش حطمت وقضت على العلم فى إيطاليا ، فان تورشللى وكاسينى وبورللى وربدى ومالبيجى ومورجانى حملوا المشعل إلى فولتا وجلفانى وماركونى، ولكن العلماء الإيطاليين الذين علقت بأذهانهم قصة جاليليو اجتنبوا التورطات الفلسفية فى العلم . وبعد إعدام برونو حرقا وبعد تخويف ديكارت وتهديده بمصير جاليليو ، باتت الفلسفة فى أوربا احتكارا بروتستانتيا .

وفى ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة وانتصر الرجل المحطم المقهور على أقوى النظم فى التاريخ .

الفصل الثالث والعشرون

١٥٦٤ — ١٦٤٨

الفلسفة تولد من جديد

١ — الشكاكون

في ظل صراعات الدول القومية ، والقوى الاقتصادية ، والأحزاب السياسية ، وتنوع المذاهب الدينية ، في غمرة هذا كله ، بدأت تتشكل المسرحية الأساسية في التاريخ الأوربي الحديث ، وما هي إلا نضال من أجل الحياة جهدت فيه ديانة عظمى ، ضيق عليها الخناق واستنزف قوتها ، العلم والطائفية والأبيقورية والفلسفة . هل المسيحية في الطريق إلى الفناء ؟ أو هل الديانة التي أمدت المدنية الغربية بالأخلاق والشجاعة والفن تعاني انحلالا بطيئا ، بفعل انتشار المعرفة واتساع الآفاق الفلكية والجغرافية والتاريخية ، والتحقق من الشر في التاريخ والنفس ، وتخلخل الإيمان بالحياة الآخرة وضعف الثقة في حسن توجيه العالم ؟ . وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا هو الحديث الأساسي في الأزمنة الحديثة ، لأن الديانة هي روح المدنية ، والمدنية تفنى بفناء عقيدتها . ولم تعد القضية في نظر برونو وديكارت ، وهوبز وسبينوزا ، وبسكال وبل ، وهلباخ وهلفيش ، وفولتير وهيوم ، لبنتز وكانت ، قضية كاثلكية ضد بروتستانتية ، بل قضية المسيحية نفسها ، قضية الشك والرفض والإنكار لأعز الأساسيات في العقدة القديمة . أن مفكري أوربا - وهم طلائع العقل الأوربي - لم يعودوا يناقشون سلطة البابا ، بل كانوا يناقشون وجود الله .

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى الكفر . إن مبدأ المحاكمة العقلية أو تكوين

رأى خاص ، وهو المبدأ الذى اتهمته الكنيسة الكاثوليكية وأدانته لأنه يدعو إلى الفوضى المذهبية والأخلاقية ، نادت به وأقرته كل الهيئات البروتستانتية تقريبا ، ثم شجبته وأدانته فيما بعد ، وفى الوقت نفسه قوض هذا المبدأ أركان العقيدة . أن الشيع المتزايدة قاتلت بعضها بعضا ، وكأنها ذرارى بالغة الكثرة ، وفضحت مطالب بعضها بعضا ، وتركت الديانة عارية فى مهب رياح العقلانية . وأهابت هذه الفرق والشيع لنصرتها فى أثناء صراعها ، الأسفار المقدسة والعقل كليهما . ودعت دراسة الكتاب المقدس إلى الشك فى معانيه وفى عصمته من الخطأ . وأنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان . وحقق الاصلاح البروتستانتى أكثر مما كان يصبو إليه . وأضربت بصورة خاصة ، حملات النقد الذى أنصب على الكتاب المقدس ، بالمذهب البروتستانتى الذى أقيم فى طيش وتهور على كتاب مقدس منزل من عندالله . إن التحسينات التى أدخلت على النظام الاجتماعى وأمن الناس ، خففت من الأرهاب والقسوة ، وأحس الناس أنهم لابد لهم أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى أرحم وألطف مما صوره لهم بولص وأوغسطين وليولا وكالفن ، ولم تعد الجحيم والقضاء والقدر أمورا يمكن تصديقها ، وأجزت الأخلاقية الجديدة اللاهوت القديم . وهيأ نمو الثروة لانتشار نزعة حياة ابيقورية التمست لها فلسفة تبررها . إن كارثة الحروب الدينية أنصبت على رأس الديانة نفسها فكانت هى ضحيتها . إن ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية ، وبالعبادات والطقوس الآسيوية أثار مقارنات محيرة مزعجة بالمسيحية . ألم نسمع أرزم يدعو ويتوسل إلى « القديس سقراط » ، ألم نر مونتيني يرجع المذاهب الدينية إلى أحداث الجغرافيا وإلى حكم الحروب ؟ وكشف تقدم العلم عن عمل « القانون الطبيعى » فى كثير من الحالات ، ومثال ذلك مسار المذنبات الذى رأت فيه الديانة يد العناية الآلهية . ووجدت الطبقات المتعلمة أنه من الصعب عليها أن تصدق أو تؤمن بالمعجزات على حين ابتهج وفاخر بها غير المثقفين . ثم هذه

الأرض التى تقول الأساطير الأثيرة لدى العامة بأنها أحست «بأقدام الرب»، أليست كما ألمح كوبرنيكس وجاليليو مجرد فقاعة ومرحلة قصيرة فى هذا الكون البالغ السعة، وسعة لا يمكن تحديدها، بالنسبة للأرباب الحاسدين الحاقدين الوارد ذكرهم فى سفر التكوين؟ وأين ذهبت السماء، والتقلبات على أشدها حتى أنها لتغير المواقع مرتين فى اليوم الواحد.

وكان «الموحدون» أكثر الشكاكين اعتدالا، وهم الذين، فى إيطاليا وسويسرا وبولنده وهولنده وانجلترا، أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح. وكان هناك بالفعل نفر قليل من الربوبيين(*) الذين آمنوا بالله متماثلا مطلقا مع الطبيعة، وأنكروا ألوهية المسيح، ورغبوا فى أن يجعلوا المسيحية مذهبا أخلاقيا لا عقيدة دينية. وكانوا حتى تلك اللحظة مشتتين حذرين، حتى اشتد عودهم وارتفعت مكانتهم فباتوا يزعجون الجلاد، كما فعل إدوارد هربرت من شربورى. ولسوف نجدهم بعد ١٦٤٨، وقد ارتفع صوتهم عن ذى قبل. وأشد جرأة منهم كان الابيقوريون فى ألمانيا، الذين سخروا من «يوم الحساب» الذى طال ترقبه، ومن الجحيم التى يحتمل ألا تكون رهيبة مزعجة، برغم كل شىء، مادام أكثر الناس ابتهاجا ومرحا سوف يحشرون[1] فيها. وفى فرنسا أطلق على مثل هؤلاء الناس «ذوو العقول الصلبة» أو «الإباحيون» وهم الذين بدأت أساليبهم المائعـــة الطليقة تضفى معناها الحديث على لفظة كانت تعنى فى الأصل «المفكرين الأحرار». وفى ١٥٨١ ألف فيليب دوبلسير — مورنى كتابا فى ٩٠٠ صفحة «حقيقة الديانة المسيحية، فى مواجهة الملحدين». وفى ١٦٢٣ نشر الجزويتى فرانسوا جاراس كتابا فى

(*) الربوبية : Deism الايمان بالله بغير اعتقاد بديانات منزلة — مذهب فكرى فى القرن الثامن عشر يدعو إلى الايمان بدين طبيعى مبنى على العقل، لا على الوحى، ويؤكد على الناحية الأخلاقية، منكرا تدخل الخالق فى نواميس الكون.

أكثر من ألف صفحة من قطع الربع ، حمل فيه على «الإباحيين» الذين «يؤمنون بالله شكلا أو من أجل دين الدولة » . . ولا يرتضون ألا « الطبيعة » والقضاء والقدر[٢] . وفى العام نفسه قدر مرين مرسن عدد الملحدين فى باريس بنحو ٥٠ ألفا[٣] ، ولكن هذه الكلمة كانت تستخدم فى هاتيك الأيام بشكل فضفاض ، وربما قصد بها مارين « الربوبيين » . وفى ١٦٢٥ أوضح جبرابيل نودى أن الشرائع التى نزل بها الوحى المقدس على « توما بمبليوس » (ملك رومه الأسطورى ٧١٥ — ٦٧٢ ق . م) وعلى موسى ، ماهى إلا خرافات ابتدعت لإقامة النظام الاجتماعى ، وأن رهبان طيبة لفقوا حكايات الصراع مع الشيطان ليزيدوا من شهرتهم ويرفعوا من مكانتهم ويغــذوا الجمهور الساذج . وفى ١٦٢٣ نشر فرانسوا دى لاموث لافايى — سكرتير ريشيليو ، ومعلم لويس الرابع عشر ، الذى تولى الملك فيما بعد — كتابه المسمى « محاورات أورازبوس تابيرو » ، صرح فيه بشكوكيه عامة : « إن معرفتنا هراء فى هراء ، وأن حقائقنا خيالات وأوهام ، وأن دنيانا بأسرها . . . مهزلة متصلة »[٥] وكان فرنسوا هذا من بين الذين ضعف إيمانهم قبل تعدد المذاهب المعصومة : « ليس فى هذة العقائد التى لا حصر لها رجل لا يؤمن بأن مذهبه هو الحق ، وأن غيره هو الباطل »[٦] . وعلى الرغم من شكوكيته تزوج فى سن الثامنة والسبعين ، ووافته المنية فى الرابعة والثمانين وهو على فراشه . وكان ، وهو متشكك فاضل ، قد كف عن معارضة الكنيسة .

وكان قدر كبير من هذه الشكوكية الفرنسية صدى سلبيا لمونتيني . ثم أصبحت قوة إيجابية بناءة فى شخص صديقه بيير شارون ، وهو قسيس من بوردو ، قام له بالطقوس الأخيرة عند موته ، وورث مكتبته ، وكتب فى ١٦٠١ « رسالة عن الحكمة » فى ثلاثة مجلدات فى وصف الحكمة ، ولكن قيل عن هذه الرسالة بغير حق ، بأنها ترتيب منهجى لمونتيني ، ولكنها ، على الأصح ، رسالة مستقلة تدين بكثير من الفضل « للمقالات » ، ولكنها تحمل

طابع شخصية شارون الدمثة الوقورة . وهو يقول بأن كل المعرفة تنبع من الحواس ، وهى لذلك عرضة لتقييدات الحواس وعجزها وأخطائها الكثيرة، فليست الحقيقة من شأننا نحن . ويقول السفهاء من الناس بأن الحقيقة يثبتها قبول كل الناس لها وإن صوت الخلق من صوت الله . ولكن شارون يعتقد أكثر مايعتقد أن صوت الناس هو صوت الجهالة ، وأنه صوت الآراء التى تلفق لهم ، وأن الإنسان يجب أن يتشكك خاصة فيما يؤمن أكثر الناس به[٧] . إن الروح قوة خفية حادة لا تهدأ ، متصلة بالمخ ، وظاهر أنها تفنى بفناء الجسم[٨] إن الديانة تنطوى على أسرار وخفايا لا يمكن إثباتها وعلى سخافات كثيرة . وعليها يقع وزر التضحيات الوحشية والقساوات التعصبية . وإذا كان كل الناس فلاسفة (كما قد يقول فولتير فيما بعد) ، يتعشقون الحكمة ويمارسونها ، فلن تعود ثمة حاجة إلى الديانة ، ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاقى طبيعى مستقل عن اللاهوت أو الدين ، ويمكن أن يوجد الإنسان الفاضل ، دون سماء ولا جحيم »[٩] . ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار مافطر عليه الإنسان بالطبيعة من شر وجهل ، فإن الدين يصبح أداة ضرورية لازمة للأخلاق والنظام[١٠] . وبناء على هذا يتقبل شارون كل أساسيات المسيحية ، حتى الملائكة والمعجزات[١١] ، وينصح الحكماء بمراعاة كل المراسم الدينية التى تضعها الكنيسة التى ينتسب هو إليها عن غير قصد ، على أية حال[١٢] ، ولن يكون المتشكك الحق هرطيقا أبدا[١٣] .

وعلى الرغم من هذه النتائج القويمة التى خلص إليها شارون فإن أحد الجزويت المعاصرين يحشره فى زمرة أخطر الملحدين وأشرهم وأخبثهم[١٤] . ولما مات شارون فجأة بالسكتة القلبية ، فى سن الثانية والستين (١٦٠٣) قال الأتقياء بأن هذا عقاب من عندالله على كفره والحادة[١٥] . وقبيل وفاته أعد طبعة ثانية من كتابه ، خفف فيها من الأجزاء الأكثر تهورا وطيشا ، وأكد لزملائه من رجال الدين أنه إنما قصد « بالطبيعة » الله سبحانه وتعالى ،

وعلى الرغم من ذلك وضع كتابه فى عداد الكتب المحظورة . ولمدة نصف قرن من الزمان فاق كتابه مقالات «مونتيني انتشارا وشعبية . وطبع كتاب «محاورات» الحكمة خمسا وثلاثين مرة فى فرنسا فيما بين عامى ١٦٠١-١٦٧٢ . وفى القرن الثامن عشر كان أثر شارون أقوى من أثر أستاذه . ولكن نفس العرض المنظم الذى جذب القرن السابع عشر الكلاسيكى ، بدأ فى أعين القرن التاسع عشر وعظا كئيبا مدرسيا ، وضاع شارون وسط ما اكتشف من جديد ، من تألق وبهجة فى مونتيني .

٢ — جيوردانو برونو ١٥٤٨—١٦٠٠

كان كوبرنيكس قد وسع الكون . فمن ذا الذى يمكن أن «يوسع الله» اليوم ويعيد التعبير عن الألوهية فى لغة جديدة بهذه المجموعات من النجوم الهادئة التي لا يحصى عددها ؟ أن برونو حاول هذا .

وله برونو فى نولا على بعد ١٦ ميلا إلى الشرق من نابلى . وعمد باسم فلبو ، وغير اسمه إلى جيوردانو عندما كان فى سن السابعة عشرة ، دخل دير الدومنيكان فى نابلى . وفيه وجد مكتبة عظيمة غنية ، لا بكتب اللاهوت فحسب ، بل كذلك بالكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، عن أفلاطون وأرسطو ، بل حتى عن مؤلفين عرب وعبرانيين كانت قد ترجمت إلى اللاتينية . وتعلقت طبيعته الشاعرية على الفور بالأساطير الوثنية التى رسخت فى فكره لوقت طويل بعد تبخر اللاهوت المسيحى . وافتتن بمذهب ديمقريتس الذرى تابعه أبيقور ، وبسطه كوبرنيكس فى صورة رائعة . وقرأ كتب المفكرين المسلمين ابن سينا وابن رشد ، والفيلسوف اليهودى ابن جابيرول . وتسرب إلى نفسه شيء من التصوف العبرانى ، مختلطا بأفكار ديونسيوس الزائفة وأفكار برناردينو تلزيو عن اتحاد الأضداد فى الطبيعة وفى الله ،

كما تسرب إليه كذلك شيء من فكرة نيقولا (من كوزا) عن كون لا نهائي ليس له مركز أو محيط ، تنفخ فيه الحياة روح واحدة . وأعجب بالتصوف الطبي الثائر عند باراسلسوس وبالرمزية الروحية ، وبوسائل تقوية الذاكرة عند ريموند للى ، وبفلسفة كورنيليوس أجريبا الغامضة . وعمل كل هذا على تشكيل برونو . كما أشعل فيه نار البغض لأرسطو وللفلسفة النصرانية في العصور الوسطى (السكولاستية) ولتوماس أكويناس . ولكن برونو كان في دير الدومنيكان وتوماس أكويناس هو رائد الفكر عندهم .

ولم يكن بد من أن يزعج الراهب الشاب رؤساءه بالاعتراضات والأسئلة والنظريات . أضف إلى ذلك أن حاسة الجنس كانت تضطرم بين جنبيه ، واعترف فيما بعد بأن كان ثلوج القوقاز ما كانت لتنقع غلته أو تطفىء شهوته ، وأن ثمة علاقة دقيقة بين يقظة الجنس ويقظة العقل . وفي ١٥٧٢ رسم كاهنا ، ولكن الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلهبه خفية . كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى ؟ كيف يتسنى لكاهن مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه ؟ . وبعد رسامته ، عنفه رؤساؤه مرتين تعنيفا رسميا . وفي ١٥٧٦ ، بعد أن قضى أحد عشر عاما في الرهبنة ، فر فجأة من الدير ، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت في رومه . وخلع رداء الرهبنة ، وعاد إلى اسمه الذي عمد به ، والتمس الأمان والتستر في الاشتغال بالتعليم في مدرسة للبنين في نولى بالقرب من جنوه .

وهكذا بدأت ست عشرة سنة من التجوال ، سرى فيها القلق والأرق في جسمه جنبا إلى جنب مع التردد والتذبذب في عقله . وبعد أربعة أشهر قضاها في نولى ، انتقل إلى سافونا ، ثم إلى تورين ، وإلى البندقية ثم إلى بادوا . وعاد فارتدى ثانية ثوب الراهب الدومنيكاني ليحظى بكرم الوفادة في الأديار . ثم سار إلى برسكيا ، وإلى برجامو ، وعبر جبال الألب إلى شامبرى حيث استقبله

وأطعمه دير للدومنيكان . ثم إلى ليون ، ومنها إلى جنيف . وهناك فى معقل الكلفنية جرد نفسه من ثوب الرهبنة مرة أخرى ، وهناك قضى شهرين فى هدوء لا يلتئم مع مزاجه، يكسب قوته بتصحيح المخطوطات والتجارب للطبع ومن بين هذه ، كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين الكلفنيين فى جامعة جنيف . وأشار فيه برونو إلى عشرين خطأ فى هذه المحاضرة. وألقى القبض على طابع النقد وحكم عليه بغرامة، أما برونو فاستدعى للمحاكمة أمام محكمة الكنيسة ، فقدم اعتذارا وصفحوا عنه. وتولاه اليأس والقنوط حين ألفى نفسه يهرب من شراك رقابة ليقع فى براثن أخرى ، فغادر جنيف وعاد إلى ليون ومنها إلى تولوز ، حيث ظهر ظل عابر من التسامح فى صراع الكاثوليك مع الهيجونوت ، وفى تدفق اليهود المرتدين إرتدادا يسيرا من أسبانيا والبرتغال . وربما حدث أثناء اقامته (١٥٨١) ، أن نشر فرانسوا سانكى فى تولوز ، رسالته الشكوكية « المعرفة الصحيحة الكريمة . . . . ليس ثمة شىء معروف » ، وحاضر برونو لمدة ثمانية عشر شهرا فى رسالة أرسطو « الروح » . ولأسباب غير معروفة . وربما من أجل شهرة أوسع وأعظم . رحل برونو إلى باريس .

وكان برونو قد أحرز شهرة ، لا بوصفه فيلسوفا فحسب ، بل كذلك بوصفه خبيرا فى فن تقوية الذاكرة . وأرسل هنرى الثالث فى طلبه واستولى على الأسرار السحرية من ذاكرة طيبة . وسرا الملك من دروس برونو وعينه مدرسا فى الكوليج دى فرانس. واحتمل برونو فى هدوء لمدة عامين، ولكنه فى ١٥٨٢ نشر رواية هزلية (كوميدية) تحت عنوان « حامل المشعل» يهجو فيها هجاء لاذعا ، الرهبان والأساتذة والمتحذلقين . . . ولندع المقدمة تتحدث :

ستروون ، فى فوضى مشوشة ، نتفا عن النشالين ، وألوانا من الزيف والخداع ، ومغامرات الأوغاد ،كما ترون الاشمئزاز الطريف .

والحلوى . المرة ، والقرارات الحمقاء ، والايمان الخاطىء والآمال المشلولة ، والصدقات الشحيحة . . . . والنساء القويات الشكيمة (الرجوليات) والرجال المخنثين .... وحب الذهب (المال) فى كل مكان .

ومن ثم تنشأ الحيات الربعية (الراجعة) ، والسرطانات الروحية ، والأفكار الهزيلة ، والحماقات المتسلطة .... والمعرفة المتقدمة ، والعمل المثمر ، والصناعة الهادفة . وفى إيجاز ، سترون فى الرواية ، أمنا تافها ، وقدرا ضئيلا من الجمال ، ولن تروا شيئا طيبا أو حسنا .

ووقع على الرواية : « برونو النولى ، المتخرج فى أكاديمية تسمى الازعاج »[٦١] .

وفى مارس ١٥٨٣ قصد انجلترا وكان هنرى الثالث أكثر استعدادا للتوصية به خيراً لدى الآخرين منه للاحتفاظ بخدماته لديه[١٧] ، فزوده بخطابات يقدمه فيها للسفير الفرنسى فى لندن ، ميشيل دى كاستلنو ، سيردى لاموفيسير ، وهنا بدأت أسعد اللحظات فى حياة برونو . حيث أقام فى قصر السفير عامين يأكل ويشرب ، متحررا من أية نفقة أو ضرورة إقتصادية ، وهنا أيضا كتب بعضا من أهم مؤلفاته ، كما وجد ملجأ من العواصف التى يثيرها خلقه وشخصيته ، وكان يخفف عنه مناظراته ومجادلاته مع رجل متسامح عرك الدنيا ، وعرف أنه من الأفضل ألا ينظر إلى الميتافيزيقا بعين الجد . وفى هذا البيت التقى برونو بسير فيليب سدنى، وأرلى ابستر ، وجون فلوريو، وأدموند سبنسر . وجبرابيل هارفى وغيرهم من ألمع العقول فى انجلترا فى عصر اليزبث . إن أحاديث برونو مع هؤلاء الرجال زودته بالأسس التى بنى عليها « معرض آرائه » ، وحظى بمقابلة الملكة نفسها . وامتدحها فى عبارات أخذتها عليه محكمة التفتيش فيما بعد .

وفى ١٥٨٣ طلب من جامعة أكسفورد أن تأذن له فى القاء المحاضرات فى قاعاتها ، ووصف بهذه المناسبة ، مؤهلاته فى لغة باعدت إلى الأبد بينه وبين وصفه بالتواضع[١٨] ، وحصل على الترخيص ، فتحدث عن خلود الروح ، وعن « الكرة السماوية المكبره إلى خمسة أمثالها » أى عن نظرية كوبرنيكوس فى الكواكب. وتحداه وضايقه بالأسئلة كثير من بينهم رئيس كلية لنكولن ، كما يروى برونو بطريقته الخاصة : —

هلا عرفت كيف استاعوا أن يردوا على حججه (برونو)؟ وكيف أنه لخس عشرة مرة ، وبخمسة عشر قياسا منطلقاً . ضيق الخناق على « الدكتور » المسكين الذى صدروه ، لهذه المناسبة الرهيبة ، بوصفه رئيسا للأكاديميه ، حتى وقف حائرا كعصفور فى قفص؟ وهلا علمت بأية فظاظة وأية غلاظة تصرف هذا الخنزير ، وبالصبر والروح الإنسانية اللتين تذرع بهما من أثبت أنه حقا مولود فى نابلى وأنه نشأ فى ظل سماء أكرم وأرحب ؟ وهلا عرفت كيف أنهوا محاضراته العامة[١٩] ؟

وأطلق برونو على أكسفورد فيما بعد اسم « أرملة التعليم الصحيح » ، « مجموعة من الجهل المتحذلق العنيد والوقاحة ، امتزجت بفظاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب[٢٠] » .

ولكن فيلسوفنا لم يكن « أيوب » . وكتب كتابة رائعة عن النجوم ، ووجد من بين أهل الأرض أغبياء إلى حد لا يطاق . وأحس بأن عرضه الفلسفى لفلك كوبرنيكوس كان خطوة طيبة فى سبيل فهمه ، وأنه كان « ناقدا لاذعا[٢١] » لكل من رفضوا آراءه . ولو أن فلوريو ألفاه ، بعد أن هدأ روعه « وديعا لطيفا[٢٢] وكان غروره امتحانا لأصدقائه ، مثل الريح فى شراعه . وخلع على نفسه ألقابا فخمة : « دكتور فى اللاهوت الأكثر تطورا ، استاذ فى الحكمة الخالصة غير الضارة[٢٣] » . وكان يتمتع بخيال النابوليتانى المتقد

وفصاحته المثيرة. وحيثما ذهب كانت شمس الجنوب تجعل الدم يغلى فى عروقه، « إنى لأرهق نفسى وأعذبها وأقهرها ، حبا فى الحكمة الحقة ، وغيرة على التأمل الصادق »[٢٤]

وفى أواخر عام ١٥٨٥ عاد إلى باريس ، فى أثر السفير الذى استدعى إليها . وحاضر فى السوربون مثيرا عداوة أنصار أرسطو ، كما هى العادة . وأغرته حروب العصبة ضد هنرى الثالث بأن يختبر الجامعات الألمانية، فتسجل فى جامعة ماربرج ، ولكنه رفض القاء المحاضرات ، وعرض برئيس الجامعة وقصد إلى وتنبرج ، وقضى عامين يحاضر فى جامعة لوثر ، ولدى مغادرته لها عبر عن شكره فى خطاب محلق ودع فيه الجامعة . ولكن لاهوت رجال الاصلاح لم يرقه ، فالتمس رعاية رودلف الثانى فى براغ . وظنه الامبراطور رحلا غريب الأطوار ، ولكنه منحه ٣٠٠ ثيلر ، وأذن له بالتدريس فى جامعة هلمستد فى برنزويك . وبقى سعيداً فى عمله لعدة أشهر ، إتهمه بعدها رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة[٢٥] . ولسنا نعرف جوهر الحقيقة فيما جرى ، ولكن برونو رحل إلى فرانكفورت وزيوريخ ثم إلى فرانكفورت ثانية (١٥٩٠ — ١٥٩١) حيث استقر به المقام لينشر مؤلفاته اللاتينية .

وفى تلك الأثناء ـ قبل إيداعه السجن بأمر من محكمة التفتيش بعام واحد ـ كانت فلسفته قد اكتملت ، ولو أنها لم تصل قط إلى مرتبة الوضوح والترابط. أننا عند النظر فى أهم مؤلفات برونو لتصدمنا العنوانات التى وضعها فى صيغة مقتضبة . ويغلب عليها أن تكون شاعرية مبهمة ، تنذرنا بألا نتوقع فلسفة منهجية متماسكة ، بل هى على الأرجح أفكار خيالية صالحة وانجذابات صوفية أو نشوات . وقل أن نجد فى أى مؤلف آخر ، اللهم إلا رابليه ، هذا الخليط من النعوت والألقاب والمجازات البلاغية والرموز والخرافات والنزوات والفكاهات ، والكلام المنمق والتوافه والتمجيد والسخرية وخفة الدم، مكدسة بعضها فوق بعض ، فى فوضى من المبادىء والأفكار الثاقبة والفرضيات .

لقد ورث برونو براعة الكتاب المسرحيين الايطاليين والمرح الصاخب المؤذى لدى الشعراء الايطاليين الذين يحشون قصائدهم بألفاظ ايطالية إلى جانب ألفاظ من لغة أو لغات أخرى، كما ورث هجاء برنى وأرتينو اللاذع. وإذا كان المقصود بالفلسفة: القدرة على رؤية الأشياء رؤية هادئة وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها بالنسبية، والتحفظ أو التقييد المعقول المنطقى، والقدرة على الاحاطة بكل الجوانب، والتسامح مع كل وجهات النظر المخالفة، فان برونو، على هذا الأساس ليس فيلسوفا، بل أنه محارب أو مصارع، يصم أذنيه ويغشى عينيه، لكيلا لا تصرفه الأخطار المحدقة عن هدفه — الذى كان قبل ظهور فولتير بقرنين من الزمان — محو عار الاضطهاد وظلمته فثمة مرارة أشد من فولتير فى برونو فى تهكمه الوحشى المعالجة اللاهوتية المثالية للايمان الغافل الخالى من التفكير:

إنى لأقول وأكرر القول بأنه ليس ثمة مرآة توضع أمام أعين البشر، خير من الحمار يه أو الحمار ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الانسان الذى.. يفتش عن ثواب يوم الحساب.. ومن ناحية أخرى، ليس ثمة شىء أشد فعالية فى تردينا فى هاوية الجحيم من التأملات الفلسفية والعقلانية التى تنبع من الحواس ... وتنمو وتنضج فى العقل البشرى المتطور. فحاولوا إذن أن تكونوا حميرا، يأيها الرجال، ويأيها الذين أنتم بالفعل حمير، وأدرسوا حتى تسيروا من حسن إلى أحسن، وتحققوا هذه الغاية والمكانة اللتين لا يمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود مهما عظمت، بل بالايمان، واللتين لا يحول دونهما الجهل والأخطاء مهما كانت جسيمة ولكن يحول دونهما الكفر. وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدين فى سجل الحياة فلسوف تحظون ببركة الكنيسة «المحاربة»، وبمجد الكنيسة المنتصرة»، التى «يعيش فيها» الله «ويحكم فى كل العصور.. آمين[٢٦]

أن رؤية برنو للكون رؤية جمالية فى أصلها، وهى تقدير عميق يتسم

بالتعجب والدهشة من كون لا نهائى ساطع براق . ولكنها كذلك محاولة فلسفية لتكييف الفكر البشرى مع كون يشكل فيه كوكبنا الذى نعيش عليه جزءا غاية فى الصغر من اتساع لا يمكن إدراك مداه . أن الأرض ليست مركز العالم ، وكذلك الشمس ليست مركزا له . وفيما وراء العالم الذى نراه (ولم يكن هناك تلسكوب حين كتب برونو) عوالم أخرى (كما أوضح التلسكوب بعد ذلك بقليل وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضا كما أثبت التلسكوب بعد تحسينه) ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، أننا لا نستطيع أن ندرك نهاية أو بداية . وبدلا من النجوم « الثابتة » كما ظن كوبرنيكوس أنها ثابتة، فانها تغير مواقعها على الدوام ، وحتى فى السموات كل الأشياء تجرى . والفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية . وليس هناك مركز ولا محيط ، ولا ارتفاع وانخفاض . وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من أماكن أو نجوم مختلفة . ولما كان الزمن هو مقياس الحركة، فان الزمن نسبي كذلك، وربما كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية. فهل مات المسيح من أجلهم كذلك ؟ على أنه فى هذا الاتساع الذى لا نهاية له ، هناك بقاء ثابت للمادة ، وولاء دائم لا محيد عنه للقانون .

ولما كان الكون لا نهائيا، فانه لا يمكن أن يكون هناك « لا نهائيان »، فاذن يكون « الله » اللانهائى والكون اللانهائى شيئاً واحداً (وهنا قول سبينوزا « الله أو المادة أو الطبيعة ») ، وليس هناك « مدبر أول » كما قال أرسطو . بل هناك حركة أو طاقة متأصلة فى كل جزء من هذا الكل » . وليس الله عقلا خارجيا . . . . والأجدر به أن يكون القاعدة الداخلية للحركة ، وهى طبيعته وروحه »(٢٧) . والطبيعة هى العقل الخارجى الالهى ، على أن هذا العقل ليس موجودا فى « سماء عليا » بل هو موجود فى كل جزء من جزيئات الواقع .

إن العالم يتألف من عناصر دقيقة جداً ومن وحدات لا تقبل الانقسام من القوة ، ومن حياة ، ومن عقل بدائى (وهنا كان برونو همزة الوصل بين لوكريشيوس وليبنتز) ولكل جزء صغير فرديته القائمة بذاتها وعقله الخاص به ، ومع ذلك فإن حريته لا تعنى التحرر من القانون ، ولكنها تعنى (كما قال سبينوزا) سلوكه وفق قانونه وطبيعته المتأصلتين الخاصتين به . وهناك فى الطبيعة قاعدة التقدم والتطور ، بمعنى أن كل جزء يكافح من أجل التطور والنمو . (Entelechia أرسطو) .

وهناك فى الطبيعة أضداد ، وقوى متعارضة ، ومتناقضات . ولكن عمل الكون بأسره فى « مشيئة الله » تتوافق كل المتضادات وتختفى . كذلك فان الحركات المتبانية للكواكب هى التى تحدث الانسجام فى السموات ، ووراء التنوع المحير الساحر فى الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشد عجبا ، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء فى كائن واحد . « أنها وحدة تسحرنى ، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً ، سعيد فى غمرة الحزن ، غنى فى حمأة الفقر ، حى حتى فى الموت »[٢٨] (إنى ، ولو أنى خاضع للقانون ، أعبر عن طبيعتى الخاصة . وبرغم أنى أقاسى فانى أجد عزاء فى التحقق من أن « شر » الجزء يصبح غير ذى معنى فى المشهد العام للكل) . ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسمى هى هدف العلم والفلسفة ، وهى الدواء الشافى للعقل . (الحب العقلى لله ، عند سبينوزا) .

إن هذه الخلاصة البسيطة لفلسفة برونو تهمل ومضاته وجنونه البطولى ، وهى تنطوى على اتصال وتماسك فى تفكيره مغايرين له كل المغايرة ، لأنها تحتوى على متناقضات وتوكيدات جازمة ، وعلى فيض من التقلبات ، لا تتفق إلا مع المذهلات الكونية . وثمة مجموعة أخرى من أفكاره يمكن أن تسلكه فى عداد المتصوفة المجوس . أنه تحدث عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب ، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون « تحت تأثير » الزهرة

ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام ، أما الذين يولدون «تحت تأثير» المريخ فيميلون إلى النزاع والبغض . وآمن بالخصائص الخفية للأشياء والأرقام ، وأن الأمراض قد تكون عفاريت ، ويمكن علاجها فى بعض الحالات بلمسة ملك أو لعاب ابن سابع[٢٩] .

وكان وهمه الأخير أنه كان يؤمل ، فى حال عودته إلى إيطاليا واستجواب محكمة التفتيش له ، فى أنه يستطيع أن يقتبس بعض قطع رشيدة من مؤلفاته يخدع بها الكنيسة فتحسبه ابنها البار . وربما راوده الأمل فى أن إيطاليا لم تكن قد سمعت بكتابه الذى نشره فى انجلترا «طرد الحيوان المنتصر» . والذى كان يمكن أن يفسر الحيوان الذى طرد فيه على أنه الكاثوليكية أو المسيحية أو المبادىء الدينية عامة[٣٠] . ولا بد أنه قد تاقت نفسه إلى إيطاليا وإلا كيف نفسر لهفته على قبول دعوة جيوفنى موسنيجو للقدوم إلى البندقية معلما له وضيفاً عليه ؟ وكان موسنيجو سليل أسرة من ألمع أسرات البندقية ، وكان كاثوليكيا ورعا ، ولكنه كان مهتما بالقوى الخفية ، وقد أبلغوه أن برونو كان على علم تام بفروع السحر ، وأنه يختزن فى ذاكرته القوية الكثير من الخفايا والأسرار . وكانت محكمة التفتيش قد أعلنت منذ أمد طويل أن برونو خارج على القانون ويجب القبض عليه فى أول فرصة . ولكن البندقية اشتهرت بحماية أمثال هؤلاء الخارجين على القانون ، متحدية بذلك محكمة التفتيش . وعلى ذلك سارع برونو إلى مغاذرة فرنكفورت فى أواخر ١٥٩١ وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا .

وأعد له موسنيجو مسكنا وتلقى عنه دروسا فى تقوية الذاكرة . ولكن تقدم التلميذ كان بطيئاً وظن أن معلمه قد حجب عنه بعض تقاليد السحر الخفية كما أنه فى نفس الوقت ارتعد فزعا من الهرطقات التى تمثلت فى الفيلسوف الثرثار القليل الحذر ، وسأل موسنيجو كاهن الاعتراف إذا كان يجب عليه أن يبلغ محكمة التفتيش عن برونو ، فنصحه الكاهن بالتريث حتى يتثبت من حقيقة برونو بشكل أدق . وامتثل موسنيجو لمشورة الكاهن ، ولكن عندما

أعلن برونو عن عزمه على العودة إلى فرانكفورت ، أبلغ موسنيجو المحكمة وفى ٢٣ مايو ١٥٩٢ وجد برونو نفسه نزيلا فى سجن المحكمة فى البندقية . وأوضح موسنيجو أنه « تصرف وفق ما أملاه عليه ضميره ، وبأمر من كاهن الاعتراف[٣١] . وأبلغ المتحققين أن برونو كان يعارض كل الأديان ، ولو أن الكثلكة كانت أحبها إلى نفسه ، ولكنه أنكر التثليث وتجسد المسيح وتحول القربان ، وأنه اتهم المسيح والرسل بتضليل الناس وخداعهم بالمعجزات المزعومة ، وأنه قال بأن كل الإخوة أو رجال الدين والرهبان حمير دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المملوءة بالشرور ، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الديانة ، وأن الانغماس فى « الملذات الدنيوية » ليس خطيئة وأنه ، أى برونو ، أشبع شهواته قدر ما سنحت له الفرص[٣٢] ، وأن برونو كان قد قال له « أنه استمتع بالنساء كثيرا ، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان[٣٣] .

وحققت المحكمة مع السجين على مهل ، من مايو إلى سبتمبر ١٥٩٢ ودفع بأنه كان قد كتب ما كتب بوصفه فيلسوفا ، وأنه كان يستفيد من تمييز بمبوناتزى بين « الحقين » أنه يجوز للانسان أن يناقش ، بوصفه فيلسوفا ، نظريات قبلها بوصفه كاثوليكيا . وصرح بما يساوره من شكوك فى موضوع التثليث . واعترف بأنه مذنب فى أخطاء كثيرة ، وأبدى ندمه عليها ، وتضرع إلى المحكمة وهى تعرف سقامه وعيوبه ، أن تعيده إلى أحضان الكنيسة الأم وأن تزوده بما يلائمه من علاج ، وأن تستعمل معه الرأفة[٣٤] . ولم تستجب المحكمة إلى شيء من هذا وأعادته إلى زنزانته لمدة شهرين آخرين وفى ٣٠ يوليه حققوا معه مرة ثانية ، واستمعوا إلى اعترافه وطلبه الرأفة وأعادوه مرة ثانية إلى السجن . وفى سبتمبر طلبت محكمة التفتيش فى رومه من البندقية إرسال السجين إليها . فاعترضت حكومة البندقية ، ولكن المحكمة أوضحت أن برونو من مواطنى نابلى ، لا البندقية . ووافق السناتو على تسليمه . وفى ٢٧ فبراير ١٥٩٣ تم ترحيله إلى رومه .

وكان جزءاً من إجراءات محكمة التفتيش أن تترك السجين يقبع مكتئباً حزينا فى السجن لفترات طويلة قبل التحقيق وفى أثنائه وبعده . وكادت تنقضى سنة كاملة قبل أن يمثل برونو أمام محكمة روما فى ديسمبر ١٥٩٣ ، وحققوا معه، أو قل عذبوه بالتحقيق ، ثانية ، فى أبريل ومايو وسبتمبر وديسمبر ١٥٩٤ . وأجتمعت المحكمة مرتين فى يناير ١٥٩٥ لتدرس الأوراق . وتقول أوراق المحاكمة أنه فى مارس ١٥٩٥ وأبريل ١٥٩٦ « مثل برونو أمام كبار الكرادلة، وأنهم زاروه فى زنزانته . وأستمعوا لهوسألوه عما يمكن أن يكون فى حاجة إليه[٣٥] » ، وفى ديسمبر ١٥٩٦ استمعوا إلى شكواه « من الطعام » . وفى مارس ١٥٩٧ استدعى للمثول بين يدى المحققين الذين « استمعوا مرة أخرى إلى ما يحتاج إليه» . ولم تعرف ماذا كان يحتاج إليه « ولكن النداءات المتكررة توحى بمصاعب يتعذر وصفها ، ليس من بينها هذا التسويف الطويل . المفروض أن الهدف منه هو تحطيم الروح الجياشة إلى حد الإذلال المهذب للنفس . وانقضى عام آخر ، وفى ديسمبر ١٥٩٨ سمح له بورق وقلم ، وفى ١٤ يناير ١٥٩٩ استدعى مرة أخرى ، وتليت عليه ثمان مسائل هرطيقية مأخوذة من كتبه . وطلبوا إليه أن يشجبها علنا ، فدافع عن وجهة نظره ولكنه وافق على قبول حكم البابا فى المسائل سالفة الذكر . وفى ٤ فبراير قرر كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطيقية صريحة . ولم يرد فى أوراق المحاكمة ذكر لآراء برونو فى نظريات كوبرنيكس ، بل أن الهرطقة أنصبت على التجسيد والتثليث . وسمح له بأربعين يوما أخرى للاعتراف بأخطائه .

واستمعوا له مرة أخرى فى ١٨ فبراير ، ثم فى أبريل وسبتمبر ونوفبر . وفى ٢١ ديسمبر أعلن أنه لن يتراجع . وفى ٢٠ يناير ١٦٠٠ قدم إلى البابا مذكرة يدعى فيها أن المسائل الواردة فى الاتهام اقتبست من مظانها بشكل خاطىء ، ويعرض أن يتولى الدفاع عنها أمام رجال الدين ، ويقول مرة أخرى أنه يرتضى حكم البابا . وبناء على ذلك ، كما تقول سجلات المحاكمة « أصدر قداسة

البابا كليمنت الثامن أمرا بإتخاذ الإجراءات النهائية فى القضية .... وبالنطق بالحكم ، وبإحالة الأخ المدعو جوردانوس إلى المحكمة المدنية » . وفى ٨ فبراير استدعى المحققون برونو ، وكرروا على مسامعه الإتهامات الموجهة إليه ، وأبلغوه أنهم أمهلوه ثمانية أعوام ليراجع موقفه ويبدى الندم ، وأنه وافق على حكم البابا فى أمر مروقه عن الدين ، وأن البابا قرر أنه مارق ، وأن المتهم لا يزال مصراً على هرطقته ، « سادراً فى غيه ، عنيداً ، مكابراً » ، ومن ثم صدر الحكم بإحالته إلى المحكمة المدنية .... إلى حاكم رومه ، الحاضر هنا الآن ليقرر العقوبة التى تستحقها « ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين ، بالنسبة لما تعانيه من آلام ، وألا يكون جزاؤك الاعدام أو بتر الأعضاء » . ووقع على الحكم ثمانية كرادلة ، من بينهم بللارمين . ويقول كسبار سكيوبيوس — وهو عالم ألمانى تحول حديثا إلى الكثلكة ثم أقام فى رومه — أن برونو ، عندما تلى عليه الحكم ، قال لقضاته : « ربما كنتم يا من نطقتم الحكم بإعدامى ، أشد جزعا وخشية منى أنا الذى تلقيته »[٣٦] .

ونقل برونو على الفور إلى سجن مدنى . وفى ١٩ فبراير ، وهو لا يزال مصراً على موقفه ، جرد من ثيابه وربط لسانه ، وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركام من الحطب فى « بيازا كامبودى فيورى » وأحرق حيا على مشهد من جمع غفير متعظ . وكان فى الثانية والخمسين من العمر ، وفى ١٨٨٩ ، أقيم له فى نفس المكان ، تمثال ، جمعت له التبرعات من مختلف أركان الدنيا .

٣ — فانينى وكمبانلا

بعد تسعة عشر عاما من هذا الذى أسلفنا ، ظهرت نزعة مماثلة ، ولقيت من فورها نفس المصير .

ولد جيوليو سيزار لوسيليو فانينى فى جنوب إيطاليا لأب إيطالى وأم

أسبانية — بارود يتزوج ناراً . ويبعد أن تجول فانينى فى أنحاء أوربا — كما فعل برونو ـ يختبر الأجواء واللاهوتيات ، ويؤلف الكتب ، وفيها ومضات عارضة من فكر ثاقب (مثل قوله أن الإنسان كان يوما من ذوات الأربع) لا تكاد تتوازن مع الهراء الغامض ، استقر به المقام فى تولوز (١٦١٧) ، حيث قضى ـ مثل برونو ـ عامين نعم فيهما بالهدوء . ولكن أحد المترددين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد ويعارض فكرة وجود « إله بشرى »[٣٨] . وثمه مستمع آخر ، هو سيردى فرانسون — كسب ثقة فانينى ، واستدرجه — كما فعل موسينيجو مع برونو من قبل — وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة . فقبض عليه فى ٢ أغسطس ١٦١٨ ، لا بأمر الكنيسة ؛ بل بناء على أمر من مفوض الملك العام . وإستناداً إلى محاضراته اتهم بالإلحاد والتجديف ، وهاتان جريمتان تعاقب عليهما الدولة . وأكد فانينى إيمانه بالله ، ولكن فرانسون زعم أن السجين صرح بالحاده وكفره أكثر من مرة قائلا بأن « الطبيعة هى الاله الوحيد » ، وأقر القضاة شهادة الشاهد ، وعلى الرغم من إحتياجات فانينى الصارخة ، وما أظهره من تقى وورع فى سجنه ، صدر الحكم عليه — وهو فى الرابعة والثلاثين : —

بأن يسلم إلى الجلاد ، الذى يجره إلى سياج نقال ، وهو فى قميصه ، وحبل المشنقة حول عنقه ، حاملا فوق كتفيه إعلانا يقول « ملحد دنس اسم الله » ، وعلى هذه الحال يقوده أمام المدخل الرئيسى لكنيسة القديس ستيفن ، وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب الغفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، عن تجديفه وألحاده ، ثم يسوقه إلى ميدان سالين ، ويشده إلى خازوق مقام هناك ، ويقطع لسانه ، ويشنقه ، ثم يحرق جسمه ثم يترك الرماد لتذروه الرياح[٦٥] .

ويروون أن فانيني ، حين جيء به من السجن ليلقى عقابه (٩ فبراير ١٦١٩) صاح معجبا « دعونى أذهب ، دعونى أذهب فرحا مبتهجا لأموت موتة فيلسوف[٣٩] » .

كذلك ولد توماسو كمبانللا ، ودم كالابريا الحار يجرى فى عروقه ، وخفف من حرارته لبعض الوقت فى دير للدومنيكان ، ودرس تلزيو وامبيدوكليس ؛ ونبذ أرسطو ، وتناول بالتعريض والتسخيف « قرار البابا بالحرم » من الكنيسة فأودع بالسجن بأمر من محكمة التفتيش فى نابلى لبضعة شهور (١٥٩١-١٥٩٢) وبعد الإفراج عنه ألقى بعض الدروس والمحاضرات فى بادوا ، واتهم بالفسق والفجور ، وهناك دون أول مؤلف هام له فى الفلسفة (١٥٩٤) نصح فيه المفكرين — كما فعل فرانسيس بيكون بعد ذلك بأحد عشر عاما — بدراسة الطبيعة ، لا دراسة أرسطو - وأعد برنامجا للعودة إلى العلم والفلسفة . ولما عاد إلى نابلى انضم إلى مؤامرة لتخليصها من نير أسبانيا . ولكن المؤامرة أحبطت ، وزج به فى سجون الولاية لمدة سبعة وعشرون عاما (١٥٩٩-١٦٢٦) وعذب اثنتى عشرة مرة ، استمر التعذيب فى إحداها أربعين ساعة[٤٠] . وخفف من آلام السجن بالفلسفة والشعر وتصوره للدولة المثالية . وفى قصيدته (السونيت) وعنوانها « الشعب » يعبر عن استيائه عن عجز الأهالى عن مساعدته فى ثورته فيقول :

الشعب دابة لها مخ مشوش غبي ، لا تعرف قوتها ، ومن ثم تقف محملة بالخشب والحجاره ، تقودها يدان هزيلتان لمجرد طفل بالشكيمة واللجام ، إن رفسة واحدة تكفى لتحطيم القيد ، ولكن الدابة تخاف وتجبن ، وتفعل مايطلبه الطفل ، ولا تدرك قدرتها على إرهابه ، لأن « البعبع » التافه يدهلها ويربكها . وأعجب من هذا أنها تكبل نفسها وتكمم لسانها بيدها - وتجلب على نفسها الموت والحرب مقابل دريهمات (بنسات) يتصدق

بها المولا عليها من خزاتها هى . إنها تملك كل ما بين الأرض والسماء ، ولكنها لاتعرف ذلك . وإذا هب إنسان لينطق بهذه الحقيقة اقتلته دون أن تغفر له ذنبه[٤١] .

وأهم إنتاج لكمبانللا فى سنوات الشقاء هذه « مدينة الشمس » التى تخيلها قائمة على جبل فى سيلان ، وكل موظفيها صفوة مختارة ـ وهم قابلون للعزل ـ عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة ، وهؤلاء الموظفون المختارون على هذا الأساس ، يختارون بدورهم رئيس الحكومة ، وهو كاهن يسمونه « هوه Hoh » يفصل هو ومعاونوه فى كل المسائل دنيوية أو دينية . ويشرفون كذلك على زواج الجنسين ، ليستوثقوا من أن النساء والرجال يتصلون بعضهم ببعض لينجبوا أحسن الذرية . إنهم حقا يسخرون منا حين نبدى اهتماما شديدا بنتاج الخيل والكلاب ، ونهمل نسل الإنسان[٤١] ومن ثم ليس هنا مكان للعاهات والتشوهات . والنساء فى مدينة الشمس هذه شركة بين الرجال على الشيوع فى انضباط صارم ، يقتضيهن القيام بتمرينات شاقة ، توفر لهن بشرة صافية ومظهرا عاما طيبا . . فإذا صبغت امرأة وجهها بالمساحيق ، أو استخدمت أحذية عالية الكعبين . . كانت عقوبتها الإعدام[٤٣] ويدرب الجنسان كلاهما على الحرب ، ويكون جزاء من يهرب من ميدان القتال أن يلقى عند الإمساك به فى عرين للأسود والدببة ليلقى حتفه[٤٤] . وكل فرد مكلف بالعمل . ولكن لمدة أربع ساعات فقط ، يوميا (وينشأ الأطفال تنشئة مشتركة ، ويعدون إعدادا نفسيا لاقتسام السلع وفق أسس شيوعية ، أما ديانة هؤلاء الناس فهى عبادة الشمس بوصفها « وجه الإله وصورته الحية » إنهم يؤكدون أن الأرض بأسرها سوف تعيش فى التئام تام مع عاداتهم وأعرافهم[٤٥] .

وهذا البيان الشيوعى ، الذى يردد صدى أفلاطون . كتبه كمبانللا فى السجن حوالى ١٦٠٢ ، ونشر فى فرانكفورت آم مين فى ١٦٢٣ . وربما كان

البيان يعبر عن آمال المتآمرين النابوليتانيين ، وربما كان سببا فى احتجاز كمبانيللا فى السجن طويلا ، على أنه تصالح مع الكنيسة فى الوقت المناسب فأفرج عنه . وقد أدخل السرور على قلب أرمان الثامن بتوكيده ، على حق البابوات فى حكم الملوك . وفى ١٩٣٤ أرسله أرمان إلى باريس لينقذه من التورط فى ثورة نابوليتانية أخرى ورعاه ريشليو وحماه . ولكن الثائر المنهوك ، بعد أن استرد شبابه فارق الحياة وهو فى صومعته فى دير الدومنيكان (١٦٣٩) ، وكان يقول : « أنا الناقوس ـ كمبانللا ـ الذى يؤذن ببزوغ الفجر الجديد[٤٦] » .

٤ ـ الفلسفة والسياسة

١ ـ جوان دى ماريانا : ١٥٣٦ ـ ١٦٢٤ :

كان محور السياسة فى العصور الوسطى تثبيت سيطرة البابا على الملوك جميعهم وتوحيدهم كلهم تحت رايته . أما أبرز مظاهر التاريخ السياسى الحديث فهو صراع الدول القومية التى تحررت من سلطة البابا . ومن ثم كانت أول قضية شغلت بال الفلسفة السياسية فى القرن الذى جاء فى أعقاب الإصلاح الدينى ، هى أن المفكرين الكاثوليك كانوا يطالبون باستعادة سلطان البابا ، على حين طالب المفكرون البروتستانت بالقضاء على سيطرة البابا قضاء تاما ، وكان أنصار البابوية يحاجون بأن الملكية المطلقة التى تطالب بحقوق الملوك الإلهية وتنكر كل الضوابط والقيود التى يفرضها الدين والأخلاق والقانون ؛ قد تمزق إربا إربا ، ولكن دعاة الإصلاح ردوا على هذا بقولهم بأنه ليس ثمة سلطة « فوق قومية » (تتخطى الحدود القومية) يمكن أن توثق فى سعيها لتحقيق خير البشرية ، بل أنها على الأرجح لابد أن تسعى لتدعيم قوتها الخاصة ونفعها الخاص هذا بالإضافة إلى أن كنيسة ذات سلطة عليا قد تخنق كل حرية الحياة وحرية الفكر .

وكان الفلاسفة « السكولاسيون » فى العصور الوسطى ،قد استمدوا سلطة الملك — وهم فى هذا يرددون رأى المشرعين الرومان — من رضا الشعب ، لا من رضا الله ، ومن ثم لا تكون ثمة سلطة الهية للملوك ، ويعزل بحق أى حاكم غير صالح ، كما أن المفكرين الكلفنيين : مثل بليز وبوكانان ومؤلف « قصاص الطغيان » — أيدوا هذا الرأى أيما تأييد . ولكن اللاهوتيين اللوثريين والأنجليكانيين أيدوا حقوق الملوك الالهية كعنصر موازنة ضرورى ضد عنف الشعب ومزاعم البابا ،وقالوا بوجوب الامتثال للملك حتى ولو كان ظالما [٤٧] .

وكان بين المدافعين عن سلطة الشعب كثير من الجزويت الذين رأوا فى هذه النظرية وسيلة لاضعاف سلطان الملوك أمام سلطان البابا . ويحاج الكاردينال بللارمين فى هذا بقوله : إذا كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب، ومن ثم خاضعة له ،فانه من الواضح أن تكون تابعة لسلطة البابا المستمدة من الكنيسة التى أسسها المسيح ، وهى بذلك لا تخضع لغير الله . وانتهى لويس مولينا — وهو جزويتى أسبانى — إلى أنه مادام الشعب هو مصدر السلطة الدنيوية ، فانه يجوز له حقا وعدلا — ولكن وفق اجراءات سليمة — أن يخلع الملك الظالم[٤٨] . وجاء فرانشسكو سواريه ،وهو خير من أنجبه المجتمع المسيحى من رجال اللاهوت [٤٩] ، فقرر هذه النظرة من جديد ، مع بعض تعديلات دقيقة قاوم بها مزاعم جيمس الأول الاستبدادية ، واعتنق الرأى القائل بحق البابوات فى عزل الملوك . وأثار دفاع الجزويتى جوان دى ماريانا عن قتل الطغاة سخطا عالميا ، حيث زعموا أنه شجع على قتل هنرى الرابع .

أن ماريانا (الذى لاحظنا بالفعل أنه أعظم مؤرخى جيله) كان من كل الوجوه شخصا مرموقا ، اشتهر بعلمه وفصاحته وجرأته الفكرية . وفى ١٥٩٩ أهدى إلى فيليب الثالث ونشر ، باذن من الرقيب المحلى الجزويتى، رسالته « الملك وتعليمه » ، واستبق هوبز بنصف قرن ، فوصف « حالة الطبيعة » قبل

نشوء المجتمع ، حيث عاش الأنسان آنذاك عيشة الحيوان فى البرية ، متحررا من أية قيود أو ضوابط ، اللهم إلا عجزه الجثمانى ، لا يعترف بقانون ولا بملكية خاصة ، يشبع غريزته فى التماس الطعام والرفيقة . ولكن كانت ثمة منغصات فى الحرية التى نادى بها روسو ، من ذلك تكاثر الحيوانات الضارية الخطرة . وعمد الناس إلى حماية أنفسهم عن طريق تنظيم اجتماعى ، وهو أعظم أداة اخترعت آنذاك ، ووسيلة ضرورية لمقابلة أعضاء الدفاع والهجوم الفسيولوجية التى زودت بها الطبيعة الحيوان . وبمقتضى ميثاق صريح أو ضمنى اتفق أعضاء الجماعة على تفويض سلطتهم الجماعية إلى رئيس أو ملك . ولكن السيادة بقيت فى الشعب ، وفى معظم الأحوال تقريبا ، قامت جمعية وطنية (مثل الكورتيز فى أسبانيا — الجمعية التشريعية ، من مجلسين) بالرقابة على السلطة المفوضة للملك أو الرئيس ، واحتفظت بالأشراف على الخزينة وسنت مجموعة من القوانين كانت سيادتها أعلى من سلطة الملك . »

وفى رأى ماريانا أن الديمقراطية أمر مستحيل ، بسبب تفاوت توزيع القدرات والذكاء بين الناس والدمار كل الدمار فى تحديد السياسة عن طريق الاستفتاء[٥٠] . فالملكية المقيدة أو الدستورية أحسن أنواع الحكومات ، فهى تلتئم مع طبيعة الانسان ، وتعاون على بقاء الدولة . ويجب أن تكون وراثية ، لأن الحكومة الانتخابية إن هى الامثار للفوضى فى فترات دورية .

ويجب أن يكون الملك مقيدا بالقانون وبالضوابط الدينية والأخلاقية ، ويحق الشعب فى عزله إذا طغى . ويجب عليه ألا يغير القوانين أو يفرض ضرائب دون موافقة الشعب . « ويجب عليه ألا يقرر شيئا بشأن الدين[٥١] ، لأن الكنيسة فوق الدولة وينبغى لها أن تحكم نفسها ، ومع ذلك فعليه أن يحمى ديانة البلد ، لأنه إذا أهملت الديانة فلن تقوم للدولة قائمة[٥٢] » . ويجب على الدولة أن تساند الدين فى محافظته على المبادىء الأخلاقية ، وتشجب مصارعة الثيران لأنها تشجع على الوحشية ، والمسرح لأنه يهيج الغرائز

الجنسية[٥٣] ، وتنفق على العناية بالمرضى والفقراء عن طريق التوسع فى إنشاء المستشفيات وتوزيع الصدقات وأعمال البر . وينبغى على الأغنياء أن يعطوا الفقراء ما ينفقونه الآن على مظاهر البذخ وعلى الكلاب . ويجب أن تكون الضرائب عالية على الكماليات ، منخفضة على الضروريات . فان السلع الموجودة فى البلاد يمكن أن تفى بحاجات الجميع إذا أحسن توزيعها توزيعا عادلا[٥٤] . فالأمير الصالح يمكنه أن يحول دون تركز الثروة ، ولم تحل الملكية الخاصة محل الشيوعية البدائية إلا لأن « الجشع العظيم وضع يده على كل النعم الالهية واستأثر بكل شيء لنفسه[٥٥] » . أن هذا نظام ضرورى الآن ، ولسوف تعاد الشيوعية فى السماء[٥٦] .

ويجوز أن يعزل الطاغية ، بل يجوز حقا وعدلا قتله ، حتى بيد فرد ، فى بعض الظروف : —

من هو الحاكم الذى يمكن أن يعتبر طاغية ؟ . . . . إننا يجدر بنا ألا نترك الفصل فى هذا لأى فرد ، أو حتى لأفراد كثيرين ، إلا إذا اشترك صوت الشعب فى هذا جهرا ، وانضم المثقفون والمعروفون بالجدية والرزانة إليه للتداول فى الأمر . . . ولكن إذا جر الأمير البلاد إلى الخراب ، وأساء استخدام ممتلكات الدولة أو الأفراد ، وخرق القوانين العامة ، وانتهك حرمة الدين ، وبدأ يثبت أقدامه فى صلف ووقاحة وعقوق . . . . . وإذا لم يتسن للمواطنين أن يجتمعوا لاجراء مشاورات ومداولات عامة ، ولكنهم عاقدون العزم جديا على وضع حد لهذا الطغيان — ومع افتراض أن هذا عمل بغيض لا يحتمل . . . . فانه فى مثل هذه الحالة ، إذا تقدم فرد ، مستجيبا لهذه الرغبة العامة ، وعرض القيام بالقضاء على هذا الحاكم . فانى لا أعتبر هذا الفرد آثما ولا شريرا . . . . وإنها لفكرة سليمة أن يقتنع الأمراء بأنهم إذا طغوا

وبغوا ... فانه يمكن قتلهم ، لاحقا وعدلا فحسب ، بل أن قتلهم يكون كذلك مدعاة للثناء والفخر(٥٧) .

وأعاد ماريانا إلى ذاكرة قرائه حوادث قتل الطغاة فى التاريخ — هارموديوس وأرستوجيتون اللذين قتلا الطاغية همبارخوس (أثينا – القرن السادس ق.م)، وبرونوس الذى أخرج الطاغية تاركينوس من رومه. وأشار إلى أن أثينا وروما ، بل فى الواقع كل أوربا المثقفة خلدت ذكرهم . ولكن ماريانا كشف عن تحيزه ، برضائه إلى حد ما عن ذبح هنرى الثالث بيد كليمنت منذ عهد قريب (١٥٨٩) :

ان هنرى الثالث ملك فرنسا خر صريعا بطعنة من أحد الرهبان بسكين مسمومة فى أحشائه . أن هذا منظر كريه .... إن جاك كليمنت درس اللاهوت فى كلية الدومنيكان التابعة لطائفته . وأبلغه رجال اللاهوت الذين استشارهم ، أن قتل الطاغية عمل مشروع . أن موت كليمنت شرف خالد لفرنسا ، كما بدا لكثير من الناس ، فقد اعتبر الكثيرون أنه مات وهو جدير بالخلود ، على حين أن آخرين من ذوى الحكمة البالغة والثقافة العالية استنكروا عمله ووجهوا إليه اللوم(٥٨) .

وقد نذكر أن هنرى الثالث كان يناهض العصبة الكاثوليكية ، وأنه أمر أعوانه بقتل هنرى دوق جيز ، زعيم العصبة . وكان فيليب الثانى ملك أسبانيا يؤيد العصبة ، وقد أمدها ببعض المال ، كما وافق على قتل اليزابث الأولى ملكة انجلترا ، ووليم أورانج . ولم يكن لدى فيليب الثالث أى اعتراض على قتل أى عدو لأسبانيا .

وفى ١٥٩٩ أمر كلوديو أكوافيفا رئيس «مجتمع يسوع»، بتصحيح كتاب ماريانا «الملك» . ولما قتل هنرى الرابع بيد رافاياك (٢٤ مايو ١٦١٠) أعلن

أكوافيفا استنكاره لمبدأ ماريانا فى قتل الطغاة (٨ يولية) وحظر إدراجه فى فى تعاليم الجزويت . وكان ماريانا فى الوقت نفسه قد اعتقل ، لا لتحبيذه قتل الطغاة، بل من أجل احتجاجه على خفض فيليب الثالث لقيمة العملة، وتحذيره اياه من مساوىء التضخم فى رسالة قيمة « تزييف العملة » (١٦٢٥) . واحتمل ماريانا عناء السجن بطريقة فلسفية ، وبقى على قيد الحياة بعد اطلاق سراحه. وتوفى ١٦٢٤ . وهو فى سن السابعة والثمانين .

٢ — جان بودين : ٥٣٠ — ١٥٩٦

ما أشد الاختلاف بين بودين وماريانا ؟ إنه لم يكن لاهوتيا له قدمان فى السماء ، ولم يكن مناصرا كثيبا للعصبة ، ولكن كان من هواة السياسة (مثل ميشيل دى لوبيتال ، وهو من أنصار التسامح الدينى ، وكان مستشارا لهنرى الرابع ومن المعجبين به). ولد جان فى آنجرز،وربما كانت أمه أسبانيةيهودية وجاء إلى باريس ١٥٦٠،واشتغل بالقانون،ولكنه لم يدرعليه ربحا.وانصرف فى لهفة شديدة إلى دراسة الفلسفة والتاريخ. ودرس فى نهم . العبريةواليونانية والألمانية والايطالية ، وكتابات ليفى وتاسيتس والعهد القديم ، وشيشرون ، ودساتير دول غرب أوربا . وآمن بأن دراسة التاريخ هى بداية الحكمة السياسية . وكان أول ما قدم للمطبعة « منهج لتيسير فهم التاريخ » (١٥٦٦) . وهو كتاب يجده الطالب تافها لاقيمة له ولامتعة فيه،محشوا بالتنميقات البلاغية، والأطناب الممل . إن العقل الفلسفى لايتم نضجه مبكرا . لقد اعتقد بودين وهو فى السادسة والثلاثين أن التاريخ يوحى إلينا بالفضيلة عن طريق الكشف عن هزائم الأشرار وانتصارات الأخيار[٥٩]، ومع ذلك فان الكتاب يعتبر بعد — « مقالات ميكيافللى » — أول كتاب هام فى فلسفة التاريخ .

وفى هذا الكتاب ، وفى كتاب « الجمهورية » الذى جاء بعده — وقبل قرن ونصف قرن من ظهور فيكو ومونتسكيو — نجد تفكيرا منهجيا منتظما فى

المناخ والسلالة باعتبارهما عاملين من عوامل التاريخ . فالتاريخ من وظائف الجغرافيا — الحرارة ، المطر ، التربة ، سمات السطح ... أن الجغرافيا تحدد الخلق ، والخلق يحدد التاريخ . وأن الناس لتتباين أخلاقهم وسلوكهم ، تبعا لحياتهم على الجبال أو فى الأودية ، أو على شواطىء البحار . ويتميز أهل الشمال بقوة الجسم والنشاط العضلى . على حين يتميز أهل الجنوب بالحساسية العصبية وحدة الذهن . أما سكان المنطقة المعتدلة ، مثل شعوب البحر المتوسط وفرنسا فانهم يجمعون بين خصائص الشمال والجنوب ، وهم عمليون أكثر من أهل الجنوب، ومفكرون أكثر من أهل الشمال .وينبغى أن تتكيف حكومة أى شعب مع خلقه الذى حددته الجغرافيا والسلالة ، والذى لايكاد يتغير بمرور الزمن/.وعلى هذا الأساس يجب أن يحكم شعوب الشمال بالقوة.وشعوب الجنوب بالدين/.

وفى كتاب أقل شأنا « الرد على تناقضات مالستروا » ، أسس بودين « الاقتصاد السياسى » تقريبا(٦٠) فحلل أسباب سرعة إرتفاع الأسعار فى أوربا، وناقش مساوئ خفض قيمة العملة ، ودافع عن حرية التجارة، فى عصر الحماية الطبيعية والاقليمية،وأكد العلاقة بين الواقع الاقتصادى والسياسة الحكومية.

ولكن أروع أعماله — وهو أهم اضافة للفلسفة السياسية فيما بين ميكيافللى وهوبز — هو كتابه « الجمهورية »(١٥٧٦) . وقد استعمل بودين هذه اللفظة بمعناها الرومانى : أى الدولة . وفرق بين الدولة والمجتمع . فالمجتمع قائم على الأسرة ، التى لها أساس طبيعى فى العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال . أما الدولة فتقوم على قوة مصطنعة . وكانت الأسرة فى شكلها الطبيعى ، أبوية — أى أن للأب سلطة مطلقة على أزواجه وبنيه وممتلكات الأسرة ، وربما انقصت المدنية بشكل خطير من حقوق الأب . ويجب أن تخضع المرأة دوما للرجل لأنها أضعف منه عقلا ، وفى وضعها معه على قدم المساواة إغفال خطير

« للطبيعة » . وينبغى أن يكون للزوج على الدوام حق الطلاق ، كما ورد فى التوراة . وذهب بودين إلى القول بأن انهيار سلطان الأب وتخلخل إنضباط الأسرة كانا بالفعل يقوضان الأسس الطبيعية للنظام الاجتماعى . لأن الأسرة ، وليست الدولة ، هى وحدة النظام والأخلاق ومصدرها ، فإذا إنهارت وحدة الأسرة والانضباط ، فلن يملأ فراغها أية قوانين مهما بلغ عددها(٦١) . والملكية الخاصة أمر لا غنى عنه لكيان الأسرة وبقائها . والشيوعية مستحيلة لأن كل الناس ولدوا غير متساوين(٦٢) .

وكان بودين أكثر واقعية من ماريانا وروسو فى مناقشته لأصل الدولة . فليس ثمه لغو وهراء حول ميثاق أو عقد اجتماعى ، فقد تنشأ الجماعات القروية على شيء من مثل هذا الاتفاق . أما الدولة . فقد نشأت بتغلب مجموعة من الأصوات على مجموعة أخرى ، ثم أصبح زعيم الفريق المنتصر ملكا(٦٣) . ولم ينبع اقرار القوانين من ارادة الشعب أو « سيادته » بل من القوة النظامية للحكومة ، — ومن ثم فان الملكية المطلقة أمر طبيعى ، فإنها فى الدولة ، استمرار لسلطة الأب فى الأسرة الأبوية . فلن تكون هناك سيادة لأية دولة إذا خضعت لغير قوانين الطبيعة وقوانين الله(٦٤) . وكما انتهى هوبز إلى هذه النتائج فرارا من الفوضى التى سببتها الحرب الأهلية فى انجلترا (١٦٤٢ — ١٦٤٩) ، فان بودين رأى فى الحكومة الاستبدادية المخرج الوحيد من الحروب الدينية وتمزيق فرنسا ، مع ملاحظة أن كتابه نشر بعد أربع سنوات فقط من مذبحة سانت برتلميو ، وربما كتب بالدم الذى كان يجرى أنهارا فى شوارع باريس . وبدا لبودين أنه إذا كانت مهمة الدولة هى المحافظة على النظام ، فان هذا لن يتسنى لها إلا عن طريق سيادة مطلقة غير قابلة للتحويل أو التخلى عنها .

وبناء على هذا تكون الملكية غير المقيدة ، الوارثية . هى خير أنواع الحكومات : يجب أن تكون غير مقيدة حتى لاتنتهى إلى الفوضى ، ووراثية تجنبا لشرور النزاع على العرش . فالملكية مثل السلطة الأبوية — سادت فى معظم أنحاء الأرض ، لأطول مدة من الزمن ، ولقد أقرها التاريخ .على حين أن الديموقراطيات لم تحكم الدول إلا لفترات قصيرة فحسب ، ولكنها تنهار، بسبب تقلب الشعب ، وعجز الموظفين الذين يختارهم ، وفسادهم وقبولهم الرشوة[٦٥] ، وفى أية جمعية شعبية يحسب عدد الأصوات دون وزنها أو تقدير قيمتها (من أجل نوعية التفكير الذى أدلى بالصوت) ، فإن عدد الحمقى والأشرار والجهال أكبر ألف مرة دائما من عدد الرجال الذين يقام لهم وزن . وليس ثمة خلاص للديمقراطية إلا إذا تولى الحكم ، وراء ستار المساواة، نفر قليل من الناس ، ورجح وزن العقول عدد الرؤوس[٦٦] .

واعترف بودين بأنه لابد من إيجاد مخرج من الاستبدادية المطلقة إذا أصبح الحاكم طاغية ظالما . فأباح حق القيام بالثورة أو قتل الطاغية ، وربما كان ذلك على أساس غير منطقى . وسلم بأنه حتى ملكياته البالغة حد الكمال ، لابد أن يأتى يوم تنهار فيه ، وتعزل نتيجة تغييرات لامعدى عنها ، وتتعذر الحيلولة دون وقوعها . واستبق هيجل،فقسم التاريخ إلى فترات ثلاث : الأولى سيطرت فيها دول الشرق ، والثانية شعوب البحر المتوسط ، والثالثة أقطار شمالى أوربا . ومن خلال تعاقب القيام أو السقوط هذا ، ذهب بودين إلى القول بأنه يلحظ شيئا من التقدم.ولا يقع العصر الذهبى فى الماضى الأسطورى، بل فى المستقبل الذى سيجنى ثمار أعظم الاختراعات على الاطلاق — وهى الطباعة[٦٧] . وكتب ، (قبل بيكون بنصف قرن .) أن العلوم تدخر فى أعماقها كنوزا لن تقدر على استنفادها أية عصور مقبلة قط .

وكان بودين مفكرا حرا ، مع نظرة كريمة بعين الاعتبار إلى الكتاب المقدس ، (أو بالأحرى إلى العهد القديم، لأنه يتجاهل العهد الجديد تقريبا .) ،

مع انكار تام لحقيقة السحر والملائكة والعفاريت والتنجيم ، وضرورة إقامة دولة ملتئمة مع الخصائص الخفية للأرقام . ونادى بأقصى العقوبة للسحرة ، ونصح الأمراء بالمحافظة على وحدة العقيدة الدينية لأطول وقت ممكن ، ولكن إذا قويت الهرطقة وانتشرت ، فليس من الحكمة قمعها بالقوة ، بل أنه من الأفضل الاعتماد على عنصر الزمن لكسب الهراطقة إلى جانب الدين الرسمى .

أما ماذا عساه يكون هذا الدين ، فلم يفصح عنه بودين . وكان دينه مشكوكا فيه . وفى كتابه الغريب « حديث سبعة رجال » الذى تركه عن عمد دون أن ينشره ، (طبع لأول مرة ١٨٤١) ، صور كاثوليكيا ولوثريا وكلفنيا ويهوديا ومسلما ، وأبيقوريا وربوبيا ، فى مناقشة فى البندقية . وفازت اليهودية ، أما المبادىء المسيحية فى الخطيئة الأصلية ، والتثليث والتجسد فقد كان الهجوم عليها أقوى بكثير من الدفاع عنها . ولم يثبت فى النهاية إلا الإيمان بالله . أن نقاد بودين اتهموه بأنه يهودى وكلفنى وملحد ، وقالوا بأنه مات على غير دين « كالكلب » . ولكن الايمان بالتوجيه الإلهى للعالم ، واضح بأجلى بيان فى « الجمهورية » ، والالحــــاد موضوع خارج نطاق التسامح ، لأنه يهزأ بالكون[٦٩] .

وكان بودين ، مثل هوبز ، رجلا هيابا يحاول أن يتلمس طريقه إلى الهدوء والاستقرار وسط طغيان الثورة والحرب . وأصاب أعظم مؤلفاته عدوى زمانه ، فكان فلسفة لعالم مضطرب مختل يتلهف على النظام والسلام . ولا يمكن أن تقارن بالحكمة المصقولة التى جاءت فى « مقالات » مونتينى الذى كان أقل منه انزعاجا فى تلك السنوات ذاتها . ومع ذلك فانه منذ عهد أرسطو ليس ثمة رجل ، ربما باستثناء ابن خلدون ، نشر الفلسفة السياسية على مثل هذا النطاق الواسع ، أو دافع عن آرائه وأهوائه بمثل هذه القوة والعمق ، مثل بودين . وان تجد قبل ظهور « لفياثان هوبز » مثل هذه المحاولة الجادة لاكتشاف بعض المنطق فى أساليب الدول .

٣ — هوجو جروشيوس : ١٥٨٣ - ١٦٤٥

إذا بقى ذكر هوبج جروتو عالقا بالأذهان ، على حين طوى النسيان تقريبا ذكر معظم الرواد الأول فى حقله، وهو القانون الدولى (*) فقد يرجع هذا إلى أنه عاش كما كتب ، ولأنه ألف كتابه الممتاز فى فترة كانت تعج بدبلوماسية نشيطة وسياسة محفوفة بالمخاطر . ولد هويج (أوهوجو) فى دلفت ، ودرس الرياضيات والفلسفة والقانون فى ليدن . وامتدح سكاليجر أسلوبه اللاتينى وأثنى عليه ، وفى السادسة والعشرين حظى بتقدير بلاده له بسبب مؤلفه « حرية البحار » (١٦٠٤) الذى أوجز فيه القانون البحرى ، ودافع عن حرية البحار من أجل جميع البلاد ، وبخاصة هولنده التى كانت تتحدى البرتغال التى أدعت أحتكار الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى. وعندما عين مؤرخا رسميا للمقاطعات المتحدة ألف بلغة لاتينية قاربت حد الامتياز تاريخا جريئا ، ولكنه دقيق للثورة الكبرى ، ولقد رأيناه يناضل إلى جانب مذهب التحرر الذى نادى به أرمنيوس فى النزاع بين أولد نبار تفلدت وموريس ناسو . فقبض عليه واعترف بأخطائه[٧٠] فحكم عليه بالسجن مدى الحياة . وتوصلت زوجته أن تقيم معه فى السجن ، فسمح لها بذلك . وبعد قرابة ثلاثة سنوات قضاها فى السجن ، خبأته زوجته فى صندوق للكتب ، فهرب من المعتقل ، وقصد إلى فرنسا حيث أجرى عليه لويس الثالث عشر معاشا ضئيلا . وعندما صعدت ألمانيا حرب الثلاثين، ألف جروشيوس الذى كان يعانى الفقر والعوز كتابة « قانون الحرب والسلام » (١٦٢٥) .

(*) وعلى الأخص فرانسيسكو فكتوريا أستاذ اللاهوت فى سلامنكا فى « المحاضرات » (١٥٧٧) .

البريكو جنتيلى أستاذ القانون المدنى فى أكسفورد الذى استبق بكتابة « قانون الحرب » (١٥٨٨) كتاب جردشيوس « دفاع عن حرية البحار » ، ثم فرانسيسكو سورية الذى عرض فى كتاب ضخم فكرة إنشاء عصبة أمم يحكمها القانون الدولى .

رأيت أنه يسود العالم المسيحى نزعة إلى شن الحروب التى قد تخجل منها حتى الشعوب المتبربرة ، فيفزع الناس إلى السلاح لأتفه الأسباب ، أو بلا سبب ، حتى إذا ما حملوا السلاح،لم يعد هناك أى احترام لقانون سماوى أو قانون وضعى ، وكأنما أبيح للناس ارتكاب أية جرائم دون قيد[٧١] .

كان مكيافللى قد ذهب إلى أن الدول لا يمكن الابقاء أو الحفاظ عليها إلا إذا تحررت من الالتزام بالقانون الاخلاقى المفروض على مواطنيها. فينبغى على رجال الدولة — بالتفويض عادة — أن يكونوا مستعدين للكذب والسلب والقتل ، قدر ما يرون أن هذا أو ذاك مرغوب فيه ، من أجل مصلحة الدولة، لأن الدول ، حتى تلك اللحظة تعيش فى أدغال تتنازع فيها البقاء ، مثلما كانت تعيش الأسرات قبل قيام الدول . وهى لا تعرف قانونا إلا قانون « صيانة الذات » . ويسلم جروشيوس بأنه يجوز إعفاء الحكومات من « القانون الوضعى » الذى سنه الانسان ، ولكنه يرى أنها ملتزمة بطاعة القانون الطبيعى ويعرف هذا القانون « الحق الطبيعى » بأنه هو أن ما « يمليه ويفرضه « العقل الرشيد » ، ليكشف عن الفساد الخلقى أو الضرورة الخلقية لعمل من الأعمال، باتفاق هذا العمل أو تنافره مع الطبيعة العقلانية ، ومن ثم يوضح أن هذا العمل يحله الله أو يحرمه ، والله هو منشىء الطبيعة أو خالقها[٧٢] » . وعلى هذا يكون القانون الطبيعى هو نظام الحقوق والواجبات الذى ينبع من الطبيعة الأساسية للانسان بوصفه كائنا عقلانيا يعيش فى مجتمع. فكل ما هو ضرورى لوجوده واسهامه فى المجتمع حق طبيعى له ، فهو ناشىء عن طبيعته وملائم لها. ويجب أن تلتزم الدول فى تصرفاتها بمراعاة هذه الحقوق .

ويتابع جروشيوس كلامه فيقول بأن هذا يجب أن يكون خاضعا « لقوانين الشعوب » التى قصد بها القانون الرومانى تلك التى لم تشملها « المواطنة الرومانية » ، فلما انهارت الامبراطورية الرومانية الغربية طبقها مشرعو

العصور الوسطى على علاقات الدول بعضها ببعض . وهذا يصبح فى نظر جروشيوس التجميع المبهم أو غير الواضح لكل القواعد والقيود التى قبلتها معظم الدول المتطورة أو النامية ، بحكم العرف ، فى اتصالاتها المتبادلة . وعلى هذين الأساسين : القانون الطبيعى ، وقوانين الشعوب ، يبنى جروشيوس الهيكل النظرى ، وهو أول صياغة حديثة لقانون دولى مرغوب فيه .

وهو بصفة عامة يحرم الحرب على الاطلاق . وهو يدرك أن الجماعة — مثل الحيوان — اذا أحست بأنها مهددة فى أعز ما تملك أو فى حياتها ، فانها ستدافع عن نفسها بأية وسيلة متاحة — وإذا أمكن بالحجة والبرهان أو بالقانون ، حتى اذا أخفقت هاتان الوسيلتان ، فأية قوة تأتمر بأمرها(٧٣) . وبناء على هذا فان أية دولة فى مثل هذه الظروف يكون لها الحق فى شن الحرب دفاعا عن حياة مواطنيها وممتلكاتهم . ولكن الحرب عمل مجاف للعدالة ولا يمكن تبريره ، اذا شنت من أجل الغزو والفتح ، أو السلب والنهب ، أو من أجل الأرض ، أو لرغبة صادقة أو مزعومة فى فرض حكومة صالحة على شعب غير راغب فيها(٧٤) . والحروب الوقائية جائزة كذلك . « نشر بعض الكتاب مبدأ لا يمكن التسليم به قط ، وهو أن قانون الشعوب يجيز لدولة ما أن تبدأ أعمالا عدائية ضد دولة أخرى تثير عظمتها المتزايدة فزع الدولة الأولى. وإذا كان هذا مجرد ذريعة نفعية ، فإنه اجراء يجوز اللجوء إليه ، ولكن مبادىء العدالة لا تؤيده(٧٥) . ويجب أن يلتزم الأفراد بالامتناع عن الخدمة فى حروب يرون بوضوح أنها جائرة(٧٦) .

فإذا افترضنا ، حينذاك أن ثمة حربا عادلة مشروعة ، فان لكل أمة تشترك فيها حقوقا ، فلها أن تلجأ إلى الخداع والتضليل ، وتثأر وتسترد الأرض ، وتستولى على الغنائم ، وتأسر وتستخدم الأسرى . ولكن على الأمة واجبات ، مثلما أن لها حقوقا ، فيجدر بها أن تعلن الحرب قبل أن تشنها ، كما تحترم أية معاهدة عقدت بشأنها ، وتلتزم بمسئولياتها فيها بصرف النظر عمن عقدت معه . كما يجدر فى حملات الغزو لمحافظة على حياة النساء والأطفال

والمسنين ، بل على الأصح ، غير المحاربين عامة . ويجوز استرقاق الأسرى ، ولكن لا ينبغى قتلهم . واغتبط جروشيوش لظاهرة طيبة تبشر بالتقدم ، تلك أن المسيحيين والمسلمين لم يعودوا يستعبدون أسراهم الذين على دينهم .

وكانت مناقشة كريمة معتدلة برغم ما شابها من عيوب ، فإذا كان «القانون الطبيعى» أمرا من املاء «العقل الرشيد» ، فمن ذا الذى يحدد أى عقل هو الرشيد ؟ ففى الدولة انما تحدده الحكومة التى تملك قوة مسلحة ، فأساس الامتثال لقواعد السلوك الموصى به ، هو قدرة المشرع على فرضها فرضا . فالقوة لا تؤسس حقا بل تسن قانونا . فالقانون الدولى ينتظر هيئة تشريعية دولية تدعمها قوة دولية ، وهو أساسا لن يتضمن إلا قيودا متواضعة واتفاقات يمكن نقضها ، قبلتها الدول المعنية على أساس أنها ملائمة للظروف التى أبرمت فيها . وإذا عرفنا «قانون الشعوب» بأنه أعراف أكثر الشعوب تطورا فان هذا ، مرة أخرى ، يقتضى ضمنا وجود مرجع ثقة مؤهل وقادر على تحديد الشعوب الأكثر تطورا . وأين هذا المرجع الثقة ؟ فى أوربا ؟ فى الصين ؟ فى دولة الإسلام ؟ وهل تسمح حكومة لمواطنيها ليحكموا ويقرروا لأنفسهم أن الحرب عادلة أو غير عادلة ؟ أنها تستطيع ذلك لو أن جهاز صيانة المبادىء والتوجيه فيها كان جهازا صالحا للوفاء بهذا الغرض .

لقد كان الكتاب غير منطقى ، ولكنه كان ضروريا . لقد شنت ألف حرب جائرة ، وكان من الخير أن يفكر إنسان فى اتخاذ خطوات للتخفيف من أعمال القتل التى ترتكبها الأمم المتحاربة ، طبقا لقيود مقبولة بالتبادل ، ومن الخير استنكار حروب الغزو والسلب والنهب . ومن الخير أن يرتفع صوت ينادى بالرحمة لغير المحاربين والأسرى . وسخرت حرب الثلاثين سنة من هذه الامتيازات والالتماسات . ولكن عندما خفت حدة هذا الجنون المسعور ، بررت حالة ألمانيا بعد الحرب كتاب جروشيوس أبلغ تبرير .

أن ريشليو الذى عقد العزم على الدخول فى حرب الثلاثين سنة ، حبس عن جروشيوس المعاش الذى كان يتقاضاه ، وآوى المؤلف المعرض للمخاطر

إلى همبرج . وفى ١٦٣٣ أرسله أوكسنستيرنا إلى باريس سفيرا للسويد لدى فرنسا ، ولكن جروشيوس — شأن معظم الفلاسفة — كان أكثر إئتلافا مع أفكاره وآرائه منه مع الناس ، فكن بغضه لريشليو ، ثم لمزران من بعده، من أن يحدد دبلوماسيته . وفى ١٦٤٥ عاد إلى التماس الراحة والسلوى بين كتبه . ودعته الملكة كريستينا للاقامة فى بلاطها ، عالما بجزل له العطاء ، ولكنه حظى بموافقتها على اللجوء إلى ألمانيا . فرتبت له الملكة أمر السفر إلى لوبك ، ولكن عاصفة جنحت بالقارب إلى الشاطىء ، فعانى جروشيوس كثيرا من هول الصدمة ومن اقتضاح أمره ، وقضى نحبه فى روستوك فى ٢٩ أغسطس ١٦٤٥ ، وهو فى الثانية والستين من العمر .

وبعد انقضاء مائتين وسبعة وستين عاما غفرت له هولندة « تحرريته » ، وفى ١٨٨٦ أقامت له تمثالا فى مسقط رأسه . وفى ١٨٩٩ وضع مندوبو الولايات المتحدة إلى المؤتمر الدولى للسلام فى لاهاى ، على قبره اكليلا من الفضة . اعترافا بأن كتابه أسهم لبعض الوقت فى الحد من « لعبة الملوك » .

٥ — الكاهن الأبيقورى

هلا وقفنا ، ونحن نمضى فى طريقنا إلى ديكارت ، وقفه أخيرة ، انفكر مليا فى سر الكاهن الكاثوليكى الذى أحيا مادية أبيقور . فكان من مظاهر التطور العقلى فى أوربا أن فيلسوف اللذة اليونانى الذى ظل اسمه لعدة قرون مرادفا « للكفر والالحاد » ، يلقى الآن ، وفى غمرة النفور المتزايد من أرسطو ، تكريما وتشريفا على يدى كاهن ورع لا عيب فيه ، نباتى مات من فرط تشدده فى الإمساك أيام الصوم الكبير .

بدأ بيير جاسندى حياته ابنا لأحد الفلاحين بالقرب من ديرفى بروفانس، وأظهر من حدة الذهن والشغف بالمعرفة ماهيأ له وهو فى السادسة عشرة

الاشتغال بتعليم « الأدب » ، وفى الخامسة والعشرين تدريس الفلسفة فى جامعة أكس . ورسم كاهنا ، وأصبح قسيسا ورئيسا لكاتدرائية دين . وفى تلك الأثناء كان قد فرغ من تأليف كتاب يتسم بالانفعال والثورة على أرسطو « تمرينات التناقض » . وقد أحرق معظم الكتاب بناء على نصيحة الأصدقاء ، ولكن الأجزاء التى نشرها منه فى ١٦٢٤ نمت عن تأييده «لفلك» كوبرنيكس ، و « ذرية » لوكريشس و « فلسفة » ابيقور . وهنا كانت دعـــوة صارخة للاستشهاد . ولكن بيير كان شابا لطيف المعشر ، متواضع السلوك مواظبا على واجباته الدينية ، إلى درجة يبدو معها أن أحدا لم يفكر فى إحراقه . أنه أعلن طوال حياته عن إيمانه بنظرية « الحقيقتين » — أن الفلسفة يمكن أن ترتضى النتائج التى يفرضها العقل بوضوح ، على حين أنه فى الدين قد يظل المرء يتبع العقيدة والطقوس التقليدية بوصفه ابنا بارآ للكنيسة . فأصاب بيير عصفورين بحجر واحد .

وبناء على طلب من مرسن صديق ديكارت ، قدم بيير عدة اعتراضات قوية على فلسفة ديكارت ويحسن أن نؤجلها . وفى ١٦٤٥ عين أستاذا للرياضيات فى « الكلية الملكية » فى باريس ، ولكنه سرعان ما أصيب بالتهاب رئوى ، فعاد إلى جو دين ذى الشمس الأكثر دفئا . وهناك كتب أعظم مؤلفاته ، وكلها تدور حول أبيقور : « الحياة السعيدة فى نظرية أبيقور » (١٦٤٧) و « حياة اللذة عند ابيقور » (١٦٤٩) وكتاب يقع فى ١٦٠٠ صحيفة على نهرين « مبادىء فلسفة ابيقور » (١٦٤٩) .

وبينما واصل بيير تثبيت عقيدته الكاثوليكية ، شرح لقراء اللاتينية فلسفة كل من ابيقور ولولكريشس — المادية والذرية وشرعية اللذة . أن « العلة الأولى » لكل شىء هى « الله » ، ولكن بعد هذه الدفعة الأولى (التى استهل بها كل شىء وجوده) واصل كل شىء مسيرته أو تقدمه بفعل قواه وقوانينه الفطرية المتأصلة فيه . وكل معرفة تنبع من الحواس ، وهى ذات وجود فردى .

أما « الكليات » أو الأفكار العامة ، فهي أدوات نافعة للفكر ، ولكن ليس لها ترابط موضوعي . وليس من شك في أن الروح غير مادية ، وخالدة ، ولكنها تبدو معتمدة على الجسم ، وواضح أن الذاكرة من وظائف المخ ، وليست اللذة الحسية لا أخلاقية إذا اتسمت باعتدال حازم . ولكن أقل الملذات تغريرا وغدرا هي ملذات الذهن ، فإن الرياضيات مثلا قد يطرب لها الإنسان ويبتهج بها . وكان جاسندى نفسه بطبيعة الحال « ابيقوريا » ، أى أنه ارتضى فلسفة ابيقور ، ولكنه لم ينغمس في اللذة الحسية ، بل على النقيض من ذلك ، اتسمت حياته باعتدال بالغ . وإنتابته الحمى بعد صوم طول أكثر مما ينبغي . وأجهز عليه أطباؤه بفصده ثلاث عشرة مرة (١٩٥٥) .

وكان موليير وسيرانو دى برجراك من بين مريديه في باريس . وارتضى فونتنل وسانت أفرموند ونينون دى لنكلوس فلسفته دون لاهوته . وأفاد هوبز من أحاديثه معه . وربما أخذ عنه بعض عناصر علم النفس الحسى ، عن طريق تلميذ جاسندى وصديق لوك ، فرانسوا برنييه الذى نشر «موجز فلسفة جاسندى » في ١٦٧٨ . وآثر نيوتن « ذرات » جاسندى على « جسيمات » ديكارت ، ووجد عند كاهن بروفنسال تلميحا إلى الجاذبية وفكرة غامضة عنها [٧٧] . وفي القرن الثامن عشر هيأت المادية الكامنة في جاسندى وتوكيده على العلم والتجريب مقابل منطق أرسطو وميتافيزيقا ديكارت — نقول هيأ له هذا وتلك ، بين الفلاسفة الفرنسيين ، مكانة أرفع من مكانة أى مفكر فرنسى آخر ، باستثناء ديكارت . إذن ماهذا الذى جعل من ديكارت لمدة قرن من الزمان معينا لا ينضب للفلسفه الحديثة ؟

٦ — رينيه ديكارت ١٥٩٦ — ١٦٥٠

أول مانذكره عن ديكارت أنه تلقى تعليمه على أيدى الجزويت . وكان هذا التعليم نقطة البداية وحجر الشحذ عند كل المراطقة الفرنسيين ، ابتداء

من ديكارت ثم فولتير ، ورينان وأناتول فرانس « بين جدران المعبد صنعت المعاول التي حطم بها المعبد » (٧٨) .

ولد في لاهي ، وهي بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا . وماتت أمه بالسل بعد ولادته بأيام قلائل ، وورث عنها المرض . وكان في صباه شاحب اللون ، يسعل سعالا يثير الاشفاق ، إلى حد أن الطبيب لم يبشر بأي أمل في إنقاذه ، ولم تتخل عنه المرضعة يأساً من بقائه على قيد الحياة ، ولكنها أمدته بالدفء والغذاء من جسدها هي ، فعاد إلى الحياة ثانية . وربما سمى لهذا السبب ، باسم رينيه (وهي لفظة مشتقة من أصل لاتيني بمعنى ولد من جديد) . وكان والده محامياً موسراً ، وعضواً في برلمان رن Rennes ، وترك لابنه عند وفاته دخلا يقدر بستة آلاف فرنك في العام .

والتحق في سن الثامنة بكلية « لافيش » اليسوعية « التي يقول عنها أحد المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين « يبدو أنها زودته بقدر من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه في معظم الجامعات في ذاك العصر (٧٩) » وتبين معلموه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأباحوا له البقاء في الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ ، ولحظوا أنه استغل الوقت في التهام الكتب ، الواحد بعد الآخر ، وفي كل جولاته من الميتافيزيقا ، ظل يحتفظ بإعجابه الشديد بأساتذته الجزويت ، كما أنهم بدورهم ، نظروا إلى شكوكه بشيء من التسامح الأبوي .

وقصد في سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبث ، ولكنه لم يجد شيئا ينغمس فيه ، لأنه لم يكن بعد يحفل بالنساء أو يميل إليهن ، ولكنه بوصفه رياضياً ضليعاً ، انصرف إلى الميسر ، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة نادي القمار . والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات علمية في القانون المدني والقانون الكنسي . وما أن استرد عافيته وقوته ، حتى أذهل أصدقاءه ، بانخراطه في جيش الأمير موريس ناسو (١٦١٨) . ولما نشبت حرب

الثلاثين عاما انضم إلى قوات مكسيمليان أمير بافاريا ، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك فى معركة « الجبل الأبيض » .

وفى غضون هذه الحملات . وبخاصة فى شهور الشتاء الطويلة التى تعوق مواصلة القتل ، كان ديكارت يتابع دراسته ، وفى الرياضيات بصفة خاصة . وذات يوم (١٠ نوفمبر ١٦١٩) فى نيوبرج بالقرب من أولم فى بافاريا ، اتقى البرد بالقبوع فى « موقد » (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصا له) وفيها – كما يقول هو – رأى فيما يرى النائم فى ثلاث رؤى أو ثلاثة أحلام، ومضات من النور ، وسمع رعداً ، وبدا له أن روحا سماوية كانت توحى إليه بفلسفة جديدة . وبعد خروجه من هذا « الموقد » (الغرفة) كان – كما يؤكد لنا – قد صاغ الهندسة التحليلية ، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضى فى الفلسفة[٨٠] .

ورجع إلى فرنسا فى ١٦٢٢ ، ورتب أموره المالية . ثم استأنف جولانه، فقضى قرابة سنة فى إيطاليا : فقصد من البندقية (ويقولون سيراً على الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم إجلاله للعذراء . ورأى رومه فى فترة الغفران (١٦٢٥)، ومر بفلورنسه ولكنه لم يزر جاليليو . ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك فى الريف تابع دراساته العلمية . وصحب الرياضى المهندس العسكرى جيرار ديسارج فى حصار لاروشيل (١٦٢٨) . وفى أخريات هذا العام قصد إلى هولندة، حيث قضى فى المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريبا ، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شئونه المالية .

ولسنا نعلم لماذا ترك فرنسا ، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه « بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك فى أشياء كثيرة[٨١] » خشى أن يتهم بالهرطقة، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك، مثل مرسن وبيرول. وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، أملا فى أن يجد فى بلد غريب عزلة اجتماعية (لاهكرية) يستطيع فيها أن يشكل الفلسفة التى

كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها ، ولكن لم تقلقه الحركة النشيطة التي تلطفها القنوات — في امستردام ، وهو يقول « هناك ، وسط الجموع المكتظة من شعب عظيم نشيط ، استطعت أن أعيش وحيداً منعزلا ، وكأني في صحراء نائية [٨٢] » . وربما كانت رغبته في أن يتوارى عن الأنظار ويخفى اهتماماته هي التي دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعا وعشرين مرة في السنوات العشرين التالية ، من فرانكر إلى امستردام إلى دفنتر ، إلى امستردام إلى أوترخت ، ثم إلى ليدن ، ولكن بالقرب من جامعة أو مكتبة عادة . ومكنه دخله من الاستمتاع بطيبات الحياة الاجتماعية في قصر صغير مع عدد من الخدم . وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليله (١٦٣٤) أنجبت له طفلة . وإنا لنسر إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفلة عند موتها في الخامسة من عمرها . وقد نجافي الصواب إذا ظنناه فاترا لاتحركه الأحداث الدنيوية ، ولسوف نجد أنه يبرر كثيراً من الأهواء والمشاعر التي يشجبها رجال الأخلاق عادة . وما كان هو نفسه ليتجرد منها ، فهو عرضة للزهو والغضب والغرور [٨٣] .

لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه . انظر إلى ما ألزم نفسه بدراسته الرياضيات، الفيزياء ، الفلك ، التشريح ، الفسيولوجيا ، علم النفس ، ميتافيزيقا ، نظرية المعرفة ، الأخلاق ، اللاهوت . فمن ذا الذي يجرؤ اليوم على أن يحول بين هذا كله ؟ . ومن ثم طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار ، وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية . وقدر فرص تجنبه محكمة التفتيش أو تهدئتها ، وحاول أن يهيىء لفلسفته منهجا رياضيا . ولحياته منهجا فلسفيا .

ومن أين يبدأ ؟ إنه في « مقال في المنهج » ، وهو الكتاب الفذ الذي يعتبر

---

* كتبه ١٦٢٩ ، ونشر في ١٦٣٧ في مجلد يتضمن كذلك بحوثا في الهندسة والانكسار والشهب ، ثم أعقبه في ١٦٤١ كتاب « تأملات في الفلسفة الأولية » ، ثم كتاب

فاتحة عصر جديد ، أعلن عن أول مبدأ « كان يمكن ، فى حد ذاته ، أن يقيم علية الدنيا و يقعدها و يثير عليه غضب أولى الأمر ، وهكذا كان . فقد كان الموضوع مكتوبا فى لغة فرنسيه واضحة متميزة ميسرة ، فى صيغة المتكلم الحية الساحرة . لقد أحدث ثورة كبيرة فى التفكير ، وقال ديكارت أنه كان سعيداً ينبذ كل النظريات والمبادئ والتعاليم ، ويطرح كل جهد ومرجع ، ويوجه خاص الفيلسوف أرسطو . وسيبدأ بصفحة جديدة خالية من أى شىء ، ويشك فى كل شىء . « إن السبب الأساسى فى أخطائنا يمكن فى أهواء طفولتنا[٨٤] . . . فالمبادىء التى اعتنقتها فى شبابى ، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها » [٨٥] .

ولكنه كيف يمضى قدما ، إذا ساوره الشك فى كل شىء ؟ . ولما كان مولعا بالرياضيات ، وفوق كل شىء بالهندسة التى دأبت عبقريته على تحويلها ، فقد تاقت نفسه ، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس . « إن أرشميدس ، لكى يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكان آخر ، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك ، وأنا بالمثل ، سيكون لى الحق فى أن استبشر خيرا كثيرا إذا أسعدنى الحظ ، فأضع يدى على شىء واحد مؤكد لا نزاع فيه[٨٦] . » وأكد على هذه النقطة متهللا : « أنا أفكر . فإذن أنا موجود[٨٧] » . وهذه أشهر عبارة فى الفلسفة* ولم يقصد بها أن تكون قياسا

= « مبادىء الفلسفة » فى ١٦٤٤ وجاء بعده « رسالة فى انفعالات النفس » فى ١٦٥٠ ، دراسة الإنسان » ١٦٦٢

* كان سانت أوغسطين قد استخدم نفس نقطة البداية هذه ، عند محاولته دحض آراء المتشككين الوثنيين الذين أعلنوا الشك فى كل شىء . ولكنه تساءل : من ذا الذى « يشك فى انه يعيش ويفكر ؟ » « لأنه إذا كان يشك فهو يعيش (٨٨) . واستخدم مونتيني نفس الحجة ضد المتشككين المتطرفين اليونان (أنصار برو ٣٦٥ — ٢٨٥ ق . م) فى « معذرة إلى ريموند سيبوند » وكان ديكارت قد قرأ مونتيني

منطقياً ، بل خبرة مباشرة لا سبيل لانكارها ، وهي أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها ، وتكون سائر الأفكار « صحيحة » على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية — الادراك الحسي المباشر، من حيث الجلاء والوضوح. وكان « منهج » ديكارت الجديد في الفلسفة هو أن يحلل الأفكار المركبة إلى مكوناتها ، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية ، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من . أو تعتمد على ، الشعور الأول لـكائن يفكر . أننا على العكس ، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الادراك الحسي الأول كل المبادىء الأساسية في الفلسفة .

ومرة أخرى كانت ثورة في الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية ، لا الأشياء الخارجيه المفروض أنها معروفة، بل الذات الواعية. لقد اكتشفت فلسفة النهضة « الفرد » ، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل في فلسفته . «إني لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شيء أيسر على أن أعرفه ، من عقلي أنا[٨٩] » وإذا بدأنا بالمادة ، وسرنا قدما عبر مستويات الحياه العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقي قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادي . ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده. والعقل فقط هو الذي يمكن معرفته أو ادراكه مباشرة (دون واسطة) .وهنا تبدأ المثالية ، لا بمعناها الأخلاقي ، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقه المباشرة للأفكار ، أكثر مما تبدأ بالأشياء التي تعرف عن طريق الأفكار « وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدى من تحقيق يحاول تحديد طبيعه المعرفة الإنسانية ومداها[٩٠] » . ولمدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تتساءل عما إذا كان « العالم الخارجي » موجودا إلا كمجرد فكرة .

ولما كان من العسير أن نعبر من الجسم إلى العقل ، بنظرية تفسر قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنهما ماديتان ، وطبيعة الأفكار التي يبدو أنها طبيعة غير مادية ، فإن ديكارت كذلك ، وقد بدأ بالنفس ، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء . فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التي يبدو أنها تدلل على عالم خارجي، ليست شيئا أكثر من حالاته هو (أي العقل) ؟

وكيف يصدق الحواس التى غالبا ما تخدعنا وتضللنا ، أو الصور العقلية التى تكون مشرقة عندما تكون « زائفة » فى النوم ، قدر اشراقها عندما تكون « حقيقية » فى اليقظة ؟ .

وهربا من سجن النفس « الأنانة » يلجأ ديكارت إلى الله الذى لا يمكن بالقطع أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة . ولكن متى يدخل الله فى هذا المنهج الذى بدأ فى جرأة بالشك فى كل المعتقدات والمبادىء التى تلقاها الإنسان؟ إن ديكارت لا يستطيع اثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه فى العالم الخارجى ، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجى . ولذلك أخرج ديكارت « الله » من « النفس المدركة » ، تماما مثل فعل آنسلم فى « البرهان الوجودى » قبل ذلك بستة قرون . وهو يقول : إن لدى تصورا لكائن كامل مثالى قدير عليم ، ضرورى ، خالد ولكن هذا الذى يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذى لم يوجد ، وعلى ذلك فان الكائن الكامل المثالى يجب أن يكون الوجود من بين صفاته . ومن الذى كان يستطيع أن يدث فى هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى ؟ « ومن المستحيل أن أحمل فى نفسى فكرة الله ، إذا لم يكن الله موجوداً حقا »[٩١] . وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملا ومن ثم فانه لا يضللنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية ، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجى . « لست أدرى كيف يمكن الدفاع « عنه سبحانه » أوتبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية . ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة[٩٢] » ، ومن ثم تنسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة ، بين الذات والموضوع ويصبح ديكارت ، بعون من الله ، واقعيا . والعلم نفسه — ايماننا الراسخ يكون منطقى خاضع لنظام ، مطيع للقانون ، يمكن التعرف عليه واحصاء ما فيه — يصبح أمراً ممكنا ، لا لشىء إلا لأن الله موجود ، وحاشا الله أن يكذب .

وإنا إذ نتتبع ديكارت لنشهد « عصر العقل » فى طفولته يتراجع فزعا من مغامرات الفكر ، محاولا الولوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة . ورغبة

فى بث الطمأنينة من جديد أطلق على « التأملات » : تأملات رينيه ديكارت فى فلسفه أولى ، أبرز فيها وجود الله وخلود النفس. وأهدى الكتاب إلى « الحكيم الألمعى عميد كلية اللاهوت المقدسة فى باريس » ، أى السوربون . وتقبل العميد الهدية ، ولكن فى ١٦٦٢ أدرج الكتاب فى قائمة الكتب المحظورة ، « حتى يتم تصحيحه » . وبدأ الكتاب على نفس النسق الجرىء الذى بدأت به « المقالات » « اليوم . . . وقد هيأت لنفسى انقطاعا أكيداً لرياضة روحية هادئة ، فلسوف أنكب أخيراً ، انكبابا منطلقا جاداً ، على استعراض عام لكل آرائى السابقة[٩٣] » . لقد ألقى بها جميعا من النافذة، ثم أجاز لها الدخول من الباب . ولم يكن من بين هذه الآراء ، إيمانه بالله عادل قدير فحسب ، بل كذلك إيمانه بإرادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية ، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان . ومهما سلمنا بمنطق العلاقة الوثيقة التى لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة فى عالم المادة والجسد ، فان حرية إرادتنا فكرة من احدى الفكرات الفطرية المتأصلة ، الواضحة الجلية ، الحية المباشرة ، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط ، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أى الفكرات) فى النظريات المجردة[٩٤].

أن فكرة الله ، وفكرة النفس ، وفكرة المكان والزمان ، وفكرة الحركة، والبديهيات الرياضية كلها فطرية متأصلة ، بمعنى أن النفس لا تستمدها من الاحساس والخبرة ، بل من جوهرها وعقلا نيتها .

(وهنا قد يعترض لوك ، ويوافق كانت) . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الأفكار الفطرية قد تظل لا واعية حتى تخرجها الخبرة فى صورة واعية ، والنفس حينئذ لا تكون نتاجا للخبرة ، بل شريكها النشيط المبدع فى إنتاج الفكر . أن هذه النفس العقلانية « القدرة على التعقل » واضح أنها غير مادية ، وليس لأفكارها طول ولا عرض ، ولا موقع ولا وزن ، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة[٩٥] . « إنى أنا، أى النفس التى أنا بها كما أنا عليه الآن ، هى أساسا متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها مما نعرفه[٩٦] » . وعلى ذلك فان هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد ، ولا بد أنها تبقى .

ترى هل كانت تلك النتائج القويمة التى انتهى إليها ديكارت صادقة مخلصة، أو أنه أضفى عليها لونا وقائيا ؟ . هل كان ديكارت تواقا إلى متابعة دراسته العلمية فى هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب، إلى حد أنه كان ينفث الميتافيزيقا مثل غشاوة مربكة تحول دون انقضاض الطيور الجارحة عليه ؟ لسنا نملك الجزم بشىء فى هذا الصدد . وقد يتسنى لامرىء أن يكون عالما فاضلا على الأقل فى الفيزياء ، والكيمياء ، والفلك ، إن لم يكن فى البيولوجيا – وفى نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية فى المسيحية . وفى إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل « لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحى الإلهى ، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة[٩٧] » وتنم رسائله مع اليزابث أميرة البالاتين ، فى أسلوب فصيح عن التقى والتمسك بالصراط المستقيم . وزاره سالاميوس فى ليدن ١٦٣٧ فوصفه بأنه « كاثوليكى غيور جداً[٩٨] » .

على أنه تفرغ فى العقد الأخير من حياته للعلم . وحول داره إلى معمل ، وأجرى تجارب فى الفيزياء ووظائف الأعضاء ، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة ، أشار يكارت إلى ربع عجل كان يقوم بتشريحه[٩٩] . وكان فى بعض الأحيان يتحدث ، كما تحدث بيكون ، عن الفوائد العملية — الهائلة التى يجنيها الجنس البشرى حين يستطيع العلم أن يجعل الناس « سادة الطبيعة والمسيطرين عليها[١٠٠] » ، وكثيراً ما أدى توكيده الذاتى على الاستنباط وثقته فيه ، إلى نتائج غامضة . ولكنه — اشتغل شغلا خلاقاً بعدة علوم . وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التى سادت علم الفيزياء ، فى العصور الوسطى : إيضاحات كمية مصوغة فى صيغ رياضية . ولقد شهدنا تطويره الهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائى . وحل مشاكل تضعيف المكعب وتثليث الزاوية . وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثل الكميات المعلومة ، والحروف الأخيرة لتمثيل الكميات المجهولة . ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلا عن سنل Snell . وحالفه التوفيق فى دراسه القوى العظمى التى تحدثها وسائل صغيرة ، مثل البكرة

والأسفين والرافعة والمزمة والعجلة ، وصاغ قوانين القصور الذاتى والتصادم وكمية التحرك ، وربما أوحى إلى بسكال بأن الضغط الجـوى ينخفض بالارتفاع [١٠١] ، ولو أنه أخطأ فى إعلان أنه لا يوجد ثمة — فراغ إلا فى عقل بسكال [١٠٢] . وأشار إلى أن كل جسم محوط بدوامات من جسيمات دقيقة تدور حوله — فى طبقات كروية — وهى فكرة تشبه نظرية المجال المغناطيسى الحالية . وفى البصريات حسب حساباً صحيحاً زاوية الانكسار ، وحلل التغيرات التى يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البللورية للعين ، وحل مشكلة تصحيح الزيغ الكرى فى التلسكوب ، وصمم عدسات ذات تقوس بيضى الشكل أو زائدى المقطع ، خالية من هذا الزيغ [١٠٣].

وشرح جنينا ، ووصفه من الوجهة التشريحية ، وهو يقول أنه شرح رؤس حيوانات مختلفة ليتحقق فى أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما [١٠٤]. وأجرى تجارب على الفعل اللاارادى أو المنعكس، وشرح الطريقة (الميكانيكية) التى تطرف بها العين عند اقتراب الضربة أو اللطمة [١٠٥] . ووضع نظرية الانفعال شبيهة بتلك التى وضعها وليم جيمس وكارل لانج : إن السبب الخارجى للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يولد ذاتياً أو آنيا فعلا مستجيباً (الهرب) والاحساس المرتبط به (الخوف) ، فالانفعال هو إنجاز الفعل لا سببه . والانفعالات متأصلة فى الفسيولوجيا . ويجب دراستها وتفسيرها على أنها عمليات ميكانيكية ، وليست فى حد ذاتها سيئة لأنها الريح فى أشرعتنا ولكن إذا لم يلطف منها العقل ويحد منها ، فإنها قد تستعبد الانسان وتدمره .

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكيا ، فيما عدا الله والنفس العقلانية وعرض ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحكمة التفتيش ما ثلتان أمام عينيه — على أنها مجرد فرض : فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة ، فيمكننا أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك ، وفق قوانين الميكانيكا ، دون تدخل . إن الحركة الطبيعية للجسيمات المادية فى كون ليس فيه فراغ ، تأخذ شكلا دائرياً يؤدى إلى دوامات مختلفة من الحركة . ويمكن أن تكون الشمس والكواكب

والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات فى مركز هذه الدوامات ، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة — وهذا يفسر التماسك والتجاذب — فإن كل كوكب كذلك محصور فى دوامة من الجسيمات تحتفظ بتوابعه فى مداره ، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس فى دوائر . وكانت نظريه بارعة ، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل .

ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لكان فى مقدورنا أن نحول — لا الفلك والفيزياء والكيمياء ، فحسب — بل كل عمليات الحياة ، باستثناء العقل ذاته ، نحولها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم ، بل حتى الشعور ، كلها ميكانيكية ، انظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً فى اكتشاف هارفى للدورة الدموية . وطبق ديكارت ، فى ثقة تامة ، فكرة الميكانيكية ، على كل عمليات الحيوانات ، لأنه أبى أن يخلع عليهما القدرة على التفكير العقلى . وربما أحس بأنه مضطر ، من الوجهة الدينية . الى ظلم الحيونات على هذه الصورة ، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلانى ، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك ، لكانت هى الأخرى باقية أو غير فانية ، وربما كان فى هذا ازعاج ، إن لم يكن لهواة الكلاب ، فهو على الأقل لرجال اللاهوت .

ولكن إذا كان جسم الانسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادى أن يعمل فيه . أو يحكمه بقوة غير ميكانيكيه مثل الارادة الحرة ؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته ، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود . وربما ارتأى أن العقل يعمل فى الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعة بشكل مناسب فى قاع المخ .

وكان أكثر تصرفات ديكارت تهوراً وطيشاً طيلة حياته ، أنه طلب من مرسن أن يبعث مقدما بنسخ من كتاب « التأملات » إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لارسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه ، ورداً على ذلك دحض

جا سندى آراء ديكارت فى كياسة فرنسية[١٠٦] . فإن الكاهن لم يقتنع بحجة ديكارت الوجودية عن وجود الله . أما هوبز فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ . ويقول أوبرى بأن هوبز بصفة خاصة ، كان يميل إلى القول بأن ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة فى العالم ، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة[١٠٧] . واتفق هيجينز مع هوبز ، وذهبا إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا .

والآن وبعد ثلاثة قرون من البحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نتبين نقاط الضعف فى أول منهج حديث جرىء للفلسفة . أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسية ، ساقت ديكارت إلى طريقة استنباطية ، اعتمد فيها فى طيش زائد ، برغم تجاربه ، على نزعته إلى الاستنباط . وانه لعمل انتحارى أن نجعل من وضوح أية فكرة وجلائها وبهائها وبداهتها اختباراً لصحتها ، فمن ذا الذى يجسر على هذا الأساس ، على إنكار دوران الشمس حول الأرض ؟ والمحاجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كائن لا نهائى بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح ؟) ، ثم المحاجة بأن الأفكار الواضحة المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا ، إن هى الا ضرب من التفكير دائرى غامض مثل مدارات كواكب ديكارت . إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم سكولاستية العصور الوسطى ، التى نصحت بنبذها . إن شك مونتينى كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذى لم يفعل إلا أن زحزح الهراء التقليدى ليفسح مكاناً لهرائه هو .

ومع هذا كله ، بقى فى علم ديكارت ، أن لم يكن فى « ميتافيزيقاه » ، مايشيع فى نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب . فإن نظريته فى « ميكانيكية الكون » تركت المعجزات والارادة الحرة فى موقف خطر ومأزق حرج ، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم . أنه لما سمع باد أنه جاليليو (يونية ١٦٣٣) طرح جانبا مؤلفه الضخم « العالم » الذى كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التى توصل إليها ، وكتب ، وقلبه يقطر أسى وحزنا ، إلى مرسن :

لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر فى نفسى ، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتى ، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار . . . وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة . فإن كل مبادىء فلسفتى عن « ميكانيكية العالم » خاطئة ... لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضا ... ولكنى على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة . (١٠٨) وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطة « العالم » .

ولم يأت الهجوم (فى حياته) من الكنيسة الكاثوليكية ، بل من رجال اللاهوت الكلفنيين فى جامعتى أوترخت وليدن . فقد اعتبروا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تسىء إلى « القضاء والقدر » ، كما رأوا فى « ميكانيكية الكون » فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد ، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير لمجرد قوة دافعة يبدأ بهـــا الله ، فما هى إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلالية أو الأولى هذه . وفى ١٦٤١ ، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكارت ، أغرى رئيس الجامعة ، جسبرت فوشيوس ، ولاة الأمور فى المدينة بإدانة الفلسفة الجديدة وتحريمها . فما كان من ديكارت إلا أن شن هجوما على فوشيوس ، الذى رد عليه رداً عنيفاً ، وعاود ديكارت الكرة ، وقارعه الحجة بالحجة . وفى ١٦٤٣ دعا القضاء الفيلسوف للمثول أمامهم . ولكنه رفض ، وصدر الحكم عليه . فتدخل أصدقاؤه فى لاهاى ، فقنع أولو الأمر فى المدينة بإصدار قرار بحظر أية مناقشه علنية تأييداً أو تفنيداً لآراء ديكارت .

ووجد بعض السلوى فى صداقته مع الأميرة اليزابث التى كانت تقيم فى لاهاى مع والدتها اليزابث ناخبة البلاتين ملكة بوهيميا المخلوعة . وكانت الأميرة فى التاسعة عشرة حين ظهر كتاب « المقالات » ١٦٣٧ ، فقرأته فى دهشة ممزوجة بالابتهاج والسرور بما رأت أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها ، والتقى بها ديكارت وابتهج بما رأى من أن الميتافيزيقا قد تقسم

بالجمال . وأهدى إلى الأميرة الصغيرة كتابه « مبادىء الفلسفة » وكتب كلمة الأهداء فى لغة تفيض بملق بالغ البهجة والسرور . وماتت حيث كانت رئيسة دير للرهبات فى وستفاليا (١٦٨٠) .

ولم يطب المقام لديكارت فى هولنده ، كما كان من قبل ، فكان كثير التردد على فرنسا : (١٦٤٤ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨) . وآثار فيه الروح الوطنية معاش أجرته عليه حكومة لويس الرابع عشر الجديدة (١٦٤٦) . واحتال للحصول على أحد المناصب الإدارية ، ولكن اقتراب نشوب الحرب الأهلية (حرب الفروند) عاد به إلى هولنده ، فزعا . وفى فبراير ١٦٤٩ تلقى دعوة من كريستينا ملكة السويد ، ليحضر ليلقنها الفلسفه . وتردد فى قبول الدعوة ، ولكن سحرته رسائلها التى تمت فى لغة فرنسية ممتازة ، على ذهن متلهف ، انحاز بالفعل إلى « البهجة الغالية » (فلسفة ديكارت) . وبعثت إليه بأحد أمراء البحر يستميله ، ثم ببارجة حربية لتقله ، فاستسلم وأبحر فى سبتمبر من أمستردام إلى ستكهولم .

واستقبل بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكن أزعجته رغبة الملكة فى أن تتلقى الدروس ثلاث مرات فى الأسبوع ، فى الساعة الخامسة صباحاً ، وكان ديكارت قد تعود أن يبقى فى فراشه إلى وقت متأخر ، والتزم بالمواعيد التى حددتها الملكة طيلة شهرين ، فكان يخرج من بيته إلى مكتبة الملكة فى فجر الشتاء وثلوجه ، وفى أول فبراير ١٦٥٠ انتابه برد انقلب إلى التهاب رئوى ، وفى اليوم الحادى عشر فارق الحياة بعد أن تلقى الأسرار المقدسة الكاثوليكية الأخيرة .

وكان قد اتخذ لنفسه شعارا ، هو « يعيش سعيدا من يتوارى عن الأنظار ويتكتم كثيراً » . ولكن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل موته بعدة سنوات . لقد نبذت الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة فى

تقواه ، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزياءه ، ولكن دنيا الاناقة فى باريس ، أقبلت فى سرور بالغ على مؤلفاته التى كتبها فى لغة فرنسية مشرقة جذابة . وسخر موليير من « السيدات العالمات » اللاتى تبادلن أنباء الدوامات فى الصالونات ، « ولكنهن لم يطقن الفراغ » وكان الجزويت حتى تلك اللحظة متسامحين مع تلميذهم النجيب ، وكانوا قد أسكتوا واحدا من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت[١٠٩] . ولكنهم بعد ١٦٤٠ ، لم يعودوا يظلونه بحمايتهم . وكان لهم فى ١٦٦٣ ضلع فى ادراج مؤلفاته فى قائمة الكتب المحظورة . ورحب بوسويه وفنلون ببراهين ديكارت على المبادىء الأساسية فى المسيحية ، ولكنهم رأوا فى تأسيسها على العقل خطرا على العقيدة ، واستنكر بسكال الاعتماد على العقل ، على اعتبار أن هذا العقل ريشة فى مهب الريح .

ولكن اعتماد ديكارت على العقل ، هو الذى ، على وجه الدقة ، أيقظ ذهن أوربا ، وأوجز فونتنل الأمر بقوله « أن ديكارت . . . هو الذى أمدنا بطريقة حديدة للتفكير . تدعو إلى الأعجاب أكثر مما تدعوا فلسفته ذاتها ، تلك التى يعتورها قدر كبير من الزيف والشك ، وفقا للقواعد التى علمنا أياها هو نفسه[١١٠] » . إن شك ديكارت أدى لفرنسا — أو للقارة بصفة عامة — ما أداه بيكون لانجلترا : — أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر فى جرأة وشجاعة فى بحر مكشوف ، حتى ولو أنها مالبثت أن عادت ، عند ديكارت نفسه إلى شاطىء الأمان المألوف . ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فورى للعقل ، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة فى أزهى عصور فرنسا ، وهو « القرن العظيم » أى عصر لويس الرابع عشر ، أنها كانت حقبة بورت رويال وبسكال وبوسويه ، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت . أما تلك الحقبة نفسها فى هولنده فهى عصر سبينوزا وبيلى ، وفى انجلترا عصر هوبز ولوك . أن الزرع كان يخرج شطأه .

وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن فى فرنسا . إن

أسلوبه كان ابتداعا منعشا . وهنا كانت الفلسفة بلغة قومية فى متناول الجميع بشكل خطير ، وقلما يتحدث فيلسوف بمثل هذه الألفة الساحرة وهو يعدد مغامرات العقل وتجاربه المثيرة بمثل السلاسة والحيوية التى يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية ومآثرها . ولم يكن كتاب « مقال فى المنهج » مجرد رائعة من روائع النثر الفرنسى . بل أنه كذلك ضرب ، للعصر الزاهر فى فرنسا ، مثلا ، فى لغته وأفكاره ، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال فى الآداب والفنون والسلوك والحديث . وتلاءم توكيده على الأفكار الواضحة الجلية مع الذهن الفرنسى ، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقد الفرنسى بوالو :

« أحب العقل إذن ، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده[111] » .

وباتت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التى تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعر الفرنسى بعض الشىء من ديكارت ، فإن مزاجه وآلياته (ميكانيكيه) لم يتركا للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق . إن فوضى رابليه المهتاجة واستطراد مونتينى الذى لا ضابط له ، بل حتى الاضطرابات العنيفة فى الحروب الدينية ، أن هذه كلها أفسحت المجال ، بعد ديكارت، لمناقشات كورنى العقلانية، ولوحدات راسين العارمة ، ولتقوى بوسويه المنطقية ، ولقانون الملكية والبلاط ونظامهما وشكلهما وسلوكهما فى عهد لويس الرابع عشر . وأسهم ديكارت ، عن غير قصد منه فى ابتداع طراز جديد فى الحياة الفرنسية ، كما فعل فى الفلسفة سواء بسواء .

وربما كان أثره فى الفلسفة أعظم من أثر أى مفكر آخر قبل كانت . لقد استق مالبرانش منه ، وتتلمذ سبينوزا على منطق ديكارت ، واكتشف نقاط الضعف فيه عند شرحه . وقلد « المناقشات » فى نبذة عن سيرة حياته بعنوان « تحسين التفاهم » ، وتبنى المثل الأعلى الهندسى فى كتابه « الأخلاق » ، وبنى بحثه فى « استرقاق الإنسان » على بحث ديكارت « رسالة فى انفعالات النفس » .

وبدأت تقاليد المثالية فى الفلسفة الحديثة ، من بركلى إلى نخت، بتوكيد ديكارت على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر ، مثلما انحدرت تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبنسر . ولكن ديكارت قدم للمثالية ترياقا — مفهوم كون موضوعى ميكانيكى تماماً — فإن محاولته لفهم العمليات العضوية وغير العضوية ، سواء بسواء ، على أساس ميكانيكى، هيأت للبيولوجيا وللفسيولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية . وتحليله الميكانيكى للاحساس والخيال والذاكرة والإرادة ، أصبح معيناً لا ينضب لعلم النفس الحديث . وبعد أن دعم القرن السابع عشر فى فرنسا العقيدة القويمة بديكارت ، وجدت استثارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة فى شكه المنهجى ، وفى اعتماده على العقل، وفى تفسيره لكل حياة الحيوان على نفس أسس الفيزياء والكيمياء[١١٢]. إن اعتداد الفرنسى — المغترب بنفسه اعتداداً لم يتزعزع قط ، كان يبرره أثره المتزايد على الذهن الفرنسى .

إن « المناظرة الكبرى » بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلا واعياً . ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط . إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام التسعين من ١٥٥٨ - ١٦٤٨ ، من اليزابث إلى ريشليو ، ومن شكسبير إلى ديكارت ، لأدركنا أن كل القضايا المستحوذة على الأذهان لاتزال محصورة فى المسيحية، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على انجيل قبله الجميع على أنه « كلمة الله » وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن أن توضع موضع الاختبار، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق للطبيعة .

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مسيطرة فى أسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والكآبة . أما فى إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية ، وأضفت بالفن على الحياة شيئاً من الجمال، وزينت الأخلاقيات بالأمل، ولم تضمن فرنسا حلا وسطاً، وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب ، كاثوليك أو هيجونوت ، على

حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح فى الشلك ، مرجئة التقى والورع إلى دنو الأجل المحتوم . وقامت فى الأراضى الوطيئة تسوية جغرافية ، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكثلكة ، وانتصرت الكلفنية فى الشمال . وأنقذ البروتستانتية فى ألمانيا كاردينال فرنسى ، وثبتت بافاريا والنمسا على ولائهما القديم ، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا ، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمى فى اسكندناوة ، ولكن ملكة السويد آثرت طقوس رومة ، واقترحت النزابث فى إنجلترا اتحادا كريما بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية ، ولكن البروتستانتية الإنجليزية التى تفرقت شيعا أبرزت حيويتها وغامرت بحياتها .

وفى غمرة تناحر الجيوش والمذاهب ، كانت « دولية العلوم » تكافح للاقلال من الخرافة والخوف . كانت تخترع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر ، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشرى ، وتصلح التقويم ، وتبتدع الهندسة التحليلية ، وكانت تحلم ، لفورها ، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية . وكان تيكوبراهى قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التى مكنت لكبلر من صياغة قوانين حركة الكواكب ، التى أنارت الطريق أمام نيوتن ليبصر بقانون كونى عام واحد . وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع ، بمناظيره المقربة التى كان يعمل على تحسينها وتكبيرها باستمرار ، وفى قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ فى قالب مسرحى . وفى مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الاعدام حرقا حتى الموت ، فى محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس تلتئم مع أفكار كوبرنيكس ، كما أن فرانسيس بيكون الذى يدعو ذوى العقول المفكرة إلى العلم ، كان يخطط مهام

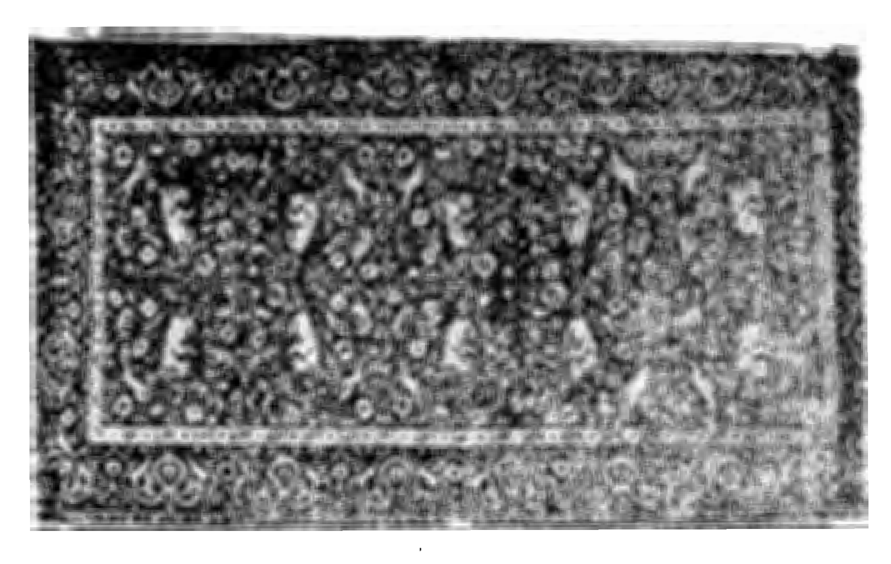
العلوم ومسئولياتها لعـــدة قرون مقبلة ، أما ديكارت ، بشكله العام الشامل ، فقد ألقى على عصر العقل عبئا جديدا . وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعا لتقلبات العقيدة . وتأثر الأدب نفسه بالصراع ، وكان لآراء الفلاسفة صداها فى شعر مارلو وشكسبير ودون . وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذى أهاج ذهن أوربا وحوله ، بل ربما ذهن العالم بأسره .



فرانس هالسن — متحف اللوفر بباريس (ص ٨٠)



أنتونى فانديك ـ متحف ميونخ (ص ٦١)



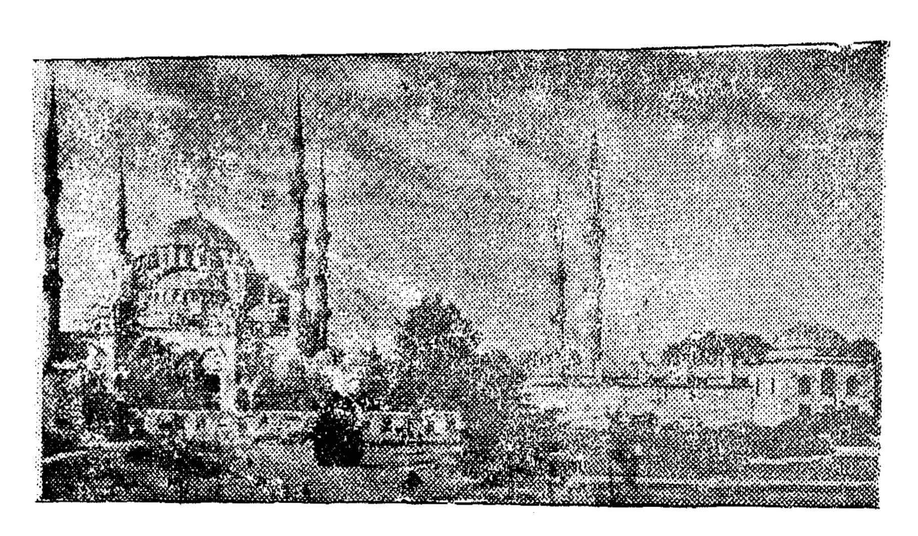
سجادة عجمى ـ متحف المتروبلتان بنيويورك (ص ١٦٤)



استيفن باثوری ملك هولنـدا (ص ١١٦)



شاعر يجلس فى الحديقة بأصفهان (ص ١٦٠)



جامع السلطان أحمد بالقسطنطينية (ص ١٣٩)



الشـاه عبـاس الأكبر (ص ١٤٨)



جاليليو ـ متحف الفن بفلورنس (ص ٢٦٤)



مدخل ميـدان مسجد الشاه بأصفهان (ص ١٥٢)

المراجع

CHAPTER XVII

1. Geyl, *Revolt of the Netherlands*, 16
2. Sombart, *The Jews and Modern Capitalism*, 65; Sèe, *Modern Capitalism*, 31.
3. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, I, 217; Janssen, *History of the German People* VIII, 13.
4. Motley, I, 217.
5. Janssen, VIII, 14f,
6. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxvi, in *Works*, XIVb.
7. Motley, I, 207.
8. Ibid., 206.
9. Blok, *History of the People of the Netherlamds*, III, 11; Motley, I, 375f.
10. Ibid., 283.
11. Geyl, 78.
12. Ibid., 86.
13. Janssen, VIII, 19.
14. *Cambridge Modern History*, III, 200.
15. Acton' *Lectures*, 144.
16. Motley, I, 453-4.
17. Ibtd., 465-8.
18. *Camb. Mod. History*, III, 207-8,
19. Motley, I, 478f.
20. Janssen, VIII, 23.
21. Motley. I, 526.
22. Janssen, VIII, 25.
23. Prescott, *Philip II*, **II, 161.**
24. Blok, III, 42,
25. Pastor, *History of the Papes*, XVIII, 97.
26. Blok, III, 51.
27. Pastor, XVIII, 101.
28. Motley. I, 628; Janssen, VIII, 123.
29. *Camb. Mod. History*, III, 232.
30. Motley, II, 72-4.
31. Geyl, 128; Lacroix, *Military and Religious Life in the Middle Ages*, 440.
32. Motley, II, 40.
33. Ibid., 101.
34. Voltaire, *Esssai*, ch. cxxxvi; *Works*, p. 294; Hume, *M.*, *The Spanish People*, 372.
35, Pastor, *Popes*, XX, 3.
36. Motley, II, 151.
37. Ibid., 169.
38. 515.
39. Geyl, 165.
40. Ibid,, 130.
41. 128.
42. *Camb. Mod. History*, III, 250.
43. Blok, III, 121-3.
44. Geyl. 162; Pastor, XX, 9.
45. Motley, II, 646.
46. Robinson. J. H., *Readings in Europeam History*, 325; Motley, II, 637.
47. Figgis, *From Gerson to Grotius*, 228.

48. *Camb. Mod. History*, III, 258.
49. Blozo. III, 179.
50. Ibid., 239.
51. Geyl, 206, 215, 231; Ranke *History of the Popes*, II, 221.
52. Blok, III, 415.
53, *Camb Mod History*, III, 646.
54. Blok, III 413,

CHAPTER XVIII

1. Robinson, *Readings*, 556.
2. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 331.
3. Vienna.
4. Prado.
5. Brussels, Vienna, Louvre.
6. Brussels.
7. Rooses. *Rubens*, I, 9.
8. Pitti Gallery, Florence.
9. Uffizi Gallery, Florence.
10. Grenoble Museum.
11. Rooses, I, 638
12. Burckhardt, *Recollections of Rubens*, 21.
13. Janssen, XI, 161.
14. Dresden.
15. Knackfuss, H., *Van Dyck*, 4.
16. Munich.
17. Lichtenstein Collection, Vienna.
18. Vienna.
19. Geneva.
20. Munich.
21, London.
22. Pitti Gallery.
23. Dresden.
24. Louvre.
25. Vienna.
26. Madrid.
27. Vienna, Madrid.
28. London.
29. Craven, *Treasury af Art Masterpieces*, 105.
30. Antwerp.
31. Fülop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 422.
32. Munich.
33. Hartford, Conn.
34. Antwperp
35. Antwerp cathedral and Brussels Museum.
36. Vienna.
37. Vienna.
38. Sarasota, Fla.
39. Rooses, *Rubens*, I, 395.
40. Ibid., 417.
41. Pitti Gallery.
42. Boston.
43. Rooses, I, 414.
44. Munich.
45. Munich.
46. Hamburg.
47. Vienna.
48. Munich.
49. Munich.
50. Louvre.
51. Brussels.
52. The Hague
53. Frick Collection, New York.
54. Windsor Castle.
55. Burckhardt, *Recollection*, 15.
56. Rooses, I, 600.
57. Louvre.

58. Vienna.
59. Knackfuss, 8.
60. Munich.
61. Frick Collection.
62. Brussels.
63. Detroit.
64. Munnich.
65. Vienna.
66 Antwerp.
67. Knackfuss, 9
68. Pitti Gallery.
69. Wallace Collection, London.
70. Lovure.
71, Vienna.
72. Vienna.
73. Lichtenstein Gallery, Vienna.
74 Knackfuss. 76.
75 New York.
76. Ibid.
77. Frick Collection, New York.
78. Fitzwilliam Collection.
79 Dresden.
80. Munnich.
81, Uffizi Gallery.
82. Blok, III, 333, Mousnier, 160.
83. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 5.
84. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 107.
85. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 123.
86. Gooch, *Democratic Ideas*, 45.
87. Geyl 211.
88. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 412.
89 Geyl, 238; Blok, III, 354.
90. Fischer. K., *Descartes and His School.* 212.
91. Taine, H., *Lectures on Art*, 322.
92. *En Br.*, X, 498d.
93. In Taine, *Lectures.* 183.
94. Day, Clive, *History of Commerce*, 200
95. Sée, *Modern Capitalism*, 32.
96. Wilenski, R H., *Dutch Painting*, 132
97. Baedeker, K., *Belgique et Hollande*, 383
98. Chute, *Ben Jonson*, 301.
99. Geyl, 206.
100 Honey, W.B , *European Ceramic Art*, 31.
101. Wilenski, *Dutch Painting*,10.
102. Taine, *Lectures*, 333
103. Hauser, *Social History of Art*, I, 467.
104 Davies, G,S., *Frans Hals*, 19.
105. Amsterdam.
106. Haarlem.
107. Lord Northbrooke Collection.
108. Wallace Collection.
109. Devonshire House.
110. Haarlem.
111. Haarlem.
112. Haarlem.
113. Haarlem.
114 Amsterdam.
115. Antwerp.

116. Haarlem.
117. Berlin.
118. Louvre
119 Cassel
120 Mather, F. J., *Western European Painting of the Renaissance*, 461.
121 Chicago.
122 Berlin.
123. New York.
124 The Hague
125 Michel, E., *Rembrandt*, I, 63
126 Amsterdam
127 The Hague
128 The Hague
129 The Hague
130. Duke of Devonshire Collection.
131. Rothschild Collection.
132. Leningrad.
133 Louvre
134. New York.
135 Brussels.
136 Amstredam.
137. Michel, *Rembrandt*, II, 214.
138. Edinburgh
139. Louvre.
140 Louvre.
141. London
142. Berlin
143. Cassel.
144 Berlin.
145 New York.
146 Washington.
147. Leningrad.
148. London.
149. Glasgow.
150. Cassel.
151. Still with the Six family in Amsterdam.
152 Berlin
153 Frick Collection.
154 Wallace Collection
155. Beard, Miriam [illegible] *of the Business* [illegible] 16.
156 Marcus Kappel Collection, Berlin
157 New York
158 Louvre,
159. Amsterdam.
160. Leningrad.
161. Amsterdam.
162. Froment in Wilenski, *Dutch Paining*, 93.
163. Self-portrait in the Louvre.
164. New York.
165. I de Bruyn Collection.
166. Rathenau Collection.
167. In Michel, *Rembrandt*, I, 259.
168. Wilenski, *Dutch Painting*, 93.
169. Ibid.
170. Meier-Graefe, *Spanish Journey*, 313.

CHAPTER XIX

1 Gaae, *Tycho Brabe*, 150.
3. Verner, *Copenhagen*, 3.
3. Ranke, *Popes*, II, 150

4 Fletcher, C R., *Custavus Adolphus*, 15.
5. Bain, F W., *Christina, Queen of Sweden*, 8.
6. Fletcher, 43.
7. *Camb Mod History*, IV, 187.
8. Wedgwood, C. V., *Thirty Year's War*, 273.
9. Fletcher, 27.
10. Bain, 28.
11. Ibid., 10.
12. 42.
13. 162
14. 96
15. 97.
16. 95
17. 166.
18. Pascal, *Provincial Letters*, introduction, 25.
19. Ranke, *Popes*, II, 355.
20. Ortega y Gasser, *Toward a Philosophy of History*, 18.
21. Horn, F. W., *Literature of the Scandinavian North*' 332,
22. Cf. Ranke' *Popes*, II. 353.
23. Bain, 358-61.
24. Ranke, II, 359; Bain, 180.
25. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
26. Gustafson in Bain, xvi.
27. Bain, 360.
28. Ogg, 446.
29. Bain, 224.
30. Ibid., 229.
31. Lewinski - Corwin, *Political History of Poland*, 216-18; *Cambridge History of Poland*, I, 566.
32. Lednicki, W , *Life and Culture of Poland*, 125-6
33. Ibid., 94.
34. *Camb. History of Poland*, I, 413; Robertson, J. M., *Hitory of Freethought*, I, 426.
35. Lednicki, 102n.
36. Robertson, *Freethought*, II, 37
37 *Camb History* of *Poland*, I, 403-5, 410-11
38. Rnake, II, 161
39. Pokrovsky, M., *History of Russia* 154.
40. Florinsky, M., *Russia: a History and an Interpretation*, 1. 213,
41. Kluchevsky, V., *History of Russia*, II, ch. xiii; III, 21; Florinsky, I, 217
42 Vernadsky, G , *History of Russia*, 65
43. Réau, L , *L' Art russe*, I, 285.
44. Ranke, II, 155.
45. Florinsky, I, 226.
46. E.g., Pokrovsky, 169-70.
47. Ibid., 177; Kluchevsky. III, 20; Florinsky, I, 223.
48. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 320.
49. *Camb. Mod. History*, V, 496.

50. Florinsky, I, 227; Pokrovsky 182.
51. Kluchevsky, III, 31.
52. Rambaud, I, 341

CHAPTER XX

1. Tavernier, *Six Voyages*, ii, 7.
2. Brockelmann, C., *History of the Islamic Peoples*, 316.
3 Pepys, *Diary*, Nov 9, 1663.
4. Arnold, T., *The Preaching of Islam*, in Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 165.
5. Finlay, G , *History of Greece*, V, 29, in Toynbee, ibid , 164.
6. Tavernier, 1, i,
7. Michelet, *History de France*, IV, 444.
8. Brantôme *Lives of Gallant Ladies*, 135; Landau, R., *Invitation to Morocco*, 64.
9. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
10. Ibid., 236.
11. Dimand, M. S., *Guide to Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 4.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 93-5
13 Pastor, *Popes*, XVIII, 419.
14. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxi, in *Works*, XIBb, 270.
15. Preface to Part II of *Don Quixote*.
16 Motley, *Rise of the Dutch Republic*, II, 338.
17. Pastor, XVIII, 422
18. Ibid., 427.
19 436.
20. Lane-Poole, S.,*Story of Turkey*, 218.
21. *En. Br.*, XV, 969a.
22. Teixeira, p., *Travels*, 62-6.
23. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, II, 1406.
24. Tavernier, *Six Voyages*, iv, 5.
25. Ibid.
26 Michelet, *Histoire de France*, V, 130.
27. *En. Br.*, XII, 705. The account follows the eloquent description in Arthur Upham Pope, *Survey of Persian Art*, II, 1185, and the notes of my visit to Isfahan in 1948.
28. Tavernier, v, 2.
29. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, IV, 111.
30. Chardin, John, *Travels in Persia*, 134-6.
31. Ibid., 183, 167.
32. Teixeira, 114, 117.
33. Chardin, 143.
34 Ibid.
35 146.
36. 279.
37. Tavernier, v, 14.

38. Arnold, Thomas, *Painting in Islam*, 89.
39. Chardin, 120.
40. Teixeira, 62.
41. Chardin, 187; Tavernier, v, 14.
42. Chardin, 191. 189.
43. Browne, E. G., *Literary History*, IV. 247.
44. Ibid., 287.
45. *En Br.*, XII, 705b
46. Sir Bernard Eckstein Collection.
47. Boston
48. Pope, *Survey*, I. 7n
49. Gulbenkian Collection. Pope, *Survey*, V, 978
50. Boston.
51. Pope, *Survey*, V, 549
52. Pope, *A*. U., *Introduction to Persian Art*, 162.
53. Chardin, *Travels*. 273
54. New York.
55. In Pope, *Catalogue*, 17
56, Pope, *Introduction*, 220.

CHAPYER XXI

1. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 29
2. Ibid., 67-72.
3. 130.
4. 94.
5. *Camb. Mod History*, III, 719.
6. Tawney. R. H., *Religion and the Rise of Captialism*, 122-4.
7, Janssen, *History of the Germvn People*. VIII, 297-9.
8. Robertson, J.M., *Freethought*, I, 420.
9. Campbell, *The Jesuits*, 69.
10. Lutzow, Count von. *Bohemia*, 217.
11. *A*cton, *Lectures*, 182.
12 Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 136.
13, Janssen, XV, 32, 44
14. Ibid , 29-31.
15. Thompson, J W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 429; Rickard *Man and Metals*, II. 565.
16. Janssen, 148.
17. Ibid., 110.
18. 125
19 Marx Karl, *Capital*, I, 467.
20. Janssen, XIII, 147
21. Ibid., 307.
22. 301.
23. 300.
24. Id., XII, 183.
25. X, 279.
26. XII, 96.
27. XI, 363
28. Pastor in Janssen, XVI, 130.
29 Janssen, X, 277-8.
30. Wedgwood, *Thirty Years War*, 46.
31. Janssen. XV, 421

32. Putnam, G. H., *The Censorship of the Church of Rome,* I, 51.
33. Janssen, X, 11.
34. Ibid., 23, 45.
35. Id., XIII, 363f.
36. XIV, 12-14.
37. Wilenski, *Dutch Painting*, 61.
38. Vienna.
39. *Camb. Mod. History*, III, 153.
40. Schaff, *The German Reformation*, I, 64.
41 Janssen, X, 287f.
42 Ibid., 303-7.
43. 262.
44 258
45. 257.
46 256.
47. Inge, W. R., *Christian Mysticism*, 277.
48 Ibid., 278.
49. Fulop-Miller, *Jesuites*, 346.
50. Janssen, X, 214.
51. Ibid., 103, 110.
52. 165.
53. 32.
54. 30
55. 24
56. 334-41.
57 345,
58. 386-90.
59. 215.
60. 219.
61. 589.
62. 594.
63. Wedgwood, 81.
64. Nosek, V., *Spirit of Bohemia*, 99f.
65 Michelet, IV, 389n.
66. Wedgwood, 171.
67. Ibid., 255.
68. Fletcher, *Gustavus, Adolphus*, 300.
69. Robinson, *Readings*, 345.
70. Fletcher. 283.
71. Guizot, *History*, IV, 160.
72. Wedg Wood, 353.
73. Ibid., 360.
74. 450.
75. 207, 256-7, 410
76. 475.
77. 516; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
78. Lutzow, 311; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
79. Ibid., 417.,
80. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 294.
81 Jordan, G. J., *The Reunion of Churches*, 15.
82. Wedgwood, 412. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 168.
83. Wedgwood, 413.
84 Ibid., 229.
85. *Camb Mod History*, IV, 688

CHAPTER XXII

1. Thorndike, L., *Hisory of Magic and Experimental Science*, VI, 160-5, 221, 239-40,

295; IV, 247; Garrison, F., *History of Medicine*, 37.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 18.
3. Smith, P., *History of Modern Culture*, I, 428.
4. Berry, A., *Short History of Astronomy*, 195.
5. Jackson, C., *Old Paris*, 25.
7. Smith, P., *Modern Culture*, I, 427.
7. Janssen, XII, 346.
8. Ibid., 329.
9. Los Angeles *Times*, July 2, 1958.
10. Janssen, XVI, 372-6, 495; XII, 325, 351
11. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 243-4.
12. Vacandard, E., *The Inquisitio*, 199.
13. Singer, Chas., *Studies in the History of Science*, I, 213.
14. Lea, IV, 235,
15. Michelet, IV, 183-6.
16. Janssen. XI, 388.
17. Id., XVI, 398, 478.
18. Lea, *History of the Inquisition of the Middle Ages*, III, 549.
19. Janssen, XVI, 416.
20. *Camb. Mod. History*, V, 758 (not 9,000, as in IV, 423).
21. Janssen, XVI, 512, 424.
22. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 246; cf. Janssen, XVI, 506.
23. Montaigne, *Essays*, III, xi, 285.
24. Ibid , 286.
25. Smith, *Culture*, I, 453.
26. Ibid.. 454; Dampiei, *History of Scince*, 157.
27. Janssen, XVI, 390.
28. Janssen, XI, 379.
29. Evelyn, *Diary*, I, 139..
30. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 237-69.
31. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 531.
32. Hallam, *Literature*, II, 44,
33. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 855.
34. Putnam, G. H., *Books and Their Makers*, II, 96.
35. Masson, David, *Life of John Milton*, IV, 164.
36. Nosek, *Spirit of Bohemia*, 110.
37. Paulsen, F., *German Eduation*, 136.
38. Janssen, XIII, 277,
39, Galileo, *Discoveries and Opinions*, ed. Stillman Drake, 77.
40. Singer, *Studies*, 407.
41. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 47; Singer, *Studies*, 412f.
42. Bell, E T., *Men of Mathematics*, 55,
43. Butterfield. *Origins of Modern Science*, 67,

44. Galileo, *Il saggiatore*, in *Discoveries and Opinions*, 237.
45. Cooper, Lane, *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 14; Dampier, 143.
46. Janssen, XV, 281,
47. Wolf, 327.
48. Mumford, L., *Technics and Civilizaiion*, 440.
49. Wolf, 544-5; Usher, A. P. *Histroy of Mechanical Invetions*, 303.
50. Descartes, *Principia philosophiae* Part IV, in Wolf, 351.
51. *En Br.*, I, 689d.
52. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, Dedication. p. 3
53. Michel, *Rembrant*, I, 123.
54. Mumford, L., The *Condition of Man*, 213.
55. Janssen, XIV, 69.
56. Ibid., 83,
57. 80.
58. Castiglioni, *History of Medicine*, 561.
59. Garrison, 307.
60. Janssen, XIV, 81.
61. Montaigne, *Essays*, tr. E. J. Trechmann, II, 222, quoted in Craig, Hardin, *The Enchanted Glass*, 44.
62. Garrison, 291-2.
63. Ibid., 226.
64. Descarrtes, *Discours de la méthode*, Part VI, p. 62, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 18.
65. Montaigne, *Essays*, III,x, 262.
66. Putnam, *Censorship*, I, 128-9; Belloc, H., *How the Reformation Happened*, 281; Fülop-Miller, *Jesuits*, 399; Smith, P., *Culture*, I, 43,
67. Camqanclla, Letter to Galileo, Jan. 12, 1611, in Smith, *Culture* I, 45.
68. Buckle, I, 101, Thorndike, VI, 42.
69. Gade, *Tycho Brahe*, 35.
70. Ibide., 187.
71. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 346.
72. Whewell, *History of the Inductive Sciences*, I. 290-3.
73. Hogben, *Science of the Citizen*, 207; Kesten, 353.
74. Dampier, 139.
75. Berry, 194.
76. In Inge, *Christian Mysticism*, 298.
77. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, 105 (end of First Day).
78. Aristotle *De coelo*, 4.2. 309, in Cooper, L., *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 64.
79. Lucretius, *De rerum natura*, II, 230-1.
80. Leonardo da Vinci, *Codex*

Atlanticus, fol. 123ra, in Cooper, 69.

81. In Cooper, 47.
82. Viviani in Cooper, 26.
83. Ibid,, 29-31.
84. Galileo, *Two Chief World Systems*, 147.
85. Galileo,*Dialogues concerning Tow New Sciences*, 103.
86. Galileo, *Il saggiatore*, in *Discoveries and Opinions*,274.
87. Ibid., 276-7.
88. Kesten, 348.
89. In Singer, *Studies*, 228.
90. Letter of Jan. 30, 1610, in Singer, 232.
91. Walsh, J. J. *The Popes and Science*, 393; Wolf, 29.
92. In Singer, 251.
93. Kesten, 396.
94. In Smith, *Culture*, I, 53.
95. Singer, 240.
96. Fülop-Miller, *Jesuits*, 397.
97. Singer, 240.
98. Fülop-Miller, 398.
99. Ibid.
100. Ibid.
101. Kesten, 371.
102. Galileo, *Discoveries and Opinions*, 177.
103. Ibid., 180.
104. 183.
105. Drake in Galileo, *Discoveries and Opinions*, 217.
106. Singer, 252.
107. Kesten, 375.
108. Wolf, 36.
109. Kesten, 379; Singer, 258.
110. Golileo, *Two Chief World Systems*, 5.
111. Ibid., 460.
112. Kesten, 388.
113. Singer, 269.
114. *En. Br.*, IX, 98ob.
115. Ibid., Wolf, 37.
116. Viviani in Singer, 279.
117. Kesten, 93.
118. Ibid., 395.

CHAPTER XXIII

1. Janssen, XVI, 132-4.
2. Robertson, *Freethought*, 483.
3. Ibid., 484.
4. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 203.
5. Ibid., 201.
6. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 676.
7. Ibid., 578-9.
8. Ibid.
9. 584.
10. 580.
11. Charron, Pierre, *Of Wisdom*, I, 61, 74, 79-80.
12. Owen, 598.
13. Cf. Charron, in Pascal, *Pensées*, ed. Havet, introd. xii.
14. Bury, *Freedom of Thought*, 75.
15. Owen, 570.
16. Singer., D. W., *Giordano Bruno*, 22.

17. Ibid., 24.
18. Owen, 274.
19. Bruno, *La cena de le ceneri*, Dialogue IV, in Singer, D. W., 33
20. In Owen, 274
21. Singer, *Bruno*, 137.
22. Ibid., 35.
23. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 53-4.
24. Owen, 125.
25. Singer, *Bruno*, 146.
26. In Owen, 294.
27. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 41.
28. Bruno, Dedication to *De la causa, prèncipio et uno*, in Singer, *Bruno*, 103.
29. Thorndike, *Magic and Experimental Science*, IV. 425-7.
30. Owen, 290-3,
31. Singer *Bruno*, 161.
32. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 62.
33. Kesten, 323.
34. Singer, *Bruno*, 166.
35. Ibid., 172.
36. 179.
37. Owen, 390.
38. Ibid., 399.
39. 400.
40. Symonds, 128; Kesten, 328.
41. Tr. J. A. Symonds in Van Doren, *Anthology*, 599.
42. Campanella *City of the Sun*, in *Ideal Commonwealths*, 147.
43 Ibid., 157.
44 164.
45 168
46 Murray, R. H., *Erasmus and Luther*, 443.
47. Ranke, *Popes*, II, 13.
48 Carlyle, R. W., *Medieval Political Theory*, VI, 341.
49. Campbell, *The Jesuits*, 379.
50. Mariana, *The King and The Education of the King*, i, 2.
51. Ibid., i, 10.
52. Ibid., Preface, p. 108.
53. Ibid., iii, 15.
54. In Laski, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 85.
55. Mariana, *The King*, i, 1.
56. Ibid., iii, 2.
57. i, 6, pp. 144-9.
58. Ibid.
59. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, 11.
60. Allen, *Political Thought*, 395.
61 Bodin, *De republica*, i, 4, in Allen, 408-9.
62. Ibid., 410.
63. Bodin, *De republica*, i, 6.
64. Ibid., i, 9.
65. Ibid., vi, 4, in Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 107.
66. Ibid., in Allen, *Political Thought*, 436.

67. In Allen, 406.
68. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, in Allen, 399.
69. Allen, 400-1.
70. Blok, III, 463
71. Grotius, Prolegomena, in Dunning, 161.
72. Grotius, *Rights of War and Peace*, I, i, 10. p. 21.
73. Ibid., I, ii, 1,
74. II, xxii,
75. I, xvii,
76. II, xxvi.
77. Lange, F, E,, *History of Materialism*, I, 266,
78. France, A., *Elm Tree on the Mall*, 13,
79. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 558,
80. Ficher, K., *Descartes*, 194f.
81. *Discours*, Part III, in Descartes, *Selections*, 27.
82. Ibid., p. 38,
83. Faguet, *Dix-septiéme siècle*, 6-7.
84. Desçartes, *Principia philosophiae*, I, 71, in *Meditations and Principles of Philosophy*, 168
85. *Discours*, Part II, in *Selections*, 12.
86. Descartes, *Meditations*, II, in *Sèlections*, 96,
87. *Discours*, Part IV, and *Meditations*, II, in *Selections*, 29, 99,
88. St, Augustine, *De Trinitate*, x, 10,
89. *Meditations*, II, in *Selections*, 106.
90 "Rules for the Direction of Mind," VIII, in *Selections*,69.
91. *Meditations*, III, in *Selections*, 125.
92 Ibid,, 154.
93. Ibid., 89.
94. *Principia philosophiae*, I, xxxix.
95. *Meditations*, IV, in *Sèlections*, 127.
96 *Discours*, IV,in *Selèction* 30.
97. *En. Br.*, VII, 249d.
98. Ibid.
99. Lévy-Bruhl. *History of Modèrn Phlosophy in France*, 29.
100. *Discours*, in Vartanian, *Diderot and Dèscartes*, 16,
101. Fischer, *Descartès*, 406.
102. In Smith, *Culture*, I, 194.
103. Smith, D. E., ed., *Isaac Newton*, 18.
104. Fischer, 229.
105. Garrison, *History of Medicine*, 258.
106. *Selections*, 222-47.
107. Aubrey, *Brief Lives*, 95.
108. Fischer, 231.
109. Fülop-Miller, *Jesuits*, 124.
110. Fontenelle, *Digression sur lès anciens et les modèrnes*, in Fellows and Torrey, *Age of the Enlightement*, 57.
111. Lévy-Bruhl, 33.
112. Vartanian, *Diderot and Descartès*, 205 and *passim*.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفية من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى.واستمتعناأيما استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم.لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمان بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاظم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

